

التفكير التأملي

تأليف:

جولدن هلفش

فيليب سميث

ترجمة:

السيد محمد العزاوي

د/ إبراهيم خليل شهاب

مراجعة:

محمد سليمان شعلان

التفكير والتأمل

" طريقة التربية والتعليم "

تأليف
جوردن هلفش و فيليب سميث

ترجمة
السيد محمد العزاوي و الدكتور إبراهيم خليل شهاب
مدير مكتب الترجمة
بالمكتب الفني لنائب رئيس الجمهورية
الاستاذ المساعد بكلية المعلمين

مراجعة وتقديم
محمد سليمان شعلان
مدير مكتب الخدمات الثقافية
برئاسة الجمهورية

دار النفائس للطباعة
والنشر والتوزيع

عمارة ٣ ب مدينة إعضاء هيئة التدريس - جامعة القاهرة

موبيل : ٠١٠٠٣٠٤٤٧١٥ - ٠١١٤٠٥٩٠٢٨٥

Mostafakhattab55@yahoo.com

محتويات الكتاب

صفحة	
١	تقديم
٩	مقدمة المحرر
١١	تمهيد
١٥	القسم الأول — المقدمة
١٨	الفصل الأول : التفكير القضية التربوية الحساسة
٣٤	الفصل الثاني : المشكلة كما تبدو بأبعادها
٤٧	القسم الثاني — تحليل للتفكير
٥٠	الفصل الثالث : التأمل كتفكير منضبط
٦٧	الفصل الرابع : الاعتقاد رغبة في العمل
٨١	الفصل الخامس : الاعتقادات المدعمة « ذات الأسانيد » الوظيفية التركيبية
٩٦	الفصل السادس : الاعتقادات المدعمة « ذات الأسانيد » الوظيفية التحليلية
١٠٧	الفصل السابع : الاعتقادات المدعمة « ذات الأسانيد » الحكم على القيم
١٢١	القسم الثالث — أدوات التفكير والتعليم
١٢٤	الفصل الثامن : الاستدلال والمغالطة
١٥٤	الفصل التاسع : المعنى واللغة
١٧١	الفصل العاشر : المفهوم والاستجابة إليه
١٩٢	الفصل الحادى عشر : نظرية التعلم مقدمة للمعلمين

- القسم الرابع - التفكير التأملى كهدف وطريقة . . . ٢١٧
- الفصل الثانى عشر : حجرة الدراسة كاستمرار للتفكير التأملى . . . ٢٢٠
- الفصل الثالث عشر : كل حجرة دراسية قد تكون مجالاً للتفكير التأملى ٢٣٨
- الفصل الرابع عشر : القيادة التربوية والعملية التأملية . . . ٢٥٧
- الفصل الخامس عشر : الالتزام بهذه الفاسفة من قبل من - ولماذا ؟ ٢٧٦

تقديم

بقلم الأستاذ محمد سليمان شعرون

إذا صح ما قيل قديماً من أن الكتاب يقرأ من عنوانه فإن هذا الكتاب يعد من أكثر الكتب تحقياً لهذا القول إلى أبعد مدى ؛ وقد أثر مؤلفاه اصطلاح « التفكير التأملى » — على قلة شيوعه — على « التفكير الهادف لحل المشكلات » — على شيوع استعماله في دوائر علماء التربية — لأن هذا الأخير — في نظرها — « أكثر ضيقاً وتضييقاً » . وقد دلل الكتاب بفصوله الخمسة عشر على أن هذا الاختيار موفق تماماً : لأنهما في الوقت الذى انصب فيه اهتمامهما في فصوله الخمسة عشر على العملية التربوية — بما تضم من مدرسين وطلاب ومدارس — استطاعا أن يتخطيا هذه الدوائر — على سعتها — إلى دائرة أوسع وأوسع . ولقد كان حرصهما واضحاً على المناداة بضرورة تنمية التفكير التأملى لدى الأجيال الصاعدة — والجيل العامل الآن في شتى جنبات الحياة — تنمية تكفل لحرية الفكر وحرية الاعتقاد ، والمبادرة إلى حل المشكلات التى تعترض كل عامل في ميدان عمله أن تصان وأن تزدهر في الإطار الديموقراطى السليم .

وربما كان أقيم ما فى هذا الكتاب أنه لم يكتب في أبراج عاجية — شأن كثير من الكتب التى تكتب في فلسفة التربية — وإنما لخص عصارة الخبرة العملية التى اكتسبها مؤلفاه في ميدان التدريس الفعلى ، والتى فحصاها في « خط النار » — إن صح هذا التعبير . فأولها مشهود له بأنه أستاذ عظيم في فلسفة التربية ، وثانيهما من ألع الأساتذة الشبان في فلسفة التربية الحديثة . وهما إذ يسوقان حديثهما هذا إلى العاملين بصفة عامة ، وإلى « المدرسين وطلبة كليات ومعاهد المعلمين والمهتمين اهتماماً شديداً بما تؤديه المدارس بصفة خاصة » يرجوان أن يساعدهما الكتاب على أن « يعيدوا النظر في عاداتهم العملية وطرق تفكيرهم الحالية والتزاماتهم الحاضرة ، وأن يعيدوا بناءها إذا اقتضت الضرورة . »

ونظرا لما يؤكده المؤلفان على أهمية التفكير التأملی فی الحياة العامة فقد خصصا القسم الأول من الكتاب عن التفكير بوصفه القضية التربوية الحساسة التي يجب أن تتضافر الجهود علی كسبها ، وعن المشكلة كما تبدو بأبعادها الواقعية فی المدارس . وفي ثنایا الفصل الأول من هذا القسم تحدثنا عن موقف المدارس بوصفها مؤسسات عامة أقامها الشعب لخدمة مصالحه وعن نمو هذه المدارس ، وأن هذا النمو مازال مصدرا للقلق نظرا لأن التوسع فی التعليم يتطلب زيادة عدد المدرسين ، كما أن التوسع المطرد فی المعرفة يجعل مهمة اختيار المواد الدراسية التي تدرس فی المدارس مشكلة من أعقد المشكلات الفنية ؛ كما تحدث المؤلفان عن خطورة نقل الطرق الفنية من ميدان الصناعة النامی إلى ميدان التعليم دون محاولة لتعديلها بما يخلق فی المدارس جواً تعليمياً حراً . فی ظل هذه الطرق الفنية أصبح المدرسون — أو معظم المدرسين — أسرى لعادات معينة حتى إن الكثير منهم يؤمن بضرورة إجراء التغير وإحداث الإصلاحات ، ومع ذلك لا يجازفون بالترشح عن مواقفهم التي ألفوها وعاداتهم التي اكتسبوها .

ينتقل المؤلفان بعد ذلك إلى تحليل للتفكير . والتفكير التأملی — عند المؤلفين — هو بناء خطة واعتقاد . والاعتقاد عندهما هو الرغبة فی العمل . ويبسط المؤلفان هذا التحليل فی خمسة فصول ؛ ويمهدان له بعرض مبسط لنظرية المعرفة ، ويميزان التأمل عن أنواع التفكير الأخرى بأنه تفكير منضبط يحكمه الغرض (وهو حل المشكلات) . ويتحدثان عن أنماط التفكير المختلفة لدى الناس وعن كيفية قيام التفكير بحل المشكلات .

وبعد أن يستعرض المؤلفان علاقة الاعتقاد بالرغبة فی العمل يبحثان الأسانید التي يدعم بها الاعتقاد .

وفي الفصلین الخامس والسادس يبحثان الوظيفة التركيبية للتفكير ودورها الذي تلعبه فی اللغة التي يعبر بها الإنسان عن أفكاره . ثم يبحثان الوظيفة التحليلية فيبينان طبيعتها ودورها فی دعم الاعتقادات بالأسانید ، ويبينان بشيء من الإيجاز صلة هذا بالتربية والتعليم . وفي الفصل السابع يتحدث المؤلفان عن عملية إصدار الأحكام التي ينهmk فيها كل إنسان ، ويبينان أن هذه العملية لا بد أن تنضبط وخاصة فی ميدان القيم حتى تصل إلى حياد يشبه حياد العلم من حيث هو .

وإشراك المؤلفين للمدرسين في تحليل التفكير ليس هدفه أن ينظم المدرسون نشاط الفصل إلى الخطوات أو المراحل أو الجوانب أو الوظائف التي ناقشها في هذه الفصول ، ولكن من أجل أن يكتسبوا السيطرة على مجموعة من أدوات الإدراك التي تساعد على أن يفهموا أن التفكير التأملى هو طريقة للتربية والتعليم .

ثم يكرس المؤلفان القسم الثالث من هذا الكتاب لبحث الأدوات التي يتم بها التفكير والتعليم . فيتحدثان عن الاستدلال والمغالطة والدعاية ، وعن المعنى واللغة ، وعن المفهوم والاستجابة إليه بوصفها الأدوات الأساسية للتفكير والتعليم . ويخلصان من هذا إلى نظرية للتعليم يتقدمان بها للمدرسين . وهما يبسطان هذه النظرية بإسهاب وإيضاح لانطمع أن نجدتها في أى كتاب آخر . وقد حداها إلى هذا الإسهاب أن المدرسين لم يفوزوا حتى الآن بعون جدى ، أو بإرشادات ملموسة ، سواء من علماء النفس أو من علماء التربية الذين ينتمون إلى مدارس فكرية مختلفة . والمعلم - الذى يعمل في ظروف قاسية غالبا والذى ترهقه مطالب مهنته ، محتاج إلى نظرية للتربية (تتضمن نظرية للتعليم) تساعد على الاستمرار في القيام بعملية التدريس مستخدماً فنون المهنة بطريقة تأملية أكثر وعياً . وينبغى لهذه النظرية أن تأخذ فى الاعتبار تطورات علم النفس بنفس القدر الذى تأخذه فى الاعتبار تطورات العلوم الأخرى كعلم الاجتماع وعلم الأجناس وما إلى ذلك .

ويعالج المؤلفان فى القسم الرابع من الكتاب منهجهما العلمى والتطبيقات فى اتخاذ التفكير التأملى هدفاً وطريقة للعملية التعليمية . وإذا كان من المؤلف أن نتجه إلى المدرسين وعاداتهم عندما تكون تنمية النشاط التأملى هى موضوع البحث ، فإن الفرصة الحقيقية لتنمية التفكير تنبع من حجرة الدراسة ؛ ذلك لأن حجرة الدراسة هى المكان الذى يكشف فيه المعلم عن قوته أو ضعفه ، كما أنها هى المكان الذى يبين فيه فهمه للعملية التربوية والأهداف التى يجب أن يحققها . ومع ذلك فالمعلمون يعتمدون على نوع الموقف الذى يقومون فيه بالتدريس ، كما يعتمد التلاميذ على نوع الموقف الذى يتعلمون فيه سواء بسواء . والجو المدرسى يتألف من عدة عوامل تتدرج من قيمة المجتمع إلى دور الفراش والخدم . والعامل الرئيسى الذى يربط جميع تلك العوامل المختلفة بعضها ببعض ، ويعمل على تكييفها وتهيئتها ، هو نوع القيادة الإدارية للعملية التعليمية بأسرها .

ورغم الصعوبات الأخرى التي تجد عندما تتعارض مصالح المعلمين بوصفهم أعضاء في المجتمع وأعضاء في نقابات وجمعيات مهنية مع التزاماتهم ، ومعنى هذه الالتزامات في الظروف المحلية ، فإن المؤلفين يؤمنان بأن في استطاعة المعلمين كأفراد أن يقرموا بالشئ الكثير للدفع بقدرة تلاميذهم على التفكير التأملی حتى في الظروف غير المواتية . وبما لا شك فيه أن الكثير من المعلمين سوف يشعرون بخيبة أمل كبيرة لأنهم — حتى بعد اكتسابهم للبصيرة بالتدريس في ظل النظرية المقترحة — يجدون أنفسهم عاجزين عن تطبيق ما اكتسبوه أو تعلموه . وعلى ذلك فهم يحسون دائماً أنهم غير صالحين ، وينحون باللائمة إما على أنفسهم فيسلمهم هذا إلى الشعور الدائم بالذنب ، وإما على الظروف التي يعملون فيها ، فيسلمهم هذا إلى اليأس أو الاستخفاف . ومع هذا فكل معلم — بحكم طبيعة عملية التدريس نفسها — في موقف يسمح له بإدخال قيمة تأملية على علاقاته بتلاميذه . ويصدق هذا حتى على أولئك الذين يعملون في أقصى الظروف . وربما كان أيسر سبيل لتحقيق ذلك أن يعمل المدرس على مواجهة تلاميذه بالمشكلات أو يدمجهم في خبرات لها جذورها في الحياة اليومية الجارية ، وأن يعد بهم عن المشكلات الواردة في الكتب المدرسية قدر بعد هذه المشكلات عن مجالات اهتمامهم .

ويجب أن نلاحظ أن مضمون «الحياة الحقيقية» في حجرة الدراسة لا معنى له إلا إذا ارتبط بحياة التلاميذ الحالية فيما يختص بتنمية التفكير . والأساس الذي يقوم عليه هذا الاتجاه هو أن حجرة الدراسة جزء من الحياة . وليس هناك من عقبة تعترض هذا الاتجاه أكبر من عجز المعلم نفسه عن فهم ما يتضمنه السلوك التأملی . (وإن كان المعلمون يعتقدون أن أعظم عقبة تقف في سبيل نمو تفكير التلاميذ هو عجز التلاميذ عن أن يكتسبوا المهارة في العملية التأملية) .

والواقع أن التلاميذ بعامة ليسوا مهرة مهارة كافية ، إلا أن الحقيقة الصريحة هي أن نقص مهارتهم مرتبط ارتباطاً مباشراً بوجود هذه المهارة عند المعلمين أو افتقارهم إليها .

وقد يعتبر المدرسون اقتراح جعل تنمية تفكير التلاميذ مركزاً للجهود التربوية التي يبذلونها ، يعني أن تحتل طريقة حل المشكلات مركز الصدارة في العملية التربوية .

وأن تستبعد جميع المظاهر الأخرى لأوجه نشاط الفصل لتحتل أما كن أقل أهمية بكثير .

ولكن المؤلفين يؤكدان أن من الممكن تحقيق الكثير من التدريس التأملى فى إطار المواد الدراسية والتنظيم المدرسى القائمى حاليا .

وسيجد المعلم أنه من الواجب دائماً أن يكون حساساً باستمرار للحاجة -- كلما دعت المناسبة -- إلى تحديد المشكلة باختصار وإلى التقدم بالاقتراحات لحلها ، وإلى مساعدة التلاميذ على تخطيط السبل التى يتبعونها لاختيار هذه الحلول . والنقطة الهامة التى يؤكدونها المؤلفان هى أن التفكير التأملى لا يمكن أن يقيد بمجدول زمنى محدد ، ولا أن يبقى فى إطار نمط ثابت جامد لا يتغير ، ولا يمكن تشجيعه فى الجو الذى يملأ العقل بالخاوف .

وفى الفصول الثلاثة الأخيرة يتقدم المؤلفان بمقترحات على أعظم جانب من القيمة والأهمية بشأن استغلال « السؤال » والامتحانات والمخلص السبورى ووضع الخطط العريضة للمشكلة المطروحة والتخطيط لحلها والإيضاح ، وأعمال التلاميذ التحريرية .

كما يبحث المؤلفان ، بتفصيل واسع ، القيادة التربوية وعلاقتها بالعملية التأملية واثقين بأن ناظر المدرسة عندما يظهر شمولاً ونفاذاً ومراعاة فى تفكيره عند معالجة المشكلات التى تواجهه فإن المعلمين يميلون غالباً إلى الشعور بأنه من السهل عليهم نسيباً التفاهم مع الناظر . . والواقع أن هناك صلة مباشرة بين « العقلية الفلسفية » للناظر والروح المعنوية العامة لبيئة التدريس بما يساعد على خلق الجو التعللى السليم .

ويخلص المؤلفان إلى أن الالتزام الأساسى الذى يجب أن يلتزم به المعلمون هو أن يتبعوا طريقة التفكير التأملى فى معالجتهم لجميع المشكلات التى يتعرضون لمناقشتها مع تلاميذهم بحيث يودى هذا فى النهاية إلى نمو التلاميذ نمواً ذا مغزى . ويرى المؤلفان أن الالتزام المهنى الأساسى للمعلمين يحتم عليهم أن يتوقفوا عن إظهار تحيزهم أو إخضاع تلاميذهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لرأيهم الخاص ، وذلك رغبة منهم فى تحرير تلاميذهم من التقييد الظاهر أو الخفى .

وبعبارة أوضح : إن الشيء الذى نحتاج إلى تقديمه للتلاميذ هو أن نلتزم التفكير التأملى ، وأن يكون التزامنا بمعتقداتنا المعقولة خلال عملية التفكير التزاماً مترناً ،

ولا يمكن أن يتم هذا إلا خلال الخبرة التي تتيح للتفكير عملاً يقوم بأدائه — أي تتيح له عملاً يؤدي إلى اختلاف ن قدره في السلوك فيما يتصل بالتفكير التأملی . وينبغي ألا تشمل هذه العملية على دفع مفتعل ، بل على فحص رزين مباشر في ظل ظروف تربوية لتلك المعتقدات التي لدى التلاميذ والنتائج التي تترتب على التمسك بها في حالة ظهور دليل يتحدى صدقها وصحتها ، والنتائج التي تترتب على إعادة تنظيمها بطريقة معقولة . ويحتاج هذا الموقف إلى إخلاص كل من المعلمين والتلاميذ للقيام بهذا الالتزام .

فالفردي لا يكتسب حريته بالخضوع لأفكار الآخرين الذين يدعون أنها صادقة . إنه يكتسبها حين يتم له ذلك بالعمل في جهد عام لخلق الوسائل الاجتماعية التي تسهل تقاسم الاتجاه التأملی نحو المشكلات التي يواجهها الجميع — هذا إذا أريد لحرية الفكر وحرية المبادرة إلى العمل على وجه الاستقلال أن تصانا .

والمؤلفان يؤمنان في تواضع — إلى جانب إيمانهما العميق بالقيم الديمقراطية — بعدة أمور تجعل لهذا الكتاب قيمة بارزة خاصة في ميدان الكتب المهنية .

فهما يؤمنان بأن التغيير الأساسي أو المباشر في المدارس أو الثقافة — وبالتالي في عقلية الأجيال الصاعدة — لن يحدث طفرة بين يوم وليلة ؛ ذلك لأن العادة سيد صعب المراس ، ولكنهما يؤمنان بأن التغيير حادث لا محالة نتيجة للتوسع السريع في آفاق المعرفة من ناحية ، والتغيرات الجارية في مصور « خريطة » العالم الاجتماعي والاقتصادي من ناحية أخرى .

وهما يؤمنان بأن المدرسين إذا اكتسبوا البصيرة بطبيعة المشكلة التي تواجههم وطبيعة العقول التي يعالجونها فإن المكاسب التي يمكن الحصول عليها من الإصلاحات التربوية تكون أسرع وأكبر .

وهما يؤمنان بأن الإنسان في وسعه أن يحسن قدرته بالتدريج على أن يواجه الحياة بروح التأمل الهادف . فإذا كان الجنس البشري في نظرها قد عجز حتى الآن عن أن يستغل كل طاقته الكامنة للتفكير التأملی في حياته اليومية وفي مؤسساته التربوية فإن ازدياد عدد المدرسين الذين يقرون أولاً بأن طريقة التفكير التأملی هي أفضل طريقة للتعليم ، وسيطرون سيطرة أكبر على الطرق الفنية لتنمية التفكير التأملی ويؤمنون بأن عملية البحث والتحرر أثبت ما يمكن للرجل الحر أن يمتلكه — وبالتالي

ازدياد الفصول الدراسية التي يكون التفكير التأملى طابعها المميز — يتيح الفرصة للجنس البشرى أن يستمر في إخصاب حضارته وثقافته .

وهما يؤمنان أخيرا بأن المدرس — والمدرس هنا معنى يرمز إلى المعلم ورجل الإدارة المدرسية والناظر والمفتش وواضع المناهج وناشر الكتب المدرسية وغيرهم ممن يتصلون بالعملية التعليمية — هو حجر الزاوية في عملية الإصلاح التربوى، بمعنى أنه لا يرجى لأى إصلاح تعليمى أى نجاح مالم يتناول المدرسون عاداتهم وأساليبهم وطرقهم في التدريس بالفحص والبحث والتعديل أو التغيير في ضوء النظرية الجديدة والالتزام الجديد . ومهمة هذا الكتاب الأولى هي مساعدتهم على أن يفعلوا ذلك بأكبر قدر من الكفاية وبأقل قدر من قلقلة الظروف التي توفر لهم الأمن في المدارس في الوقت الحاضر .

إن مسؤولية المدرسين الكبرى هي تنمية التفكير التأملى لدى التلاميذ . ولذلك يجب على المدرسين أن يتأكدوا من أنهم على علم كاف بما يتأتى عن هذا الالتزام من نتائج خاصة تتصل بالأساليب التي يتبعونها في الفصول الدراسية . ولا يمكن لأحد أن يدعى أن ما تعود أن يفعله دائماً هو ما ينبغي أن يستمر في فعله . ولكن كل واحد منا بحاجة إلى أن يقوم بعملية تقويم هدفها تقدير الأعمال بالقياس إلى الأهداف . وعلى ذلك فالتغيرات التي يريد المؤلفان إحداثها في المدارس سوف تتم بسرعة إذا عرض المدرسون عاداتهم التي يمارسونها في عمليات التعليم للبحث والتحقيق وتعلموا بذلك مساعدة تلاميذهم على أن يقتدوا بهم في ذلك دائماً .

ونحن لاشك نغط الكتاب حقه إذا أغفلنا التنبيه إلى فائدته الكبرى لجميع العاملين في جنبات الحياة العملية في الدولة بأسرها . فإذا كان المؤلفان قد أكدوا — بما فيه الكفاية وفوق الكفاية — أن التفكير التأملى طريقة للتربية والتعليم فهما لم يغفلا التأكيد أن التفكير التأملى طريقة ومنهج لكل من أراد أن يواجه مشكلاته الخاصة والعامة والعملية بكفاية وشجاعة . وبهذا الاعتبار ينبغي أن يحرص على دراسة هذا الكتاب دراسة واعية كل من يتقلد منصبا قياديا صغيرا أو كبيرا في الحياة العملية .

ومعنى ذلك أن هذا الكتاب يهم المهندس والمحامى والطبيب ورؤساء الورش

والعمال ومديرى المصالح والمؤسسات الصناعية والتجارية بنفس القدر الذى يهتم المدرس والناظر وطلبة كليات ومعاهد المعلمين .

ومما لا جدال فيه أن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية تعد إضافة قيمة للمكتبة العربية التى تفتقر افتقارا ملحوظا إلى مثل هذه الكتب فى هذا الميدان الجديد من البحث . ولذلك فإن مؤسسة فرانكلين جديرة بالشكر على تيسير الترجمة العربية لهذا الكتاب .

ولقد بذلت فى ترجمته جهود موقفة تستحق الثناء والإعجاب . والمترجمان يتمتعان بخبرة طويلة مشرفة فى ميدان التربية والتعليم جعلت منهما أنسب من يقوم بهذه الترجمة الدقيقة .

والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى ٦ من ديسمبر سنة ١٩٦٢

مقدمة المحرر

يقول مارك توين : « إن الناس يتكلمون عن تعليم التلاميذ كيف يفكرون ،
وقلما يفعل أحد منهم شيئاً ذا بال في هذا الصدد » . غير أن هذا الكتاب يشذ عن
هذه القاعدة . فمؤلفاه عالجا — بصورة مباشرة ومثمرة — مسئولية المدرسين
القائقة في المجتمع الحر : ألا وهي تنشئة المواطنين الذين يلتزمون عملية التفكير
ويعرّعون فيها بشكل مستقل هادف . وقد تضافرت الأستاذية وعمق البصيرة بعمليات
التعليم والتعلم ، والوضوح الذي امتاز به تقييمها للأفكار والمفاهيم ، ومناقشتها
لل قضايا والفروض ، وضربهما للأمثلة ، وأسلوبهما المثير للتفكير ، والبعد عن
التعقيد الفني ، تضافر كل أولئك على أن يجعل من هذا الكتاب مرشداً قيماً لإجادة
التدريس إجادة أصيلة . ولن يهم هذا الكتاب المدرسين والمفتشين ورجال الإدارة
المدرسية وحدهم ، بل إنه يجب أن يحرص عليه المواطنون المثقفون الذين يختلسون
في زحمة أعمالهم سويحات ليكتشفوا — بالدراسة والاطلاع — وسائل تزداد بها
كفاية مدارسنا وكياناتنا .

وسوف يدهش الكثيرون عند ما يعرفون أن هذا الكتاب يتناول في الواقع
فلسفة التربية ، وأنه أعد لكي يكون مرجعاً لطلبة معاهد المعلمين وكياناتها والمدرسين
العاملين وقلما تظفر المراجع في أي ميدان يمثل هذا العرض المشرق الشخصي الممتع .
وإن طريقة « التفكير » التي لجأ إليها المؤلفان في الكتاب تشعر القارئ بأنه يشترك
معهما في البحث اشتراكاً مباشراً . وبالرغم من اليسر الذي يمكن للقارئ أن يتابع
به البحث فإن محتويات الكتاب تقوم على أساس متين من الحقائق التربوية السليمة
والفروض المنقحة . ولقد وفق المؤلفان في تخطي الهوة التي تفصل بين الجانبين النظري
والعملي من التربية ، وهي الهوة التي كثيراً ما ترهق كلا من المدرسين المبتدئين
والمتمرسين على السواء . ويقدم تحليلهما لعمليات التفكير ألواناً قديمة وحديثة من
التبصر بأنواع النشاط الفكري التي تسهم بنصيبها في التفكير التأملی . أما الجزء
الذي يعالج الأدوات التي يتم بها التفكير والتعليم فيوضح من عملية التفكير بعض
الجوانب التي كثيراً ما دفعت بالمدرسين إلى الارتباك . وهناك جزء آخر يقدم فيه
المؤلفان مقترحات تمكن المدرسين والمفتشين ورجال الإدارة المدرسية من أن يزيدوا

التأکید علی التفكير التأملی فی شتی نواحی النشاط المدرسی . ولا یدخر المؤلفان وسعاً — فی الكتاب جمیعاً وبخاصة فی الفصل الأخير — فی سبیل التنبیہ إلی الضرورة الملحة التي تدعو المدرسين إلی أن یعلموا التلاميذ كيف یفكرون تفكيراً تأملیاً — إذا أريد لحرية الفكر ، وحرية الاعتقاد ، وحرية تصرف الفرد طبقاً لما یعتقد ، أن تصان فی هذه البلاد .

وأقیم ما فی هذا الكتاب بالنسبة إلی المدرسين العاملين أنه لم یؤلف علی مقعد وثر . فالمؤلفان كلاهما من المجريين الناجحين فی تعليم الطلاب كيف یفكرون . وطالما أقر الناس بأن الأستاذ هلفش أستاذ عظیم فی فلسفة التربية . وفي سنة ١٩٦٠ اختارته لجنة جامعية من جامعته — وهي جامعة أوھيو الرسمية — كأحد المدرسين المبرزين . أما الأستاذ سمیث فقد درس فی جامعة أوھيو ومتشجان وإنديانا وفرجينيا وتنسی . وهو یعتبر من ألع الأساتذة الشبان فی فلسفة التربية . وإن هذا الماضي العلمي لكل منهما ، وعملهما علی اختبار الأفكار فی خط النار ، وتعديلها وإعادة صياغتها وتفسيرها خدمة لقضية التفكير التأملی ، یجعل من هذا الكتاب كتاباً بارزاً فی میدان الكتب المهنية .

لندی . ج . ستیاز

تمهيد

نسوق هذا الحديث بصفة خاصة إلى المدرسين ، وطلبة كليات ومعاهد المعلمين ، وإلى المهتمين اهتماماً شديداً بما تؤديه مدارسنا لكي يساعدكم على أن يعيدوا النظر في التزاماتهم الحاضرة ، وأن يعيدوا بناءها إذا اقتضت الضرورة . وهو معد بحيث يساعدكم على أن يجتهدوا بالتدرج إلى الإقرار ؛ أولاً بأن طريقة التفكير - طريقة النشاط الفكري التأملية - هي طريقة التعليم ، وأن يتجهوا - ثانياً - إلى فهم أعمق ، وسيطرة أتم على الطرق الفنية التي تجعل في الإمكان خلق المواقف التي تدفع بالأفراد إلى التفكير ، وأن يتجهوا - ثالثاً - إلى المسلك الذي يعتبر عملية البحث والتحرر آمناً ما يمتلكه الأحرار .

فإذا نظرنا إلى الفصول الدراسية بصفة خاصة فإن هدف هذا الحديث هو أن يساعد المدرسين على أن يؤديوا ما يلتزمون به الآن - شفها على الأقل - بفهم أكبر ، وشعور بالأمن أعظم - ونعني به تنمية قدرة كل طالب وميله إلى أن يفكر لنفسه على وجه الاستقلال . ولا يتوقع المؤلفان أي تغيير مباشر أو أساسي ، لا في المدارس ولا في الثقافة ، ذلك لأن التغلب على العادات ليس بالأمر الهين . إلا أنهما مع ذلك يدركان أن تحسين المدارس والثقافة أمر مرغوب ، ويأملان أن تتحقق بعض الخطوات الناجمة بسرعة .

ولسوف يحدث تغيير من نوع ما حتى ولو نفّض المدرسون أيديهم من المشكلة برمتها . والتغيير يحدث لا محالة . حتى النفعيون الذين أحكموا وسائل تعذيب الأفراد وإرهاق المنظمات بغية غرس الأفكار التي اختاروا أن يحموها من النقد والتهجم لا يجدون لأنفسهم مفرّاً من التحول من سياسة إلى أخرى ، والانتقال من خطة إلى أخرى وهم يتكيفون لظروف العالم المتغير ، ويواجهون نتائج التوسع السريع في آفاق المعرفة . أما إذا عزم المدرسون على أن يضربوا ضربتهم بجرأة ، ويواجهوا بشجاعة مشكلة إعادة تشكيل المدارس والثقافة فسرعان ما يكتشفون أنه ليس من حق الأحرار أن يملوا طبيعة الإصلاح الجديد على غيرهم من الأحرار .

ومن حسن الحظ أن هذين النقيضين - وهما تجاهل التغيير من ناحية ، ومحاولة

فرضه وإملائه من ناحية أخرى - لا يستفدان كل الأوضاع . فقد يحاول كل مدرس أن يساعد الذكاء الإنساني - داخل فصول الدراسة وخارجها - على أن يتحول من مجرد الاستمتاع بالبيضاء المزجاة إلى محاولة تجويدها والتوسع فيها . ويعتقد المؤلفان أيضا أن المدرسين لو اكتسبوا ألوان البصيرة التي يكشفها لهم تحليل المشكلة لكانت مكاسبنا التي نجنيها من الإصلاح التربوي أسرع مما هي الآن . كما يعتقدان أخيرا أن ازدياد عدد الفصول الدراسية التي يكون التفكير التأملی طابعها المميز سوف يسرع بالعملية في اتجاهها السليم .

ولا تقوم العقائد أو الالتزامات أو الأهداف بمعزل . وليس المؤلفان من السذاجة بحيث يدعيان أنهما صاغا إيمانهما بكفاية عملية التفكير التأملی من الفراغ . وذلك لأنهما تمتعا في نشأتهما الأولى بجو التقاليد الغربية المتحرر - الأمر الذي يؤكد إيمانهما الثاني - وهو أن الإنسان بمقدوره أن يبتدع القيم ، وأن يجودها في نطاق خبرته الجارية .

وقد ولدت خبرة كل من المؤلفين - بطرق مختلفة ، وفي أزمان متباينة - إيمانهما بأن الإنسان في استطاعته أن يحسن قدرته بالتدرج على أن يواجه الحياة بروح التدبر والتأمل الهادف . كما أنها ولدت إيمانا آخر وهو أن الجنس البشري عاجز عن استغلال كل طاقاته الكامنة للتفكير التأملی - بصفة غير رسمية في مجرى الحياة اليومية ، وبصفة رسمية في مؤسساته التربوية . إلا أنه مع ذلك لم يعجز كلية ، فكما أن الطفل لا يرغب في الثلجات إلا إذا تناول منها ملعقة على الأقل ، فإن الناس كذلك لا يقدرّون التدبر والتفكير إلا لأنهم لمسوا بأنفسهم شيئا من خصوبة الحياة التي يتيحها البحث والتفكير . وبهذه الطريقة ينشأ الدافع نحو التدبر والتفكير . وإذا لم نكن على خطأ فإن توافر هذا الدافع هو الذي يميز المجتمع المتفتح عن المجتمع المغلق ، والأمانى الديمقراطية عن الأوامر التي تفرضها السلطات المتعكمة .

ولا بد من ذكر عقيدة أخرى إذا أريد لغاية المؤلفين أن تفهم على وجهها الصحيح . إنهما يؤمنان بأن العامل الحاسم في تقدم عملية الإصلاح التربوي هو المدرس أولا وأخيرا . وعلى ذلك فإن قدرا ملحوظا من التغيير يمكن أن يتم بأعظم قدر من الكفاية عن طريق بذل الجهود الرامية إلى التحول عن التأكيدات التي تتضمنها عادات التدريس الموجهة للعمل اليومي في الفصول الدراسية . وكثيرا ما تبشر

الإصلاحات المنهجية على الورق بأكثر مما تحقق في الفصول ، ذلك لأن كل المقترحات الجديدة تعدل طبقا لعادات من يقومون بالتدريس ، وكلما زادت مطالب الإصلاح زاد احتمال توليدها لردود أفعال من شأنها أن تقوى أنماط التدريس القائمة فعلا .

والمدرسون جديرون بكل عطف وإدراك في هذا الصدد بطبيعة الحال . فهم يعملون في ظروف قاسية على أحسن الحالات . وهم — كغيرهم من الناس — يشعرون بالأمن والرضا في أدائهم لنشاطهم اليومي بطرقهم المألوفة . وبالرغم من أن الإصلاحات الضخمة في المواضيع المتبعة الآن في فصول الدراسة مرغوبة فإن التغيير المباغت يفضى إلى الفوضى عادة . ومن حسن الحظ — أو هكذا يبدو للمؤلفين — أن المدرس يمكنه أن يتحول هو نفسه إلى التفكير التأملى ، وبذلك يستجمع قوة يعضى بها في الاتجاه السليم بأقل ما يمكن من القلقلة في الظروف التى توفر له الأمن . بالفصل الدراسى فى الوقت الحاضر .

ومهمة فلسفة التربية هى أن تسهل هذا التحول ؛ فالعادة سيد قاس من العسير التهرب من مطالبه . وهذا يصدق على من يقومون منا بالتدريس كما يصدق على غيرهم . ولما كنا نصر دائماً — وبحق — على أن مسئوليتنا الكبرى هى تنمية التفكير لدى التلاميذ ، فإنه يجدر بنا أن نتأكد من أننا على علم كاف بما يتأتى عن هذا الالتزام من نتائج خاصة بما يتصل بمواضعتنا فى الفصول الدراسية . ونحن لا نستطيع أن ندعى أن ما تعودنا أن نفعله دائماً هو ما ينبغى أن نستمر فى فعله . ولكننا بحاجة إلى أن نختلس بعض الوقت من حين لآخر حتى ننظر فى أعمالنا بالقياس إلى أهدافنا المقررة .

والمؤلفان واثقان (وخبرة أكبرهما الطويلة ومنهجه الدراسى الذى يعالج طبيعة عملية التفكير تعزز هذه الثقة وتضمنها) من أن التغييرات الهامة التى نلتزمها فى مدارسنا سوف تتم بسرعة إذا عرض المدرسون عاداتهم للبحث الدقيق الهادف ، وتعلموا بذلك كيف يساعدون تلاميذهم على أن يخذوا حذوهم .

والمؤلفان يقدران ما خصهما به الناشران الذين سمحوا لهما بأن يقتبسا من المؤلفين والكتب التى رجعا إليها . كما يتحمل كل واحد منهما نصيبه الخاص من الشكر ، وخاصة لطلابيه وزملائه . أما أكبر المؤلفين فمدین — بصفة خاصة —

« لجون ديوى » و « بويد ه . بود » اللذين تنعكس أفكارهما بطرق شتى فى هذا الكتاب . وأخيراً فإن كل مؤلف مدين لأسرته التى تحملت فى صبر وتسامح ذلك الاضطراب الذى لا مفر من أن تمر به حياتها اليومية عند ما يشتغل أحد أعضائها بتأليف كتاب . وعلى ذلك فإن كل مؤلف ينحنى شكراً وتقديراً لأهل بيته .

ه . جوردون هلفش

فيليب ج . سميث

القسم الأول

المقدمة

هناك عبارة تتردد على ألسنا مرارا وتكرارا
وهي : « يجب علينا — بطبيعة الحال — أن نعلم
التلاميذ كيف يفكرون ، وإلا فلماذا نلحقهم بالمدارس ؟
والشيء الأساسي الذي يفوق كل ما عداه هو أن
يتعلم الشباب كيف يستمرون في التعلم » .

ولا يتضح لكثير ممن يرددون هذا القول
— بطبيعة الحال — ماذا تتضمنه تنمية التفكير .
فإذا ضيقت عليهم الحناق (كأن ألزمتهم بأن يجعلوا
الشباب — وبخاصة — أبناءهم — يناقشون
ما يعتقدون اعتقاداً جازماً) مالوا إلى التهرب ،
زاعمين أن هناك من الأمور ما لا يقبل المناقشة
ولا الجدل .

الفصل الأول

التفكير: القضية التربوية الحياتية

إذا لم يتعلم الشباب التفكير أثناء التحاقهم بالمدارس كان من حقنا أن نتساءل :
كيف يتسنى لهم أن يستمروا في التعلم ؟

والإجماع منعقد على أن تعلم التفكير يفتح باب الاستزادة من التعلم على مصراعيه .
وقد يتبادى بعض الآباء - في الغالب - إلى حد القول : « لا يعينى ماذا يعلمون
أولادى ، بل ولا يعينى ماذا يدرسون . إنما الذى يعينى حقا هو أن يتعلموا كيف
يفكرون ؟ إذ يجب أن يتعلموا كيف يتخذون قراراتهم بأنفسهم » .

ومن المسلم به - بطبيعة الحال - أن بعض هؤلاء الآباء الإيجابيين يتبدل موقفهم
عندما تبدأ الفكرة التى زعموا أنهم يؤمنون بها فى الظهور خلال عادات أبنائهم
النامية . من ذلك أن أحد الآباء قال لابنته بكل إخلاص فى عيد ميلادها
الحادى والعشرين - عندما أدرك حقيقة الموقف - : « الآن بلغت سن الرشد وأنت
الآن سيدة نفسك . فلا تتوقعى منى أن أفكر لك بعد الآن . وإنما أريد أن تكونى
تلك الفتاة المستقلة التى كنت أحلم بها دائما » . وتنفس الفتاة الصعداء لزوال تلك
الرقابة القاسية التى جثمت على حياتها ، ولكن ما كادت روح الاستقلال ترفرف
بجناحيها حتى عاق طيرانها هذا التحذير : « ولكن دعنى أقل لك شيئا واحدا :
وهو أنك إذا أعطيت صوتك لذلك المرشح فلن تكونى ابنتى » .

وقد ألف الكثير منا فكرة أننا لا بد أن « نستعمل عقولنا » ، « ونفتح عيوننا » ،
« وألا نقلد غيرنا تقليداً أعمى » . ذلك لأننا ولدنا فى أحضان ثقافة حرة ، وعشنا
مع قوم يؤمنون بأهمية الفرد ، ونحن لا نحب أن ندفع إلى الأشياء دفعا ، وورثنا
الشعور بأن الحكومة لا ينبغى أن تتدخل فى شئوننا كثيرا . أما فيما يختص بما نعتبره
مستوى أعمق من الفهم والإدراك ، فإننا واثقون من أنه لا أحد يستطيع أن يحرمانا
من التفكير كما يحلو لنا وحينما يحلو لنا مهما قيدت أجسامنا القيود والحدود . ألم تولد

أفكار عظيمة في غياهب السجون ؟ أضف إلى ذلك أننا ما كدنا نشرع في إدراك كنه ذلك التراث الذى كنا بسبيل اتخاذه قضية مسلمة حتى قامت في غضون هذا القرن دول تتبع فلسفة في الحكم غير فلسفتنا . فساعدنا قيامها على أن ندرك لماذا استمات أجدادنا في سبيل التحرر من كل القيود التى تعوق تطورهم وتقدمهم كرجال أحرار . وهكذا أصبح لدينا ما نحميه ، وتقاتل من أجله إذا لزم الأمر .

توجيه التربية والتعليم للثقافة

على ضوء ما تقدم يبدو أنه لا غموض يعتري ما قدر للتربية والتعليم من دور توجيهى فى هذه الثقافة . ومن هنا آمن آباء الديمقراطية المؤسسون بأن الديمقراطية لا تزدهر إلا إذا كان المواطنون مثقفين وأذكياء . وعلى ذلك فلا غرو أن نجد جهودنا التعليمية المتنازعة عبر التاريخ — وهى إيجاد نظام تعليمى شامل لأبناء الناس جميعا وبلا استثناء — تتأصل جذورها منذ وقت مبكر وأنها ما زالت تسقى لتنمو باستمرار .

وغير خاف — بطبيعة الحال — أننا لم نهض دائما طبقا للمستوى الذى يوحى به تراثنا ؛ فالمدارس لم تكن ميسورة بدرجة واحدة لجميع الأطفال . ومادامت تتلقى — حيثما وجدت — المعونة والمساندة على المستوى المحلى فى الغالب فقد تباينت الفرص التى أتاحتها للشباب إلى درجة ملحوظة أضف الى ذلك حقيقة معقدة أخرى وهى ازدياد تعقد مشكلتنا الثقافية ، وبالتالى تعقيد مشكلتنا التعليمية . فلقد كان من اليسير علينا بالأمس — أكثر مما هو الآن — أن نتمى المواطنة المستنيرة التى تتطلبها الديمقراطية . ولذلك أسباب ثلاثة : أولها أنه قد توافر لدينا اليوم من المعرفة قدر ضخم يتعذر معه اختيار ما هو الضرورى لتنمية هذه الاستنارة . وثانيها أن تطورات علم النفس بدأت تشككنا فى قيمة دعاوانا بشأن تنمية هذه الاستنارة . وثالثها — ولعله أهمها جميعا — هو أن فهمنا للديمقراطية نفسها قد تغير من جميع النواحي ، حتى لقد أصبح الضرورى أن نسلط الضوء على مفهومها من جديد .

ومع ذلك فقد نجد التباين طفيفا جدا من بعض الوجوه ؛ فنحن ما زلنا لا نريد

إدارة مركزية في العاصمة لتوجه المنشورات والكتب الدورية إلى جميع مدارس البلاد . وما زلنا في بعض الأحيان نرفض المعونة الفدرالية التي تقدم لنا لكي نزيل بعض المساكن بغية إنشاء المدارس على أرضها ، وما زلنا نقاوم ذلك في أحيان تبدو فيها هذه المقاومة نوعاً من قصر النظر (كما هي الحال في برامج المباني المدرسية مثلاً) ؛ ذلك لأننا كنا نخشى دائماً من أن يكون تقديم المعونة مصحوباً بفرض الرقابة على الفكر . ومع ذلك فقد تعلمنا أن نتقبل المعونة على مستوى الولاية ، بل وعلى المستوى القومي إلى حد ما ، بعد أن أدركنا أن مشكلة التربية والتعليم تمس الشعب كله ككل ، شأنها شأن مشكلات الطرق العامة مثلاً ، وأن الإهمال في قطاع من القطاعات يؤثر فينا جميعاً (وهذا يصدق أيضاً على الطرق العامة) . ومع ذلك فما زلنا مصممين على ألا نجعل الرقابة قرينة للمعونة .

بهذه الأصول التاريخية التي تغلغلت فيها جذور الاستقلال إلى الأعماق ، فإنه من العدل أن نتوقع أن نجد الجيل الصاعد — في أي لحظة ، وفي أي فصل من فصول الدراسة في طول البلاد وعرضها — منهمكاً في ممارسة النشاط الفكري التأملی المثير ، ولكن هذا لم يحدث . كما أننا لا نجد — من الناحية الأخرى — مديراً ولا مفتشاً ولا ناظر مدرسة ولا مدرساً يعترف بافتقاره إلى الاهتمام بتشجيع التلاميذ على التفكير . ويجب علينا أن نقرر منذ البداية أنهم جميعاً يتقاسمون مسئولية ما يجري في حجرة الدراسة فإذا فعل ذلك كان كمن يولي ظهره — عامداً — لضرورة ثقافية ماسة ، ويحيط من شأن مهمة نبيلة وهي إطلاق الناشئة من حالة عدم النضج والاعتماد على الآخرين إلى حالة النضج والاستقلال المتطور ، وهما بلغ هذا الموقف من الصدق فإن حقيقة الموقف تظل كما هي — وهي أن مطالبنا أفضل من أداثنا .

ولهذا القصور أسباب كثيرة . وقد يكون من المفيد — قبل أن نتدبر بعضها في إيجاز — أن تناقش عبارة جون ديوي التي وردت في كتابه الشهير : الديمقراطية والتعليم (١) « لا يمكن لأحد أن يشك — من الوجهة النظرية — في أهمية تنمية عادات التفكير الطيبة في المدرسة . ولكننا إذا تفاضينا عن أن هذا الإقرار أقوى في الجانب

(١) John Dewey, Democracy & Education. (New York: The Macmillan Company, 1916) p. 197.

النظري منه في الجانب العملي فإننا لا نجد الاعتراف النظري الكافي بأن كل ما يمكن للمدرسة — بل وما ينبغي للمدرسة — أن تفعله بالنسبة لعقول تلاميذها (فيما عدا بعض القدرات العضلية الخاصة) هو تنمية قدرتهم على التفكير .

أما وقد فشلنا في هذا الاعتراف النظري فإننا نعود إلى أن نضع التفكير موضع المنافسة مع أهداف أخرى تتراوح بين اكتساب سائر تعود النظافة إلى الانتهاء من دراسة منهج معين ، واضعين نصب العين دائماً أن نعود — في أول فرصة — إلى عمل المدرس السليم وهو تنمية التفكير ، وفي هذه الأثناء نظل نقول لأنفسنا إن هناك أموراً معينة لا بد من إنجازها . فبعد أن تنتهى مباريات المدرسة الرياضية ، أو مسابقات كرة القدم ، وبعد أن تلقن المهارات الضرورية ، وبعد أن يحصل التلاميذ المعلومات الأساسية ، وبعد هذا ، وبعد ذلك ، سيصبح التلاميذ أكثر نضجاً ويصبح جو المدرسة أكثر هدوءاً وتستقر الأوضاع . وعلى أية حال فالتفكير يستلزم بعض الوقت ثم يتضح لنا أخيراً — في زحمة البرامج المدرسية — أن الوقت لا يسعف والتفكير منافس ضعيف أمام الوقت ومطالبه . ولذلك فإن منطقنا القائل بأننا : « بعد أن نفرغ من هذا سوف نتناول ذلك » يتحول — فيما يتعلق بالتفكير — إلى الشعور التنبؤي بأن التلاميذ إذا تعلموا كيف يفكرون فإنما يتم هذا غالباً بعد (أى خارج) المدرسة .

ومن السهولة بمكان أن تنتقد التربية والتعليم في أمريكا ، وخاصة إذا وجه إليها ما يسمى « بالنقد ذى الهدف الواحد » فإذا قيس كل تصرف من تصرفات المدرسة مثلاً بمقيار واحد دون سواه — وهو تنمية التفكير عند الطالب — كانت القضية ضد التربية والتعليم قضية رابحة . وهذه بالضبط هي الطريقة التي يوجه بها معظم النقد إلى التربية والتعليم .

حملات الناقد غير الحصيف

وقد يعد أحد النقاد — ممن لهم اهتمام بجانب دراسي معين — إلى فحص المنهج الدراسي الحديث فيجد أنه أغفل المص بوضوح على عنوان المقرر الدراسي الذي يهمله بالذات وليكن تاريخ إحدى الولايات مثلاً . أو لعله يدعى أن المقرر الدراسي — أو مجموعة المقررات الدراسية التي تقع تحت عنوان « الدراسات الاجتماعية » — لا يمكنها أن تتناول الحقائق التاريخية ، فيقيم الدنيا ويقعدها على رأس المدرسة لهذا الإهمال ، ويطالب بأن يدرس تاريخ هذه الولاية بالذات ، أو تاريخ الأمة في مقررات تحمل عناوين واضحة لا لبس فيها ولا غموض ولن يخطر بباله قط أن التراث مازال بخير في الدراسات التي يسخط عليها ، أو أنه ما زال بخير في ظل الخبرات التعليمية التي تهم الطالب .

وإنصافاً لمثل هذا الناقد نقول إن الذي يشجعه على هذا اللون من النقد هو تلك المدارس التي تميل إلى أن ترى في استحداث مقرر دراسي جديد حلاً للمشكلة . وأياً ما كانت المشكلة التي يثيرها — سواء أكانت الإسراف والاعتدال في الإنفاق ، أم كانت كيف تقود السيارة أو كيف تظمع الدواجن — فإن استحداث المقرر الجديد هو الإجابة الجاهزة — وبخاصة إذا نجح هذا الناقد في إحداث ضغط ملحوظ بشأن الموضوع الذي يهتم به اهتماماً خاصاً . ولا شك أن مثل هذا الناقد قد انخدع بسحر العناوين (ويبدو أن بعض المدارس ليست أقل منه انخداعاً هي الأخرى) كما سبق أن انخدع نقاد العصر الماضي بسحر الألفاظ . وكلنا يعلم أن إحلال كلمة « تقدم » محل كلمة « تطور » في الكتب المدرسية للعلوم أرضى النقاد الذين تصوروا أنهم قد غيروا النظرية بتغييرهم للفظ .

ولكن هذا — بطبيعة الحال — هو ما يجب أن يدفعه النظام التعليمي القائم في ثقافة ذات قيم متعددة ثمناً لسكونه عامماً ، فالناس أنشأوا المدارس حتى تنتقل المعرفة التي يرونها هامة وتنقل القيم التي يحترمونها . ولذلك فهي عرضة لنقد أي ناقد . وتعتبر بداية كل فصل دراسي موسم الافتتاح بالنسبة لمختلف النقاد ، ومن ثم كانت المدارس خادمة لسادة كثيرين . وإن عجبنا لشيء فليس لأن المدارس

قد عجزت في بعض الأحيان عن القيام بواجبها بصورة مشمرة ، بل لأنها قد نجحت فعلا في القيام به رغم كل شيء .

وتكشف لنا الطريقة التي تزعزع بها عواصف النقد المدارس العامة - أكثر ما تتكشف - في أوقات البلبله والانزعاج . من ذلك مثلا أن الأمة بأسرها قد أفزعها حقا أنها اكتشفت عقب الحرب العالمية الثانية أن بعض المواطنين كانوا عملاء لدولة أجنبية معينة مهمتهم التوصل إلى المعلومات الخاصة التي جعلتنا في أمريكا تتفوق على الشعوب الأقل تقدماً في بداية العصر الذري . في مثل هذه الحالة - حالة الانزعاج العام - ينشط الناقد غير الحصيف لعمل في ثقة عالما بأن المواطنين المضطربين سوف يصدقون أنه يناصر الأطهار الأبرار . وفي هذه اللحظة بالذات نتوقع أن يتسلل الخوف إلى أوصال المدارس ويحبس المدرسون .

وليس أدل على ذلك من البلبله المحزنة التي أحدثتها إجراءات التعري غير المنظمة التي تمت على المستويات العليا والدنيا ؛ فقد بلغ الجبن بالمسؤولين عن المدارس - في كثير من الأحيان - أنهم بذلوا الجهود الضخمة للتأكد من أن مدارسهم وأعضاء هيئة التدريس فيها ، لم تقم بأي عمل يمكن أن يوصف بأنه « تقدمي » . في مثل هذا الجو تحتق حرة الفكر ، وتنشأ هذه الأوضاع نفسها - بطبيعة الحال - في البيئات التي يحول ظهور اتجاهات التعصب العنصرى فيها بين المدرسين الأمناء الحساسين وبين التعبير عن عواطفهم الإنسانية . وفي تلك الأثناء يؤمن الناقد - بسبب تمكنه من فرض وجهة نظره على المدارس - أنه قد حمى الجيل الناشئ ، والأمة كلها ، من شرور الأفكار السقيمة الملتوية . ويظل يفظ في سعادته غير مدرك أنه ، بدعوته إلى فرض الرقابة على الكتب المدرسية الأمريكية ، وفرض القيود على علاج المشكلات ذات الأهمية الخاصة للمجتمع الأمريكى ، والحد من الأفكار التي تطرح على بساط البحث ومعارضته أى طريقة تربوية تتعرف عن أساليب النظام الصارم واستظهار المعلومات ، وما إليها ، إنما يقلد الدكتاتوريين الذين يزعم أنه يكرههم .

وبالرغم من الشهرة التي ينالها مثل هذه الناقد غير الحصيف فإن أصوات العقل تتعالى - لحسن الحظ - من حناجر رجال المدارس الذين لا ترهبهم تلك الحملات . والواقع أن المدارس التي تحاول أن تقوم بواجبها السليم في مجتمع متعدد الثقافات يمكنها

أن تطمئن إلى أن القوى الشديدة سوف تتجمع لمساندة مجهوداتها ، ولو أن هذا التجمع يكون بطيئاً في بعض الأحيان .

الناقد الحصيف يعرض مشكلة أخرى

وتختلف الحملات على المستوى الأعلى المشروع من النقد . ولا شأن لهؤلاء النقاد بالنقاد غير الناصحين الذين أشرنا إليهم منذ قليل ؛ إذ أنهم يلجأون (أو كذلك يميل إليهم) إلى الجدل المنطقي ليدلوا على إيمانهم بأن المدارس العامة تسلك سبلاً سيئة . ومن هؤلاء روبرت م . هتشنز الذي لا يقتنع بنتائج علم النفس الحديث ، ويميل إلى الاعتقاد بأن الناس جميعاً يعيشون في ظل حقائق عالمية تتخطى الزمان والمكان . ومن ثم ينظر إلى المدارس الحديثة فيراها مشغولة بالسفاسف . ويتساءل : كيف يمكن « للفكر المبدع » أن يتقدم في الوقت الذي تسوس فيه النزعة المهنية والعلمية الأمور كلها ؟ ألا يحق للنوافذ الفكرية أن تفتح حتى تنير الحقائق العالمية للحياة ؟

ويقترح هتشنز أن نفتح هذه النوافذ بتركيز التعليم العام أو الحر حول أفضل مائة كتاب ، لا لأنه يؤمن - كما يقول البعض - بأن جميع الحقائق المقررة مودعة في صحائفها ، ولكن لأنه يؤمن بأن تتبع الأعمال الفكرية الجبارة هو السبيل إلى تنمية العقول غير الناضجة . أضف إلى ذلك أنه يؤمن بأننا نستطيع بذلك أن نعيد تقرير المنهج الذي استقى - ذات يوم - من علوم ما وراء الطبيعة وعالج الحقائق التي لا تتغير قط ، وهو واثق من أن هذا المنهج إن لم يأخذ طريقه إلى التطبيق كان معنى ذلك أن المدرسة والتعليم قد تفهقرا إلى عصور البرابرة .

ويختلف هتشنز عن الناقد الذي يبنى حكمه على المنهج بعناوينه الظاهرة الواضحة المحددة ، لأنه يؤمن بأهمية التفكير ، وهو يريد أن يجد البشر هذا الهدف . وكثيراً ما أشار إلى ذلك في شجاعة وهو يعلن في أحاديثه العامة حق الإنسان في التفكير الحر ، حتى لو عارض الإجماع شخص واحد ممثلاً لأقلية لا تتألف إلا منه هو وحده . ومع ذلك فهو ناقد « ذو هدف واحد » لأنه يصر على أن « الفكر المبدع » يجب أن ينمى ، ولا يجعل للمدرسة أي هدف مركزي سواه . وما « أفضل مائة كتاب » إلا وسيلة لتحقيق هذا الهدف .

وهتشنز على حق باعتبار واحد ، فالتفكير لم يمجّد — حق الآن — في المدارس بصفة عامة ، والعمل كله ما زال حق الآن غير طموح بما فيه الكفاية . والكتب المدرسية التي تكوم الحقائق فوق الحقائق ، وتهمل مع ذلك المشكلات التي تتصل بها ، والتي تتجمع حولها الأفكار والقيم المتصارعة — وخاصة في الميدان الإنساني — مازالت تسيطر على الموقف . والتعليم ما زال حتى الآن غير ناجح إلى درجة ملحوظة كجهود فكرى محرر .

على أن الشيء الذي يبدو أن هتشنز لم يدركه هو أنه تحالف — في هذا المستوى من النقد — مع « النقيمين » الذين يتهمهم بأنهم يعملون على إفساد التربية والتعليم . فهم قد عارضوا مثله عملية الاستظهار ، وعارضوا بذل الجهود المضنى غير الملهم في سبيل تجميع التفاصيل وعرضها كدليل على النمو العقلى ، وهم أيضا قد طالبوا بإعادة بناء التعليم بحيث يعمل على أن يحرر الفرد من قيود الماضى وخبرته المحدودة ، وأن يعرضه للأفكار المثيرة النيرة في نطاق عملية تمكنه من أن يكتسب الطرق الفنية للسيطرة على هذه الأفكار .

ولكن على الرغم من أنهم يسرون على نفس الجانب من طريق النقد فإنهم يسرون سيرا مختلفا . فهم يعترفون بما لم يعترف به هتشنز من أن القوة التي يعزووها للإنسان — وهى قوة الفكر المبدع التي يشترك فيها جميع الناس لأنهم يشتركون في طبيعة بشرية واحدة — قد فندتها الدراسة السيكولوجية . فدعوى هتشنز تتفق — قلبا وقالباً — مع المفهوم التقليدى الذاهب إلى أن للعقل قدرات أو ملكات يدرّبها التمرين (١) . إلا أن هذه الدعوى لم يؤيدها علماء النفس عند دراستهم للمشكلات التي تتضمنها عملية التعلم . ومع ذلك فهتشنز يصر على أن « النحو ينظم العقل وينمى القدرة المنطقية » . وهو بعماه هذا يؤكد ما ذهب إليه جاردنر ميرفى من أن « علم نفس القدرات أو الملكات كثيرا ما دفن مرارا ، ثم قام من القبر وارتدى ملابس و انطلق مرة أخرى . » ولكن هذا الشبح المائل بين ظهرائنا دائماً لا يقدم للمدرس أية معونة إذا ما دعى المدرس لتوجيه النمو الفكرى . وكل ما يفعله هذا الشبح —

(١) يؤكد هتشنز هذا المفهوم حيثما كتب . ولكن انظر بصفة خاصة : Robert M. Hutchins, The higher Learning in America (New Haven: Yale University Press) 1936

طبقا للملابس التي يخلعها عليه هتشنز — هو أن يؤكد أولا الهدف التربوي السليم : ألا وهو تنمية القدرة على التفكير من جانب المشكلة ، وأن يعمل — ثانياً — على غموض طبيعة المشكلة .

وغيره من النقاد الأذكياء — الذين يكتبون عادة في نعمة أقل تقيدا ، ويختارون في بعض الأحيان العناوين لكتبهم وعينهم على السوق أكثر مما هي على موضوع البحث — يلجأون إلى الماضي بحثاً عن الذخيرة التي يحشون بها مدافع نقدهم (١) . فيدعى بعضهم أن الإنسان يعيش في عالم لا بد من اكتشاف قيمه المطلقة ، ويخرجون من ذلك بأن التعليم الذي لا يقوم على هذه القيم المطلقة تعليم منحدر يصب في أرض منخفضة . ويدعى آخرون أن التاريخ الماضي قد أزاح الستار فعلا عن المعرفة التي يهمننا أن نكتسبها ، وعن القيم التي يصح أن نعتنقها . ويخرجون من ذلك بأن مهمة التعليم الجوهرية هي نقل ما نعرفه ونحترمه . ويدعى فريق ثالث أن للإنسان عقلا يمكن تنظيمه عن طريق التمرين . ومن ثم يدعون ظهورهم — مع هتشنز — لما اكتشفه علم النفس . وكل هؤلاء — على اختلاف مواقفهم — يطالبون بأن يثق الناس بذاكرتهم التي مازالت تعي عصراً كان التعليم فيه أفضل بكثير مما هو الآن . (ولا بأس أن نلاحظ عرضاً أن لغيرهم من أبناء جيلهم وما سبقه ذكريات مخالفة) .

(١) من العناوين التي ظهرت في العقد الأخير :

- Mortimer Smith, And « ثم درسوا يحنون » (Madly Teach (Chicago, Henry Regnery, Company 1949)
- مورتيمر سميث : « العقل المتقاص » (The Diminished Mind (Henry Regnery Company, 1954)
- ألبرت ليند : « حركة الكويكرز في المدارس العامة » (Albert Lynd Quackery in the Public Schools (Boston, Little Brown & Co. 1953)
- آرثر بليسنر « البراري التربوية » (Arthur Bestor: Educational Wastelands (Urbana University of Illinois Press, 1953)
- إصلاح التعلم : (The Restoration of Learning . (New York: Alfred A Knopf. Inc, 1955)
- رسل كيرك : « برنامج المحافظين » (Russell Kirk, A program for conservatives (Chicago, Henry Regnery Co. 1954)
- الحرية العلمية (Academic Freedom (Henry Regnery Company, 1955)
- جون كيتس : « مدارس بلا علماء » (John Keats, Schools Without Scholars (Boston: Houghton Mifflin Company 1958)
- هـ . ج . ريكوفر : « التربية والحرية » (H. G. Rickover Education and Freedom (New York, Dutton and Company Inc. 1959)

وذا كرتهم تؤكد لهم أن العلوم الأساسية السلبية كانت تدرس في ذلك العصر الذي يتذكرونه ، ولا بد أنهم يعتقدون أنها كانت تدرس جيداً . ومن ثم كانت عقول التلاميذ تستثار استشارة لا تحدث اليوم ، يصاحب ذلك دعوى أخرى يدل عليها عنوان الكتاب الذي ألفه ناقد عنيف وأسماء « العقل المتقلص » وهو يكاد يكون قريباً لكتاب آخر يعالج الوضع التربوي في كندا وعنوانه : « قليل جداً بالنسبة للعقل » . وتذهب هذه الدعوى إلى أن عقول التلاميذ كانت تمتلئ امتلاء مناسباً . ولعلها كانت تمتلئ فعلاً ، وإن كان مما تجدر ملاحظته أن اختبارات التحصيل العلمي التي يمكن إجراؤها واحتساب نتائجها ومقارنتها بالاختبارات التي كانت تعطى منذ عشرين أو ثلاثين سنة مضت لا تدل على أن تلاميذ اليوم في وضع سيء . ولكن لما كانت هذه الاختبارات لا تنصب إلا عرضاً على مسألة تنمية الصفة الفكرية لعملية التعليم والتعلم فإن مدارس الماضي أو الحاضر لا تستحق أي إعجاب ولا تقدير على ما أحرزته - أو تحرز - من نتائج .

وهذا الرأي هو ترجمة متحذقة للنقد غير الحصيف . فعلى حين يبحث الرأي الأول عن عناوين المناهج يبحث هذا النوع عن ميادين المعرفة . وكل من الرأيين ساذج إلى حد ما : فمجرد وجود موضوع معين - مهما بلغ من أهميته بالقياس إلى مغزاه الثقافي الكائن - لا يقدم أي ضمان بأن التعليم المشرع سوف يتم ، ولا أن هم التلاميذ سوف تستثار كما كانت تستثار هم هؤلاء النقاد في يوم من الأيام (هذا إذا لم تختم الذاكرة) . فالأمر ليس بهذه البساطة . والنقاد بقولهم : إنه بهذه البساطة إنما يطلون التأكيد الأساسي السليم ، ونعني به أن المدرسة يجب أن يكون لها اهتمام فكري تسانده وتقف إلى جانبه ، إذا أريد لها أن تكون مؤسسة تربوية حقا .

وعلى ذلك فإذا تجاوزنا الناقد غير الحصيف - الذي لا يحمل الناس نقده محمل الجدل إلا في الأوقات التي يشتد فيها الضغط العاطفي وتزداد أنواع القلق والبلبلة - بدا لنا أنه لا يمكن لأحد أن يشك - من الوجهة النظرية - في أهمية تنمية عادات التفكير الطيبة في المدرسة ، كما قال ديوي تماماً . وقد يقال في الواقع إن الغرض الذي يتوخاه الناقد غير الحصيف (رغم ما قد يبدو في هذا من تناقض) هو أن يدفع المدارس إلى أن تعلم التلاميذ كيف يحاكونها في التفكير أو بعبارة أدق ، أن يتمسكوا بنفس الآراء التي تتمسك بها المدارس .

« رجل التربية » هدف مفضل

ومن الموضوعات المفضلة لدى كثير من النقاد أن مدارسنا قد تلوثت برجل القرن العشرين المرعب : وهو « رجل » التربية . والظاهر أن رجل التربية هذا قد ارتكب جرائم كثيرة ؛ من ذلك مثلاً ما يقال من أنه أسرف في متابعة جون ديوى . وهذا خطأ موبق ؛ لأن فلسفة ديوى - في نظر أولئك الذين يوجهون التهمة - لا يمكن اعتناقها على إطلاقها . أما النقاد الأكثر تسامحاً بشأن رجل التربية فيذهبون إلى أنه قد شوه هذه الفلسفة بحيث لم يعد في الإمكان تعرفها . (وينبغي بالطبع أن نلاحظ أن في دوائر رجال التربية من تحزنهم التفسيرات التي يقوم بها بعض من يزعمون أنهم يتابعون ديوى) . ثم إن رجل التربية هذا - وقد ارتكب الخطأ بادعائه أن المهنة ينبغي أن يكون لها مستوياتها - آمن بأنه من المعقول أن يحاول فهم أفضل الطرق التي يتحقق بها التعليم ، وآمن بأن الرأي القائل بأن المدرسين يولدون ولا يصنعون رأى صحيح جزئياً ، ولا يمكن قبوله على إطلاقه ، وهو أنهم يولدون .

وهناك تهمة أخرى - يبلغ من خطورتها أن الإنسان ليعجب حقاً كيف يمكن للكتاب المسؤولين أن يوجهوها دون قدر كاف من البيانات المؤيدة - وهي أن رجال التربية الحاليين قوم ماكرون متآمرون . والتهمة تتلخص في أن رجال التربية هؤلاء قد استحدثوا نظاماً إدارياً متشابكاً تتداخل فيه الهيئات والمنظمات بغية التوصل إلى مأرب معين ؛ وهو حرمان الباحث الحقيقي من أية فرصة للتأثير في برامج المدرسة . وبعبارة أخرى أبسط : إنهم قد احتالوا حتى نالوا السلطة وضعفوها لأنفسهم ، وهم يمارسونها الآن ممارسة غير شريفة . وينسى النقاد الذين يوجهون هذه التهمة حقيقتين خطيرتين : أولاً أن رجال التربية لهم تاريخ لا بأس به في نقد بعضهم بعضاً ، وأنهم لم يقيموا نمطاً واحداً من التعليم يجمعون على الولاء له بالاتحفظ ، وأن نقداً أبناء المهنة الواحدة نقداً لا ذع يعدل أى نقدي وجهه الآخرون ويزيد عليه أنه أكثر اتصالاً بالموضوع في العادة . والحقيقة الثانية التي تفند دعوى بذل أى مجهود لإقامة هذا النظام الإداري المزعوم - هي أن كل مشكلات البرامج والسياسة في أية مؤسسة أو منظمة تدفع إلى الطليعة بأولئك المستعدين للكفاح من أجل وجهات نظرهم المعينة ، حتى ولو اضطرهم الأمر إلى التحالف مع المنشقين الآخرين ليكونوا منظمات جديدة أضف إلى ذلك أن مشكلة جمع الجماعات المهنية على التعاون ليست بالأمر اليسير .

وبالاختصار فإن من يسمى « برجل التريية » يختلف بعض الشيء عن زملائه في الثقافة ؛ فهو يتشكك ويرتاب في مركز السلطة ، ويؤمن بحقه في الإدلاء برأيه ، كما يؤمن بالتزامه في عرض أفكاره في السوق حيث يقومها الآخرون . وهو لا يطمع في شيء أكثر من أن تقوم تقويمه عادلاً ، وألا يستبعد عنها عن ساحة المحكمة نقاد لا يقدرونها التقدير الكافي الذي يدفعهم إلى فحصها واختبارها . وكثيراً ما يكون على خطأ - بطبيعة الحال - كما يبادر زملاؤه إلى ملاحظة ذلك .

الانتصارات الروسية تشجع النقد

إن التقدم الباهر (الذي لم يكن متوقعا بصفة عامة) والذي أحرزه الروس في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية دفع الكثير من المواطنين الأمريكيين إلى الموازنة بين النظام التعليمي في روسيا وأمريكا . وعندما أظهرت هذه الموازنة أن روسيا تخرج كل سنة من المهندسين أكثر مما تخرج الولايات المتحدة ، وأنها تهتم اهتماماً بالغاً بالمناهج العلمية والتكنولوجية بدأنا نتساءل : أترانا نسير في الطريق السليم ؟ واعتقد الكثيرون أننا لانسير في الطريق السليم . ووافق السكونجرس الأمريكي على ذلك بإصداره قانون حماية التعليم القومي الذي يهدف أساساً إلى تحسين تدريس العلوم والرياضيات واللغة القومية وإنشاء خدمات التوجيه لاكتشاف الشباب الموهوبين في وقت مبكر وتوجيهه إلى أنواع التخصص التي تؤدي دورها في تقوية الأمة . وراجعت المؤسسات التربوية - على جميع المستويات - ما تقدمه لتأكد من أنها لم تغفل المناهج الجديدة في العلوم والرياضيات ، واستحدثت بعضها برامج تهدف إلى الإسراع بتعليم الممتازين . والواقع أن العناية المتجددة وجهت في كل اتجاه لبرامج تعليم الموهوبين - وهي البرامج التي كثيراً ما عانت من الذبول لافتقارها إلى تأييد الرأي العام .

وتحت هذا الضغط اتضحت بعض الأمور :

اتضح مرة أخرى أن النقاد يتصورون أن المشكلة يمكن علاجها عن طريق إدخال قرارات دراسية أساسية سليمة . كما اتضح أيضاً أن المعتقد هو أن المحتوى المطلوب يجب أن يكون « صعباً » من النوع الذي يشعذ عقول من يلقنونه تلقيناً عنيفاً ؛ وهكذا تعمل طرقه على تنظيم عقولهم . ونتيجة لهذه الألوان من الاهتمام

بدأت تنتشر في بعض الدوائر فكرة مؤداها أنه لابد للتعليم العام من مدخل أكثر قدرة على الاختيار والانتقاء - لا ، بل لابد له من مدخل أرسقراطی خالص .

إلا أن التعلیم من أجل الأمن يتضمن ما هو أكثر من التقدم على جبهتي العلوم والتكنولوجيا . فالمواطن المستنير في العالم الحر بحاجة إلى أن يعرف ماذا يعني السكفاح الطویل من أجل الحرية ، وهو بحاجة إلى أن يعرف الطرق التي يتغير بها هذا السكفاح ، وهو بحاجة إلى أن يعرف طبيعة الالتزام الذي يكفل لهذا السكفاح ألا يتزعزع في السنوات القادمة ، وهو بحاجة - فوق كل شيء - إلى أن يتساح لكي يسهم في هذا السكفاح بفعالية أكبر على مستوى التأمل الفكري . أما إذا ضاق الإطار الفنى لتعليمه ، أو إذا اعتمد على الكتب أكثر مما ينبغي ، فإنه هو وحضارته لن تتوافر لهما الإمدادات الكافية التي تضمن لهما البقاء ممثلين للعالم الحر .

وأما الذين ساقهم مخاوفهم إلى المطالبة بأن تحذو المدارس الأمريكية حذو المدارس الروسية فقد غفلوا عن بعض الحقائق الأساسية ؛ منها أن خريجي المدارس الروسية بوضعها الراهن ليسوا أصحاب الفضل في سرعة تقدم العلوم والتكنولوجيا الروسية . وقد أوضح جورج س . كاونتس^(١) هذه النقطة بقوله :

« إن مدرسة السنوات العشر - كما وصفت أخيراً ، وأبدت البلاد إعجابها بها - لم تنشأ قبل سنة ١٩٣٦ وطبقاً للمنهج الرسمي في سنة ١٩٥٥ خصص أقل من ١٤٪ من مجموع ساعات الدراسة بالفصول الدراسية خلال السنوات العشر لهذه المواد (أي للعلوم الطبيعية) » .

وينبغي أن نخص العلوم الطبيعية بكلمة ؛ فالرأى الواسع الانتشار يذهب إلى أنه هنا يكمن سر نجاح السوفييت في ميدان القنابل والصواريخ الموجهة وعابرة المحيط وما إليها . والواقع أنه يكفي الوقوف على شيء بسيط من الحساب وبعض الحقائق التاريخية لتبديد هذا الوهم ؛ فلنفترض أن طفلاً في السابعة من عمره (وهي سن الالتحاق بالدراسة في الاتحاد السوفيتي) التحق في سنة ١٩٣٦ بمدرسة السنوات العشر ، ولنفترض أنه نجح بصورة طبيعية من سنة إلى أخرى فتخرج في سنة ١٩٤٦

(١) Greoge S. Counts, Khrushchev and The Central Committee Speak on Education (Pittsburgh, University of Pittsburgh Press, 1959) pp. 14 - 15.

وهو في السابعة عشرة من عمره ، ثم التحق بالجامعة أو بأى معهد عال وبعد خمس أو ست سنوات أخرى نال الدبلوم . ولكنه لكي يصبح عالماً عليه أن يدرس ثلاث سنوات أخرى كمرشح للدكتوراه ، وأن يكرس بعد ذلك سنتين أو ثلاثا لكي يعد بحثه ليصبح دكتوراً في العلوم . وهذا معناه أية لن ينتهى إلا في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين . وذلك يوافق سنة ١٩٥٦ أو سنة ١٩٥٧ . فمن الخطأ إذن الاعتقاد بأن مثل هذا الشاب أو أى واحد من زملائه في الدراسة قد لعب دوراً هاماً في إنتاج القمر الصناعى سبوتنك Sputnik

والبرنامج التربوى الروسى الذى يرغب إلينا البعض فى أن نقله بحذافيره قد تغير فى السنوات الأخيرة بعدة طرق هامة . أضف إلى ذلك أنه لا يمكن لأى ثقافة أن تنقل النظام التعليمى لثقافة أخرى دون أن تنقل معه قيمها أيضاً . وفى حالة مثل حالتنا هذه لا تعتبر محاكاتنا لروسيا مكسباً للديمقراطية الأمريكية بأية حال . ونحن بحاجة إلى أن نفهم أن التعليم هو الجبهة التى تتصارع فيها الأيديولوجيات المتناحرة .

الامن الذاتى : حاجة ديمقراطية

تغذى الديمقراطية بأمل معين وهو أن تتاح لجميع الناس الفرصة لكي يتقدموا بثبات نحو مقادير متزايدة من الحرية . ويجب عليها أن تضع نفسها تحت الفحص المستمر . وهى لا تتحمل أن تهمل ، ولا تجرؤ على أن تبطل فى هذا الشأن . فحينما طمح قوم إلى الحرية فإنهم ملزمون بأن يخلقوا الظروف التى قد يتدفق عنها الفيض المستمر من المواطنين الذين يفهمون معناها . ولن يفعل ذلك قوم استبدت بهم عاداتهم ولا قوم ركبهم الخوف . وإنما تبقى المسألة فى يد أولئك الذين اكتسبوا القدرة على التفكير ، مهما بلغت المشكلة من التعقيد ، والذين اكتسبوا أيضاً الشجاعة فى معالجة الأفكار ، مهما بلغت هذه الأفكار من الغرابة .

ولا يمكن لأى مدرسة أن تعتبر طيبة تماماً فى ثقافة تقدر الرجل الحر حق قدره إلا إذا استعانت بعقريه كل المسئولين عنها فى محاولتها علاج مشكلة جعل التفكير الناقد يسود جميع نواحي نشاطها . وليس هناك من مدرسة تستطيع أن تكرس نفسها كلية لعملها الأساسى السليم إذا كانت الحضارة كلها أو بعضها تفرض على جهودها القيود . وعلى ذلك فالدور الذى يلعبه المهتمون بالتربية والتعليم فى الحضارة

الديمقراطية دور حيوى بالنسبة لقوة تلك الحضارة (١)

كل هذا له مغزاه الخاص بالنسبة للمربي . وإن طبيعة ثقافته لتجعل منه راعياً وحامياً . وحينما يعجز عن مساعدة كل فرد على اكتشاف قوته وطاقته الخاصة تهزل الحضارة نتيجة لذلك . وحينما يعجز عن مساعدة كل فرد على اكتساب القدرة على علاج الأفكار علاجاً ناقداً ، وفي هدوء نسبي ، تضعف الحضارة .

وهكذا نجد أنفسنا قد عدنا إلى نقطة البداية . فأمر الثقافة ثابت وواضح . ونحن لسنا في شك من الهدف الذي نريد . وكل ما في الأمر أننا لسنا واثقين من أن هذا الهدف يجب أن يكتسب معناه في المجرى اليومي لনাشط الحياة ، وأن يستغل هناك كمبدأ تقاس به كفاية ما قد يبدو — في اللحظة الراهنة — أهدافاً أكثر إلحاحاً . ونتيجة لهذا فقد عمدنا — تحت ستار إدارة شؤون الدار إدارة سليمة ، وباسم الكفاية — إلى مواضع وأسايب تبدو لنا اليوم طبيعية إلى درجة أننا نعجز عن أن نرى مدى مناقضة أفعالنا لأقوالنا .

وكل ما قمنا به حتى الآن لم يكن بطبيعة الحال سوى النتائج الطبيعية للظروف التي أحاطت قيامنا به . ولقد كانت مهمة التطور بالتربية والتعليم إلى المرحلة الحاضرة مهمة ذات أبعاد مرهقة . ولم يكن في مقدور أحد الاضطلاع بها سوى رجال المدارس الذين كرسوا أنفسهم لها عاملين تحت ضغط عواطف الرأي العام . وأما الذين جشموا أنفسهم مشقة تحويل أنظارنا عن الهدف الأساسي فلم تكن لديهم أية نزعات تخريبية . ولكن الحوادث نفسها أعادت توجيهنا من جديد : المدرسين منا بصفة خاصة ، والرأي العام بصفة عامة . ونحن نعرف الآن أن الأمر كذلك . وهكذا نشأ الدافع الذي يحتم علينا بحث المشكلة .

أترانا طموحين أكثر مما ينبغي ؟ أهنالك ما يسوغ إيماننا بأن الناس يجب أن يتعلموا التفكير ؟ أم أن علينا أن نستنتج أن هذا وقف على الصفوة المختارة ؟ أم هل جعلت ألوان التقدم الحادث في جوانب العالم هذا الطموح النبيل أمراً عتيقاً بالياً ؟ أم أنه من الجائز جداً أننا لم نتح لنا الفرصة — في الظروف التي اكتنفت

H. Gordon Hullfish, Keeping Our Schools Free, (١)
Public Affairs Pamphlets, No 199 (New York : Public
Affairs Pamphlets 1953), p. 27.

نمونا كأمة ، وتحت تأثير العادات التي اكتسبناها حين كانت معلوماتنا محدودة — لكي نعطي هذا الطموح عملا يعمل في العلاقات اليومية بين المدرسين والتلاميذ ؟ أترانا فهمنا في الواقع ماذا تعنيه القضية في مجال النشاط الدراسي حين تقبلنا — بسلامة نية — الهدف المتوخى من وراء تنمية التفكير من جانب التلميذ ؟ أترانا نفهم ذلك الآن ؟ وأخيرا هل نجد لدينا الإحساس المحقق بأن مستقبل الإنسان الحر يستند — إلى حد ليس بالهين — إلى قدرة الدين يقومون اليوم بالتدريس ، والذين يعدون أنفسهم للقيام به في الغد ، على أن يجدوا لهذه الأسئلة السالفة إجابات يقتنعون بها اقتناعا يدفعهم إلى أن يجعلوا منها أساس حياتهم المهنية ؟

بهذه البطانة — بطانة الطموح النبيل وتعقد المشكاة المستمر — سوف نحاول أن نرتاد طبيعة النشاط التأملی ، ونفحص عملية التدريس كأداة تتخذ لتيسره . . .

لفصل الثاني

المشكلة كما تبدو بأبعادها

من السهل أن تسكال التهم للمدارس العامة ؛ فهي من صنع الجمهور المؤلف من قطاعات كثيرة . ولعل أحد هذه القطاعات أن يرى — في وقت معين — أنها لا تخدم مصالحه جيداً . أضف إلى ذلك أنه لما كان كل قطاع يميل إلى أن يعتبر نفسه ممثلاً للشعب كسكل — وليس مجرد شريك بمصلحته المحدودة وحدها — فقد يعتقد هذا القطاع أن إهمال المدارس لهذه المصلحة يعرض الأمة كلها للخطر . وخلاصة القول أن المدارس العامة تؤدي عملها على الحافة التي تلتقي عندها اهتمامات متخصصة كثيرة يستطيع كل واحد منها أن يرتدى مسوح العمومية الخداعة .

وكل هذه الاهتمامات المتباينة تشترك — كما رأينا في الفصل السابق — في هدف عام باعتبار واحد ؛ وهو أنها تريد أن يتعلم الشباب التفكير — وإن كان كل اهتمام منها يسوى بين التفكير الجيد وبين الإيمان بقيمة معينة ووجهات نظره الخاصة . وهذا يصدق على الاهتمامات التي تتدرج من أشدها كرمياً واستنارة إلى أكثرها أنانية وجهلاً . وكانت النتيجة أن المدارس العامة كثيراً ما اضطرت — إزاء هذه القوى المعقدة — إلى أن تلتزم أرضاً محايدة ، ما دام أنه ليس من مصلحة أقل هذه القوى أن تبقى المدرسة مؤسسة عامة . وإزاء مطالبة المدرسة بأن تتعهد التفكير اضطرت المدرسة إلى الاعتراف بأن التفكير ليس في الواقع هو السبب الكامن وراء كثير مما تطالب به .

وعلى ذلك فليس بمستغرب أن تعهد التفكير ، قلما كان الاهتمام الرئيسي الذي توجه إليه المدارس عنايتها بصفة مستمرة . ومهما قال الرأي العام عن احترامه وتقديره لتقدم التفكير — حين يتحدث عن ذلك بعبارات عامة — فإنه يصعب عليه أن يشعر بالاطمئنان حقاً حين يبدأ الشباب فعلاً في التفكير الجدى في المشكلات الخاصة بأسلوب تنتج عنه إجابات طالما قاومها الكبار .

ولكن هناك في المشكلة ما هو أكثر من هذا .

النمو عامل مثير للقلق

قامت المدارس العامة بعمل رائع حقاً حين احتفظت بأبوابها مفتوحة ، وظلت محتفظة برأسها معتدلاً طيلة العملية خلال سنوات استمرارها ونموها السريع . والواقع أن طريق النمو العام لم يفتح أمام المدارس الثانوية إلا في سنة ١٨٧٤ حين أصدرت محكمة متشجان العليا قرارها في قضية كالامازو Kalamazoo الشهيرة ، فرفضت الدعوى القائلة بأن الحكومة لا ينبغي لها أن تقدم المعونة للتعليم الثانوي . وأما ما حدث منذ ذلك الحين فيعتبر قصة من أروع قصص نجاح الإنسان .

ففي أقل من قرن واحد نمت المدارس الثانوية العامة ، من معاهد لا تقدم خدماتها إلا لبضعة آلاف من الطلبة إلى مؤسسات ينتظم فيها الملايين . ونمت المدارس الابتدائية نمواً مماثلاً بطبيعة الحال . بل إن الملايين التي تلتحق بها تزيد على ضعف الذين يلتحقون بالمدارس الثانوية . وكانت كل مرحلة من المرحلتين سبباً في النمو المطرد لنوعها . وكانت بمثابة الباب المفتوح للنجاح الاجتماعي والاقتصادي الذي أصابه الأبناء الذين كانت فرص آبائهم في التعليم محدودة بصورة أكبر . وليس العجب من أن مدارسنا كثيراً ما تعرضت للنقد (فهي بوصفها مؤسسات عامة تعتبر أهدافاً طبيعية له ، شأنها في ذلك شأن غيرها من المؤسسات العامة) ، وإنما العجب من أنها لم تهالك تحت وطأة الأعباء المتزايدة التي تكسدت على كاهلها .

وما زالت المشكلة المادية المتمثلة في تأمين المباني والفصول الدراسية التي تكفي هذا الفيضان المستمر المتضخم من التلاميذ ؛ مشكلة لا تحمد ولا تهمد من مجتمع إلى مجتمع . وبالرغم من أن المباني التي تتكلف ملايين الدولارات — والتي بنيت استجابة لتحدين الريف السريع — قد حلت محل المدارس ذات الفصل الواحد — وهي التي تتميز بها بداياتنا الريفية — إلا فإن المشكلة ظلت بلا حل . والواقع أننا قد اضطررنا إلى إضافة الفصول الجديدة إلى المدارس الجديدة قبل أن تفتح أبوابها أو بعد ذلك بقليل . وذلك في فترات تضخم السكان وهجرتهم من مكان إلى آخر كالفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية .

وعامل النمو هذا ، على ما هو عليه من تعقيد بفضل تغيير أنماط النمو الاجتماعي كانت له نتائج أخرى . منها ما كشفت عنه مشكلة إعادة تنظيم « الأحياء المدرسية »

سعيًا وراء المزيد من الكفاية . وإن مواجهة جميع ما يطلب إلى مدارسنا اليوم يستلزم إنشاء جهاز معقد متعدد الأوجه ، حتى ولو كان الأمر مقتصرًا على مدارس المرحلة الابتدائية وحدها . وفي أقل من ٢٥ سنة منذ اشتداد هذه الأزمة هيّط عدد الأحياء المدرسية إلى أكثر من النصف (أى من ١٢٧٥٣٠ في سنة ١٩٣٢ إلى ٥٩٢٧٠ في سنة ١٩٥٥) . ومع ذلك فقد كتب أحد الكتاب يقول : (١)

« ما دامت الولايات المتحدة لا يزال لديها ما يقرب من ٣٧٠٠٠ حتى مدرسي (من مجموع ٥٩٠٠٠) لا يستخدم كل واحد منها أكثر من عشرة مدرسين ؛ وما دام أكثر من نصف المدارس الثانوية العامة (وعددها ٢٣٠٠٠) لا يلتحق بها أكثر من مائتي تلميذ ، فإن مشكلة تطبيق تعليم أفضل ستظل عسيرة حقًا . فإن المدارس الصغيرة في الأحياء المدرسية الصغيرة لا يمكنها أن تطمع في تقديم الحد الأدنى من التنوعات المنهجية ، ولا تأمل في توفير العدد الكافي من المدرسين الذين يواجهون الطلبة المتفوقين علمياً والمتوسطين والمعوقين والمتخلفين » .

إن الآلام المتزايدة التي يشكو منها التعليم الأمريكي كثيرة ومتنوعة . من بينها ما يتصل بتلك التي تصاحب مشكلة إعادة تنظيم الأحياء المدرسية ، ونعني بها صيانة إشرافنا المحلي العريق على التعليم عندما تبتلع الوحدات الإدارية الكبيرة الأحياء المدرسية الصغيرة العاجزة . ولا مفر للاعتماد بمسألة الكفاية من أن تؤدي — بطبيعة الحال — إلى اقتراح وضع مستويات للأمة ككل . والواقع أن التعليم الأمريكي عليه أن يواجه مشكلات لها على ما يجري في الفصول الدراسية آثار كثيرة ما يتجاهلها نقاد أساليب التدريس وطرقه .

(١) Richard I. Miller "Admiral Rickover on American Education : An Analysis of his Viewpoints, " The journal of Teacher Education (Vol X No 3 (Sept. 1959)

وأما الأرقام الواردة فقد نقلها ميللر عن :

American Association of School Administrators, School District Organization (Washington D.C. : The Association (1958) pp 207 - 209.

ازدياد الحاجة إلى المدرسين

تكشف كل زيادة تحدث في عدد الملتحقين بالمدارس عن النقص في عدد المدرسين . ولم يكن الحصول على المدرسين بالأمر الهين في يوم من الأيام . فلتأمين الحصول على المدرسين كان لابد من إنشاء المعاهد لإعدادهم . وقد أنشئت أولى مدارسنا لإعداد المدرسين سنة ١٨٣٩ في ماساشوسيتس . وبعد أن بدأت المدرسة بداية بطيئة تقدمت تقدماً سريعاً خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وما كاد القرن يشرف على نهايته حتى تحولت هذه المدرسة إلى كلية للمعلمين ، وتطورت الكلية بدورها إلى أن أصبحت كلية رسمية ، أو إحدى كليات الجامعة . وطيلة هذا الوقت كان هناك — بطبيعة الحال — عاملان : وهما زيادة السكان والتوسع في فرض قوانين الإلزام ، عملاً على الحيلولة بيننا وبين حل مشكلة قلة عدد المدرسين .

على أن المشكلة تضمنت أموراً أكثر من تأمين العدد الكافي من المدرسين ؛ فقد أدى ظهور هيكل ضخم من المعلومات المهنية إلى تطوير مدرسة إعداد المعلمين سالفة الذكر . ومن ثم كان علينا أن نعيد صياغة برامجنا في الوقت الذي كنا نطبقها فيه فعلاً . ولعلنا لم نوفق في إعداد العدد الكافي من المدرسين . إلا أن جهودنا التي بذلناها لحل المشكلة كان لها نتائجها الهامة ؛ فقد ازدادت معرفتنا بإنشاء المباني المدرسية ، ووضع المناهج التي تسهل عملية التعليم . كما ازدادت معرفتنا بإعداد المدرسين الذين يوجهون هذا التعليم .

وسوف يجادل بعض النقاد في هذه النقطة الأخيرة ، وخاصة المغرمين منهم باستعمال « الكليشيه » الخداع القائل : « بأن المدرسين يولدون ولا يصنعون » . ولكن التدريس يتضمن ما هو أكثر من مجرد : « أنصتوا يا أبنائي واسمعوا » . وما زالت مهمة التدريس تزداد تعقيداً . وقد وصف إروين إدمان مطالب التدريس ذات مرة فقال : إنها « ربما كانت أكثر مطالب المهن غموضاً في العالم » . ووضحها واحدة بعد الأخرى كما يلي :

« حتى في المدارس الابتدائية في ولاية مثل ولاية نيويورك على المدرس أن يعرف عن العالم وعن العلوم التي تتناول طبيعة الإنسان أكثر مما كان يعرفه أستاذاً أكسفورد

فی القرن الثامن عشر . ومع ذلك فعليه أن يكون أكثر من ذلك : عليه ألا يعرف مادته فحسب ، بل وأن يعرف قدرات تلاميذه أيضا . وعليه أن يكتسب وضوح العارض الخیر ، وأن تتوافر لديه مؤهلات الأستاذ العالم وإحساس المحدث الأندیس بالجمهور وبالزمان ، وحماسة الشاهر والقائد الفياضة ، ومحبة الصغار الملتزمة ولسكن فی تحفظ « (١) .

وهكذا نرى أن التدريس فيه ماهو أكثر من عملية نقل معلومات الكتاب إلى « عقول » التلاميذ .

وكان « إدمان » واعياً - فی هذا النص - بالمشكلات التي يتضمنها إعداد المعلمين . إلا أنه أفسد هذا الوعي بإدخاله نعمة زائفة من اليأس والقنوط حين كتب فی موضع آخر يقول : « إن المدرس لا يستطيع أن يفعل غير أمور قليلة ، ولا يفعلها إلا للتلميذ الحساس المتوقد ؛ فهو يستطيع أن يخلق لديه ألوانا من الحماسة ، وأن يذل له الصعاب ، ويلقنه النظام . أي إنه لا يستطيع أن ينقل للتلميذ سوى عاطفته وطريقته . ولا أكثر » (٢) . وربما حق لنا أن نتساءل : « إذا كان المدرس قادرا فعلا على أن ينقل « عاطفته وطريقته » فماذا يجب عليه أن يفعل أكثر من هذا ؟ » إن نقل طريقة الدخول إلى الحياة بصورة تأملية مشفوعة بالعاطفة التي تدفعه لأن يفعل ذلك هي لب الموضوع . وهذا هدف سليم يتوخاه أي مدرس فی المجتمع الحر . وقد يحق لنا أن نتساءل أيضا : إذا نحن نزعنا إلى هذا الهدف بإخلاص فی كل فصل دراسي فی طول البلاد وعرضها أفلا يمكننا أن نكتشف أن ماينتج عن خلق ألوان الحماسة هذا سوف يبين لنا أن الحساسين المتوقدين « ليسوا بالقطاع الهزيل من مجموع طلبة المدارس ؟ »

المعرفة تتوسع بسرعة مطردة

إن مشكلة تأمين العدد الكافي من المدرسين مشكلة ذات وجهين ؛ فهناك أولا وجه الكم ، وهو إضافة الآلاف المطلوبة إلى أعداد المدرسين . وهناك ثانيا

Irwin Edman, "The Art of Teaching" New York, (١)
Times Magazine (May 25, 1941) p. 7.

Irwin Edman, Philosopher Holiday (New York: (٢)
The Viking Press, Inc. 1938) P. 123.

وجه الكيف ، وهو تأيين المدرسين المتحكين تمكناً كافياً من ميادين تخصصهم . وهذه المهمة الأخيرة ليس من اليسير إنجازها أبداً . ومما زاد في صعوبتها أن المعرفة ظلت في العقود الأخيرة من هذا القرن تتكاثر كما تتكاثر الأرائب

وينسب إلى روبرت أوبنهايمر أنه قال : إن « المعرفة تتضاعف اليوم في جيل واحد أو في عشر سنوات قصار ، وكانت من قبل لا تتضاعف إلا في ألوف السنين أو في قرون كثيرة » . وما زالت ميادين المعرفة تتسع كما تتضخم البالونات بعد أن يتخطى بها نافذها مرحلة المقاومة ، من ذلك مثلاً أن علم النفس - كدراسة للعقل - ظل جزءاً من الفلسفة حتى ظهر الاهتمام بدراسة السلوك في أخريات القرن التاسع عشر . على أن رجال علم النفس ما كادوا ينصرفون عن جهودهم الذاتية لوصف الحياة الفكرية الباطنية ورصد مسالكها ، وما كادوا يجعلون الدراسة الموضوعية للسلوك محوراً لجهودهم حتى نما كفرع جديد من العلم بسرعة . وهو فرع يبلغ اليوم من التعقيد إلى درجة أن مناهجه تنافس مناهج جميع أقسام علم النفس الأخرى - من حيث الضخامة - في الجامعات الكبرى .

وتتكرر القصة نفسها في جميع ميادين المعرفة العلمية . والواقع أن نمو المعرفة أمر لا مفر منه إلا إذا رغبتنا في أن نعطل النشاط الفكري . ومن غير المحتمل أن يفعل الإنسان الحديث ذلك ، وإن بدا في بعض الأحيان أنه كاره لاستغلال كل ماله من المعرفة . ولكن التوسع نتيجه ازدياد التخصص ، وازدياد التخصص نتيجه ازدياد الصعوبة في إعداد المعلمين . وعلى ذلك فليست زيادة معلومات طالب معاهد المعلمين هي المطلوبة فحسب (فالتدبير المنزلي مثلاً كان مجرد مقرر أعد لمساعدة الشابات على أن يصبحن أكثر فعالية واستعداداً لمواجهة مصيرهن ، وأكثر كفاية في بناء الحياة العائلية ، ولكنه تحول في أقل من مائة سنة إلى ميدان دراسي واسع ذي فروع متعددة تقدمها الأقسام أو المدارس أو الكليات) - بل إن هناك أيضاً الحاجة إلى أن يتمكن من المعرفة المتخصصة المتعلقة بعملية التدريس ، وفهم الأغراض التي تعمل هذه العملية على خدمتها . وهذه المشكلة الأخيرة تبلغ من الحدة إلى درجة أن أقسام التربية ومعاهد إعداد المعلمين وكليات التربية - وقد وجدت نفسها بين برائتي الحاجتين الظاهرتين ، وهما تمكين الدارسين من ميدان المعرفة الخاص ، وفهمهم لسبب وكيفية استغلال تلك المعرفة في فصول الدراسة - لم تجد لها حلاً

أوفق من أن تضع لإعداد المعلمين برنامجاً لا ينتهى في أقل من خمسة أعوام .
ومن نتائج توسع المعرفة السريع أن أصبح مدرس المدرسة العامة عاجزاً عن
أن يسيطر على مجموع الميدان الذى يمثله تدريسه الفعلى (حتى ولو بلغ من حسن
الحظ - وكثيراً ما لا يكون حسن الحظ - أن يعهد إليه بتدريس ما تخصص فيه) .
وعلى هذا فقد أصبح اختيار المعلومات وتنظيمها من أجل تنشئة التلاميذ المبتدئين
في ميادين المعرفة المتباينة مهمة لا يضطلع بها مدرسو الفصول ، بل العلماء الأفاضل .
وقد قدم هؤلاء العلماء الكتب المدرسية التى يعتمد عليها المدرسون . وهنا يواجهنا -
بطبيعة الحال - أحد الأسباب التى من أجلها لم تنهض المدارس من حيث التطبيق
طبقاً لما نأمل فيه . وقد ادعى الكثيرون منا - في المدرسة وخارجها - أن قدرة
أى إنسان على أن يكرر أفكار غيره يقدم الدليل على أنه مذكّر مستقل . ونسبنا
أن البيغاوات ليست مذكّرة إلى درجة ملحوظة . فلو تذكرنا ذلك فلعلنا نكتشف
أن الوقت الذى ينزعج فيه المدرس هو الوقت الذى يوافق فيه جميع طلبة الفصل
على ما يقول . هذا إذا تجاوزنا اللحظات التى يعرض فيها المدرس على تلاميذه حقائق
تسمو عن مستوى المناقشة . وإنه لمن الحقائق المحزنة حقاً أن الفصول غالباً ما تبين
أمام طغيان الجواب الصحيح : الجواب الذى لا يجسر أحد على الشك فيه .

ومع ذلك فلا بد لنا من أن نلاحظ أن « طغيان الكتاب المدرسى » أحال
العمل فى كثير من الفصول الدراسية إلى عبث لا طائل تحته . ولكن من الحق
أيضاً أن التعليم لم يكن ليتقدم لو لم تتيسر هذه الكتب الدراسية ، ذلك لأن
المدرسين لا تتوافر لهم عموماً المراجع الداخلية التى تلزمهم حتى يقوموا بعملهم
على وجه الاستقلال من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه ليس فى مقدور كل مدرسة
على حدة أن تحصل توفير المراجع المكتبية التى تتطلبها طرق التعليم المختلفة .
وفضلاً عن ذلك لا بد لنا أن نقول بكل إنصاف : إن الأفراد قد ينهمكون فى مجهود
عقلى مثير حين يشتركون فى الاهتمام بمشكلات تنشأ من هيكل مشترك من
المعلومات . ويمكن للمراجع الواحد - أو الكتاب المدرسى الواحد - أن يتيح هذه
الفرصة إذا عولج بالتفكير العميق . والواقع أن الحاجة البسيطة إلى الاستمرار فى
إدارة المدرسة بيسر وسهولة أوجبت - أو هكذا بدا للمسؤولين - أن يتحرك التلاميذ
من فصل إلى آخر على طريقة الكتابات العسكرية ، وأن يتحركوا فى نطاق
كل فصل دراسى خلال الكتب بنفس الطريقة أيضاً .

مفهوم مضلل عن الكفاية

كل هذه العوامل التي ذكرناها آنفاً — من خدمة أعداد أكبر من التلاميذ ، وبناء مدارس أكثر وإعداد معلمين أكثر ، والتمكن من قدر أكبر من المعرفة ونقله — تضافرت على تدعيم ميلين معينين ، أما الميل الأول فهو الزعم بأن الذكاء يتجلى حينما يتمكن التلميذ من تكرار ما هو مدون في الكتب . وأما الميل الثاني فهو الزعم بأن العمليات الخاضعة للروتين دليل على حسن تصريف الأمور في المدرسة .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى أبدى الناس نحو العمليات الخاضعة للروتين احتراماً ظاهراً بفضل تطورات علم النفس والتكنولوجيا . فطرح رجل علم النفس وراء ظهره آراء زملائه القدامى الذين تصوروا الحياة العقلية بشكل غير مادي — حياة عقلية يحددها التعريف بأنها فوق الإدراك ، وإن تحدثوا عنها كما لو كانوا يلمسونها مباشرة وأصبح السلوك — لانعكاسه الباهت — هو مركز الانتباه : السلوك والشروط التي تشكله .

وكان من النتائج التربوية الهامة التي نتجت عن هذا التغيير في وجهة النظر ظهور الاختبارات الموضوعية ، إذ كان لابد أن يستبعد من العلاقة بين المدرسة والتلميذ كل ما يجعل عملية تقسيم التلاميذ وتصنيفهم في الفصول الدراسية متذبذبة وغير مؤكدة من عوامل مثل مزاج المدرس وتكوينه فكرياً طيبة عن هذا التلميذ بلامسوغ ، وطرده ذلك التلميذ باعتبار أنه غير كفء ، لاشيء إلا لأنه فرد آخر من أفراد تلك الأسرة التي لا تطاق ، والعراك في المنزل ، وعدم الرغبة في التساهل . وأمكن لتصنيف التلميذ أن يقرم على أساس موضوعي . والمفروض أنه أصبح في الإمكان تقرير درجة التمكن التي بلغها التلميذ في دراساتهم ، وذلك بفضل اختيار وحدات معينة ، مما عهد إلى التلميذ باستذكاره . وعلى هذا كان لابد من تنحية التخمين من العملية بالنسبة للمدرسين والتلاميذ على السواء . والمفروض أن القدرة على تشخيص « وحدات بعينها من المعرفة » ، أو القدرة على القيام باستجابات معينة تدل على أن الفرد يسيطر عليها — هي الصفات السلوكية التي تكشف عن مدى ذكاء التلميذ . وكانت الذائكة تشخص على أنها القدرة على التفكير . وأما ما كان المدرسون يضطرون إلى القيام به قديماً لظروف خارجة عن إرادتهم فقد أصبحوا يقومون به آنذاك عن

يقين منهم بأنهم يقيمون التربية والتعليم على أساس علمي سليم .

وفي تلك الأثناء أدخلت التكنولوجيا المتطورة مفاهيم وأساليب للكفاية في إدارة المصانع والمؤسسات خدعت أولئك الذين يديرون المدارس . ولكن الجهود التي بذلت لإدخال الكفاية — بهذا المفهوم — في إدارة المدرسة كانت لها نتيجة حتمية ، وهي تنظيم المسادة البشرية بحيث لا تتدخل في تنفيذ الأعمال الروتينية والجداول المخططة بعناية . ولم تقتبس المدارس اقتباساً كاملاً إجراءات التجميع الآلى على الشريط المتحرك في المصنع ، وإن كان من السهل في بعض الأحيان تصور التلاميذ وقد وضعوا في أول يوم من أيام الدراسة على شريط تربوي متحرك ينقلهم — بلا خطأ — من صف إلى آخر لتضاف إليهم المقادير المضبوطة من المعرفة أثناء مرورهم في كل صف .

ولم يكن هذا المجهود الذي بذل لبلوغ الكفاية شيئاً كله بطبيعة الحال . فقد تحسنت ظروف الإضاءة وجلس التلاميذ ، وتصميم المباني المدرسية واستغلالها ، وتنمية الميزانية ، وتأمين التوريدات ، وتغذية التلاميذ ونقلهم ، وخدمات الإشراف والرعاية ، ودورات المياه . كما تحسنت جوانب كثيرة أخرى من الإدارة المدرسية . ومع ذلك فإننا نجد مرة أخرى أن ما كان المدرسون يفعلونه تحت ضغط الضرورة حينما كان النمو السريع يحتم مجرد نقل المعلومات بوصفه الاهتمام الاستهلاكي للتعليم ، أصبح آنذاك يعتبر غرضاً سليماً ، فأصبح تمكن التلاميذ في المعلومات أمراً يعظمه الجميع .

وبينما كانت المدارس تنمو خلال تلك السنوات ذات الظروف العصيبة ، اكتسب الذين يقومون بالتدريس فيها ، والذين يقومون على إدارتها من العادات ما وجدوه حسناً . فأصبحنا جميعاً ضحايا العادة مالم نكون متيقظين دائماً . وقد حلت العادة محل الحاجة إلى التفكير حول الأمور التي بدا لنا أننا نسيطر عليها . والمدرسون لا يشذون عن هذه القاعدة . ومع ضغط الظروف ، على جانب الإدارة والنظام وقس ضغط العادة على جانب الروتين والاستظهار . وعلى ذلك تألف قالب التعليم من الاحتفاظ بهدوء التلاميذ ودفعهم إلى التكرار والتكرار حتى يعرفوا الإجابات الموضوعية بين أيديهم ، ونقلهم من صف إلى الصف الذي يليه لكي يشدوا إلى المعرفة الجديدة كما تشد العربات بعضها إلى البعض لتؤلف القطار .

في مثل هذه الفصول الدراسية تعلم التلاميذ أن أى محاولة للتفكير فيما بين أيديهم من حقائق كثيراً ما أدت إلى المتاعب ، لأن التفكير كان يقاطع نظام العملية ، ويترك بعض الحقائق دون مساس . ثم إن الاختبارات التي أجريت فيما بعد أظهرت أن التعليم كان عقياً ، الأمر الذي زاد من تأييد العادات التي خلقتها الظروف الأولى . وهكذا كان من العسير التخلص من هذا الجذب العنيف الذي تمارسه العادة . وقد لاحظ آى . إ . رتشاردز (١) هذا حين قال :

« نحن نتعلم بأن نرى كيف نقوم بالأشياء ، لا بأن نمضى في الحركات مضياً أعمى . وبعد البصيرة — لا قبلها — ينمى التكرار عادات قد تحمل محلها بصورة مثمرة . وإنه لمن الغريب أن تسيطر هذه الأفكار العتيقة عن كيفية حدوث التعلم كل هذه السيطرة على أساليب التدريس ، حيث إن الضياع الذي تسببه لا يظهر في أى مكان آخر يمثل هذه الدرجة من الوضوح » .

فالضياع ظاهر ، ولكن السيطرة التي تمارسها العادة على أساليب التدريس أمر لا غرابة فيه ، إذ أن الصراع مستمر دائماً بين العادة بوصفها أداة ، والعادة بوصفها سيداً . وإن قدراً معيناً من النظام أمر ضرورى في كل حياة . فهو وسيلة لكسب الحرية التي تنتج عندما يتم وضع جزء من الخبرة تحت السيطرة . والتصرف يصبح أمراً مستحيلاً إذا غزا عدم الثقة كل جوانب الحياة . ولكن عندما يصبح النظام محترماً لذاته ، وعندما يتحول إلى غاية تسمو على الفحص والمناقشة فإن الحياة تجري في مجرى الروتين والآلية .

الخوف من التفكير عقبة في وجه التقدم

يجد كثير من المدرسين بالطبع أن روتين العادة مريح . وكثير منهم يفتقر إلى روح المغامرة . وأفراد هذه الفئة الأخيرة قد يقتنعون بوجاهة اقتراح إجراء التغيير (مثل التغيير من نظام الاستظهار والتسميع الصارم إلى المشاركة الحرة في المناقشة) إلا أنهم يترددون في القيام به لأنهم لن يشعروا بالاطمئنان إذا هم ترحلوا عن مواقفهم المألوفة . وهم يخشون العواقب التي تترتب على تخليهم عن الأساليب التي طبعها الاستعمال اليومي بطابع التأكيد واليقين . ويجب أن نلاحظ

I. A. Richards, Interpretation in Teaching (١)
(New York ; Harcourt, Brace & Company, 1938) p.71.

أن خوفهم هذا مبعثه قلقهم على التلاميذ الذين يعلمونهم ؛ فهم في هذا الشأن يشبهون أولياء الأمور الذين يقاومون كل مجهود تبذله المدارس لتساعد تلاميذها على أن يكتسبوا المعرفة — في ظروف موضوعية — عن الفوارق الجنسية والمشكلات الحتمية التي تؤدي إليها . فهم يخافون من أن « تنفتح آذان » أبنائهم ، متجاهلين أن أبنائهم قد انفتحت آذانهم فعلا ، وأن ما لديهم من المعلومات والأفكار حول هذا الموضوع غير سليم على الأغلب ؛ وأنهم — فضلا عن ذلك — سوف يكتسبون المزيد منها من مصادر متنوعة تنوع مطعم المدرسة ، والكتابات السقيمة ، والثروة في زوايا الشوارع ، والأفلام المثيرة ، وأخلاق الرفاق . فالربيع يشرق على الذين يعلمون والذين لا يعلمون على حد سواء .

في هذه الظروف يخشى المدرسون والآباء المعرفة . وهم ينسحبون لأنهم عاجزون عن تقدير العواقب المترتبة عليها . ونتيجة لذلك يسحبون من أمام الشباب الفرصة السانحة لكي يتعلموا كيف يفكرون . وخوفهم هذا يجعلهم أسرى العادة . ولعل برتراند راسل قد بالغ في تقرير هذه الحال عندما قال : « إن الناس يخشون التفكير كما لا يخشون أى شيء آخر على وجه الأرض ، يخشونه أكثر مما يخشون الدمار ، بل وأكثر مما يخشون الموت » ، إلا أنه مع ذلك لفت الأنظار إلى سبب آخر من الأسباب التي تجعل الأفكار — في بعض الفصول الدراسية — تنسحق تحت أقدام الحقيقة الزاحفة في إصرار وإلحاح . وبعض المدرسين يجدون هذه العبودية — بطبيعة الحال — ويربتون في حنان على السلاسل التي تقيدهم .

ومن حسن الحظ أن هذه الأمور ليست هي الخصائص المميزة لغالبية المدرسين ؛ فمعظم المدرسين يحاولون باستمرار أن يجدوا لأنفسهم طرقاً لتجويد ما يقومون به باطراد . فهم يحضرون الاجتماعات المهنية ، ويتابعون الدراسات التجديدية والعالية في المساء أو في الصيف ، ويشتركون في اللجان التي تشكل لدراسة المشكلات المتخصصة ، ويطالعون ويسافرون — يحدوهم الأمل دائماً أن يصبحوا أكثر فعالية . وجهدهم هذا ضريبة لحماستهم المهنية . فهم لم يتلقوا من الاعتراف الاجتماعي ما يعادل الخدمة التي يسهمون بها في الرفاهية القومية . وهم لم يتلقوا حتى الآن من المرتبات ما يسمح لهم بأن يفعلوا الأشياء التي يعرفون أنهم لابد أن يفعلوها ليقوموا بأنفسهم . ومع ذلك فهم ماضون في بذل الجهد الرامى إلى أن يجعلوا من فصولهم الدراسية أماكن لا يجد فيها الناشئة ألوان التحدى فحسب ، بل ويجدون أيضا ألوان الرضا

فى تقبلهم إياها . وهم لم يستسلموا للعقبات الكثيرة التى تواجههم كأفراد أو تواجه مهنتهم بصفة عامة . وقد جعلت منهم حياتهم خبراء فى التسليم بالمتاعب وعلاجها . ولربما غلبتهم العادة فى بعض الأحيان ، بل واليأس فى بعض المناسبات . إلا أنهم ينهضون رغم هذا من جديد ، ويمضون فى الكفاح عالمين بأن ما يقومون به للناشئة أمر لاغنى عنه لتقدم الحضارة الحرة التى يتم فى إطارها تكريس أنفسهم لمهنتهم .

القسم الثاني

تحليل للتفكير

في الحديث العادى تستعمل كلمة « افكر »
لتدل على معان متنوعة . فقد نعى أننا قد تذكرنا
شيئاً فقط . وقد نشير بها إلى شطحة غير متوقعة
من شطحات الخيال . وقد نعى بها أن مشكلة
عويصة قد حلت .

ومع ذلك فهناك حقيقة واحدة واضحة في كل
حالة من هذه الحالات ، وهى أن نشاط المتحدث
الماضى والحاضر والمستقبل داخل في العملية ،
فلا يدعى وجود فاصل بين التفكير والعمل .

التفكير هو أن تبني خطة وأن تعتقد .
والاعتقاد هو أن تكون راغباً في العمل . وفي هذه
المرحلة يكون الإنسان وجهات النظر فيما هو
كائن وفيما يجب أن يكون على السواء . وألكنه
يصطدم أيضاً بمشكلة محيرة ، وهى : كيف يمكن
مزاولة التفكير بحيث يشعر أنه هو نفسه يسيطر
سيطرة معقولة على ما هو كائن ، وأنه يتوافق
لديه اليقين المقبول عما يجب أن يكون ؟

الفصل الثالث

التأمل كتفكير منضبط

يمكن اكتساب بعض الفهم للمناصر التي يتألف منها التفكير ببحث ما يبدو أنه الجوانب الثلاثة المترابطة لهذا النشاط . وهذه الجوانب هي : الإدراك ، والذاكرة والخيال . وغالباً ما يبدو أن عملية معينة من عمليات التفكير تحدد حين يستعمل أحد هذه المصطلحات لوصفها . وفي الإمكان مثلاً أن نلاحظ رجلاً يجلس على مقعد مريح أمام المدفأة . فبينما هو يراقب الجمرات المتقدة وخصلات الدخان الصغيرة فإن كل عمله الخارجى يوحى باستغراقه الكامل فى النار وحدها . ولكن لنفرض أننا لاحظنا نظرة سارحة فى عينه وتساءلنا عما يدور بذهنه . ولعلنا سأله : « ماذا تفعل ؟ » فتلقينا جوابه : « آه ... لا شئ فى الواقع . أنا أفكر فقط » . وقد نعجب عندئذ ماذا يعنى ؟

وقد توضع أفكاره — أو نشاطه الفكرى — كلها تقريباً فى نطاق الذاكرة . فإذا كان الأمر كذلك استطعنا أن نسمى تفكيره بحق تذكراً أو استعادة للماضى . ومن الناحية الأخرى قد يكون « تفكيره فقط » من قبيل « ماذا كان يمكن أن يحدث ؟ » وهنا يرقص التفكير إلى الوراء وإلى الأمام بين الذاكرة والخيال وصاحبنا شارد اللب أو غارق فى أحلام اليقظة . فهو يمكن أن يشبه بصاحب البيت المضيف يفتح بيته لجميع الأفكار ، مرحباً بها جميعاً على السواء . أما إذا انطلقت أفكاره بصورة أقل تعقيداً ، منقطعة الصلة تماماً عن العالم الذى يحيط به ، والذى يغزو حواسه وجدنا أنه غارق فى التصور الخيالى . ومن المحتمل أن يقول إن تفكيره فى هذه الحالة كان « خيالاً خالصاً » .

على أن الأضواء المتراقصة والأصوات الناتجة عن تحطم الخشب قد تثيره حركة خفيفة من حين لآخر بوجودها غامضة فى مواجهته . وفى هذه الحال يكون نشاطه « الفكرى » أكثر قليلاً من الإدراك . ونحن لانستعمل فى العادة اصطلاح « التفكير » لنصف مثل هذا التفاعل بين الكائن الحى وبيئته . ومن العسير جداً — إن لم يكن من المستحيل — الاحتفاظ بحالة الإدراك خالصة مجردة ، وإن كان القيام بذلك يبدو

أصعب فقط من الاحتفاظ بالنشاط الذى يكون ، إما تذكرًا خالصًا ، وإما تخيلاً خالصًا ؛ إذ من منا يستطيع أن يعيد فى الذاكرة خلق حادثة ما كما حدثت بالضبط ، ولو لم يمر عليها سوى ساعة واحدة فقط ؟ أو من منا يستطيع أن يخلق - تخيلاً - شيئاً جديداً تماماً ؟ إن من خصائص الفكر أنه بينما يطفى فيه أحد جوانبه فى وقت معين فإن نغمات أو لمحات من الجانبين الآخرين قد تتماثل بصورة طبيعية .

المعرفة ليست مباشرة قط

إن للاعتراف بترايط الذاكرة والخيال والإدراك أهميته القصوى فى دراسة طبيعة الأعمال التى يطلق عليها اصطلاح « المعرفة » وفرع الفلسفة الذى يعالج طبيعة المعرفة هو نظرية المعرفة Epistemology وتندرج تحت هذا الفرع من الفلسفة نظريات كثيرة وآراء مختلفة متعددة عن طبيعة المعرفة . والمعرفة - طبقاً لوجهة النظر التى سوف نوضحها هنا - لا يمكن أن تتكشف بصورة مباشرة قط .

والمرء لا يرى الجمرات المتقدة ، ولا يسمع انحطام الحطب وفحيحه وهو يشتعل فى الموقد - بما يعنيه الإدراك البعث ، ولحسن الحظ للتجربة تتألف - على أحسن تقدير - من نور وحرارة بتركيز معين وصوت من نوع خاص . وتقوم لمحات الذاكرة والخيال بتحويل أو تأويل الضوء والصوت إلى جمرات متقدة ونار وتحطم الحطب ، وهذان الأخيران - لامادة الإدراك الحظ - هما موضوعا المعرفة . وعلى هذا فالمعرفة تنقل بالواسطة (أى بالمحسوسات المؤولة) ولا تصل مباشرة (أى عن طريق المحسوسات الحظ) قط .

وهذا بالطبع لا يعنى أننا قد نعرف فى حالات كثيرة دون تأخير ولا إبطاء . فالإنسان لا يحتاج إلى زمن « يفكر فيه فى الأمر » حتى يتعرف الضوء والصوت باعتبارهما الأخشاب المشتعلة . فإذا كانت التجربة الماضية لا تيسر هذا التعرف فإنه قد يكون لزاماً علينا أن « ننتظر ونفكر » . وربما كانت التعريفات المطولة لازمة قبل أن نستطيع إعادة تنظيم موقف معين بغية التعرف على طبيعته . ولو كان صوت انحطيم الحطب صادراً عن غرفة أخرى ولم تكن المدفأة أمام أعيننا لكان التفكير ضرورياً حتى نعرف ماذا نسمع ، أو - كما نقول غالباً - قبل أن نستطيع التعرف بالصوت .

وعلى العموم فكلما امتلأت الدلالات بالمعنى (أى كلما اتصلت بالخبرة الماضية) تم التعرف بسرعة . وحينما يقال : إن المعرفة تم بالواسطة ولا تم مباشرة قط ، فإنما تنصرف الإشارة إلى الدور الضرورى الذى يؤديه المعنى أو الدلالات ، ولا تنصرف إلى ما يحتاج إليه المعرفة . من الوقت ولا إلى ما تتضمنه من التفكير . فإذا عرضت المناسبة وجب أن يوجه النشاط - عن عمد - بوسائل تمدنا باللمحات السليمة المطلوبة ولكن مادام النشاط يستمر فى حدود التعرف فإنه لا يكون هناك داع إلى ممارسة السيطرة الواعية عليه ؛ ذلك لأنه لا تواجهنا مشكلات فى تلك الحال . ولكن إذا خان التعرف - ولو بصورة وقتية - استدعى الموقف مشاعر الشك وعدم التأكد . وهذه هى التربة التى ينبت منها النشاط التأملی (وهو النشاط الذى يطلق عليه غالباً - بطريقة أكثر ضيقاً وتضييقاً « النشاط الهادف لحل المشكلات ») . وينبغى لنا أن نلاحظ أنها تربة تمزج بين الاندماج العاطفى والنشاط التأملی ؛ ذلك لأن التفكير ليس من عمل آلة منطقية غير شخصية .

مثل هذا الموقف يتضمن شيئاً غير « التفكير فقط » أو الشرود أو السبع فى التصور الخيالى . فالجهد يوجه الآن لارتداد المعنى الذى توحى به الظروف المشكوك فيها . وفى غيبة المشكلات ينطلق الإنسان كما تنطلق الطيارة التى يسيطر عليها الطيار الآلى . والواقع أن خطوط الحياة الجوية قد حكت بدقة فى نطاق الخبرة الماضية إلى درجة أن الطيار الآلى (وهو هنا العادة) يتولى العمل معظم الوقت . ولكن عندما تهب عاصفة ، أو يقوم ضباب ، أو تظهر طائرات ليست مدرجة بجدول الطيران - أو باختصار - عندما يحدث شئ مشكوك فيه - تسنح الفرصة « للتفكير » ، أى الانهماك فى النشاط التأملی . وما دام اهتمامنا هنا ينصب على التربية والتعليم فإننا يجب ألا نتجاهل أن المناسبات السابقة « للتفكير » تقدم لنا المعانى السليمة فى أى لحظة معينة من لحظات التعرف ، أو تقدم المجال الذى ينشأ فيه التعرف .

التأمل يقوده الغرض

يختلف التأمل أساساً عن أنواع التفكير الأكثر انطلافاً بحكم أن الغرض هو الذى يوجهه أو يضبطه . والغرض هو حل مشكلة من المشكلات . ومن سوء

الحظ أن هذا لم يفهم دائماً . فقد شعر البعض أن هناك شيئاً شيئاً كامناً في صورتين من صور النشاط الفكري ، وهما سبغ الخيال وأحلام اليقظة . من ذلك أن ديوى كتب يقول مثلاً : « التفكير بالمعنيين اللذين ذكرناهما أولاً - (وهما تجوال الأفكار في عقولنا بلا ضابط والصور الفكرية لشيء غير موجود أصلاً) قد يكون ضاراً بالعقل لأنه يشتت الانتباه عن العالم الواقعي ، ولأنه قد يكون مضيعة للوقت (١) . » وقد اعتبر أن تشجيع هذا النشاط عن عمد أمر سيء بصفة خاصة .

وإنه لمن الحق - بطبيعة الحال - أن المرء إذا غرق في سبغ الخيال كهادة ، واستعمله كمخدر فكري - إن صح هذا التعبير - فإنه قد يفضي إلى النتائج التي أبدى ديوى نخوفه منها . ومع ذلك فالواقع أن القدر الهزيل من الخيال قد يكون شيئاً كالقدر الزائد عن الحد منه ، والانتباه الزائد عن الحد للعالم الواقعي ، قد يكون شيئاً كقلة الانتباه الزائدة عن الحد أيضاً . ليس هذا فحسب ، بل قد يكون في وسع الإنسان أن يمارس قدرأ زائداً عن الحد من الضبط والسيطرة أو يمارس نوعاً جامداً منه . والتفكير لا يكون جيداً أو رديئاً - أو أجود أو أردأ - إلا بالقياس إلى غرضه الذي يوجهه . ولا يعني هذا سوى أن التفكير يجب أن يحكم له أو عليه على أساس مناسبته للموقف الذي ينشأ فيه . وقد يكون الغرض شريفاً أو وضعياً ، وجيهاً أو تافهاً . ولذلك لا ينبغي أن يحكم على نوع التفكير بنوع الغرض .

وهذه نقطة يحتاج المدرسون إلى أن يتدبروها بصفة خاصة ؛ مثال ذلك أن الإجراءات المناسبة لعلاج التلميذ الذي يقضي قدرأ كبيراً من الوقت في التفكير الجيد من أجل أغراض تافهة تختلف بالتأكيد عن الإجراءات اللازمة لمساعدة التلميذ الذي قد يكون متجهاً إلى اعتبارات أشرف وأوجه إلا أنه مع ذلك غير موفق أو غير كفء من الناحية الفكرية . وربما كانت الإنشاءات الخيالية المسرفة ، والذكريات المديدة ؛ والتصورات الحسية القوية - بل « وتجوال الأفكار بلا ضابط » مناسبة لبعض الأفراد في مواقف معينة . وربما كان لكل واحد منها دوره الهام الذي يؤديه في حل ولو مشكلة واحدة . ومفتاح التفكير الفعال ، أو « الجيد » هو التحكم في استعمال الإدراك والذاكرة والخيال في توازن يناسب الغرض الخاص أو المشكلة القائمة . على أن سر الحكمة والحياة الطيبة يكمن في الاعتراف بالمشكلات والأغراض القيمة واختيارها .

ولنتدبر مرة أخرى الرجل الذى كان « يفكر فقط » وهو جالس أمام المدفأة .
وانفترض أن الشرر تطاير من المدفأة فأحرق البساط ، فهذه مشكلة تسترعى الانتباه
المباشر . ولنفترض - من الناحية الأخرى - أن ذكرى معينة أثارت لديه التساؤل
« ماذا كان على أن أفعل ؟ » فى موقف معين تذكره . وفى كلتا الحالتين لن يجدى
الفيض الهائى من النشاط فى التوصل إلى حل مرض للمشكلة ، اللهم إلا بمحض
المصادفة البحتة .

فى حالة احتراق البساط ، فإن مشول دلالات حسية جديدة (وهى البساط
المحترق) سوف يقطع أحلام اليقظة بعنف . وسرعان ما تتولى الأمور سلسلة جديدة
من الأفكار متضمنة الرموز اللغوية والتوترات العضلية والمشاعر والصور المزعجة .
وبالرغم من أن الأفكار تكونت كنتيجة مباشرة للمواد الحسية الجديدة فإنها
تتضمن كلا من الذاكرة والخيال كما تتضمن الإدراك . وهكذا تتألف « تركيبات كاملة
التكوين » ذات أبعاد ثلاثة قد تنصرف إلى الاتصال تليفونيا بإدارة المطافئ وصب
الماء على النار ، والدمدمة على البساط المحترق والصياح « النار النار ! » وإخراج
الأطفال من المنزل وما أشبه ذلك . وقد تكون بعض هذه التركيبات جديدة
على هذا الشخص حتى ولو لم يقدم له خياله أية عناصر جديدة تماماً . فمثلاً بالرغم
من أن هذا الشخص لم يتصل - فى الواقع - بإدارة المطافئ من قبل أبداً ، فإن
« فكرة » القيام بذلك لا تحتوى على أية عناصر جديدة عليه (١) .

وهذه الأفكار سوف تتألف على الفور تقريباً ، هذا بالإضافة إلى أن ذاكرة
الشخص وخياله سوف يتوليان - بلا شك - توليد تركيبات أخرى لا حصر لها :
فهو قد يتذكر الحرائق السابقة ، وما نشرته الصحف من صور الحرائق والتعليق
عليها ، وقصص الحرائق وما إلى ذلك . وسوف تكون لديه ذكريات عن نداءات
التليفون والصياح والصراخ والمياه والدمدمة وحماية الأطفال . وفى حمى الانفعال
قد تتحد ذاكرته وخياله وإدراكه بصورة مركبة ، حتى إنه « يرى » ألسنة مندلعة
من اللهب « ويسمع » صراخاً ليس له أى أساس وجودى حاضراً على الإطلاق .

(١) وحيثما تضمن التصرف الفعلى عنصراً فعلاً - مثل الطعم أو الصوت المتميز -
فإن (فكرة) العمل ستكون - إلى هذا الحد - قاصرة .

وقد لا تمضى سوى بضع ثوان قبل أن تغمد النار . فإذا سأل أحد الناس هذا الشخص : « ماذا حدث ؟ » فإننا قد نتغفر له عجزه عن إعادة بناء الأمور تماماً - اللهم إلا تلك التركيبات الذهنية التي نشأت كنتيجة مباشرة للإدراك فقط . والواقع أنه قد يرويهما بدرجة مذهلة من الدقة ، فإن استعداد الإنسان التأملى يبلغ من القدرة والتعقد فى هذا الشأن درجة تجعل أمامها أعظم آلاتنا الالكترونية تقدماً . ولكن يصعب - فى بعض الأحيان - التفريق بين الذكريات والمشاعر ، أو بين الذكريات الأخرى وذكريات الإنشاءات الذهنية الخيالية . هل هو استدعى فرقة المطافىء فعلاً ؟ أو أنه فكر فقط فى أن يقوم بذلك ؟ كلما ازداد خياله خصباً ازداد استعداد الكامن للخطأ . ولعله يستطيع أن يتذكر « لمسة » سماعة التليفون فى يده ، و « نعمة » صوت عاملة التليفون الهادى . ولكن هل حدثت هذه الأمور فعلاً ؟ إن هذا الشخص قد يحتاج إلى أن يبحث عن دليل حتى يستطيع أن يقرر باطمئنان هل هذه الأشياء قد حدثت فعلاً أم لا . وقد يشير عدم محبى فرقة المطافىء إلى أنه تخيل فقط أنه اتصل بها بالتليفون .

أنماط التفكير

كشفت البحوث الحديثة فى ميدان الفسيولوجيا عن وجود مدى واسع من الفروق فيما يتصل بأنماط التفكير الميسورة للأفراد^(١) . ويمكن وصف نمط بارز من هذه الأنماط بأنه « التفكير اللفظى » فى مقابل ما قد يسمى « بالتفكير الحسى » . مثال ذلك أن إنساناً قد يقرأ مقالاً أو رواية عن مصر الفرعونية مثلاً : فهل « يرى » هذا الإنسان الأهرام ، و « يشعر » بالجو الدافئ ، و « يشم » رائحة النيل ؟ أم أنه يأنس بهذه الكلمات وحسب ؟ إن الإدراك الحسى للكلمة المطبوعة ينشط الذاكرة ، وبذلك يستطيع القارئ أن يتذكر - فيما بعد - الكلمات التى قرأها . ولكن إذا أثير خياله فإنه قد يقرأ ما وراء السطور - إن صح هذا التعبير - وقد يكون ما يقرأه وراء السطور كلمات أكثر وحسب ، إلا إذا ظل الإدراك نشيطاً ، لأن الإدراك وحده هو الذى يتيح للمرء أن « يرى » و « يحس » و « يشم » . فإذا

(١) انظر : William G. Walter , The Living Brain : (New York: W. W. Norton & Company Inc , 1953)

كانت الكلمات المطبوعة في الصحيفة هي : « وكانت الأهرام في الأصل مطلية بالحجر الرملى الأبيض ، فقد يضيف الخيال - بحيث يعكس النور والحرارة » . وإذا كان الخيال لفظياً أساساً فإن الأمر لا يتضمن شيئاً أكثر من الكلمات . أما إذا كان الخيال يتضمن « الفكر الحسى » فإن تألق الحجر الرملى الأبيض قد « يرى » ، والحرارة المنعكسة قد « تحس » .

أين يقف مختلف الأشخاص بالنسبة لكمية « التفكير الحسى » الميسور لهم ؟ إن التمرين اليسير التالى قد يساعدك على أن تقرر ذلك : أغمض عينيك ، وصور لنفسك صبيّاً يقود فيلا هندية فى طريق مترب . ركز على هذا النشاط ما يقرب من دقيقة واحدة . ثم افتح عينيك وأجب عن السؤالين التالين :

١ - أى نوع من الملابس كان الصبي يلبس ؟

٢ - بأية وسيلة كان الصبي يقود الفيل ؟

والإجابة عن هذين السؤالين هل « تعيد خلق الصورة » ثم « تنظر » لتجيب عنها أم تجيب عن السؤالين على المستوى اللفظى الدقيق فى صورة ما تعتبره معقولاً من حيث الملابس والوسيلة ؟ فإذا أحييت الصورة فهل يتضمن هذا الإحياء « لمسة » التذكر - (أى هل هى نوع من الصورة الفوتوغرافية للخلق الأول) بحيث إن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من نظرة واحدة لتكشف عما إذا كان الصبي يلبس ، وبأى وسيلة كان يقود الفيل ، أم أن الصورة الثانية خلق جديد (أى إنها منظر أكثر تفصيلاً من الأول) بحيث أصبحت تشتمل على إجابة السؤالين ؟

هذا التفريق يميز بين أربعة مستويات من « التفكير الحسى » على الأقل . وأكثر هذه المستويات الأربعة نشاطاً تدل عليه القدرة على تذكر المناظر (أو الأصوات أو الروائح ، وكذلك العواطف وألوان التوترو وما إلى ذلك) التى سبق تصورهما بنفس الطريقة التى يتذكر بها الإنسان المناظر التى سبق له رؤيتها . فى هذا المستوى يكون الخيال فى حيوية الإدراك الحسى تقريباً ، وكثيراً ما يلقى الأفراد صعوبة فى تذكر ما إذا كانوا قد فعلوا الأشياء حقيقة ، أم أن الأمر لم يعد أنهم فكروا فيها . مثال ذلك أن إنساناً قد يتصور منظر الصبي والفيل ذات مرة ثم يتذكره فيما بعد ، ويجيب عن الأسئلة السابقة كأنما هو قد شاهد الصبي يقود الفيل فعلاً . إذا كنت تصف حادثة سيارة شاهدتها بنفسك ومألك أحد الناس عن ملابس

الناس الذين شملتهم الحادثة فهل تتذكر ما رأيت ببساطة (وهو في العادة أكثر مما لاحظت في ذلك الوقت) ثم تجيب عن السؤال أم تعترف بأنك لا تذكر التفاصيل ؟

وهناك مستوى أقل نشاطاً يدل عليه رفض اعتبار تذكر شيء من صنع الخيال تذكرًا للتصور الحسى . وفي هذا المستوى يعود الشخص الذى سبق له أن تخيل الصبي والفيل فيتصورهما مرة أخرى في تفاصيل تكفى — فى هذه المرة — للإجابة عن السؤالين . وعندما يعمل الأفراد على هذا المستوى يكونون قادرين على الخيال الحسى كل القدرة ، وإن كانوا لا يميلون إلى أن يكونوا خياليين تلقائياً . ومثل هؤلاء الأفراد قلما يخلطون بين ما فعلوه حقيقة وبين ما فكروا فى فعله .

وهناك مستوى أقل انخفاضاً يدل عليه الميل إلى التفكير بالألفاظ — كلية تقريباً — فى غيبة التعليمات الصريحة بتكوين الصور . فإذا طلب إلى الشخص الذى يفكر على هذا المستوى أن يخلق « منظرًا » فى خياله حاول أن يفعل ذلك على نحو مبهم . على أنه إذا سئل مثل هذا الشخص فيما بعد عن المنظر مال إلى الإجابة فى صورة لفظية دقيقة ، مقدما ما يعتقد أنه الإجابات المعقولة عن تفاصيل الملابس وما إليها . ومن غير المحتمل أن يجد مثل هذا الشخص فى الصور والخرائط والرسوم البيانية فائدة تذكر . فإذا سأل أحد الناس مثلاً عن الاتجاهات التى يجب أن يقود فيها سيارته ليصل إلى مكان معين ، فإنه لن يستمتع بالحديث الذى يستهدف مساعدته على فهم تخطيط الموقع ، مفضلاً عليه التوجيهات المختصرة التى يمكن استظهارها عن الدوران إلى اليمين وإلى اليسار .

ومن غير المحتمل أن تلعب التصورات الحسية السابقة التى لم يعبر عنها بالألفاظ تماماً دوراً قوياً فى تفكير أمثال هؤلاء الأشخاص . من ذلك مثلاً أنهم ما لم يعبروا بالألفاظ عن المعلومات الخاصة بأن للأفيال الهندية آذاناً أقصر من آذان الأفيال الإفريقية ، كان من المحتمل أن تكون صورة الفيل الذى يتخيلونه صورة غير دقيقة نوعاً ما أو غير مطابقة لما تعارف الناس على أنه الفيل بصفة عامة . وهذا على نقىض تلك الصورة الحية الكاملة التى يخلقها خيال الشخص صاحب « التفكير الحسى » القوى الذى لو اتفق له أن رأى (إما حقيقة أو تخيلاً) الفرق بين الفيل الهندى والفيل الإفريقى لصور لنفسه — على الفور — فيلا صغير الأذن دون أن يبذل أى جهد واع .

وفي أقل مستويات التفكير الحى نشاطاً يكون الفرد عاجزاً عن أن يصور لنفسه منظر الصبي والفيل — أولاً وقبل كل شيء . ومن المحتمل أن يبدو له التمرين كله شاذاً أو سخيلاً لامتعى له .

ومن الصعوبة بمكان أن نقلل من أهمية الفروق الفردية في هذه الناحية . ففي هذه الفروق تغلغل جذور الخلاف وسوء التفاهم — من أول مائدة إفطار الأسرة إلى مائدة المؤتمر الدولى . وعندما يقترح إنسان توجيهاً لعمل ما فإن الموافقة على « ألفاظ » الاقتراح ومنطوق النتائج المترتبة عليه شيء ، ورغبة الإنسان في الالتزام بالاقتراح بعد أن يكون « غاش مقدماً » — وأحس بالتالى — بالنتائج التى قد تترتب عليه شيء آخر تماماً . وقد لمس شكسبير هذا الفرق فى جملته التى يقول فيها « يموت الجبناء مرات كثيرة قبل أن يلاقوا حتفهم ، أما الشجعان فلا يذوقون الموت إلا مرة واحدة فقط » . فهل من الممكن أن تعنى الشجاعة بكل بساطة — فى بعض الحالات — انعدام « التفكير الحسى » على المستوى التخيلى ؟ ! وإن الأمر لا يحتاج إلى تصميم كبير لتذهب إلى طبيب الأسنان فى الموعد المحدد إذا لم يتجاوز أسوأ ما تتوقعه منطوق الكلمات : « إن هذا لن يؤلمك إلا قليلاً » .

التفكير يخلق بديلات أخرى

فى غضون التدفق الحر للأفكار قد يتذكر أحد الناس موقفاً لم تجرفه الأمور وفق هواه . فيتساءل : ماذا كان يجب على أن أفعل غير هذا ؟ وكما محاولة للإجابة عن هذا التساؤل يقدم الخيال فيضاً من المقترحات . والخيال — الذى هو فى جوهره القدرة على جعل الغائب حاضراً — لا يعيد إخراج صور الأشياء كما هى مطلقاً — سواء فى صورتها الواقعية أو صورتها التذكيرية . وعندما ينشط الخيال يعيد صياغة أو تشكيل عناصر الواقع على هيئة بديلات ، وعندما يختار الفرد من بين هذه البديلات ويعمل بمقتضى واحد منها أو أكثر فإنه يغير الواقع بذلك . مثال ذلك أن صاحبنا الجالس أمام المدنأة إذا قفز على البساط ودهم بقدميه عليه وصاح : (النار !) فإن العالم الواقعى يتعدل .

وفى حالة قيام مشكلة بين الأفكار التى يعتقدونها الفرد — لا بين الأشياء التى تحيط به — « ينفذ » الفرد بديلاً أو بديلين (فى ذهنه) — إن صح هذا التعبير — قبل أن يتم السلوك العلنى . ولا يستطيع الإنسان — بطبيعة

الحال - أن يغير حقيقة الأمس ، ولكنه يستطيع أن يغير أو يزيد من فهمه له ، ومن ثم يغير مغزاه . وبذلك يتعدل تأثيره في التصرف فيما بعد . ومن ثم فهو قد تغير بهذا المعنى ، لأنه أصبح مثيراً مختلفاً تماماً عما كان من قبل . وبعد أن يعرض الإنسان ذكرى من ذكرياته لهذه « المراجعة » قد يكون من العسير عليه أن يحى بناء على طلبه - نفس الحوادث التي وقعت وحدها . ومع ذلك فإذا نتج عن هذه « المراجعة » فهم أعمق فقد تكون الذكرى الملونة أدق - في بعض الوجوه - من الذكرى الأصلية غير المزينة .

ماهى كمية الزخرفة أو التفسير التى يجب أن يحمل بها الفرد تجربته العارضة مع أشياء وأحداث عالمه . إذا اقتصر الشخص - عند روايته لحادثة البساط المحترق - على ذكر حزمة المادة الخام لتجربته (التى تلقاها على مستوى الإدراك) قلنا إن روايته غير مفهومة على الإطلاق . والواقع أن أى تعبير لفظى عن مثل هذه الحادثة معناه تقديم بعض التفسير . فإن التحدث عن التجربة كشئ فيه ألوان وروائح وأصوات وما إلى ذلك هو تزيف المادة الخام للإدراك بمادة تفسيرية . فإذا ألبس الشخص هذه التجارب غلالات من التفسير المسرف ، فإننا قد نبتم وتقول : « إن له خيالا خصباً » . فإذا أضاف إلى ذلك شيئاً أكثر قلنا إنه مخرف أو هستيرى . وإذا أضاف أكثر وأكثر قلنا : « إنه غير عاقل (أو) إنه خرج عن حدود العقل » . ولعلنا نكون أكثر دقة إذا قلنا إنه « عاقل » وإنه فى « نطاق عقله » . ذلك لأن القدر « السليم » من التفسير هو دائماً مسألة تناسب لجرى الأمور وهو نفس السؤال الذى واجهناه من قبل فيما يتصل بالتفكير « الجيد » . ومرة أخرى نرى أن « الجودة » لا معنى لها إلا بالمعزى الوظيفى - أو بالقياس إلى مدى اتصالها بموقف معين .

موقف أدعى إلى التفكير التأملى

فى عصر يوم مطير كان أحد الأفراد يعمل فى غرفة كانت مضاءة آنذاك بمصباح فلورسنت واحد ، وفوجئ بانطفائه وعلى الفور تذكر أن هذا المصباح خفق فى الأسبوع الماضى بطريقة غير عادية فى عدة مناسبات . وبسرعة قفز إلى استنتاج أن المصباح « قد احترق » وقد تم التوصل إلى هذا « الاستنتاج » على مستوى الإقرار ، تماماً

كما أن إصدار النور الأحمر يعنى الخطر على الفور . إلا أن إنساناً صالح من الغرفة المجاورة — فى نفس الوقت تقريباً — يقول : « إن التليفزيون قد انطفأ ، فألقى هذا الشخص نظرة على الساعة الكهربية ولاحظ أنها قد توقفت أيضاً . أضف إلى ذلك أنه أدرك أن اثلاجة — التى كانت تعمل بهدوء — قد توقفت هى الأخرى ، فقفز بسرعة إلى استنتاج جديد وهو أن توصيلة الكهرباء قد احترقت »

ولكى يختبر هذه الفكرة جرب الاضواء فى غرفة أخرى ، كما نادى زوجته وطلب إليها أن تجرب أضواء الطابق العلوى . إلا أن نتائج هذه الاختبارات أوحى بفرض ثالث : وهو أن التيار العام قد انقطع . ومن ثم نظر الشخص من النافذة فلم يلمح أى ضوء فى الحى . ولم يهتم كثيراً بهذه الملاحظة ، إذ بالرغم من أنه كان مساءً كثيراً فإن الليل لم يكن قد أقبل بحيث يحتاج الناس إلى النور ، وقرر أنه من الأفضل أن يكشف على صندوق التوصيلات على أية حال . فلما كشف الفحص أنه لا عيب فى التوصيلات اتصل بإدارة الكهرباء فجاءه الرد مؤيداً لصورة معدلة من الفرض (الثالث) وهو « أن التيار انقطع جزئياً عن قطاع فى المدينة » .. وقد أخبرته تجاربه السابقة أن يظل « جالسا على أهبة الاستعداد » لأن إدارة الكهرباء ستبذل قصارى جهدها لإصلاح الخلل بسرعة .

ويبدو أن الموقف يعرض العوامل الداخلة ، أو مراحل النشاط التأملی التالية :

١ — وجود موقف مشكل (والاعتراف به) . ففى حالتنا هذه توقف النشاط الماضى بسهولة فى طريقه — بفضل تغيير غير عادى وغير متوقع — وهو انطفاء النور .

٢ — استيضاح المشكلة ، ففى حالتنا هذه تحقق صاحبنا — على مستوى الاعتراف — أنه لكى يستعيد النشاط المستمر — أى لكى يرد الضوء إلى العمل — يجب عليه أن يحدد سبب انطفائه . وبالاختصار فقد تم استيضاح المشكلة فى نفس لحظة بروزها تقريباً .

٣ — تكونت الفروض ، واختبرت ، وعدلت . والفروض — التى قد تسمى إichاءات أو تخمينات أو آراء أو بصائر — تقودنا إلى أن نلقى بيانات تكهنية

في صورة اقتراحات من قبيل « إذا كان ... إذن ... » ومثل هذه المقترحات الافتراضية تقدم الدليل - أو تفسر - الحقائق التي لاحظها الفرد فعلا أو تعثر فيها ، كما أنها تعمل على توجيه المزيد من الملاحظة أو البحث عن الحقائق . وفي حالتنا هذه مثلا تكون هذا التكهّن التالي في إحدى المراحل : « إذا كانت إحدى التوصيلات الكهربائية هي التي احترقت ، إذن فكل الأنوار المتصلة بهذه الدائرة ستكون مطفأة ، ولكن الأنوار المتصلة بالدوائر الأخرى ستكون سليمة » . وقد تأيد هذا الفرض (نم عزز) بتوقف الثلاثة والساعة الكهربائية والتليفزيون . زد على ذلك أن هذا الفرض أدى إلى التكهّن بأن الأضواء العاملة على دوائر الطابق العلوى إذا جربت فإنها ستوجد سليمة . وكما اتضح ، فقد أشار البحث عن الحقائق إلى الحاجة إلى إعادة النظر في الفرض ، وهذا معناه أن التكهّن لم يتحقق .

٤ - جرى العمل على أساس أكثر الفروض تعزيزاً . وفي حالتنا هذه كان أفضل عمل هو « الجلوس على أهبة الاستعداد » .

ويبدو أن هذه المراحل الأربع تتجاوب بدرجة لا بأس بها مع تحليلات التنكير التأملى الذى قام به غيرنا ممن بحثوا الموضوع . ويضيف ديوى أن التنكير التأملى يتكون بالتدبر النشط الدائب الدقيق لأى معتقد، أو صورة مفترضة للمعرفة في ضوء دعاوى التى تؤيده والتأجج الأبعد التى يميل إليها^(١) . فإذا ساوينا وأسميناه افتراضاً « بأى معتقد أو صورة مفترضة للمعرفة » أمكن أن نطلق على الاختبار والتعديل اللذين وصفناهما في المثال الذى ضربناه « التدبر النشط الدائب الدقيق » الذى ينص عليه تعريف ديوى .

التفكير يميل إلى التجوال

هذا التوضيح السابق للنشاط التأملى الذى يحدث عندما يجابه الإنسان مثل هذا الموقف المشكل البسيط هو - كما يكشف التحليل - أقرب إلى « المنطق » منه إلى الدقة . فعلى حين أنه « سليم » على نحو ما ، فإنه ربما كان مضللاً إذا أخذ

على حرفيته . ويتضح هذا إذا نحن طلبنا إلى الشخص الذى واجهه هذا الموقف أن يخبرنا - بأسلوبه وكلماته - عما « جال بذهنه » منذ انطفأ النور إلى أن قرر أن (يجلس مستعداً) على أساس الافتراض الذى يبدو أن تحرياته قد أيدته . ولعل روايته تكون على النحو التالى :

عندما انطفأ النور كنت جالساً فى المطبخ أخصر لعبة طيارة تخص ابنى . وقد طلب إلى أن أخصها لأنها فى نظره لا تطير كما يجب . وأعتقد أننى توصلت إلى تحديد موضع من مواضع الخلل على الأقل . وبينما أنا أفك الطيارة بدأ ذهنى يتجول هنا وهناك ، وتذكرت مقالا قرأته حديثاً عن كساد الأعمال . وعندئذ انطفأ النور .

وفى اللحظة التى حدث فيها هذا تذكرت أننى قد رأيت هذا المصباح قد خفق بطريقة غريبة فى مناسبتين سابقتين : وأظن أننى افترضت على الفور أن المصباح قد احترق فى هذه المرة ، وإن كنت لا أذكر صياغة هذه الفكرة . والواقع أن الذى قفز إلى ذهنى هو منظر المحل التجارى الكبير - وفيه واجهة تعرض أنواعاً مختلفة من مصابيح الفلورسنت والمصابيح العادية . وعندما أفكر فى الأمر الآن أذكر أننى كنت رأيت فعلاً مثل هذا العرض منذ سنتين فى مدينة أخرى ، ولاحظت آنذاك أنها كانت أول مرة أدرك فيها أن مصابيح الفلورسنت تباع لدى البقالين . وعلى أية حال كانت أول فكرة واضحة كوتتها بعد أن انطفأ النور هى أن أطلب إلى زوجتى أن تبحث عن مصباح آخر عند البقال قبل أن نقوم برحلة إضافية إلى محل قطع الغيار .

وحول هذا الوقت سمعت ابنى يعلن أن التليفزيون قد توقف ، وأذكر أننى ألقيت نظرة على الساعة الكهربائية ولاحظت أنها توقفت . وحول هذا الوقت أيضاً أدركت أن الثلاجة كانت تعمل ، ولكنها لم تعد تفعل ذلك . وخطر بذهنى شيء عن مذيئات الثلج الآلية فى الثلاجات الكهربائية ، ودونت فى ذهنى أن أضبط الساعة بعد أن يعود التيار الكهربى . ودخلت الغرفة الأخرى لأجرب النور ولكننى كنت أفكر فى أننى يجب أن أحرص على أن أخبر زوجتى بحجم المصباح المضبوط ونوعه ، لأنها تميل إلى الإهمال بشأن مثل هذه الأمور . والواقع أننى

لم أكون هذه الفسكرة على هذا النحو ، ولكنني تذكرت (بالصور والمشاعر وما إلى ذلك) حين اشترت « شيش » النوافذ الذي لم يركب تماماً لأنها اكتفت بتخمين حجم النوافذ .

وما إن وصلت إلى مفتاح النور حتى شعرت بالضيق واجتاحني شعور بالمذلة لأنني عشت من جديد - للحظة قصيرة - منظرًا عشته منذ عدة أعوام مضت عندما كنت في الجيش وأدى سوء التقدير من جانبي إلى ضياع ما لا يستهان به من القوة البشرية والمادية . وجربت مفتاح النور ، وناديت زوجتي في الطابق الثاني أسألهما عما إذا كانت الأنوار مضيئة هناك ؟ وأعتقد أنني قلت لنفسي - في هذه اللحظة - « إن الأمر لا يعدو أن يكون انصهار توصيلة كهربية ، وتساءلت عما إذا كان لدى أدوات الإنذار ضد الغارات الجوية في المدينة مصدر آخر تستمد منه القوة في حالة انقطاع التيار الكهربائي التام . ونظرت من النافذة فلم ألاحظ أية أنوار في الحي المجاور ، وسمعت زوجتي تقول : إن الأنوار لا تعمل في الطابق العلوي . ولكن ما كان بذهني حقيقة هو صورة صندوق التوصيلات الكهربائية في الطابق الأسفل ورأيت بقية شمعة كنت تركتها بجواره في مرة سابقة . وعلى الفور خطر لي أن قليلاً من الشمع سيجعل محرك طائرة ابني يدور بحرية أكبر . وعندما تصورت نفسي أدهن المحرك بالشمع تذكرت أنني نسيت مراراً أن أضع الشمع تحت أدراج الصندوق الذي اشتريته منذ أسبوعين .

وعندئذ نزلت زوجتي من الطابق الثاني وسألتني عما إذا كانت إحدى التوصيلات الكهربائية قد احترقت ؟ وقلت : « أظن أنه انقطاع عام في التيار » ، ولكنني سوف أحص الصندوق على أية حال . وبينما أنا أهبط الدرج تذكرت فقرة من قصة لهكسلي قرأتها منذ سنوات تتعلق بمطالبته بأن تكون كل الألعاب واللعب الجديدة على قدر معين من التعقيد لكي يتطلب صنعها جهداً ملحوظاً ، وبذلك ينشط الاقتصاد . وهذا جعلني أبدأ التفكير في مقال الكساد التجاري ، ولكن سرعان ما زحمت عقلي صور فكرية فظيعة نوعاً ما ، سببها بلا شك بعض أجزاء الحب الجنسي من كتاب هكسلي . وفجأة تذكرت قصة سمعتها حديثاً عن لعبة تباع « مفككة » ولكنها في الواقع لا يمكن تجميعها ، مستندة إلى نظرية مؤداها : أن عمل

العمل في العزلة ، كما يجيده بعضهم الآخر في رفقة الناس . وبالاختصار ليس هناك حد يمكن أن تنتهي إليه الفوارق بين الباحثين في هذا الصدد . وعلى ذلك فمن بسائط الحكمة ألا نطبق نظاماً موحداً عليهم جميعاً ، وأن نسمح لكل واحد منهم أن يقرر لنفسه الظروف التي يعمل فيها بأكبر قدر من الكفاية .

والطلاب ليسوا — بطبيعة الحال — باحثين ناضجين . ومع ذلك فهم يظهرون نفس المدى من الفوارق ، ومن ثم يجب على المدرسين أن يكونوا حساسين لهذه الحقيقة ، وأن يكونوا مستعدين للبحث عن الفوارق الفردية التي تقوم دائماً في نطاق أي فصل دراسي . وإن أول درس يتعلمه المدرس الصادق الرغبة في أن يثير النشاط التأملی لدى الطلاب هو أن الألوان الفعالة من التفكير لا يمكن أن تفرض عليهم عنوة واقتداراً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه على حين تقتضي الحكمة أن يسمح للباحث المتمرن أن يقدر لنفسه الظروف التي يعمل فيها بأعظم قدر من الكفاية فإن الطلبة غير المجربين يحتاجون إلى الهداية والإثارة والتشجيع . وهم يحتاجون أيضاً إلى فرص لا حصر لها للتمرين ولتصحيح عاداتهم وطرائقهم في التفكير .

وسوف نلتفت بصفة خاصة في القسم الرابع لتدبر الطرق التي يمكن بها للمدرس أن يتعهد القرص لطلابه لكي يتقدموا من الناحية التأملية . على أنه من المناسب — في هذا الموضع — أن نلاحظ أنه بالرغم من أن المدرس سوف يواجه مشكلة تعليم مجموعة من التلاميذ في فصول دراسية أن تفكر ، فإن هذا لن يتم إلا إذا نجح في أن يشجع كل فرد على أن يفكر بطرق متكافئة مع مزاجه الخاص ، ومدى خبرته ومستوى معرفته .

الفصل الرابع الاعتقاد رغبة في العمل

غالباً ما نستعمل جميعاً كلتي : (أنا أفكر) لنعبر بها عن حالات مختلفة مثل :
(أنا أعتقد ...) أو (أفضل تخمين عندي هو ...) أو (توحى إلى ذاكرتي ...)
وأحياناً لا يكون المقصود شيئاً أكثر من (إن ما في خاطري هو ...) وهذا الاستعمال
للغة يوحي بأننا ننظر إلى (الاعتقاد) على أنه صورة من النشاط ينسحب عليها
التعبير العام وهو (التفكير) ، على أنه مهما كانت الكلمات المستعملة فإن الحالة
المشار إليها تتميز دائماً بدرجة ما من الرغبة في العمل . وقد تتراوح هذه الرغبة من
مجرد الدافع الوقفي إلى الميل العميق الجذور أو الإيمان الراسخ ، وعلى ذلك فمن
الواضح أن حالة الاعتقاد هي حالة جسمانية أو عضوية ، كما أنها حالة عقلية أيضاً .

الاعتقاد يجري دائماً أعمق من الكلمات المستعملة للتعبير عنه . والواقع أنه قد
لا يعبر بالكلمات قطعاً عن الاعتقاد (الذي هو حالة الرغبة في العمل) . وعندما نصب
اعتقاداً معيناً في قالب لفظي فإننا قد لا نعبر عنه إلا بصورة غامضة أو غير مباشرة
أو بصورة غريبة . وهذه الحقيقة تفسر الملاحظة المعقولة القائلة بأن : « الأعمال
تتكلم أعلى من الأقوال » وينبغي لنا - أكثر من ذلك - أن نلاحظ أنه لا يوجد
ما يسمى بالاعتقاد « اللفظي وحسب » ، فعندما يقر إنسان بأنه يعتقد ولكنه غير
راغب في العمل ، كان من الجائز بالطبع أن الأمر قد التبس عليه عن إخلاص ، أو كان
من الجائز أنه يخدع نفسه : وأياً كانت الحال فإن ما يسمى « بالاعتقادات اللفظية »
كثيراً ما تكون تعبيرات غير مباشرة عن الاعتقاد في حكمة أوجدوى الخداع .

الاعتقاد يتضمن درجات من التأمل

هذه الطريقة في ربط الاعتقاد بكل من التفكير والرغبة في العمل يجب أن تمكننا
من أن نعالج - في الفصول التالية - ما هو أساسي في كثير من المشكلات التربوية الهامة .
إلا أننا نكتفي هنا بأن نلاحظ أن حالة الاعتقاد تتضمن استمراراً في النشاط الذي يتدرج
من أعلى درجات التأمل إلى عدم التأمل المطلق .

من ذلك مثلاً أن كلب الصيد عندما يرى سيده يلبس ملابس الصيد ويتناول بندقيته - المفضلة من الصندوق - وما إلى ذلك - « يعتقد » أن في الأفق رحلة صيد ، ويتصرف على أساس هذا الاعتقاد : فيذهب إلى الباب ، وينتظر متشوقاً لكي يرافق سيده . وقد نشأت حالة الاعتقاد أو الرغبة في العمل عند الكلب عن طريق عملية شرطية شكلية كان فيها وجود ملابس الصيد ورفع البندقية من صندوقها « يعنى » أن رحلة صيد سوف تبدأ . والطفل الصغير سوف يتصرف - بالطبع - بنفس الطريقة عندما يرى أن كل النشاط بالمتزل يشير إلى رحلة بالسيارة . وهكذا يكون الاعتقاد توقعاً ، وهو بهذا المعنى يكون دائماً تنبؤاً بتجربة قادمة .

ونحن لانقول بالطبع في حالة الكلب إنه قد « فكر » تكهنه فيما يتعلق برحلة الصيد القادمة ؛ فتوقعات الكلب أو معتقداته ليست مبنية على نشاط تأملی . والواقع أن سيده قد اكتسب كذلك كثيراً من معتقداته بنفس الطريقة . فهو - أثناء استعداد له لرحلة الصيد - يمشى نحو الخزانة التي يعتقد أن بندقيته موجودة فيها . وهو يفعل ذلك بسبب التوقع الذي أحدثته - إلى درجة كبيرة - عمليات غير تأملية ، وهي أن الأشياء بمنزله - وخاصة بنادقه - تظل حيث « وضعت » . ولو كان من الضروري أن « يفكر » في كل فعل أثناء استعداد له للصيد لما أمكن للرحلة أن تتم أبداً .

وعلى مستوى تأملی أعلى بقليل ، قد يلقي نظرة من النافذة على السماء ليرقب أحوالها . فإذا كانت الأحوال مناسبة تصرف على أساس الاعتقاد بأنها لن تمطر . ويربط التأمل الماضى مع الترابط غير التأملی أصبحت الشمس المشرقة والسحب الخفيفة تعنى مساء غير ممطر .

وعلى مستوى تأملی أعلى بكثير سوف يتردد قبل اختيار نوع الذخيرة التي سيأخذها وكميتها . وعن طريق الاستخدام المنظم للذاكرة والخيال ، ينظر إلى نفسه في المستقبل ، وقد مضت ساعة أو ساعتان ليتنبأ بأحوال الأرض والنبات في منطقة الصيد . وقد يقرر عندئذ « أعتقد أن الأفضل لى أن آخذ « رشاً » قصير المدى » . ولعله لم يعبر قط عن أى معتقد من هذه المعتقدات . والنقطة المهمة التي ينبغى أن نلاحظها هو أن الكلب ليس وحيداً في هذا الموقف من حيث أن لديه توقعات محددة عن المستقبل . فالكلب متهيئ للذهاب ، والرجل - بنفس القدر من التهيؤ - « يستعد » للذهاب وللتصرف على ضوء النتائج التي تنبأ بها .

الأهداف والأسس «الأسانيد»

وسواء ألعب التأمل دوراً كبيراً أم صغيراً في تكوين أي اعتقاد بالذات ، فإن معتقداتنا - أيا كانت - قد أحدثتها الأسباب ، فهي لا تهبط فجأة من السماء سواء أشتتنا أو لم نشأ . وإن تدبر الطرق التي تحدث بها - أو التي قد تحدث بها - المعتقدات هو ، بكل تأكيد أمر مهم للمدرسين . غير أن التمييز بين أسباب الاعتقاد وأسانيده هو الأمر البالغ الأهمية في التربية . ولذلك ينبغي لنا أن نبعث هذا التمييز .

عند وصفنا النشاط التأملي الذي عرضنا له في الفصل السابق - في حالة الرجل الذي جابه انطفاء نور الفلورسنت - كان بالإمكان استعمال اصطلاح « الاعتقاد » في عدة مواضع ، لوصف عملية التفكير التي انهمك فيها ؛ ففي أوائل العملية اعتقد أن المصباح قد احترق ، وبعد ذلك تعدل هذا الاقتراح ثم رفض . وأخيراً اعتقد أن هناك انقطاعاً في التيار الكهربائي عن قطاعه بالمدينة . وكانت لديه بعض الأسانيد للاعتقاد بأن المصباح قد احترق . ولكنه رفض اعتقاده هذا عندما اختبره - كما قال ديوى - « في ضوء الأسس التي تعززه ، والنتائج التالية التي يميل إليها » . واتخذ لنفسه اعتقاداً آخر أفضل استناداً . وكان للاعتقاد الأخير أسس قوية ، حتى يمكننا في مثل هذا الموقف عادة أن نسقط كلمة (الاعتقاد) ، ونقول بطريقة أكثر مباشرة إنه « عرف » أن هناك انقطاعاً في التيار الكهربائي . وقد جاءت هذه المعرفة نتيجة للنشاط التأملي . وكانت « معرفته » حالة من الاعتقاد عاونته على التصرف (وهو أن يجلس على أهبة الاستعداد) بلا تردد أو بلا شك معقول . وأما الرغبة في العمل المدعومة بالإسناد فقد نتجت عن التأمل .

ويمكن وصف أي اعتقاد بأنه « تركية » أو نمط من المعنى جمد قليلاً أو كثيراً . على أنه عندما يؤمن الفرد بالاعتقاد فإنه يحتفظ بالتركية « مؤقتاً » . وهذا يعني بالطبع أنه يحتفظ بها عن تدبر أو تأمل . وهو لا يحتفظ بها كما هي لا تمس إلا بقدر ما هي مطلوبة كأداة موجهة للبحث والاستفسار . وليس هناك - في العادة - أي ارتباط عاطفي بمثل هذه « التركيبة » ، حتى ولو كان الموقف الذي يعوق العمل ويضطرنا إلى البحث عن فرض صالح سبباً للقلق العاطفي . وأما الفرض الصالح فيؤيد - دون ما عاطفة - أو يعدل أو يرفض ، وهو يمر خلال الاختبار « في ضوء الأسانيد التي تعززه والنتائج التالية التي يميل إليها » .

الجديد لا يناسب الهيكل الأساسي للأنماط التي تقبلها فعلا من قبل . ونتيجة لهذا نجد « شعور » بعدم التطابق وهذا « الشعور » كثيراً ما يحدث مع المباشرة — بمعزل عن التأمل . وقد يسبق أى تفسير عقلى للمشكلة المعترضة بفترة من الوقت لا بأس بها ، وهذا الافتقار إلى التساند أو التماسك يجعل زيادة النشاط التأملی أمراً ضرورياً بطبيعة الحال . وعندئذ ينبغى أن يعاد بناء أنماط المعرفة الموجودة إذا أريد للخبرة الجديدة أن تكون موضع الاعتبار .

وعندما تستثار أنماط المعاني التي كانت قائمة دون ما ارتباط عاطفى لا مسوغ له فإن الشعور بعدم التطابق يعمل كهماز لزيادة التأمل . وقد يتفاوت هذا الشعور من مجرد حب استطلاع عقلى لطيف تمتع إلى شعور فياض بالإلحاح ، ولكنه على أية حال يمد النشاط التأملی المطلوب لحل المشكلة بالقوة الدافعة . ومع ذلك ففي حالة الارتباط العاطفى المركز يتخذ الشعور بعدم التطابق — في العادة — صورة التهديد الذى يؤدي إلى خلق الشعور بالقلق . وقد يصبح هذا القلق غير محتمل إلى درجة أن الفرد يبادر إلى محاولة حل الموقف على الفور متخطيا عملية الفحص والتحرى الفكرى التي تستنزف الوقت . وفي هذا التصرف قد ينكر الفرد وجود أية معلومات جديدة ، ويتجاهلها كلية أو « يستبعداها » مفسرا إياها بأنها ضرب من الهلوسة أو الخداع . فإذا فشلت هذه الطريقة فإنه قد يعزل المعلومات الجديدة عن الأنماط التي لا يتطابق معها .

وهكذا نجد بعض الأفراد يقسمون المعرفة إلى أقسام منعزلة ، فيضعون مثلاً المعرفة المكتسبة من دراسة علم الحياة وعلم الأجناس بمعزل تام عن « معرفتهم » بتفوقهم العنصرى « الذى اكتسبوه لمجرد نشأتهم مع من يعتقدون هذا المعتقد . والإنسان قادر كل القدرة على التوجه إلى أحد الأقسام في وقت ما فيظل غافلاً عما ينتج عن هذا من عدم التطابق في مجموع سلوكه .

ويوضح هذا النوع من التصرف أحسن توضيح حالة التلميذة التي كانت تستكمل دراستها في التمريض رغم انتمائها إلى طائفة دينية تؤمن بالشفاء عن طريق الإيمان . فلما سئلت عما إذا كانت مستعدة أو غير مستعدة لتكريس نفسها كلية للعمل في أحد المستشفيات الحديثة ، أجابت بالإيجاب . ولم تستطع أن ترى أى سبب يمنعها من أن تزاوّل « أثناء الخدمة » مهام التمريض التي أعدت لها ، وأن تمارسها كأفضل

ما يمارسها غيرها من الممرضات . وقد كانت تؤمن بمعتقداتها عن الشفاء بالإيمان بإخلاص عاطفي شديد إلى درجة أن محاولة إعادة بنائها في ضوء ما حصلت من المعرفة أثناء إعدادها لتكون ممرضة ، كانت تبدو لها خارج الموضوع . وأما سلوكها « أثناء الخدمة » فكان منعزلاً بعيداً في قسمه الخاص بمأمن من أن يختلط باعتقادها « خارج الخدمة » في الشفاء بالإيمان .

وإن قدراً من الارتباط العاطفي بفكرة ما — أى فكرة تقريباً — ليس بالأمر غير العادى بالطبع ، فالفرد عندما يكدرح مدة طويلة في حل مشكلة ما ويصل إلى ما هو — بالنسبة له على الأقل — فرض أو فكرة أصيلة فإنه قد ينظر إلى « وليده العقلي » بنفس المحبة التي ينظر بها الوالدان إلى مولودهما الجسدى . ولذلك فإن الإنسان يحسن صنعا بالطبع إذا عرض للنقد — بصفه خاصة — الفروض التي تسره أكثر من غيرها . ورجال العلم يفهمون هذا . ولذلك فهم يعمدون — في كثير من الأحيان — إلى إجراء التجارب ليثبتوا عدم صحة هذه الفروض التي يؤمل من ورأها الكثير ، وهذا الاختبار جزء من مجموع بحث العالم غير المتعيز عن الدليل ، وهكذا فإنه بالرغم مما يحرزه العلم من انتصارات باهرة في بعض الأحيان فإن المجهود العلمى متحفظ أساسا ، وإن شئنا الدقة قلنا : نظرا لأن العلم محافظ أصبح التقدم الحقيقى ممكنا ، فكل خطوة جديدة تتضمن إعادة بناء « المعلوم » وليس مجرد إقصاء القديم ليحل محله الجديد . والمجهود العلمى ينتج التقدم لا التغير بنفس القدر الذى به تتطور وتستخدم عملية ناقدة تصصح نفسها تماما .

ويتجنب كثير من الناس إعادة بناء تجربتهم عن تأمل ، وذلك بالإنهماك فى عملية التبرير ، وكثير منا يتصرف بانفعال ، أو يتخذ قرارات سريعة تلزمنا بأعمال تالية ، ثم نهملك بعد ذلك مع وجود التصرف المنفعل أو القرار السريع وراء ظهورنا — فى بذل جهود مطولة لتبرير ما فعلناه ، وبالاختصار فإن الكثيرين منا لا يقبلون على النشاط التأملى إلا بعد فوات الأوان ، فتغلق باب الحظيرة بعد أن نكون قد ساعدنا اللص على سرقة الحصان .

والشخص الذى يبرر يحاول أن يزيل شعور عدم التطابق والإحساس بالذنب بأن يمزج أنماط معانيه (وغالبا ما يخرجها عن صورتها) فى محاولة يريد بها أن يجعلها تتلاءم بالقوة ، وهذا لا يبعد عن المسلك الصياني لشخص أرهقه

لغز دوار فعمد إلى دق قطعه معاً بقبضة يده ، وفي بعض الأحيان يتخذ التبرير صورة جمع الشواهد الكثيرة لإثبات تطبيق أجزاء الاعتقاد التي لم تكن متطابقة بالدرجة الأولى ، وهذه بطبيعة الحال خطة تشيت يحاول بها الفرد أن يوجه انتباهه بعيداً عن المواطن المتبعة ، وهكذا قد يقدم أحد الأفراد زناد فكره بحثاً عن الأسباب التي تسوغ شراءه لسيارة عفو الساعة ، وأخيراً قد يعتمد إلى تأليف موقف يرضيه (أو يرضى زوجته) ، وهكذا يشعر بأنه « أحسن » بتصرفه الذي لم يفكر فيه ، حتى ولو حمل حقائق الموقف فوق ما تحتمل (وحمل نفسه فوق ما تحتمل أيضاً) لكي يتوصل إلى هذه النتيجة .

وقلما تكون عملية التبرير شيئاً أكثر من الإرضاء اللفظي . وقد يكتسب الفرد شعوراً بالأمن لمدة قصيرة من الزمن . على أنه لا بد في النهاية من أن يحدث تقسيم للمعرفة أو اعتراف سافر بعدم التطابق . وإذا لم يحدث ذلك فإننا نكون قد خطونا خطوة في الطريق المؤدى إلى انحلال الشخصية .

عناصر التأمل العرضية في إعادة البناء

ينبغي لنا أن نلاحظ أنه ليس هناك شيء « سيء بالفطرة » حول أي تصرف له عناصره التأملية . وكثيراً ما يكون من المناسب أن ينظر الإنسان نظرة ناقدة لما قد يبدو له خبرة صحيحة . ذلك لأن كلا الهلوسة والخداع ممكنان ، ويجب على كل واحد منا أن يواجه بصراحة الحقيقة ، وهي أن أفكارنا قد تكون بين حين وآخر من هذا النوع . وحتى فصل المعلومات وعزلها على نحو معين قد يكون مناسباً في بعض الحالات . وإذا كان الإنسان يألف أكثر من هيكل للمراجعة ، أو أكثر من خطة للتصور لعلاج صنف واحد من الظواهر ، فإن القدرة على عزل المعلومات ، أو البقاء في نطاق هيكل واحد للمراجعة طيلة عملية الفحص والتحرى ، قد تكون أمراً جوهرياً للفحص الفعال . مثال ذلك أن الإنسان إذا ظل يروح ويحيى بين النظريات الإقليدية وغير الإقليدية وهو يقيم برهاناً هندسياً ما ، فإن النتيجة لا تخرج كثيراً عن حدود الفوضى .

وفي موقف أقل أصولية من هذا ، كثيراً ما يكون من المناسب أن يبذل الإنسان الجهد لكي يلقى نظرة مدعمة على المشكلة « من وجهة نظر غيره » - أو من وجهة

نظر جيل آخر أو ثقافة أخرى . وهذا بدوره نوع آخر من العزل ، وحينما يكون هذا النوع مشعراً يتضمن اعتناق الفرد الوقتى لأنماط من الاعتقاد قد لا تتطابق مع قوالبه الأساسية . وفي بعض الأحيان يبرع أحد الممثلين المحترفين في هذا براعة تجعله يتهم بأنه ليس له أى طابع أساسى خاص به . وكذلك حال المدرس الفعال (وينبغي لنا أن نلاحظ الشبه بين التدريس والتمثيل) فلكي يثير المدرس التفكير ويعززه كثيراً ما يصبح ممثلاً لوجهات نظر تخالف معتقداته الراسخة .

وحق الإجراء المعروف باسم التبرير ليس شيئاً بالضرورة . فهو في أساسه النشاط التأملى نفسه ، أو هو شبيه بالنشاط التأملى الذى ينظر إليه باحترام كبير . والدقة في العمل سبيل تسلكه لتسبق الدقة في التفسير العقلى في كثير من الأحيان . ومع ذلك فإذا أريد للتقدم الحقيقى أن يتم ، كان لا بد لهذه التصرفات الناجمة من أن تفسر عقلياً - أو باستعمال آخر للمصطلح - « أن تبرر » .

وهذا يصدق أكثر ما يصدق على المناطق التى يتداخل فيها العلم والفن - كالتعليم وصناعة المعادن مثلاً . وكَم من مدرس اكتشف - بعدما وقف على المعرفة العلمية عن التعليم لأول مرة - أنه « درس أفضل مما كان يعرف » سنوات طوالاً . وفي عهود صناعة المعادن الأولى كان هناك قليل من العمال - وكانوا صناعاً مهرة أساساً - بإمكانهم أن يسخنوا الصلب ، وفي اللحظة الصحيحة بالضبط يغمسونه في الماء البارد ليجعلوه صلباً . كان لدى هؤلاء الناس حاسة لأداء هذه العملية ، نمت معهم عبر سنوات طوال من العمل في المعادن . وحينما كانوا يطالبون بأن يقدموا أسباب القرارات المختلفة الداخلة في العملية كانوا يدفعون دفعاً إلى موقف كان في جوهره تبريراً : كان عليهم أن يسوغوا سلوكهم . وكثيراً ما كانوا يعجزون عن أن يفعلوا ذلك لأنهم كانوا - في هذا الشأن - أشبه بالطاهى الماهر (الذى لا يملك وصفات مقررّة) ولذلك فهو « يضع الأشياء مع بعضها بعضاً على هذا النحو » .

وعندما يفسر مثل هذا السلوك تفسيراً عقلياً يتكشف الأمر في أغلب الأحيان عن أنه غير متطابق نوعاً ما مع « المعتقدات العلمية » السائدة في ذلك العصر . بل ربما كان غير متطابق مع المنطوق الرسمى لعقائد الصانع المهرة . عندئذ تصبح إعادة البناء من الأساس أمراً ممكناً ، وبالتالي قد ينتج تقدم أبعد مدى من النقطة التى بلغها من قبل العالم أو الصانع الماهر على السواء . ومن المفيد أن نلاحظ أنه يحدث

أحياناً أن الصانع الماهر الذى ينغمس فى هذا النوع من التفسير العقلى قد يتعطل مؤقتاً فيما يختص بنشاطه الأول بما لا يعد كثيراً عن حالة الرجل الذى يعانى من انحلال الشخصية ولأنه لم يألف العمل على أساس العقائد المفسرة تفسيراً عقلياً كاملاً قد يشعر بأنه (خرج عن الخط) وأنه (فقد سر المهنة) .

ومن المحتمل أن يحدث موقف آخر قد تخدم فيه العناصر التأملية الداخلة فى تفسيره العقلى غرضاً مفيداً عندما يواجه الإنسان خبرات تخطى - إلى قدر ملحوظ - بيئته المحدودة المؤلفة من والديه ورفاقه الأول . لعله يجد نفسه عندئذ يتخذ قرارات لا يستطيع أن يجعلها تنسجم مع الأنماط الخلقية التى اكتسبها أثناء طفولته . ولا مفر من أن يحدث هذا للفرد الذى يفارق موطنه لأول مرة فيجابه أنماطاً جديدة من العلاقات الشخصية - الاجتماعية . وبمصطلح فرويد يمكننا أن نقول إن الإنسان عندئذ يتصرف على تقيض ضميره أو ذاته العليا .

أما أنماط العقائد المتعلقة بالسلوك السليم والخطيئ . فتجمد عاطفياً فى الطفولة ، وعندما تخرق فيما بعد كثيراً ما يعانى الإنسان شعوراً بعدم التوافق على صورة إحساس بالذنب . وهذا الإحساس بالذنب قد يكون جارفاً ، أو قد يكون خفياً إلى درجة أن الإنسان لا يشعر إلا بالصداع ، وبعض الاضطرابات العضوية والانهزام العاطفى ، وأحاسيس الخجل وما إلى ذلك . ولكى يستعيد الإنسان انسجامه ووحدته الشخصية يجابه الحاجة إلى « تبرير » سلوكه . ولا بد من الإقرار بالأحاسيس بالذنب باعتبارها نابعة من عدم توافق الأنماط . ولا بد لسلوكه من أن يفسر تفسيراً عقلياً حتى يتاح للتطور التأملى وإعادة البناء المستطاعة أن تحدث . وعن هذا الطريق قد يستطيع الفرد أن يسترد صحته النفسية .

واستطاعة الفرد أن يعيد بناء مستوياته تثير القلق لدى أولئك الذين يخافون من أن هذا التصرف قد ينتج عنه التخلي عن بعض القواعد والمحرمات التى طال قيامها لديه والتى هى محترمة فى الوسط الاجتماعى . ولمثل هذه المخاوف سندها القوى . فلا يمكننا أن ننكر أن التفكير - بهذا المفهوم - خطر . والتعليم يتضمن دائماً قدراً من انحلال الشخصيات وإعادة بناءها على السواء . والتعليم فى الواقع هو إعادة صنع الأفراد وبالتالى الحضارة . ولكن الخطر الأكبر بالنسبة لكل من الأفراد والحضارة يكمن فى حرمان أيهما من فرصة التقدم والقدرة على التفكير والميل إليه .

إعادة البناء والشخصية

ومن المؤكد أن الفرد لا يتصرف طول الوقت طبقاً لما تعنيه قوالب الاعتقاد المفسرة عقلياً؛ إذ من الضروري في أغلب الأحيان أن تعتمد تصرفاته على الإدراك أو الشعور السريع بالتطابق، أضف إلى ذلك أنه بعد أن يتصرف لا يتمهل دائماً ولا ينبغي له أن يتمهل - لكي يظل في الطليعة - إن صح هذا التعبير - مع مهمة التفسير العقلي للتنظيم الأساسي للمعاني والعقائد التي تؤلف الشخصية. وعلى ذلك فأول شروط التعليم هو أن يجابه الأفراد بالمواقف التي تستدعي بحث هذا الهيكل الأساسي من المعاني والعقائد.

وهذا - من الناحية العاطفية - نحدد للفرد كشخص . ويتوقف نفس وجوده . « كشخص كل » أو متكامل على النجاح في مواجهة هذا التحدي . أما وجوده كشخص . مثقف فيتوقف على التغلب على التحدي بالنمو في القدرة والشجاعة في اختيار الأفكار أو أنماط الاعتقاد في ضوء الحقائق المتصلة بها . وفي نطاق هذا النمو يعاد بناء أشخاص . جدد من الأشخاص الأول . وينبغي أن نلاحظ أن هذا التحدي ليس سوى شرط لازم للتعليم ، وهو ليس شرطاً كافياً .

ونمو الشخص - كتقدم العلوم - عملية محافظة أساساً . فإذا عجز المدرسون عن إدراك ذلك فقد يدفعون تلاميذهم إلى عزل عقائدهم حتى ينجوا بأنفسهم من الانحلال الخطير وقد ينتج عن إجراءات التدريس الآلية تحطيم جزئي في الشخصية . وإن تهية الجو الذي يشعر فيه التلاميذ بأنهم أحرار في التخلص حتى من أنماط الاعتقاد الراسخة دون أن يطالبوا بالدفاع عنها على الفور لمطلب سابق للتدريس الجيد كما سوف نرى في الفصول التالية .

ومن السهل على المدرس أن يكتسب الفكرة الخاطئة وهي أنه لكي يشجع النمو لا بد أن يطالب التلميذ باستمرار بأن « يدعم » كل فكرة مستحدثة ، وإلا أودى علماً بل وأهين لمجرد ذكره لها . والمدرسون الجيدون - بطبيعة الحال - يعاملون الأفكار كل الأفكار - باعتبارها جديرة بالبحث الجدي . فهم يحترمون الأفكار بنفس الحساسية

التي يحترمونها بالأشخاص. وعلى هذا فإنه بالرغم من أن كل تلميذ يجب أن يدفع باستمرار لأن يفكر إلى أقصى ما تمكنه قدرته، فإنه من الأهمية بمكان أن يحترم تكامله خلال العملية. ولا شيء يؤدي تنمية التأمل في الفصل الدراسي مثل الاستعداد التعسفي للتلاميذ أو للأفكار.

وربما تعلم المدرسون الشيء الكثير عن هذا الشأن من خبرة المشرفين الاجتماعيين. فليس من قبيل المصادفة أن الكثيرين من المضطربين عاطفياً يقولون - عندما يلتصقون بمعونة المشرف الاجتماعي لأول مرة - إن لهم « صديقا، يعاني من كيت وكيت ». وبهذه الطريقة يختبرون المشرف الاجتماعي، بطريقة لا تبعد كثيراً عن طريقة جندي المشاة الذي يخف به الخطر فيبدأ برفع قبعته على عصاً بدلاً من أن يعرض رأسه للخطر. ولا يشعر الفرد بأنه حر في أن يعترف بأنه هو نفسه - لاصديقه - الذي يواجه المتاعب إلا بعد أن يعرف أنه من المسموح به أن يقع الإنسان في مثل هذه المشكلة ويظل مع ذلك شخصاً مقبولا ومحترما.

ويجب على المدرسين والمشرفين الاجتماعيين أن يهيئوا جواً تحترم فيه هياكل الشخصية الأساسية. وهذا يعني أن نتائج التصرف المترتبة على العقائد التي يحل بعضها محل البعض الآخر يجب أن ينظر إليها نظرة غير شخصية. وإن الشخص المعنى يجب ألا يكون طرفاً في القضية. في مثل هذا الجو غير الشخصي يصبح التلميذ قادراً على فحص تطابق فكرة معينة مع معانيه وعقائده الأساسية وعلى أن يكون حراً في أن يجرب ألواناً موقوتة من إعادة البناء. وربما اعترف بامتياز صورة معينة من إعادة البناء اعترافاً عقلياً. إلا أنه مع ذلك لا يقبلها عاطفياً نظراً لما تتضمنه من التغيير الشخصي.

مثال ذلك أن كثيراً من الناس يألفون عقلياً الفكرة الداهية إلى أن جميع المواطنين يجب أن يتمتعوا بنفس الحقوق مهما كانت أصولهم القومية أو العنصرية، إلا أنهم مع ذلك يشعرون بالقلق عندما يضطرون إلى التصرف طبقاً لما يؤمنون به عقلياً. وعندما لا يوضع التلميذ تحت ضغط لا مسوغ له فقد يتعلم تدريجاً أن يعيش كشخص أعيد بناؤه من جديد، ولعله يكتب بحثاً يتحدث فيها كما يتحدث الشخص الجديد، ولعله ينهمك في المناقشات التي تدور في غرفة الدراسة، وحلقات المناظرة خارجها لاعباً في كل ذلك دور الشخص الجديد. وعن طريق مثل

هذه الألوان من النشاط سوف يصبح هذا الشخص ، وفي نطاق مثل هذه الألوان من النشاط سيجد القيام بهذا شيئاً طيباً .

أما إذا وضع التلميذ تحت الضغط قبل الألوان لكي يلتزم التزاماً ما فقد يتخذ موقفاً دفاعياً ، ويحاول أن يبرر عقائده الأساسية عن طريق التفسير العقلي أو لعله يتقبل الاعتقاد الجديد ، ويعزله ، ويحتفظ به للقسم المحدود من حياته المتصل بمنهج معين أو جماعة بذاتها . وهذا العزل قد يجعله ينجح في الامتحانات ، بل إنه قد يمكنه من أن يعمل بنجاح في موقف معين لعدة سنين دون أن يؤثر — بحال من الأحوال — في اعتقاداته الأساسية التي تقوم بوظيفتها في المواقف الأخرى .

النمو كناية

والتلميذ يحتاج أن يتعلم ليجد أمناً في عملية النمو ، لا في أنماط معينة من الاعتقاد كما قد يزعم الكثيرون . ويجب أن نقرر أن هذا أيضاً حاجة تحتاج إليها الثقافة بنفس الدرجة . ولـكـنـنا نقصرها هنا على الطلبة لا شيء إلا لأن اهتمامنا منصب على تحسين الظروف التربوية القائمة في فصولنا الدراسية .

وكما تقدم التلميذ في اكتساب السيطرة على العملية التي تتم في نطاقها إعادة بنائه فإنه قد ينمي صلابة تمكنه من أن يجابه التحديات المتزايدة لاعتقاداته دون خوف من تلف خطير يصيب شخصيته . ولعله عندئذ لا يتعلم أن يخرج بسلام من المواقف التي تتطلب ألواناً تأملية من إعادة البناء فحسب ، بل وأن يشهد حساسيته للتطابق . وهكذا تزداد قدرته الكامنة على تعليم نفسه . ومرة أخرى — كما يحدث في تقدم العلوم — يتقدم تعليم الفرد خلال التكميلات المنشطة المتراكمة ، لا عن طريق مجرد أفعال يضاف بعضها إلى بعض .

وكل الأشخاص يحتاجون إلى المعونة عند بداية عملية النمو هذه وتعزيزها . والحياة بحيث نستطيع في أغلب الأحيان أن نمضي ، بل وأن نتقدم دون كثير من التأمل ، منزلتين في طرق طرقها غيرنا من قبل . وليس معنى هذا أننا في أثناء قيامنا بهذا قد لا نتعلم الشيء الكثير على طول الطريق . بل إننا نستطيع الاستمرار في

إضافة أنماط من الاعتقاد ، وزيادة قدرتنا على علاج المواقف المقبلة دون فهم لغزى ما يضاف . وهذه العملية تميل إلى أن تخنق حساسيتنا نحو التطابق ومن ثم تغمرنا القوضى وخيبة الأمل عندما تدفع بنا الحياة - من حين لآخر - خارج الطرق المطروقة جيداً ؛ إذ نكتشف فجأة أن ما نملكه ليس سوى أخلط من الأنماط وليس هيكلاً متكاملًا . وأن ما كان يبدو لنا معرفة ليس أكثر من معلومات . وأن ما بدا لنا نظاماً أساسياً من العقائد - أو فلسفة في الحياة - ليس سوى مجرد طريقة في العمل تعلمناها ، إلى حد كبير ، عن طريق التقليد الأعمى ، وتهيئة غير رسمية للظروف - أو بطريقة المحاولة والخطأ البسيطة .

وعندما تثبت أنماط المعنى والاعتقاد - المكتسبة بنأى عن التأمل - أنها عاجزة بين يدي المواقف غير العادية أو الجديدة ، ينكشف فشل الفرد في أن ينمو كشخص . وهذا مما يصدم وتحزن ملاحظته عند أي فرد . وعند ما يحدث هذا لأمة من الأمم أو لمجتمع من المجتمعات تعقبه الكارثة . وفي مواجهة سعة انتشار المحطمين الذين ما زالوا غير ناضجين أساساً لا يملك الأشخاص سوى الترحيب بفوهرر - « بالأخ الأكبر » - أو بالوالد - لكي يضع الأمور في نصابها ويخبرهم كيف يتصرفون .

والحياة في كثير من جوانبها أيسر مما ينبغي . وهي منظمة تنظيماً يبلغ من الجودة إلى درجة أن القيمة الوظيفية للتأمل المدعم كثيراً ما لا تكون عظيمة بالقدر الذي يكفي لجعلها حافزاً قوياً لتحقيق المزيد من تقدمها هي نفسها . وعلى ذلك فكثيراً ما يظن الفرد والأمة أن قيمة التأمل ثانوية . ويبدو أنه قد اتضح لنا - في هذه الظروف - أن واحداً من أهم أهداف الالتحاق بالمدارس في المجتمع الحر يجب أن يكون العمل على الإسراع بنمو الفرد في كل مرحلة من مراحل العملية . وقد يحق لنا أن نأمل في أن نوسع بالتدريج دائرة الجامعة الصغيرة المؤلفة من الأفراد الذين يقدمون النشاط العقلي لذاته ، ونحن نأمل ذلك لأننا نعرف مدى اعتماد النور الاجتماعي السليم على استعمال الذكاء استعمالاً حراً .

لفصل الخامس

الاعتقادات المدعمة "ذات الأسانيد" الوظيفية التركيبية

عندما يعبر بالكلمات عن الاعتقاد ربما صب في هذا القالب : « إن هذا الشيء أو ذلك كان — أو سوف يكون — هو الحاصل » . وقد يبدو من اللغو أن نضيف : « إني أعتقد أن هذا الشيء أو ذلك هو الحاصل » بالرغم من أن هذه العبارة التمهيدية قد تستخدم للدلالة على درجات مختلفة من قوة الاعتقاد . من ذلك أنه يمكن الدلالة على حالة من الشك بقولنا « ربما كان هذا أو ذلك هو الحاصل » . والاعتقاد الذي لا نعتقده إلا كفرض يمكننا أن نعبر عنه بقولنا : « لنفترض أن هذا أو ذلك هو الحاصل » أما العقائد الشديدة التركيز فتعتبر — في العادة — من المعرفة التي يمكن التعبير عنها بهذا التأكيد : « إني أعلم أن هذا الشيء أو ذلك هو الحاصل (١) » .

وبهذا الخصوص جرت التقاليد بأن تثار أسئلة كثيرة تتعلق بطبيعة المعرفة البشرية، وكيف تكتسب ، وطبيعة « العارف » ، و « المعروف » ، والعلاقة بينها (٢) . إلا أن ما نهتم به هو طبيعة الأسانيد التي قد تقام لتعزيز عقائدها أو تعزيز أنواع التوكيدات المختلفة التي تقوم بها . وهذه التوكيدات ذات أنواع مختلفة .

التصنيف قد يفيد

تذهب التقاليد إلى أن التصنيف الثنائي مفيد ، فيقال إن بعض التوكيدات تدور حول واقع الحال ، وإن بعض التوكيدات الأخرى تدور حول علاقة المعاني

(١) إن اصطلاح « المعرفة » يبلغ من صعوبة التحديد إلى درجة أن الكثيرين من الكتاب يحذفون عند مناقشة مشكلات نظرية المعرفة : Epistemology ويستخدمون بدله : « حالة التوكيد المدعم » Warranted Assertability ومع ذلك فربما ظل الاصطلاح — كما أشرنا من قبل — مهما في قاموس رجل علم النفس .

(٢) إذا أردت بحثا مختصرا ناقدا للآراء التقليدية الخاصة بنظرية المعرفة Epistemology ينتهي إلى نتائج تتفق مع العرض الذي تقدمه في هذا الفصل فارجع إلى جون ديوى « المنطق ، نظرية البحث » Logic : The Theory of Inquiry (New York : Heury Holt & Company Inc. 1938) Ch. xxv .

أو الأفكار . ويبدو أن هذه طريقة مستقيمة للتصنيف . فالجملة التي تتناول واقع الحال يطلق عليها جملة تركيبية . وأما الجملة التي تتعلق بالعلاقة المعنوية فتسمى جملة تحليلية . ويمكن أن تصنف جملة مثل : « ولد حسن عام ١٩١٧ » أو « ستكون درجة حرارة هذه الغرفة في الساعة العاشرة غداً ٧٨ درجة فهرنهايت » على أنها جملة تركيبية لأنها تؤكد شيئاً عن الظروف الواقعية أو الوجودية . أما جملة « اثنان مضافان إلى اثنين يساويان أربعة » أو « الفاني مصيره الموت » فتبدو أنها تحليلية ، إذا هي تقدم لنا الطريقة التي تتصل بها بعض المعاني ببعضها الآخر .

على أن هذا التصنيف ليس مرضياً تماماً ، كما يمكن أن نلاحظ بصفة خاصة عندما نحاول تصنيف جملة منترعة من سياقها الوظيفي . وثمة صعوبة أخرى تجد عندما تكون الاعتقادات المتعلقة بالقيم هي موضع البحث . فعندما يقول أحد الناس : « الأمانة أفضل سياسة » لا يتضح غالباً لأي إنسان (بما في ذلك القائل نفسه) ما إذا كان يذهب إلى أن فكرة أو معنى « أفضل سياسة » تتعلق بالأمانة ، أم أن إجراءات الأمن سوف تكون أشد الإجراءات تفهماً فعلاً . ففي الحالة الأولى يبدو التوكيد تحليلياً ، وفي الحالة الثانية تركيبياً . وتصبح هذه المشكلة خطيرة عندما يكون المرء مهتماً بأن يضع أساساً يمكن أن يقال إن هذا الاعتقاد يرتكز عليه — أي عندما يحاول أن يقرر ما إذا كان لهذا التوكيد ما يبرره أم لا .

وربما قيل إنه من المفيد أن نستخدم التصنيف الثلاثي ، فتصنف الجمل مثلاً إلى جمل تركيبية ، وجمل تحليلية وجمل قيمة . ثم تعرف معايير الحكم على حالة التوكيدات المدعومة بالنسبة للصنف الأول بمبادئ الضبط العلمي أو مبادئ طرق البحث العلمي Methodology وبالنسبة للصنف الثاني تعرف بالمبادئ المنطقية ، وبالنسبة للصنف الثالث تعرف بالمبادئ البديهية Axiological .

ومع هذا فلو كان لب الموضوع هو الفائدة العملية للاعتقاد ، أو الطريقة التي يعمل بها الاعتقاد في السلوك أو البحث فإننا نحسن صنعاً إذا أرجأنا حكمنا الآن على أمور التصنيف هذه ، واتجهنا مباشرة إلى تحليل الإجراءات المتبعة فعلاً في تدعيم العقائد بالأسانيد ، حتى إذا انتهينا من هذا استطعنا أن نقدم التصنيفات الأصولية ؛ وذلك عندما نرى أنها سوف تسهم في فهم عملية التدعيم بالأسانيد . وهكذا قد نستطيع التخلص من مضار الإصراف في الأصولية دون التخلي عن فوائد تلك الأدوات الإدراكية التي ييسرها لنا التصنيف .

قواعد الاستدلال

لنفترض أن رجلاً قام بزيارته أحد أصدقائه ، ووقف على ميزان الحمام عنده ، فوجد أنه فقد ثلاثة أرطال من وزنه . وبعد قليل عبر عن معادته لأنه استطاع تقليل وزنه بعض الشيء . فسأله صديقه : « هل تمكنت فعلاً من تقليل وزنك ؟ وكيف عرفت هذا ؟ » وهذا في الواقع يعادل سؤاله : « ما هو دليلك على هذا ؟ أو ما هو الضمان الذي تملكه حتى أكدت هذا التوكيد ؟ » ولنفترض أن الزائر أجابه : « لقد استعملت ميزانك في الحمام منذ عشرين دقيقة فقط » . فأخبره صاحب المنزل بأن مؤشر الميزان لا يتخطى نقطة معينة وهي ١٧٣ رطلاً فقط . عندئذ يجب على صاحبنا أن يتنازل عن اعتقاده وهو كاره — على الأقل — حتى يجد ميزانا يعرف أنه دقيق . إذ لم يعد لديه ضمان لتوكيده إن هذا الشيء أو ذاك هو الحاصل فيما يتعلق بواقع الحال . ولعل وزنه قد نقص فعلاً ، وأنه قد تصادف أن وزنه الحالي هو ١٧٣ رطلاً . ومن الممكن دائماً أن يكون التوكيد غير المدعم صحيحاً تماماً بالمصادفة . وحالة التوكيد المدعم ليست مسألة صحيحة مباشرة ، وإنما هي — أولاً وقبل كل شيء — مسألة دليل على الصحة .

وفي الحياة اليومية لا يكون معظمنا واضحاً بشأن قواعد الاستدلال . فنحن نقبل بعض الحقائق كأدلة ، ونستبعد بعضها الآخر بوصفها غير ذات صلة بالموضوع . ونعطي أهمية أكبر لهذا أو لذلك ، ونقوم بعمليات اختيار فيما يختص بما نعقده على أساس البحث الكفء وتقييم الدليل . ومن الواضح أننا نتوصل إلى هذه الأحكام في ضوء بعض « قواعد صالحة للاستدلال » بالرغم من أننا كثيراً ما نجد صعوبة كبيرة في ذكر هذه القواعد على وجه التحديد . إننا جميعاً «صناع مهرة» — على نحو ما — في إصدار الأحكام . والموقف هنا يشبه ماسبق أن ذكرناه بشأن صناع المعادن المهرة الأول . فالدقة في الأحكام غالباً ما تتفوق على الدقة في التفسير العقلي وتسبقها .

وعندما يقف الإنسان على ميزان الحمام فإنه سوف يغير موقفه بصورة آلية تقريباً إلى أن يستوثق من أنه لا يقرأ رقماً ناشئاً عن وقوفه على أحد جانبيه . وهو في هذا يتبع قاعدة لو قررت بوضوح لقالت : إن قراءات ميزان الحمام لا تعتبر صحيحة إلا إذا كان الشخص واقفاً في وسط لوحة الميزان . ولو أتيح للمرء أن يختار الدليل — كأن يفاضل بين ميزان الحمام وبين الميزان الموجود في عيادة الطبيب — لوضع ثقة

أ كبر في الميزان الأخير بلا شك . واسكن كما أن التوكيد غير المدعم قد يكون صحيحاً فإنه كم من توكيد مدعم أثبت آخر الأمر أنه غير صحيح . من ذلك أن قواعد الاستدلال الكامنة في سلوكنا اليومي توحى بأن قراءة ميزان الطبيب يجب أن تقبل كدليل صحيح . ومع ذلك فمن الممكن دائماً أن يكون ميزان الطبيب خاطئاً أيضاً .

وعندما تنتقل من مجال مشكلات الحياة اليومية إلى مجال البحث العلمي نجد أن قواعد الاستدلال تصبح أكثر صراحة ، وأنها تصاغ بعناية أكبر ، وأن الاحتمال يزداد في أن تستدعي ما يمكن أن نسميه - بحق - الدليل المركب ؛ أي الأدلة التي تؤكد الأدلة ، بل والأدلة على هذه الأدلة ، وهكذا .

وهناك علامة مميزة أخرى لهذا البحث العلمي يمكن أن تفهم مما تعنيه ملاحظتنا المتعلقة بالفرق بين الصحة Correctness والضمان أو التدعيم Warrant . فمن مبادئ العلم الأساسية أن كل اعتقاد عن واقع الحال يجب أن يظل عرضة للتعديل أو الرفض . ففهما كان الاعتقاد المقبول مدعماً فقد تجد أدلة جديدة تشير إلى أن هذا الاعتقاد يجب أن يحكم عليه بأنه غير صحيح ، رغم أننا قد نظل نقول عنه إنه مدعم بقدر ما يعنيه الدليل السابق .

ولا يكون الاعتقاد مدعماً أو غير مدعم (وبالتالي لا يعد صحيحاً أو غير صحيح) إلا في ضوء صلته بمجموعة خاصة من الأدلة في وقت معين . وقد يكون من الممكن أحياناً أن يكون لاعتقادين متضادين أو أكثر دعامة لا بأس بها في نطاق مجموعتين مختلفتين من الأدلة قائمتين على نظريات أو نظم إدراكية مختلفة . وفي هذه الحال قد يتقدم البحث العلمي في جبهات متوازية - إن صح هذا التعبير - ويتمكشف الموقف عادة عن أن جميع هذه المداخل - فيما عدا مدخلا واحداً - غير مشمرة أو معقدة بغير ما ضرورة أو نحوها . وأياً ما كانت الحال فليس هناك ما يسمى بالضمان المطلق الكامل لأي اعتقاد عن واقع الحال . والإقرار بهذا المبدأ يعرف أحياناً بمبدأ الضبط المستمر . وبهذا المعنى يقال أحياناً إن معرفة واقع الحال ليست - في أفضل الحالات - سوى معرفة محتملة إلى درجة عالية .

المعرفة الحقيقية ليست مطلقة أبداً

ظل الفلاسفة سنوات طوالاً مشغولين بهذه المسألة عن المعرفة « المحتملة » . وقد قيل بطرق متعددة إنه لو كتب علينا ألا يكون لدينا سوى معرفة محتملة بواقع الحال فلا أقل من أنه يجب أن تكون لدينا معرفة مؤكدة - من نوع ما - نقيم عليها هذا الاحتمال . ويمضى القائلون إلى أنه ما لم يتحقق هذا فإن هذه المعرفة المحتملة سوف تكون محتملة الاحتمال . ومع ذلك فلو كانت الحال لا تعدو أن أفضل معرفة لنا ليست سوى « محتملة الاحتمال » لبدا من غير المحتمل أن ينبجج الاعتماد على مثل هذه المعلومات الهزيلة إلى هذا الحد الذي ما زلنا نراه . وعلى هذا فقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أننا نمتلك فعلاً بعض المعرفة الإدراكية المباشرة (أى بلا واسطة) عن واقع الحال . وهذه المعرفة مؤكدة ، ولا تخضع للتخطيء عن طريق الخبرة اللاحقة . وذهب فلاسفة آخرون إلى أنه بينما تكون جميع المعرفة التى نكتسبها عن طريق التجربة عرضة للخطأ فإن الإنسان قد يتوافر له نتيجة لمجرد قيام « العقل » - بعض المعرفة المؤكدة عن واقع الحال . وكلا الرأيين غير متفق مع التحليل الذى قدمناه فى الفصل السابق ، ولا مع الموقف الذى نعرضه فى هذا الفصل .

وهنا يدخل عدد من الأمور المعقدة ، فى المقام الأول عندما يقال إن معرفتنا بواقع الحال لا تزيد عن كونها محتملة ، يجب ألا يخلط بين هذا الاستعمال لكلمة « محتملة » ، هذه وبين الاحتمال الرياضى أو الإحصائى . وكل ما تقصده هنا هو - بكل بساطة - أن أى محمول عن الواقع *factual proposition* لا يبعد عن منال الضبط العلمى . وأما الأحكام عن واقع الحال التى تتعلق بالاحتمالات الإحصائية فلا تزيد ولا تقل وثوقاً عن التوكيدات الأخرى عن الواقع . فجميع هذه التوكيدات تخضع للتعديل لدى ظهور أدلة جديدة .

وربما ساعدنا أن نفكر أن كل وضع وجودى له ما يترتب عليه من نتائج واقعية تتغلغل فى المستقبل بصورة غير محدودة مثل التموجات التى تمتد إلى الخارج من مركز بحيرة هادئة ألقيت فيها حصاة ، وأن يكون الوضع وجودياً معناه أن يكون له وجود فى حيز الزمان والمكان على هيئة موقف فعلى ملموس . وقد لاحظنا

أن الاعتقاد يتضمن رغبة في ضوء ما يعنيه توقعاته الضمنية . وعلى ذلك فالحكم على واقع الحال هو في الحقيقة تكهن . وحيث إن التكهن يتعلق بأمور تتغلغل في المستقبل بصورة غير محدودة فالاحتمال سوف يظل قائماً دائماً وهو أنه سوف يكون خاطئاً بوجه من الوجوه . وبالرغم من هذا فعندما يبدو أن النواحي المباشرة نسبياً والوجوه الهامة من الناحية السياقية قد تحققت فإننا نعتقد أن هذا التكهن تؤكد « صحيح » عن واقع الحال . ومثل هذه الجمل « الصحيحة » تعمل عندئذ كإسناد أو أساس لتكهنات صريحة عن واقع الحال في المستقبل .

ولنفرض أن شخصاً نظر من النافذة فرأى نهيرات من الماء تجري على زجاج النافذة . فأكد « أن السماء تمطر » . وهو بفعله هذا لم يقم شعورياً بأي تكهن ، وإن كان قد فعل ذلك ضمناً . فهو يتكهن أيضاً بأنه إذا خرج من المنزل ابتلت ملابسه ، وأن جيرانه إذا نظروا من نوافذهم لاحظوا المطر أيضاً ، وأن المياه يمكن رؤيتها الآن متجمعة في بالوعات الشوارع ، وأن قياس درجة رطوبة تربة الحديقة سوف يظهر زيادتها ، وأن البارومترات قد سجلت هذا التغير في الجو ، وأن العشب في ملعب الجولف سوف يتأثر ، وأن جده سوف يعلن عن سلسلة جديدة من الآلام . وبالاختصار ، إن هذا الشخص يتكهن ضمناً بحوادث في حين الزمان والمكان ، وبإمكانات واحتمالات غير محدودة العدد .

وبطبيعة الحال قد يكون توكيده ، الوائق بأن « السماء تمطر » - المبني على رؤيته للمياه على زجاج النافذة - غير صحيح : فربما كان سبب الماء رشاش الحديقة ، وقد ثبت فعلاً أنه خداع نظر . فإذا كان توكيده ، عن الوضع الوجودي الذي يحدث فعلاً غير صحيح فإن كثيراً من تنبؤاته الضمنية لن تبرز إلى حين الوجود في الموقف الواقعي الجاري . وعندما نلاحظ عدم تحقق تكهن أو أكثر فإن عدم صحة التوكيد سوف ينكشف . وإن أي توكيد عن الواقع سوف يتطلب من الشخص أن (يهوص) في الموقف الوجودي - إن صح هذا التعبير - وأن يفحص كفاية بعض من أدق هذه التكهنات التي يتضمنها التوكيد .

أضف إلى ذلك أنه مما يمكن إدراكه أنه حتى بعد بذل نشاط تحقيقي ، وإجراء اختبارات ، لا من قبل شخص واحد فحسب بل ربما من قبل أشخاص كثيرين ، قد يتم التوصل إلى نتيجة خاطئة . فربما حدثت حادثة في الغلايات البخارية بأحد

المصانع المجاورة فتسبب عنها ما يشبه المطر . وهذا قد يؤدي إلى تضليل عدد من الناس لمدة لا بأس بها ، وإن كان هذا الخطأ سوف يصحح آخر الأمر . على أن أن الموقف يختلف عندما تنتقل من هذه المسألة البسيطة نسبياً - وهي أن السماء تمطر أو لا تمطر - إلى توكيدات عن مسألة أكثر تعقيداً (في إثباتها) مثل « إن عظمة الجمجمة هذه هي جزء من هيكل النوع الفلاني من إنسان ما قبل التاريخ - عاش منذ بضعة ملايين من السنين » . ذلك لأن الخطأ على هذا المستوى لا يمكن تصحيحه بسرعة ولا بسهولة .

من حق المرء أن يقوم بتنبؤات صريحة عن واقع الحال في المستقبل على ضوء ما قبلناه من محمولات « صحيحة » عن الواقع . فإذا كان لدى المرء مثلاً تقارير صحيحة عن الكمية المضبوطة للمطر في مناطق مختلفة ، مع معلومات دقيقة عن التضاريس وما إلى ذلك فقد يستطيع أن يتكهن - بقدر معقول من الدقة - بمستوى فيضان الأنهار المتأثرة بهذا المطر . وكثير من هذه التكهّنات يمكن الاعتراف بأنها كانت مدعمة على أساس الأدلة المتوافرة برغم ما قد يثبت فيما بعد من خطئها الجزئي . وقد لاحظنا جميعاً أمثلة استطاع فيها عراف القرية غير المدرب أن يخزي الأدلة العلمية المعقدة التي يستند إليها مكتب الأرصاد الجوية الرسمي - ولو لوقت محدود - ومع ذلك يستمر معظمنا في وضع ثقة أكبر في التنبؤات الرسمية عن الأحوال الجوية ..

والنقطتان اللتان ينبغي أن نلاحظهما هنا أولاً أن كل محمول عن الواقع هو تكهن ضمني بغض النظر عن زمن الفعل المستعمل في الجملة . وإذا كان التوكيد الواقعي صادقاً فإن هذا يعني أن عالم الزمان والمكان وشئون السبب ، والنتيجة كانت - وسوف تظل دائماً - مختلفة بعض الشيء عن الحال فيما لو كان التوكيد باطلاً (١) . والتدليل على صحة مثل هذا التوكيد يعني التأكد (بالتصرف في

(١) يبدو أن هذا البيان يؤكد نوعاً من (الجبرية في العالم ذي العلاقات الداخلية) مما يعتقد أنه لا ينسجم مع ما يسمى في الطبيعيات الحديثة للجسيمات تحت الذرية (بالاختيار) والواقع أنه إذا كان أحد عناصر الاختيار أو عدم الاستمرار حقيقة من حقائق الحيز الوجودي - فإن دعوى (الصدق) لتوكيد هذه الحقيقة تعني الدعوى بأن العالم كان - وسوف يظل - مختلفاً عن الحال فيما لو كان التوكيد باطلاً . والمشكلة هي كيف تعالج - أو تتركب - وجوء معينة من أصناف الظواهر التي يمكن التوصل إلى الحد الأقصى من الضبط . والقدرة الكامنة للضبط تزيد (ولا تنقص) عندما تتضح لنا الكيفية التي بها يتفق أن المعلومات المجموع عليها عمومًا عن المكان والزمان والسبب والنتيجة لا يمكن تطبيقها في بعض أجزاء الحيز .

الحيز الوجودى) من أن القسم الهام من العالم ليس مختلفاً اختلافاً ذا بال عن ذلك القسم الذى يتكهن به التوكيد . وثانياً أننا إذا استخدمنا مثل هذه التوكيدات الصادقة (أعنى على أسس معرفتنا بالأوضاع الوجودية الماضية والحاضرة) وذلك كان من حقنا أن نقوم بتكهنات صريحة تتعلق بما قد تكون عليه الأوضاع فى المستقبل وفى حالات الاحتمالات الشديدة نستخدم - فى العادة - توكيدات ناقصة حذف منها شيء (حتى فى تفكيرنا الخاص) تنستر على حقيقة عدم الوثوق الكامل . وهكذا فنحن أميل إلى توقع إشراق الشمس وغروبها فى الغد منا إلى احتمال «إشراق الشمس وغروبها فى الغد احتمالاً شديداً»

البروتوكولات التفسيرية

ولكن كيف يتسنى لنا أن نعلم أنه حتى الجوانب المباشرة الهامة من سياق أى تكهن ضمنى قد تحققت فعلاً؟ إن المحمول عن الواقع لا يمكن إثبات صحته إلا عن طريق التجربة فى الحيز الوجودى . وإذا كانت كل تجاربنا عرضة للخطأ ألا يمكن أن يكون حكمنا المتعلق بالإثبات الجزئى مجرد حكم آخر لا يمكن تسويغه - على أحسن الحالات - إلا بصورة جزئية أيضاً ! من ذلك أننا إذا رغبتنا مثلاً فى إثبات صحة وزننا باستعمال الميزان الموجود فى عيادة الطبيب فمن أين لنا أن نثق بأننا قرأنا النتيجة قراءة صحيحة؟ ومن يدري فلعلنا قد أخطأنا فنظرنا إلى ظل المؤشر لا إلى المؤشر نفسه بسبب سوء الإضاءة فى العيادة .

إن قدراً كبيراً من المعرفة العلمية يعتمد فى النهاية على اتفاق عام بشأن قدرة الناس على قراءة المؤشر قراءة صحيحة ، أو قدرتهم على القيام بألوان أخرى من الملاحظات بدقة . والتقارير الخاصة بهذه الملاحظات هى محمولات عن الواقع بطبيعة الحال . وهى كثيراً ما تعرف فى العلوم « بالبروتوكولات » . ونحن لا نستطيع أن ننكر أهمية مثل هذه المحمولات ، ولا احتمال الخطأ الذى لا مفر من كونه فيها . وعلى مستوى الخطأ الإدراكى يتطلب العمل العلمى قواعد صارمة للبحث ، وإعادة البحث . والملاحظات تتم تحت ظروف قد هيئت عن عمد بحيث تضمن أن محمولات البروتوكول protocol propositions قد تحررت من الخطأ الإدراكى إلى أقصى ما فى

الطاقة البشرية من إمكان . وما ندعى أنه صحيح لا نتمسك به عن ثقة إلا عندما يقوم الآخرون بتكرار الملاحظات نفسها مرة أخرى بعد أن يضعوها تحت نفس الظروف مرة أخرى (١) .

ولكننا لم نصل بعد إلى قلب المشكلة : فعلى مستوى نظرية المعرفة التى تهتم بالتحليل الفلسفى لطبيعة المعرفة البشرية لا تكون الأخطاء التى قد تنسب إلى الإدراك الفردى الخاطيء ذات أهمية كبيرة . ولكن مشكلة الخطأ على هذا المستوى العميق من التحليل تتصل بالجانب التفسيرى ، أو جانب الواسطة من المعرفة تتصل بالممحات التى تلبسها الذاكرة والخيال لمادة الإدراك الحسى الخام . وباختصار فإن المشكلة هى كيف يتسنى لنا أن نتقل فى ثقة من التجربة الفردية (الشخصية) إلى التوكيدات الموضوعية غير الشخصية المدعمة عن واقع الحال ؟

من الصعوبات التى تقوم هنا أن التحليل الفلسفى يجب أن يبدأ فى نطاق تيار التجربة الجارية . ويبدو أنه لا سبيل إلى التسلسل وراء التجربة ، ولا سبيل إلى فحص (عقل) الفرد أو سلوكه العقلى قبل أن يمر بتجربة ينمو عن طريقها أو يخرج منها كفرد . وإن شئنا التخصيص قلنا مثلاً : إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر فى التفكير قبل أن يصبح فرداً مفكراً فعلاً . وكما لاحظنا فى الفصل الثالث إن الفرد لا يخبر مادة المحسوسات الخام بل يخبر الأشياء والحوادث كاملة التكوين .

(١) إن أى حادثة معينة — لأنها معينة — تكون بطبيعة الحال غير قابلة للتكرار ، وقد لا يمكن إحداث صورة أخرى منها تطابق الأصل تماماً . ويقال أحياناً إن العلم والتاريخ قد يمكن التمييز بينهما على هذا النحو ، فالتاريخ يدرس الحوادث المعينة ، فى حين يدرس العلم العلاقات القابلة للتكرار بين الحوادث . وإنه لما يشتت الانتباه أكثر مما ينبغى الآن أن نرتاد كل الصعوبات التى يتضمنها هذا رأى . إلا أننا نود أن نشير هنا إلى أن أى مثل معين عن العلاقة التى يمكن تكرارها يظل هو نفسه حادثة معينة . وبالرغم من هذا فالإنسان يستطيع أن يفرق بين أهداف العلم والتاريخ : فالتاريخ يهتم بالوصف الدقيق والتسلسل المنطقى للحوادث بغية التوصل إلى فهمها فهما أفضل . وأما العلم فيهتم ببناء التجربة فى حدود الارتباطات الثابتة (أى إنه يصف الحوادث فى ضوء النواميس العامة) . وقد لا يتجاوز الهدف — من وجهة نظر « العلم الخالص » — مجرد الفهم ، ومع ذلك فالجهود العلمى يزدهر لأنه يوعى إلى زيادة ضبط التجربة .

ومن وجهة النظر التى تهتمنا الآن نجد أن من الاعتبارات الأهم — التى يجب أن نلاحظها — ذلك التضاد القائم بين الدراسة العامة للتاريخ — بما لها من اهتمام بالتوكيدات المدعمة — وبين اختبار الحوادث لسردها بغية تنمية مذهب من المذاهب أو تعزيز تفسير من التفسيرات الجامعة .

ونحن قد تعودنا أن نعالج الأشياء على مستوى التعرف دون أى مجهود عقلى ، فى حين يظل التعقيد البنائى للمعملية غير ملحوظ . وعلى ذلك فمن المحتمل أن نزعج أن موضوعات المعرفة « تعطى لنا » فى التجربة ، وأنها نكتسب معرفتنا بهذه الموضوعات بطريقة مباشرة لا وسيط فيها .

ومن المفروض أن هناك نقطة تقع فى موضع ما من تطور الكائن البشرى تكون أى تجربة أو خبرة سابقة عليها متحررة من أى لمحات إلى درجة أنه يمكن أن يقال إن الكائن البشرى على اتصال بما يحيط به بصورة مباشرة وغير مؤولة . ويكون هذا إدراكاً حسياً خالصاً - وهى حالة لا يمكن التعبير عنها إلا عن طريق أصوات التعجب - ربما ، إذ ما عسى أن يقوله الفرد عن إحساس لا معنى له ؟ وقول أى شىء على الإطلاق عن هذا الإحساس - ولو حتى إبداء ملاحظة خلوة من اللذة - هو بدء النشاط التفسيرى الذى يجاهد أن يربط وينظم ويقارن ويميز - وبالاختصار يجاهد من أجل المعنى . إن التفكير كله - من أول التعرف الذى لا مجهود فيه إلى التأمل المجهد - يتضمن إلباس مادة المحسوسات الخام ثوب المعنى . وعلى ذلك فما سبب الخلط فى القضية أن تتكلم عن « المعرفة المباشرة » كما لو كان بإمكان الفرد أن تكون له خبرة كاملة فى حد ذاتها : أى ذات معنى دون أن تفسر .

وكل ما نستطيع أن نتوصل إليه - بكل ما توافر لدينا حتى الآن من معرفة بتطور الكائن البشرى - هو أن الكائن البشرى يصل إلى عملية التجريب بعد أن يكون قد جرب فعلاً ، وأى محاولة لتحديد النقطة التى يبرز عندها الإنسان المفكر من الكائن غير المشخص أو المواد البروتوبلازمية - وهو الطفل بجميع طاقات نموه الكامنة - هى محاولة مفتعلة متعسفة . وتعتبر هذه المشكلة - من وجوه متعددة - هى نفس المشكلة التى كانت - ولا تزال - تؤرق رجال اللاهوت وغيرهم - وهى مشكلة اللحظة المضبوطة التى تلبس فيها الروح البدن : أهى لحظة الولادة أم قبلها بقليل أم بعدها بقليل ؟ وعلى أية حال ليس من الضروري أن يهتم المدرسون بهذه المشكلة اهتماماً كبيراً إذ من المؤكد أن الطفل قبل أن يلحق بروضة الأطفال أو الصف الأول من المرحلة الابتدائية ، يعتبر شخصاً فرداً مفكراً عارفاً . وقد قال جون ب . واطسن ذات مرة : « إن الطفل يكون - حول هذا الوقت - قد تخرج فى الاستجابات المتعلمة . »

الوظيفة التركيبية في التفكير

وقد يذكر القارئ في هذا الموضع - ومن المعقول جداً أن يفعل ذلك - المثل القديم القائل : « إن مهمة الفلسفة هي أن تجعل الأمور البسيطة تبدو صعبة ». ومن حق المدرس أن يتعجب ويتساءل عن علاقة مثل هذه الأمور بحجرة الدراسة خاصة وأن أطفال رياض الأطفال قد أجادوا بالفعل فن معالجة التجربة على مستوى التعرف . والنقطة المهمة هنا طبعاً هي أن في حياة كل من الفرد والجنس البشري عادات ناجحة للبحث رفعت إلى مقام المستويات الواعية إلى درجة أنه يمكن تحسينها باطراد . والمعلم الحكيم يعرف دائماً أكثر مما يحاول أن يعلمه تعليماً مباشراً . ولا شك أن فهمه العميق للتعقيدات البنائية للعمليات التي تبدو سهلة بسيطة يمكنه - مع الحساسية والثقة - من أن يجعل نمو غير الناضج يفضي بثبات .

وعندما يتعلم الطفل عن طريق التجربة كيف يلبس إدراكه الحسي ثوب المعاني الموضوعية فإنه يتعلم أيضاً أن بعض المعاني أجدر من غيرها بالثقة في الإرشاد إلى التصرف ولا يوجد هناك فاصل حاسم بين العملية البسيطة التي ينهك فيها الطفل ، وهي عملية خلق واختيار المعاني وبين العمليات التجريبية الأكثر تقدماً والتي تحتاج إلى درجة عالية من التفسير العقلي ، مما يقوم به رجل العلم . وعلى هذا فالعلم مستمر مع البديهيات بنفس الطريقة التي يستمر بها التفكير عامة - في أقصى مداه الإبداعي والتأملي - مع الفحص المبدئي الذي يقوم به الطفل عن المعاني في أبسط تجاربه .

ومع ذلك فلا ينبغي أن يؤخذ أي شيء مما قيل على أنه يعني أنه ليست هناك فروق هامة بين العلم والبديهيات السليمة . ولكن الفروق توجد في درجة الوضوح والدقة والتحديد والتجريد والتعميم والتنظيم وما إلى ذلك . ومن سمات العلم التي ذكرناها من قبل تأكيده الأكبر على الصياغة الواضحة لقواعد الاستدلال الدقيقة . وهناك فرق هام آخر وهو الدرجة الأعظم من تنظيم المعاني Systematization وحتى بالقياس للطفل عديم الخبرة نسبياً لا تقف المعاني لديه متباعدة منعزلة أبداً . بل إنها تتصل ببعضها البعض بطريق أو بآخر . وهذه الطرق التي تربط المعاني بعضها ببعض ،

والتي تنجح في التجارب يطلق عليها أحيانا « الطرق الصحيحة » على تقيض غيرها مما لا تنجح كل هذا النجاح . وإنا نقول أحيانا — على سبيل الاستعارة القليلة أو الكثيرة — إن هذه المعاني الصحيحة تعكس أو تتجاوب مع البناء الفعلي للظروف الوجودية .

وكثيرا ما يلاحظ أن العلم قد غير تفكير الإنسان إلى حد كبير . وهذا صحيح إذا كنا نغنى أن كثيراً من الاعتقادات السابقة على العلم قد انقلبت رأساً على عقب ، وأن أنماط التفكير لدى الإنسان قد طعمت بكثير من المفاهيم الجديدة . ولكن أعظم المفهومات العلمية تقدماً ما زالت تتصل من حيث المعنى بالسيادة الوجودية على المستوى الإدراكي بطريقة أو بأخرى . هذا وإلا لظلت هذه المفاهيم مجرد هياكل خيالية خالصة ، وكانت عديمة المعنى ، شأنها شأن الإدراك الحسي الخالص .

ومن جهة أخرى فليس هناك في العلم ولا في البديهيات السليمة من معنى لا يكون جزءاً من نمط المعنى الذي يسبق الموقف المباشر . إن الخبرة لا تألف من (ولا يمكن أن تختزل إلى) تجارب متلاحقة يتلو بعضها بعضاً كحبات العقد في الخيط إلا بقدر ما نتصور أن الخط الهندسي هو مجرد إضافة نقطة إلى نقطة ، فالخبرة تمتاز بامتلائها بالمعنى مما لا يمكن تحديد مكانه أو حصره في نطاق تجربة واحدة .

إن هذه الناحية الطبيعية المنظمة في التفكير هي الوظيفة التحليلية التي سوف نعالجها في الفصل التالي . أما ما كان يهمنا هنا فهو توضيح الوظيفة التركيبية . ولنحاول الآن أن نلخص النقط الجوهرية .

١ — من وجهة نظر علم النفس تكون التجربة التي تمر بها على مستوى التعرف بسيطة ومباشرة . إذ نتعرف الحوادث والأشياء ونعالجها كما لو كانت قدمت مباشرة إلى شخص عارف ذاتياً بواسطة بيئة موضوعية . إلا أن التحليل طبقاً لنظرية المعرفة يظهر أن المواد الحسية الخام للتجربة تتوسط لها — أو تفسرها — التجربة السابقة ، وتلبسها ثوباً من المعنى الموضوعي . وهذا الخلق للمعنى الموضوعي — أو المرجع الوجودي — هو وظيفة التفكير التركيبية .

٢ — عندما تختلط عملية التعرف يصبح الموقف موضوعاً لمشكلة . وعندئذ يستدعى الموقف التأمل أو التفكير المنضبط . ولا يكون التوسط أو التفسير في ذلك

الوقت فورياً ، ويصبح الإنسان مدركاً لوظيفتي التفكير التحليلية والتركيبية . وكلما حاول المرء أن يكتسب الضبط المعزى الموقف أو معناه الوجودي برزت مسألة كفاية المعاني الافتراضية التي يتمسك بها الإنسان بصفة مبدئية ، وعندئذ نعرف بأن المعزى الواقعي أو التركيبي لأنماط معانينا لا يمكن أن تختبر إلا في تيار التجربة الجارية .

٣ - - عندما نعبّر عن نتائج تفكيرنا بالألفاظ في صورة تأكيدات عن الشئون الوجودية فمن المسلم به أن كل تأكيد منها هو تكهن ضمنى عن تجربة مستقبلية . وهكذا فإن كل بيان يقوم بوظيفة تركيبية في التفكير أو البحث يحدد محتوى التجربة المستقبلية . وما دامت التجربة لا تحجب التوقعات الضمنية من الاعتقاد فإن لنا أن نقول إن الاعتقاد صحيح أو سليم . ولما كانت هذه التوقعات تمتد في المستقبل غير المحدود فإنه لا يمكن التمسك بأي اعتقاد عن الشئون الوجودية بثقة مطلقة .

٤ - - إن تحليل الجهود الناجحة في البحث مكن الإنسان من أن يصوغ مستويات للبحث وأن يحسنها باطراد . ويقال عن الأحكام أو النتائج التي نصل إليها طبقاً لهذه المستويات إنها مدعمة ذات أسانيد . وأما الاعتقادات التي تتطور عن طريق عمليات تتخطى أو تخرق هذه المستويات فليست مدعمة . وعندما تحسنت الأساليب والإجراءات البديهية للبحث وتوسعت تحققت كمية ضخمة من المعرفة العلمية المنظمة .

٥ - - يعالج الأطفال التجربة عند التحاقهم بالمدرسة في صورة أنماط المعاني التي تفوق الحصر والتي صاغوها - إلى حد كبير - بعمليات آلية شرطية شكلية ، ولم يختبروها إلا في بيئتهم المحدودة . وللب العملية التربوية هو توسيع نطاق تجربة الطفل وإخصابها عن حساسية حتى يمكن اختبار كفاية المعنى في مواقف متوسعة في الشمول . وفي الوقت الذي يعاد فيه بناء أنماط المعاني وتوسع ، يجب على عمليات التعليم الرسمي أن تبرز باطراد فهم المستويات التي يمكن بها للاعتقادات أن تدعم ، وللأحكام أن تضبط . وهكذا تزيد قدرة الطفل على تعليم نفسه بنفسه . ويبدو أمراً معقولاً أن نفترض أن المدرس يحسن صنعا إذا توافر لديه الفهم المفصل الناقد لطبيعة التفكير - إذا أريد له أن يوجه تفكير الآخرين ويقويه .

فصل السادس

الاعتقادات المدعمة "ذات الأسانيد" الوظيفية التحليلية

ما إن يتجه الفرد بتأمل إلى اعتبار أنماط المعاني التي تعمل في خبرته حتى يكون في إمكانيه صياغة جمل لا تشير إلا إلى هياكل الفكرة Ideational فقط . وربما تجلى هذا بأوضح ما يمكن عندما نتدبر بعض النظم الأصولية التي كونها الإنسان مستخدماً الرموز المجردة الخالية من الناحية الوجودية . ففي الجبر مثلاً نستطيع أن نؤكد أن $S^2 - S^2 = (S + S)(S - S)$. ومثل هذه الجملة التحليلية بخلاف الجمل التركيبية — لا تقدم أبداً أية تسكينات عن محتوى أي حيز زمني مكاني واقعي ملموس . ولذلك فإن هذه الجملة لا تثبت صحتها — ولا بطلانها — عن طريق الأحوال الوجودية اللاحقة .

إن التوكيد التحليلي لا يتصل بالأحوال الوجودية إلا بمعنى أنه توضيح للطريقة التي قررنا عن طريقها بناء أو تشكيل بعض أجزاء التجربة . ولب الموضوع هو مسألة كيفية تطوير الإنسان واختباره للأنماط المختلفة . وفي فصل تال سوف نتدبر بالتفصيل الطريقة التي يتعلم بها المرء تنمية النشاط الإدراكي . ولكننا نحسن صنعاً إذا حصرنا أنفسنا في الدخول إلى الموضوع عن طريق الدراسة التمهيدية للوظيفة شبه التحليلية التي قد تؤديها جمل أو عبارات معينة ، وإن كانت لا تبدو تحليلية في ظاهرها .

طبيعة الوظيفة التحليلية

إذا قلنا : « إن جميع الحيوانات التي تعيش في الماء هي أسماك » . فسوف تبدو هذه الجملة — في قيمتها الظاهرية — حكماً عاماً باطلاً وقائماً على الملاحظة وحدها . ومع ذلك فإذا نظرنا إليها بطريقة أخرى فلعلها تؤخذ على أنها تعني توضيح المعنى المراد من « جميع الحيوانات التي تعيش في البحر » و « الأسماك » . وبذلك تكون توكيداً لعلاقة بين المعاني . وتكون العلاقة في هذه الحال علاقة اشتمال . وليس هناك من يدعى أن جملة مثل « جميع القطط حيوانات » أو « جميع البشر فانون » مبنية فعلاً على شخص شامل لكل قطعة أو كل إنسان على ظهر الأرض ، أو مبنية حتى

على استنتاج بسيط تأتى من دراسة عينة مناسبة من كل من القطط والبشر . ولكن من الواضح أن القصد من مثل هذه الجمل هو تأكيد تقريرنا أنه مامن تجربة عقلية يمكن أن تنتج عنها تسمية (غير الفانى) بإنسان ، أو وصف (غير الحيوان) بأنه قط .

لاحظ الآن أنه كان بوسعنا أن نتمسك بالتوكيد : « جميع الحيوانات التى تعيش فى البحر أسماك » وندعها تعمل كجملات تحليلية . ولاحظ أيضاً أننا بفعلنا هذا لن نحصد من محتوى التجربة المستقبلية ، بمعنى أنها لن تمنعنا من رؤية الحوت ، إلا أنها سوف تهيئنا مقدماً لثلا نرى فى الحوت إلا سمكة كبيرة . ومثل هذا الربط غير السليم بين المعانى سوف يشجعنا على أن نتغاضى عن بعض الخلافات فى تجربتنا . ولكن المشكلة هنا ليست — كما قد يزعم الكثيرون لأول وهلة — مجرد تساهل يسير فى بعض الخلافات مقابل رؤية الأشياء (كما هى فى الواقع) وكل طريقة من طرق التصنيف هى بالطبع طريقة للتغاضى عن بعض الاختلافات فى نطاق التجربة . والمشكلة هى تقرير أى طرق التصنيف أنسب لهذا الغرض أو ذاك . وهذا نتعلمه فى التجربة ، وبالتجربة .

وحتى يمكن التوصل إلى نتيجة ما عن مدى مناسبة طريقة معينة من طرق التصنيف يجب على المرء أن يضع نمط أو نظام التصنيف موضع البحث على مستوى الصياغة الصريحة . عندئذ يستطيع أن يستبعد أو يعدل أو يوسع أو ينقح قوالبه الفكرية . ولقد تطورت النظم الكبيرة للتصنيف أو لربط المعانى ومازالت تتطور . ويمكننا أن نصوغ سلسلة من العبارات الشكلية عن هذه النظم ، ومثل هذه العبارات الشكلية يمكن أن تصبح موضوعاً للدراسة أو التدريس . ومن ثم يستطيع المرء أن تكون لديه معرفة بهذه الأمور الشكلية .

وبأحد الاعتبارات تشبه الجمل الشكلية هذه تعريفات القاموس العادية من حيث إنها أحكام عامة عن الاستعمال . وباعتبار آخر تكون المعلومات المنقولة — حتى التى تنقلها تعريفات القاموس — معلومات عن العلاقة بين المعانى . وفى حالة نظام المعانى الوطيد الأركان تؤدي هذه المعلومات وظيفة تحليلية فى التفكير أو البحث ونحن نتمسك بها « ولينتج ماينتج » فى التجربة .

وفي تطور العلوم نجد إيضاحات ممتعة للطريقة التي تؤدي بها الاعتقادات وظيفية تحليلية حتى وإن بدا من الواضح أنها تدور حول أمور وجودية . مثال ذلك أن الفلكيين (ولا نقول شيئاً عن رجال الشارع) عرفوا - بعد أن تيسر لهم نظام بطليموس - أن الأرض هي مركز الكون . ولكن « المعرفة » لم تمنعهم من أن يلاحظوا حركات الأجرام السماوية ، والتعبير عن هذه الحركات بجمل رياضية معقدة والواقع أن هذا المفهوم جعل تطور علم الفلك ميسوراً .

ونحن اليوم نعرف جميعاً أن الشمس هي مركز نظامنا الشمسي . ومرة أخرى تؤدي هذه المعرفة - في كثير من الحالات - وظيفة تحليلية . ومعظمنا اليوم ليس أقدر على تعزيز هذه المعرفة بأسانيد تجريبية من أجدادنا بالنسبة « لمعرفتهم » . والواقع أنهم كانوا في موقف أقوى بكثير فيما يتعلق بالملاحظة الحسية اليومية . ونحن إذا لم يكن لدينا أى فكرة عن أى نوع من الأدلة الواقعية تجعلنا نتخلى عن اعتقادنا كان من الواضح أننا نتمسك بالاعتقاد القائل بأنه « لينتج ما قد ينتج » عن التجربة ومن ثم يؤدي الاعتقاد وظيفة تحليلية .

ويجب أن يكون المدرسون حساسين لهذه الحقيقة ، وخاصة عندما يتعاملون مع التلاميذ الصغار ؛ ذلك لأن طرق التصنيف وربط المعاني التي استغنى عنها أو عدلت خلال تجربة الكبار وخبرتهم قد تستمر - مع هذا - تمارس سلطاتها على الطفل وهو يحاول علاج المشكلة المحيرة في بعض الأحيان ، وهي مشكلة بناء خبرته . ولنتأمل مثلاً بعض المسائل الصبائية الثابتة نحو الأجانب أو نحو رجال الشرطة .

ومن المحتمل أن تصيب خيبة الأمل المدرس الذي يفترض أن أفكار الطفل ماهية إلا أحكام عامة قائمة على الملاحظة وحدها ، وأنه سوف يتخلى عنها بمجرد أن يوجه انتباهه إلى الحالات السلبية .

والأكثر احتمالاً هو أن الطفل سوف يعتمد ببساطة إلى خلق دائرة هامشية يدور مركزها على محيط دائرة أكبر - إن صح هذا التعبير - لتفسر الانحراف الذي بينه المعلم . وما يحتاج إليه الطفل طبعاً هو معاونته على أن يدرك أن هناك نظاماً لربط المعاني أكثر فائدة ، وأنها ميسورة له ، وأنه عندما يتعلم استعمال وتنمية هذه النظم الأكثر نضجاً سيجد من التجربة جوانب ممتعة كثيرة تفلت من ملاحظته في الوقت الحاضر ، أو تبدو له معقدة إلى درجة محيرة .

والنقطة التي ينبغي ملاحظتها هي أنه بمجرد أن يستقيم لنا نظام أصولي عامل حتى يحكم للعامل الخاصة بالعلاقات بأنها صحيحة ، أو يحكم عليها بأنها باطلة ، في نطاق النظام ، لا عن طريق فحص التكهينات الضمنية في الحيز الوجودي ، ولكن عن طريق الاستناد إلى دعاوى النظام نفسه ، مضافاً إليها قواعد الاستنتاج والاستبدال وما إلى ذلك . وهذه الجمل الشكلية مثلها مثل الجمل التحليلية لا تقوم بأية تكهينات وجودية معينة ، بل هي توضح ما يجب أن يكون صحيحاً من مجموع الخبرة الممكنة ذات الصلة - هذا إذا اعتقنا النظام .

الاستدلال التحليلي

(من المقدمات إلى النتائج ، ومن التعميم إلى التخصيص)

لا حظنا من قبل أنه إلى أن يجيد الشخص بعض طرق بناء التجربة لا يمكن أن تتوافر له التجربة . وكل ما يمكن أن يواجهه على الأكثر - هو ما أسماه وليم جيمس : « فوضى الطفل ذات العجيج والضجيج Buzzing Booming Confusion » وهذا يعني من جديد أن المعنى لا يمكن أن يقوم وحيداً منعزلاً ، وأنه قبل أن يمكن « لنقطة » التجربة أن يكون لها معنى يجب أن تربط إلى « حبل » معنى الخبرة . وعندما ترتفع الوظيفة التحليلية إلى مستوى الوعي أو الشعور ، وتتضح العلاقات بين المعاني ، تقوم معرفة هذه العلاقات بوظيفة المعرفة النظرية الاستنتاجية . وليست هذه المعرفة نظرية بمعنى أنها تفوق خبرة البشر ، ولكن معناها أنها تسمو على التجارب الخاصة .

وقد جرت عادة الفلاسفة الذين يكتبون عن هذه الأمور أن يقصروا اصطلاح « التحليلي » على تلك الجمل الشكلية الصحيحة على إطلاقها - أي التي يجب أن تكون صحيحة بمقتضى أي نظام أصولي يمكن تصوره - لا الصحيحة طبقاً للنظام المعين الذي يؤمن به الفرد . مثال ذلك أن س . لويس يرى أن المعرفة التحليلية النظرية (الاستنتاجية) هي تلك التي قد يقال عنها إنها صحيحة في كل العوالم الممكنة (أي في أي عالم يمكن تصوره تصوراً متناسقاً ^(١)) . ومن الصعوبات

(١) انظر C. I Lewis, An Analysis of Knowledge and Valuation (La Salle, Ill., Open Court Publishing Company, 1946)
٧ - التفكير التأمل

الصغيرة التي تعترض هذا المفهوم أنه إذا كانت لدينا معرفة نظرية (أى قائمة على النظريات لا التجارب) عن جميع العوالم الممكنة فإنه يبدو أن لدينا أيضا معرفة نظرية من نفس النوع عن عالمنا الواقعي، ومن ثم تتوافر لنا عنه معرفة تركيبية استنتاجية وبطبيعة الحال قد لا يكون عالمنا الواقعي هذا أحد العوالم الممكنة فعلا.

ومع هذا فإن مثل هذه النتيجة لا ينبغي أن نزعجنا كثيراً، لأنها لا تزيد عن كونها ملاحظة عن الموقف المحزن الذي نجد فيه أنفسنا عندما نحاول أن نؤكد شيئاً (يجب أن تثبت صحته عن طريق العقل وحده) عن عالم لاحيلة لنا (على قدر ما يتحمل العقل) في معرفة ما إذا كنا نعرف عنه شيئاً، أو لانعرف عنه أى شيء على الإطلاق. وفي حالتنا هذه فإن العالم موضع البحث هو ما يدعى بالعالم الفعلي أو «الحقيقي»، والذي يقع - كما نقول أحياناً - وراء خبرتنا المبنية (طبقاً للقواعد المتناسقة للقدرة الفكرية). ولذلك ربما كان من الأفضل أن نقول إن المعرفة التحليلية القائمة على النظريات لا التجارب (أى المعرفة الاستنتاجية) تتعلق بما يجب أن يكون صحيحاً من مجموع الخبرة التي يمكن تصورهما، أو التفكير فيها. عندئذ سوف تؤدي هذه العبارة نفسها وظيفة تحليلية وهي أن تقدم جزئياً علاقة المعنى الوظيفي «للاستنتاج التحليلي» بالمعنى الوظيفي «للخبرة».

ومن الصعوبات الكبرى التي تعترض كل المفاهيم المألوفة للتصنيف الثنائي التحليلي التركيبي، أن هذين الاصطلاحين يؤخذان على أنهما يدلان على نوعين من الجمل وليس على نوعين من الوظائف التي تؤديها الجمل في البحث. وعندما نقبل في الاعتراف بسلطان الوظيفة على الشكل فإن قوة كلمة «يجب» (في عبارة: إن القسم التحليلي ينصب على ما يجب أن يكون صحيحاً) تنسب إلى الضرورة المنطقية. ولكن من أين يستمد المنطق ضرورته؟ من المؤكد أن الجمل الصحيحة بالضرورة المنطقية هي كذلك لأنها تحليلية. وهكذا نصل إلى نوع من نقطة الثلاثي حيث نجد أنفسنا نؤكد أن بعض التوكيدات - مثل مبدأ الهوية Identity أو عدم التناقض Noncontradiction - يجب أن تكون صحيحة لا شيء إلا لأننا إذا فكرنا في الأمر استطعنا أن نرى أن كل بديل ممكن (أى يمكن إدراكه) لا يمكن تصوره (أى مستحيل).

أما وقد وصلنا إلى هذه النقطة فأى شيء نكتشف؟ إن كنا سنكتشف - أى شيء -

على الإطلاق . أترانا نكتشف — كما يقول البعض — ما يجب أن يكون صحيحا عن طبيعة الفكر البشرى (بفضل نوع من الضرورة البيولوجية أو النفسية أوروبما الكونية) ؟ مانظن ! وإذا كانت هناك أشياء يجب أن نفعلاها ، أو إذا كانت هناك طرق خاصة تؤدي بها هذه الأشياء وجب علينا — بطبيعة الحال — أن نتصرف طبقا لها . ولكن كيف يمكن أن تتاح لنا فرصة التفكير فيها ؟ الواقع أن الإنسان لو فكر دائما تفكيراً سليماً لما أتتحت الفرصة لاختراع المنطق . ومن الناحية الأخرى لعلمنا نكتشف أن (التحليلية) هي نوع من المعيار النهائي الذي قد تربط إليه كفاية الفكر بفضل طبيعته الخاصة ، وهي اختباره لنفسه بنفسه . وليس معنى هذا — بطبيعة الحال — سوى أن كفاية الفكر تختبر — في نهاية الأمر — بأعمال التفكير . ولكن أى نوع من الكفاية يختبر على هذا النحو ؟ ومن أجل أى شيء يكون الفكر كافياً ؟ بيد أن الإجابة الواضحة هي : (من أجل التفكير) .

والواقع أن هذه النتيجة ليست غير مرضية على نحو ما تبدو إلا إذا صاحبها الفكرة التي سبق التنويه بها وهي أن التفكير نشاط ذاتي خالص يحتاج إلى أن ينقل — بطريقة ما — إلى أمور ذات معنى من الناحية الوجودية عن طريق : (١) نوع من المعرفة التركيبية التي تقوم على النظريات لا التجربة A priori ، (٢) نوع من المعرفة التي تقدم مباشرة وبلا واسطة — نوع من معرفة الأسباب من الآثار والنتائج A posteriori (٣) وإله بر رحيم يهيء الأمر بحيث تكون أفكارنا الذاتية موازية بدقة أو متجاوبة مع الأوضاع الموضوعية للأشياء . على أننا إذا دققنا النظر فيما يفعله التفكير فعلاً رأينا أن التفكير هو الاصطلاح المستخدم لتسمية النشاط الذي يخلق المعنى ويستعمله ويختبره . وإن الأمر ليجتاح إلى قدر ملحوظ من الفكر لتحليل التجربة بغية تمييز « الذاتى » عن « الموضوعى » و (التحليلي) عن « التركيبي » ، و « الحقيقة » عن « القيحة » كما سوف نرى في الفصل القادم .

إذن فالأمر يتكشف عن أن ما يسمى بمشكلة موقف العقل الذاتى المحزن هي مشكلة لا يمكن إدراكها إلا كان لها أن تحل وجودياً . ويقال إن النفس Self لا يمكن أن تثق إلا بوجودها ، ولا تستطيع أن تعرف سوى أفكارها أو حالاتها الفكرية . وكيف يستطيع العقل أن يخرج عن نطاق ذاته ؟ وكيف يتسنى له أن يعرف البغال والرجال بصورة موضوعية ، أو يعرف حتى أن لهذه وجوداً أصلاً ؟

والعقل لا يتعامل إلا مع صورة الأشياء الفكرية . ومن الواضح أنه يخلق صوراً للحيوانات الخرافية والخيول المجنعة التي ليس لها وجود حقيقي على الإطلاق . فما هو علاج (الأنا وحديّة) (١) Solus ipse ؟

ويجب أن نلاحظ مرة أخرى أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر في التفكير إلا إذا أصبح بالفعل كائناً مفكراً . وهذا يعني أنه قام من قبل بالوظيفة التركيبية والتحليلية ، وأنه قد ألبس مادة الإحساس المادى الحام ثوب المعانى الموضوعية التي تتصل بهياكل أو أنماط المعانى التي تفوق التجارب الخاصة بالماضي . ، إن (الأنا وحدوى) solipsist لا يمكن أن يكون شخصاً (يجلس ويفكر) منقطع الصلة تماماً عما يحيط به ، متسائلاً عما إذا كان لشيء غير أفكاره أى وجود ؟ بل العكس تماماً هو الصحيح . فمنعزل النفس لا يمكن أن يكون إلا كائناً غير مشخص عاجزاً عن أن يتعدى الاتصال المباشر — الذى لا واسطة له ولا معنى فيه — بما يحيط به . وهو لا يستطيع بأية حال أن يتعامل عن أى شيء ، ولا يستطيع بأية حال أن يفكر فى أى شيء ، . وهو بالتأكيد لا يستطيع أن يخترع فكر (الأنا وحديّة) .

وعندما ننظر إلى الذات — والموضوع ، والنفس — والبيئة ، على أنها ليست أثنائاً موضع على المسرح قبل أن تبدأ مسرحية التجربة ، ولكن على أنها تميزات إدراكية تنبعث فى التحليل البنائى للمسرحية ، عندئذ نرى أن (ضرورة) العلاقات الشكلية أو التحليلية تنبع من ضرورة الوظيفة التحليلية فى التفكير . وبدون بعض طرق التفكير التى يمكن أن تتمسك بها على أساس (لينتج ما ينتج عن التجربة) فإن الوظيفة التحليلية لا يمكن أن تؤدي ، كما تنهار الوظيفة التركيبية وتختزل إلى الإدراك الحسى المجرد : وأخيراً عندما يحلل التفكير نفسه إلى الدرجة التي يوضح فيها مبادئ الهوية Identity وعدم التناقض Noncontradiction فإنه يكتشف تعريفه الخاص — إن صح هذا التعبير — وهو أنه هو النقطة التي يبرز عندها التميز بين وجود المعنى ، وانعدام المعنى .

ونرانا الآن على استعداد لمعاودة المجرى الرئيسى لبحثنا .

(١) الأنا وحديّة اتجه فلسفى يذهب إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يشق بشيء إلا بخبرته الخاصة ، وأنه لا وجود لشيء سوى تجارب كل فرد على حدة . وعلى هذا فكل نفس على حدة هى الأساس الوحيد للمعرفة وللعالم . وهذا الاتجاه صورة متطرفة جداً من المثالية — المترجمان .

كيف تدعم الاعتقادات التحليلية بالأسانيد (أو الأسس)

يتضمن السياق هنا ، معنيين للإسناد أو الأساس ، ولا يعنى أى واحد منهما تماماً الإسناد المتصل بإثبات صحة المحمولات عن الواقع . ونحن جميعاً نعلم أنه من المحتمل أن نخطئ في استعمال الرموز حتى في الرياضة البعثة أو المنطق . أضف إلى ذلك أنه من الجائز أن نفشل في فهم العلاقات الصحيحة أو إدراكها . وإذا ظلت هذه الأخطاء دون اكتشاف فإن المرء قد يظل يؤكد - وهو مخطئ - أن « هذا الشيء أو ذاك هو الوضع الحاصل » عن علاقة بين الأفكار أو الرموز أو المعاني . وهكذا يكون من الممكن أن تقوم بتوكيدات شكلية « غير صادقة » أو مخطئة ، أو نتمسك باعتقادات باطلة عن الأمور الشكلية . وعندما تكون التوكيدات عن العلاقة بين المعاني مخطئة نستطيع أن نقول عنها إنها باطلة من الوجهة التحليلية إلا أننا لم نصطح على أن نتكلم على هذا النحو .

وإذا تم فحينما يكون (الصدق truth) مسألة تتصل بالعلاقات الشكلية ، فإن الصدق لا يكون سوى معنى شكلي وحسب - اتساق منطقي على الأكثر ، تماسك مع المحمولات الأخرى في النظام . ومثل هذا الصدق تقرر الإجراءات التأملية التي لا تعتمد - ولو من الوجهة النظرية على الأقل - على الأمور الوجودية .

والواقع أن الأخطاء الشكلية غالباً ماتكون - بطبيعة الحال - ناشئة عن ظروف وجودية ، مثل الرموز المكتوبة بإهمال أو التعب البدني أو المشتتات المادية والنفسية وما إلى ذلك . ومع هذا فربما استطاعت المحمولات الشكلية أن تتمتع بنوع من الإثبات التام أو الكامل لا يمكن للتوكيدات عن الشئون الوجودية أن تتمتع به . فالجملة التي لا تؤكد أى محتوى وجودي لاخوف عليها من أن تظهر بطلانها أو عدم صحتها الحوادث التي تجري في حيز الزمان والمكان ؛ ذلك لأن الإثبات الشكلي ليس مسألة « غوص » في الحيز الوجودي . بل هو أقرب الأشياء إلى التقهقر التأملى بغية إزالة الأخطاء . وعلى قدر ما يعنيه الصدق في هذا المعنى الشكلي فلن تصادفنا في الإثبات صعوبة أخرى . وهذا هو السبب في أن مثل هذه المعرفة الشكلية (التحليلية من الناحية الوظيفية) قد توصف بأنها أكيدة على حين

تظل المعرفة التركيبية « محتملة » فقط .

ومن حيث الاستعمال العملي يعامل كثير من الجمل التركيبية كما لو كانت صادقة بصورة مؤكدة . ولكن هذا لا يعنى أن الصدق التركيبى يمكن أن يقارب الصدق الشكلى . ولا ينبغى أن يعتبر التأكد من الصدق الشكلى الغاية المثالية التى ينزع إليها الاحتمال التركيبى الأعلى شأنًا . بل إن هذين المعنيين « للصدق » يظلان متميزين منفصلين .

وأما المعنى الثانى لكلمة الإسناد فإنه عندما يطبق على الجمل الشكلية يكون متعلقا بالمنفعة أو المناسبة فى بناء الخبرة . وقد أشرنا إلى أنه يقال أحيانا إن بعض طرق ربط الأفكار يتجاوب مع البنايات الوجودية أفضل من الطرق الأخرى . ولكن يجب أن نلاحظ أيضا أنه ربما كان من الأدق أن نقول إن طرقاً معينة لربط الأفكار — وبالتالي لبناء الخبرة — تتجاوب مع الأغراض الإنسانية بصورة أفضل من الأخرى . وهذا الانحراف الذى يبدو بسيطاً فى الشيء (المتجاوب معه) يشير إلى نقلة عميقة من التأکید الميتافيزيقى إلى التأکید الوظيفى فى مدخلنا إلى الخبرة الإنسانية.

ومن الواضح أن الإنسان يبنى تجاربه ، كما أنه من الواضح أنه عن طريق التحليل التأملى يوضح الإنسان الطرق التى بها يقوم بذلك . وليس هذا كقولنا إن الإنسان يعيش فى عالم مبنى على وجه الاستقلال ، وإن لديه معرفة (ولو جزئية) عن البناء الكونى . إن ذلك يعنى — ببساطة أكبر — أن التجريب يعتمد على تهيئة سابقة للتجربة ، وهذا أمر ينبغى للمعلمين أن يتذكروه .

وبهذا المعنى الثانى لكلمة الإسناد أو الأساس قد يقال عن جملة أو عقيدة تقوم بوظيفة تحليلية إنها مدعمة أو مضمونة عندما يكون النظام الذى هى جزء منه قد أثبت صحة نفسه فى تدبير الشئون الإنسانية . والشئون الإنسانية تشتمل بطبيعة الحال على المواقف المفسرة تفسيرا عقليا رفيعاً وعلى المواقف التى لا تتعدى مجرد إشباع الحاجات البيولوجية للسكان البشرى ؛ كما تشتمل على أسى مطامع الإنسان وعلى أكثر أعماله اتصالاً بشئون الدنيا ؛ وهى ليست ضيقة ولا نفعية بالضرورة . إن هذا الاختبار النفعى لا يكون كافياً إلا إذا نظرنا إلى الشئون الإنسانية نظرة عامة فى سياقها الشامل .

صلة هذا بالتربية والتعليم

كثيراً ما ينشأ في حجرة الدراسة توتر مؤسف . وهذا التوتر ينشأ عندما يدعى أن هناك صراعاً بين امتلاك ناصية حقائق البيئة المادية والثقافية وبين تعهد الفكر الإبداعي المستقل . وقد يكشف التحليل البسيط لفلسفات التربية عن ذلك التوتر في صورة الصراع بين الواقعية والمثالية من جهة ، وبين الانتماء المذهبي والنسبية Relativism من جهة أخرى . ويذهب أصحاب المدخل الأول إلى أن الحقائق وهياكلها « موجودة هناك » ، في انتظار من يكتشفها ، في حين يذهب أصحاب المدخل الثاني إلى أن المعرفة هي مسألة ابتكار إنساني إلى حد كبير . ويقال إن فلسفة التربية المبنية على الواقعية — سواء أ كانت مادية أم ثنائية أم مثالية موضوعية أم مثالية مطلقة — يجب أن تكافح تحت طغيان (الحقيقة) العنيدة غير الشخصية لاستبعاد تنمية الفكر الإبداعي والإيمان بالفروق الفردية . وبعبارة ذلك يقال إن مدخل التربية الذي يعتمد على المثالية الذاتية ، أو النسبية الثقافية أو الشخصية ، أو البرجماتية — لا مفر له من أن يفشل في تنمية التقدير السليم للحقائق ، والتفسير العقلي المنظم . والواقع أن هذا المدخل الثاني يقال عنه إنه ينتهي إلى ما يضاد التفكير الإبداعي anti-intellectualism وإلى الاستغراق العاطفي في نشاط التلميذ الاندفاعي ذلك النشاط الذي تنقصه المثابة والنظام .

إن الاستعراض الموضوعي للاقتراحات التربوية الحالية التي يقدمها فلاسفة التربية المنتمون إلى المدارس الفلسفية المختلفة يظهر — طبعاً — أن المقتدرين من دارسي الأسس النظرية للتربية لا ينظرون نظرة جدية إلى هذا النوع من الاختزال البالغ حد السخف reductio ad absurdum ، إذ سوف تظل هناك مسائل هامة تتعلق بنوع الجو المزمع تهيينه في الفصل الدارسي ، ونوع إثارة البحث المزمع تنميته . أين ينصب الاهتمام ؟ هل ينصب على تعلم الحقائق ؟ هذا يعني — في الواقع — امتلاك ناصية نتائج الفكر كما نظمها القادرون من المدرسين ومؤلفي الكتب .

ومن السهل على كل من التلاميذ والمدرسين أن يتأثروا تأثراً كبيراً مما ينبغي بالكمية الهائلة من المعلومات التي نظمت على هيئة موضوعات دراسية تدرس . ومن الجائز أن يصبح العرض والتسميع والتقوية عن طريق الترغيب — هي الطرق

الرئيسية في التدريس مع الاهتمام القليل بالاستشارة النابعة من الداخل . وهذا المدخل لا يشجع الطلاب على أن ينموا حماسهم للتعلم ، ولا أن يحفلوا بخلق الأفكار أو اكتشافها أو تنظيمها أو تطويرها أو تجريبها — وبالاختصار لا يشجعهم على الاستمتاع بالتعلم . والاستمتاع بالتعلم يعني الاستمتاع بمعرفة كيف ، ولماذا تكون الأفكار خطأ بنفس القدر الذي يعني به الاستمتاع بمعرفتهم أن أفكار المرء صحيحة .

ومن جهة أخرى فإن محاولات تصحيح هذا الموقف عن طريق تضمين الجدول لخصص مخصصة للمناقشة يشجع الطلاب فيها على أن يعبروا عن آرائهم الخاصة أو تضمينه حصصاً للنشاط الحر حيث يتصرف الطلبة بمطلق حريتهم في المختبر أو المكتبة أو الورشة . إن هذه المحاولات من الجائز ألا ينتج عنها — في أحسن الأحوال — إلا إطلاق البخار المكبوت ، وفي أسوأ الأحوال ، إلا تنمية الاحتقار الحذر لكل من الحرية والمسئولية . إن ما نحتاج إليه في الفصل هو جو دراسي — يمثل دائماً الاستشارة وقيم التعليم الأساسية ، وذلك عن طريق المعاني واختبارها .

وبالرغم من أننا نعترف مرة أخرى بأن هناك أكثر من موقف فلسفي يمكنه أن يوفر الاستشارة للتعليم الجيد فإن المؤلفين يعتقدان أن الموقف العام الذي عرضناه في هذا الكتاب يشير — مع قليل من الإضافات المتخصصة — إلى مدخل إلى المعرفة يتطلبه التدريس الجيد . وإن اعتبار التفكير أمر يتضمن على الدوام مزيجاً من الإدراك الحسي والذاكرة والخيال ، وبالتالي اعتبار البحث أمراً يتضمن وظيفتي التحليل والتركيب ، يجب أن يعين طريق تنمية الاعتقادات المتحررة من طغيان « الحقيقة » والتي لا تهرب من وجه الدليل .

تدبر مثلاً تدريس اللغة الإنجليزية ، إن برنامج المدرسة الأمريكية المثالي يخصص وقتاً لتدريس اللغة القومية أطول مما يخصصه لأية مادة أخرى . وفكر في تلك الساعات المملة التي تنقضي في مسائل النحو وتركيب الجمل وما إلى ذلك ، ثم أخبرني : من الذي يرضى عن النتائج ؟ إن الشكوى التي لا تنقطع والتي تتعالى من حناجر أساتذة اللغة الإنجليزية في الكليات الجامعية هي أن الطلاب عاجزون عجزاً فاضحاً عن فهم تركيب اللغة . ويقترح البعض — لهذه الحال — زيادة الوقت المخصص لدراسة النحو والإنشاء مع رفع المستوى العام وتقويته . ويرى آخرون أن دراسة لغة أخرى — وبخاصة اللغة اللاتينية — سوف تحقق بطريقة غير مباشرة ما فشل تعليم اللغة الإنجليزية في أن يحققه بطريقة مباشرة .

في مواجهة هذا يمكننا أن نتأمل لحظة فيما كان بالإمكان أن يحدث لو أن اللغة درست وحللت في ضوء ما تعنيه الوظيفتان التحليلية والتركيبية اللتان تؤديانها في البحث وفي التعبير . هل تؤدي هاتان الوظيفتان في اللغة المستعملة في قطعة مختارة من الكتابة العلمية أى في نص يستعمله الطلاب في درس العلوم مثلاً ؟ ما هي وظيفة النعوى والإعراب في قطعة تاريخية ؟ أو في افتتاحية إحدى الروايات أو في بعض القطع الشعرية المختارة ؟

لماذا ، وكيف ، نمت هذه الأمور ؟ كيف ، ولماذا ، تمر بالتغير ؟ هل تربط هذه التغيرات أساساً بالوظيفة التحليلية أو بالوظيفة التركيبية في اللغة ؟ وماذا عن تغيرات الرقعة اللغوية عندما تترد العلوم الجديدة والنظريات الاجتماعية السياسية الجديدة لتغذى لغة الناس ؟ وماذا عن منطق اللغة — ولغة المنطق والرياضيات ؟ وماذا عن الاستعارة والتشبيه والحجاز والتعبير غير اللغوي ؟ وأخيراً ماذا عن التلميذ الذي يستعمل اللغة العامة الدارجة : هل فشل حقاً في التعبير أم تراه يعبر أكثر من اللازم ؟ !

وإذا كان واضعو المناهج يبحثون حقاً عن خيط ينتظم فيه تكامل المواد عن موضوع بؤرى يربط هذه المواد الدراسية المعزقة ، هذه الجزر — جزر الخبرة التي لا تزيد مساحة كل منها عن خمسين دقيقة — فعليهم أن يفكروا في أن يجعلوا تدريس اللغة يقوم بهذه المهمة . إن اللغة — في نهاية أمرها — أهم أداة للتفكير والتعبير والتدريس والتعليم في كل فصل دراسي . ونحن إذا نظرنا إليها ببساطة على أنها مجرد مجموعة أخرى من الحقيقة المنظمة وجدنا أنها — بالنسبة لكثير من الطلاب — أكثر مواد المنهج جفافاً وأقلها حظاً من التدريس الفعال . ولكننا إذا نظرنا إليها على أنها الأداة ذات الحدين التي يقوم الإنسان بتطويرها والبلوغ بها إلى الكمال لتقوم بوظيفتي التفكير ، فإن اللغة يمكن أن تصبح مثيرة كالإنسان نفسه .

وأياً ما كانت المكاسب التي نحصل عليها من تدريس اللغة عن طريق هذا المدخل الذي اقترحناه هنا فإننا قد نتوسع فيه بحيث نطبقه أيضاً على تدريس المواد الأخرى . وفيما يخص موضوع هذا الفصل — وهو الوظيفة التحليلية — فإنه من الجائز أن يمدنا تدريس الرياضيات بأفضل فرصة لتوضيح طبيعة الصدق الشكلي والفائدة البعيدة المدى للنظام الشكلي للمعاني في قيادة شؤون الإنسان .

على أنه لا ينبغي أن يستنتج من هذا أن الرياضيات يجب أن تقدم وتعلم بالطريقة الاستنتاجية فقط . وفي الوقت الذي يبدو فيه من الحكمة أن يرشد التلاميذ إلى التأكد من الطبيعة التحليلية للرياضيات في وقت أكثر تبكيراً مما هو حاصل الآن في مدارسنا ، إلا أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن التدريس يجب أن يبدأ بالتأكيد على هذه النقطة . ففي المقام الأول ، من الأمور التي دلت على صحتها الملاحظة أن التكوين الفعال للمواد من أجل التدريس لا يوازي بالضرورة ذلك التنظيم المنطقي المقنن لأية مادة بعينها . ومع هذا فأهم من ذلك في هذا المقام أن الفصل الجامد أكثر مما ينبغي بين وظيفتي التفكير التحليلية والتركيبية قد تنتج عنه ألوان من الانقطاع أو عدم الاستمرار بين ما يسمى بالتدريس الاستقرائي والاستنتاجي ، وألوان البراهين القائمة على الملاحظة الخاصة ، وتلك القائمة على التفسير العقلي أو التبرير ، وبين جميع الحقائق وتطوير الأفكار ، بل وبين الموضوعات العملية والموضوعات النظرية .

إن تدريس الرياضيات يتيح لنا فرصة أقرب ما تكون إلى المثالية لقيادة الطلاب — خلال الاسترجاع الجزئي لخبرة الجنس البشري — إلى فهم الطريقة التي ارتقت بها الوظيفة التحليلية في التفكير إلى أن وصلت إلى مستوى الصياغة الواعية . وهذا التطور لم يجعل تطوير النظم التحليلية وإتقانها أمراً ممكناً فحسب ، بل والتحقق من طبيعة الفكر المزدوجة في بناء الخبرة أيضاً .

وأخيراً ، لنلاحظ مرة أخرى — مجازفين باستنفاد هذه النقطة واستهلاكها — أن الغرض من إشراك المدرسين معنا في تحليل التفكير لم يكن من أجل أن ينظموا نشاط الفصل إلى الخطوات أو المراحل أو الجوانب أو الوظائف التي ناقشناها هنا في هذا الكتاب ، ولكن من أجل أن يكتسبوا السيطرة على مجموعة من الأدوات الإدراكية التي تساعد على فهم التفكير التأملی كطريقة للتربية والتعليم .

الفصل السابع

الاعتقادات المدعمة « ذات الأسانيد » الجاهل على القيم

في بعض الأحيان يسأل المدرسون تلاميذهم ، وهم يحاولون تشجيعهم على أن يصبحوا أكثر دقة وتدقيقاً في تعبيرهم : « الآن خذوا الحذر ... هل أنتم تقرررون الحقيقة أم تعبرون عن شيء تفضلونه ... يجب علينا أن نفرق بين الجمل التي تقرر الحقائق والتأكيدات التي تدور حول القيم » . ومما لاشك فيه أن هذا أمر يستحق بذل الجهود مادام يسهم بنصيبه في الإقرار الأمين بأن بعض الحقائق العنيدة ، بل و « الكريهة » يجب أن يتضمنها التقدير الموضوعي للموقف . ولكن من سوء الحظ أن هذا التمييز يستعمل أحيانا للتفريق بين ما يسمى « بالحقائق الجامدة الباردة » وبين ما تفضله ونرغب فيه بحرارة وبين القيم التي نعيش لها وبها . بل إن هذا التمييز قد يمتد إلى التفريق بين من يفترض أن لهم « عقولا واقعية » منظمة وبين ذوي « العقول التي تقدر القيم » .

ونحن جميعا نهمك في عملية التقويم ، إذ نحترم ونحتقر ونقدر ونتمتع . ونحن أبعد ما نكون عن عدم الاهتمام بتجاربنا . وحقيقة التقويم هذه حقيقة أساسية نفاذة كأعظم ما يمكن أن يصادفه الإنسان من حقائق . وليس لدينا في الحضارة الغربية أي تقليد قوى يوحى إلينا بأننا ينبغي أن نتخذ إلى الحياة مدخل « العابر غير المبالي » . وعلى أية حال - فكما لاحظنا من قبل - نحن لانحبر المادة الخام للمحسوسات قط ، بل إننا نحبر الأشياء أو الأحداث كاملة التكوين ذات معنى قليل أو كثير ، وينبغي أن نلاحظ بالإضافة إلى ذلك ، أن الخبرة ليست كاملة التكوين من حيث تعرفها فقط بل إنها مشحونة بالقيم أيضا . وأما ما يسمى بالحقائق الباردة أو المحايدة فهي دائما تجريدات من الخبرة الإنسانية الدافئة . وأما القدرة المنظمة على معالجة الحقائق كما لو كانت منفصلة عن القيم فهي من إنجازات الجنس البشري الجبارة - وإن كانت حديثة العهد نسبياً . وبإستغلال هذا الإنجاز خلقنا « عالما من الحقيقة العلمية » تسوده نظم من الهياكل والبنى الفكرية التي لا يمكن أن نصادفها في التجربة البشرية الفعلية . وهذا

هو السر في أن الناس من ثقافات متباينة تبايناً شامعاً يمكنهم أن يتفقوا بصفة عامة على «الحقائق العلمية»، على شريطة أن يكون كل واحد منهم قد تقبل الإجراءات العلمية المنظمة فعالم العلم عالم واحد . وهو تجريد من عالم الكثرة الذي يجب أن يعيش فيه رجل العلم ويعمل ككائن بشري حقيقي .

حياد العلم

إن نتاج هذا الطريق العلمي في النظر إلى التجارب نتاج محايد بمعنى أنه يمكن أن يستغله التقى والشقى على حد سواء ، كما بينت ذلك ألوان التقدم في هذا العصر الذري مع الأسف . ولكن حياد العلم هذا يجب أن يوجه النظر إلى حقيقة أساسية أخرى، وهي أن العلم حينما يرتد ليغذى خبرة الناس اليومية يزيد من مغزى قيمة هذه الخبرة إلى درجة هائلة . وحينما يعجز المرء عن أن يعرف الشيء الكثير عن النتائج المحتملة لتصرفاته ، أو البدائل التي يمكنه أن يختار منها ، فإن طاقته الخلقية الكامنة تشبه طاقة القزم إذا ما قورنت بطاقة العملاق الذي يجد قوة الطرق العلمية تحت تصرفه . وإن مشكلة عصرنا الكبرى هي أن نتعلم كيف نستخدم هذه القوة الجبارة بصورة علوية لا بصورة وحشية .

وقد تأثر الإنسان - بحق - بالنتائج التي حدثت عندما تعلم كيف يدرس الأحداث بطريقة عملية كما لو كانت وقائع غير شخصية خلوا من القيم . كما اضطرت الشروح والتفسير الدينية والغائية teleology للحوادث إلى الانسحاب تحت وطأة المدخل العلمي الجديد . إلا أنه بتطور طبيعيات نيوتن عقد ما يشبه الهدنة التي مازالت نتائجها تلاحقنا : فاعترف للطريقة العلمية بالسيادة في عوالم «الحقيقة» وسمح للسلطات العريقة أن تحتفظ لنفسها بما وراء ذلك من عالم «القيم» . وأصبحت المفاهيم الضيقة الآلية للعلوم الطبيعية المبكرة نموذجاً لتنظيم المناطق المفتوحة . وبفضل الإدارة المنظمة ازدهر العمل، وذاع نفوذه طويلاً وعرضاً ، وأصبح العلماء أحراراً في التصرف بالحقائق وإذا لم يكن لما عملوه أية نتائج قيمة إلا أن عملهم أعاد صياغة عالم رغبات الإنسان ومطالبه وطاقاته الكامنة .

ويمكننا أن نجد توضيحاً قوياً لآثار ارتداد العلم لتغذية خبرة الإنسان اليومية في

المحركة التي دارت حول ما يجب أن يعنيه تقدم روسيا العلمى السريع - كما كشف عنه سبوتنيك Sputnik - بالقياس إلى التربية والتعليم في أمريكا . والواقع أن المقترحات والمقترحات المضادة لاتقع بسهولة في حيز المناقشات التي يتقدم بها - من أجل تعليم الناشئة - أى عالم من العلماء أو أى واحد من أنصار العلوم الإنسانية بصفة عامة . فمفهوم التربية لدى بعض من ألمع العلماء أوسع إنسانية من مفهومها لدى بعض الأدعياء من مدرسى العلوم الإنسانية . كما أن بعض فلاسفتنا ومؤرخينا وأدبائنا الناضجين يمثلون - من الناحية الأخرى - الروح العلمية التي تفلت من قبضة رجال اشتهروا بإسهامهم في تقدم الطرق الفنية العلمية . على أنه بدأ يتضح اتضاحاً متزايداً للجميع أن تقدمات العلم مازالت تحدث هزات عميقة خلال جميع القالب الثقافى للقيم .

وكان لامفر من أن ينحو القلق وعدم الرضا بمواد الهدنة المعقودة بين العلم والقيم . وقبل سبوتنيك Sputnik بزمن طويل اندفع الناس يتساءلون : « إلى أين نحن ماضون ؟ » أو « كيف نقع على الأغراض التي يجب أن يخدمها العلم ؟ » وقد بلغ الخوف ببعض الناس إلى حد أنهم اقترحوا - في نوبات من الحنين الأجوف - أن تفرض على العلم مهلة يتوقف فيها ، حتى يتاح للإنسان وقت يتدارك فيه أمره في ميدان القيم ، زعماء منهم بأن الأمر سوف يكون مأموناً إذا سمح للعلم أن يتقدم مرة أخرى . بعد ذلك . وأصر آخرون على إلغاء الهدنة واستئناف الحركة . وهم لا يخامرهم الشك في أن العلم سوف ينتصر فيحرر الإنسان في كل منعى من مناحى مشئونه البشرية . وهكذا يحمره - آخر الأمر - من الخرافات والتعصبات المريبة والخاوف والأحقاد . إلا أن فريقاً آخر - وقد أخافه أن يتحول مثل هؤلاء « الناس الأحرار » إلى حيوانات آلية ضخمة مجردة من الخلق - يلح في المطالبة بتوفير صور منظمة من المعرفة بالقيم تعادل الكمية المتزايدة من المعرفة بالحقائق .

ونتيجة لذلك يقف المدرسون اليوم وجهاً لوجه أمام بعض القضايا الأساسية : ماهى طبيعة القيم ؟ وهل تنقل الأحكام القيمية المعلومات بطريقة تماثل الطريقة التي تنقلها بها تصريحات العلم ؟ وهل يمكن أن تعتبر البيانات القيمية صادقة أو كاذبة ؟ وهل يمكن إثبات صحة التفضيلات القيمية ؟ وباختصار هل يحق للإنسان أن يؤكد أن (كيت وكيت جدير بالتقدير ؟) .

التقييم يتغلغل في كل عمليات الاعتقاد

إن التحليل الذي قمنا به في الفصل الرابع للاعتقاد كـرغبة للعمل يمكننا من أن نلاحظ جانبين هامين للطريقة التي تؤدي بها القيم وظيفتها في الخبرة . وأول هذين الجانبين هو أنه حينما يؤمن الإنسان بالاعتقادات عن القيم فإن هذا يعني أنه شخص يختلف عما يكونه لو لم يكن الأمر كذلك . وهذا يصدق في جميع الأوقات لا حين يصوغ القيم التي يفضلها أو يتحدث عنها فقط . والجانب الثاني هو أن الاعتقادات عن القيم - شأنها شأن جميع الاعتقادات - تنشأ من التجربة ، وتهتم بالخبرة المستقبلية الممكنة . وهذا يعني أن اعتقادات الإنسان عن القيم متداخلة النسيج مع جميع الجوانب الأخرى من خبرته - في الماضي والحاضر والمستقبل .

والعلم - بوصفه نشاطاً إنسانياً - ليس أكثر خلواً من القيم ولا أكثر حياداً من غيره من ألوان النشاط الإنساني الأخرى . فكثير من القرارات التي يتخذها رجل العلم بشأن المكان الذي يعمل فيه ، ومن أجل من يعمل ، وما إلى ذلك ، تشير إلى أن رجل العلم لا يختلف اختلافاً ذا بال في تقييمه للأشياء عن غيره من أبناء عصره وأهل حضارته . ولكن الإنسان - وهو يعمل كرجل علم - تعلم بالتدريج أنه لكي يتحكم في صياغة الأحكام حول وقائع الحال يجب عليه أن يعزل نفسه - إن صح هذا التعبير - عن قيمه المفضلة وعن ميوله الخلقية ، وعن شخصيته الفردية . وهكذا تعزل التفضيلات الشخصية عن العوامل المتغيرة المطروحة على بساط البحث في الأحكام العلمية الدائرة حول شئون الحقائق الواقعة ، أضف إلى ذلك أن مثل هذه الأحكام يعبر عنها في العادة - بصيغة التقرير .

على أنه إذا كان الحكم صادراً حول القيم فإن رغبات الشخص وميوله - وما إلى ذلك - تؤلف جانباً من موضوع البحث . وحينما يؤكد المرء اعتقاداته عن القيم نراه يلجأ كثيراً إلى التعبير غير المباشر أو المنحرف ، كأن يستعمل صيغة الترغيب أو التقنى . وقد ظلت هذه الطريقة في الكلام مصدر بلبلة لأولئك الذين ركزوا جهدهم على الجوانب الشكلية من البيان . ولكن إذا كان الاعتقاد هو رغبة في العمل رأينا أن الظرف الذي تنشأ عنه هذه التعبيرات المنحرفة أو غير المباشرة هو - في جوهره - نفس الظرف

الذى يكمن وراء العبارات المصبوبة في صيغة التقرير .

فإذا أكد إنسان مثلاً أنه يتمنى لو كان جميع الناس أمناء فإن أحدًا لا يفترض أنه يؤمن بأن الأمانة العالمية هي واقع الحال . بل إن العبارة تعنى العكس تماماً في الواقع . ومن الواضح أن ما أكدّه الشخص على هذا النحو غير المباشر له علاقة باعتقاداته عن نوع الأشخاص الذين يعتبر نفسه منهم ، وله علاقة بماذا يكون عليه الحال لو كان جميع الناس أمناء . والتصرف الذى يتصرفه هذا الشخص في ضوء هذا الاعتقاد هو - في تلك الحال - تعبير عن نوع العالم الذى يرغب أن يعيش فيه . وهذا بالضبط هو الحال في كل التصرفات سواء أكان التركيز على القيم أو على غيرها . ولما كان الاعتقاد رغبة في العمل فإن التقييم جانب من جوانب الاعتقاد كله .

وإذا كان هناك شخص يتجول في الريف ، ووجد نفسه يحن إلى المنزل ، وإذا اعتقد أن منزله يقع إلى الغرب فإن التصرف الذى سوف يقوم به - في ضوء هذين الاعتقادين - هو في أبلغ الظن أن يسير نحو الغرب . وإذا عبر هذا الشخص عن رغباته واعتقاداته فلعله يقول : « في هذا الوقت ، الحال أن الوجود في المنزل شيء جدير بالتحقيق . والمنزل يقع إلى الغرب » . ولكن مثل هذا التعبير يبدو شاذاً وشكلياً في آن واحد . وأقرب من هذا أن يقول ببساطة : « كم أتمنى أن أعود إلى المنزل ، وأعتقد أنه يقع هنا - إلى الغرب » ؛ أو يقول : « أريد أن أعود إلى المنزل وإنتى لسعيد أنه يقع قريباً من هنا - إلى الغرب » . والغرض من كل هذا هو أنه بغض النظر عن الصيغة اللغوية التى يستخدمها الشخص في التعبير ، وبغض النظر عما إذا عبر بالكلام أم لم يعبر على الإطلاق فإن التصرف الذى يقوم به يظل هو هو . ذلك لأن المعزى الإجرائى للاعتقاد لا يعتمد على الصورة اللغوية أو الصيغة النحوية التى قد يصب فيها . بل بالعكس إن السياق الإجرائى هو الذى يوحى بالصيغة المناسبة ..

القيمة بالجواهر والقيمة بالعرض

فإذا تابعنا هذه الفكرة لاحظنا أن سلطان الوظيفة على الشكل يصدق على تسمية القيمة : بالقيمة بالجواهر والقيمة بالعرض . وهذان الاصطلاحان شأنهما شأن تسميات الصور التى تنشأ في نطاق التماس سيطرة أعظم على البحث - أداتان إدراكيّتان

نافعتان في فهم كيفية البحث موضوعياً في الأحكام الصادرة عن القيم حتى يمكن التوصل إلى النتائج المضمونة .

فإذا أكد امرؤ أن «س جدير بالتقدير» أمكن أن تعامل عبارته هذه على أنها مثال آخر للتوكيد العام إن «كيت وكيت هو الوضع الحاصل» وكما لاحظنا من قبل قد يشير مثل هذا التوكيد إلى وجود نمط للمعاني يؤدي وظيفة المعرفة ، أو وظيفة الاعتماد على خلاف في قوة هذا الاعتقاد ، أو وظيفة الفرض . ومرة أخرى يجب أن نسأل ماهي طبيعة أو ماهي حقيقة الوضع الميتافيزيقي *Ontological Status* لواقع الحال الذي تشير إليه العبارات ، وكما قلنا من قبل يجب أن ننظر إلى الوظيفة التي يؤديها التوكيد لا إلى الصورة أو الصيغة التي انصب فيها .

وقد يبدو أن مثل هذه التوكيدات تدور حول واحد أو أكثر مما يلي : (١) واقع الحال - أي شئون الحيز الوجودي المؤلف من الزمان والمكان والوسائل والغايات (٢) أو العلاقة بين المعاني - أي النمط الشكلي الذي يقوم بوظيفة النمط التحليلي . (٣) أو الذوق الشخصي - أي الحب والكره التلقائي الكثير أو القليل ، ففي الحالة الأولى يكون التوكيد بأن «س جدير بالتقدير» طريقة غير مباشرة للتوكيد على أن قيمة أخرى - ولتكن ص - سوف تظهر كنتيجة لـ س ، أو أن س سوف ييسر التوصل إلى ص (كل ذلك في الحيز الوجودي) في مثل هذا الموقف غالباً ما يسمى س بقيمة أدائية أو قد يقال أحياناً إن س له قيمة بالعرض . والتوكيدات عن القيم الأدائية قد تدعم من حيث المبدأ - كما يدعم كثير غيرها من العبارات أو الجمل التي تقوم بالوظيفة التركيبية ، وكل ما يدور البحث حوله هو التمكن الضمني للعبارة عن الخبرة المستقبلية وقد لا يحكم للعبارة بأنها صادقة ، أو عليها بأنها كاذبة إلا إذا برز الشاهد خلال بحث الخبرة أو التجربة .

وفي الحالة الثانية يقوم المرء بالتوكيد بأن «س جدير بالتقدير» لأنه يعتقد أن معنى س يستنبط من معنى قيمة أخرى - ولتكن ع . وعملية التدعيم بالأسانيد في هذه الحال تعتمد على التحليل المنطقي أو التأملی ، كما هي الحال مع المحمولات التي تؤلف جزءاً من نظام أصولي معين ، والصعوبة في معالجة القيم هي أن ع قد تكون مجموعة مفككة من الأمثال أو التعاليم أو الأحاديث التقليدية أو الأقوال المأثورة أو المعاشات أو القواعد أو المبادئ وما إلى ذلك مما يشتمل على كثير من الاصطلاحات المبهمة

التي يتعذر معها إجراء أى بحث دقيق أو حاسم ، ومع ذلك فمن حيث المبدأ يبدو أنه ليس هناك سبب يحول دون إيجاد نظام من المحمولات القيمة تكون فيه الاستعاضة والنقل والاستنتاج - وما إلى ذلك - ممكنة مع ضمان السلامة المنطقية ، وهكذا يمكن تقرير ما إذا كان هذا التوكيد أو ذلك عن قيمة مستنبطة مدعماً بالأسانيد أو « صادقاً » بالمعنى الشكلى أم لا .

على أن هناك صعوبة أخرى هنا ، وهى أن الإجراءات الاستنتاجية الجديدة لا تستند كل احتمالات الاستنباط ، وكثيراً ما نقوم بالتصرف فى ضوء بعض المبادئ أو التعريفات أو الأحكام العامة المرشدة ، وربما كانت هذه التصرفات مما لا يمكن استنباطه من مثل هذه المبادئ ، ومع ذلك فلا هى اعتباطية أو متعسفة كلية ، ولا هى بدوة من البدوات الشخصية . وربما كان من المفيد - فى هذا المقام - أن نستعيد إلى الأذهان فكرة التماسك أو الانسجام التى طالما أكد عليها المثاليون فى الفلسفة ، إذ يبدو أن المعرفة والحكم لا ينشآن إلا حينما تنسجم الجوانب الهامشية والمضطربة من التجربة الوقتية فى كل واحد ، على أن انسجام أو تماسك الكل هنا يوحى بما هو أكثر من التماسك المنطقي ، إذ أن المرء حينما يجاهد فى سبيل اتخاذ قرار ما فى ضوء بعض المبادئ المعينة يكون من الواضح أنه يجاهد فى سبيل التوصل إلى تصرف ينسجم مع هيكل ضخم متكامل من الخبرة يعتبر المبدأ نفسه تعبيراً موجزاً عنه ، وهكذا يكون المبدأ مطية تحمل هيكلًا ضخماً من الخبرة المهضومة لعمل فى القضية الماثلة ، وإن لم تكن هذه الخبرة المهضومة موضع بحث فى ذلك الحين ، ويجب أن نلاحظ - بصفة خاصة - أن المبدأ لا يقول للمرء ماذا يفعل ، ولكنه يساعده فقط على أن يكتشف ماذا يفعل .

ويبدو أنه لا توجد معايير دقيقة متفق عليها لتقرير ما إذا كان هذا القرار أو ذاك ينسجم مع هيكل الخبرة أم لا ، ومع ذلك فمن الواضح أننا جميعاً نمارس إصدار مثل هذه الأحكام (١) ، ومرة أخرى يجب أن نواجه مسألة الصنعة أو الحرفة فى إصدار الحكم .

(١) هناك حالة خاصة من هذه المشكلة العامة أخذت تصبح - بصورة متزايدة - موضوعاً لبحث خاص يجريه فلاسفة التربية المهنيون . ماهو البناء المنطقي للعلاقة بين فلسفة معينة والمقترحات التربوية التى تقدم فى ضوء تلك الفلسفة ؟ من الواضح أنها ليست مسألة المضامين المنطقية الجامدة ، ومع ذلك فالاتفاق الملحوظ على مآلعيه بعض المواقف الفلسفية المعينة بالنسبة للتربية والتعليم يتضمن ماهو أكثر من الاختيار التعسفى أو الاعتباطى . ومن المهمات الأولى لفلسفة التربية والتعليم إلقاء الضوء على بناء الاستنارة Enlightenment .

ويبدو أنه لا يوجد سبب ضروري يدعو إلى عدم رفع إصدار مثل هذه الأحكام إلى مستوى الصياغة الواعية وبذلك تيسر وتنبأ لزيادة التجويد والتحسين والتطوير . وكما نشأ علم التعدين من ممارسة صناعة المعادن كذلك يجب أن ينشأ فن التقييم من أعمالنا التقييمية اليومية .

وفي الحالة الثالثة يؤكد المرء أن «س جدير بالتقدير» لأنه يعتقد أن حالة شخصية من الاستمتاع أو الرضا سوف تحصل في وجود س ، وهذه هي النقطة التي سجلت عندها التقاليد قيام أكبر فوضى تتعلق بالتقييم ، فإذا قصد شخص مجرد التوكيد بأنه في الواقع يستمتع بالقيمة في وجود س (أو أنه قد استمتع بها فعلاً أو سوف يستمتع بها) كأن يلقى جملة تركيبية بسيطة من النوع البروتوكولي ، فهو يروى ملاحظة خاصة به ، تماماً كما يروى أية ملاحظة عن أي شيء أو حادث وجودي آخر .

ولكن الاستمتاع بالقيمة تجربة تنقل بالواسطة تماماً كما تنقل غيرها من التجارب بالواسطة ، ونستطيع أن نتصور أنه مادام يبدو أن جميع الكائنات البشرية تشترك في الكثير من الناحية البيولوجية فإن كل واحد منهم يتوافق له - في وجود بعض الأشياء أو الأحداث المعينة - نفس المادة الحسية الخام المتشابهة التي لا يمكن التعبير عنها والتي لا تنقل بالواسطة كجانب منطقي لتجربتهم ، ومن جهة أخرى نستطيع أن نتنبأ بأنه مادام الأفراد أو الجماعات لهم وسائط نقل متباينة فإن جميع الأشخاص لن يستمتعوا بالقيمة بدرجة واحدة في وجود شيء أو حدث معين ، ينتج عن هذا إذن أن حقيقة الاستمتاع بالقيمة ليس لها - في حد ذاتها - قوة الإثبات فيما يتعلق بهذا السؤال : (هل س جدير بالتقدير ؟)

وهناك مثل قديم يقول بأنه لا فائدة ترجى من الجدل في مسألة الأذواق ، فإذا كانت العجائز في أمريكا يحبين تقبيل البقر فلا حيلة لنا في ذلك ، ولكن هذا المثل شأنه شأن الكثير من الأمثال العتيقة - قرر كعذر لتجنب التفكير أكثر مما قرر كنتيجة للتفكير ، فالأذواق تتغير فعلاً ، ولا تهبط الأذواق الأصلية ولا تغيراتها من السماء ، والقصص الشعبي في كل حضارة يضم قصة الرجل الذي وهبت له ثلاث رغبات فتبين - لدهشته البالغة - أن ميوله التلقائية (أي تقديره وعدم تقديره) كان من الممكن أن تكون لصالحه موضوعاً للضبط التأملی الرزين .

ولكن قلب المشكلة مازال أبعد من ذلك .

التوكيدات المدعمة بالأسانيد عن القيمة

إن عملية الاستمتاع لا تتصل بالتوكيد القيمي المدعم ، إلا كما تتصل عملية الإدراك بالتوكيد المدعم عن الشئون الوجودية . فإذا عزلت العمليتان لم تكن إحداها ذات شأن حاسم في الحكم المدعم . ولا تصبح عمليات الإدراك أو الاستمتاع وظيفية في عملية التدعيم بالأسانيد إلا إذا دخلت في تركيب نظام للمعاني والغاية . فإذا أقررنا بذلك تلاشت فكرة وجود عنصر شخصي أو ذاتي في الاعتقادات عن القيمة زيادة على ما تتضمنه الاعتقادات التي يعبر عنها بصيغة التقرير . حقيقة إن هناك « إدراكاً حسيّاً خالصاً » - كحد منطقي - في الاستمتاع بالقيمة كما هو موجود في عملية قراءة مؤشر الميزان أو ملاحظة الطبيعة الحادة لذائق الحامض . وحقيقة أيضاً أن البحث عما هو جدير بالتقييم يتضمن بروتوكولات معينة عن الشاعر أو ردود الأفعال الشخصية . إلا أن الموضوعية قد تعمل كمثل مثدولوجي أعلى في أحكام التقييم كما هي الحال مع الأحكام الصادرة عن أنواع الموضوعات الأخرى .

وعندما يؤكد أحد الناس أن « س » ليس جديراً فقط بالتقدير أو الاستمتاع به ، بل وأن الاستمتاع به جدير أيضاً بالتقدير (وهو كمال الادعاء « بالمعرفة » عن القيمة) نجد أنفسنا من جديد داخل هياكل إدراكية متشابكة . ذلك لأن معنى القيمة - شأنه شأن غيره - لا يقف وحده قط . وفي الوقت الذي تصاغ فيه الهياكل والبنائات حتى تصبح ميسورة للفحص الموضوعي نكتشف مرة أخرى أن جملاً معينة - ولا سيما تلك التي تنسب القيمة بالعرض - تقوم بوظيفة تركيبية في البحث ، على حين تقوم الجمل التي تنسب القيمة بالجواهر بوظيفة تحليلية . وقد ينظر - بطبيعة الحال - إلى بعض الأشياء أو الأحداث على أن لها النوعين من القيمة : فما يقوم بالجواهر في موقف معين قد يقوم بالعرض في موقف آخر .

ومرة أخرى نجد التصنيفات التقليدية تترك شيئاً نرغب فيه ؛ فقد يمكن للمرء أن يقول إن الشيء أو الحدث الوجودي له دائماً قيمة بالعرض فقط بحكم أنه هو السبب الموضوعي أو الزناد للاستمتاع الذي هو محل القيمة بالجواهر . وربما انضح أن مثل هذا القول يتفق مع أولئك الذين يرون أن القيمة - في التحليل الأخير - هي بالجواهر في ذاتها . ومن جهة أخرى ربما استطاع الإنسان أن يستخلص أنه مادام الشيء الخارجي هو ما هو - فإنه يؤلف محلاً حقيقياً للقيمة سواء أكان هناك من يستمتع به

أم لا (أو سواء ثوافر له الذوق المرهف ليفعل ذلك أم لا) . فإذا كانت القيمة التي يعتقد أنها كامنة في الشيء قيمة بالجوهر أصبحت قيمة مطلقة بمعنى أنها قيمة يجب أن يستمتع بها كل إنسان لوجهها . ولعل الأشخاص الذين يرون أن القيمة موضوعية أن يحبوا هذا القول . وأخيراً من الممكن أن توجد وجهات نظر أخرى بطبيعة الحال . من ذلك مثلاً أن المرء قد يرى أن محل القيمة هو في العلاقة المعنوية القائمة بين شخص ما وشيء ما .

ومرة أخرى يجب أن ندرك أن الكلام عن مكان القيمة أو محل القيمة الكامنة هو تماماً طريقة للكلام بطريقة أقرب إلى الميتافيزيقية منها إلى الوظيفية . وقد يبدو أن صور القيمة - مثل الصور المنطقية أو الميثادولوجية - تنشأ في نطاق البحث ، وأن لها هناك مغزى وظيفياً أكثر منه ميتافيزيقي . وعلى ذلك لا يمكن القيام بتصنيف القيمة إلى قيمة بالجوهر وأخرى بالعرض إلا بملاحظة قيامها الفعلي بالوظيفة . وكما هي الحال في تصنيف المحمولات إلى تركيبية وتحليلية نجد أن أفضل مرشد هو ملاحظة أي نوع من التجربة سوف يدفع المرء إلى أن يغير فكرته عن ضمان أوصحة توكيدها .

فإذا تخلى الشخص عن الاعتقاد بأن « س جدير بالتقدير » لأنه اتضح أن النتائج المترتبة (في الحيز الوجودي) على الاستمتاع بـ « س » غير مرغوب فيها جاز لنا أن نستخلص من ذلك أن س كان يؤدي وظيفة القيمة بالعرض . وأما إذا تخلى المرء عن هذا الاعتقاد لأن مجرى التجربة أشار إلى أن التمسك بهذا الاعتقاد هو طريق فاشل أو عاجز أو غير محبوب أو غير مستنير للتقييم (أي لبناء التجربة بالنسبة للقيمة) جاز لنا أن نستخلص أن - « س » كان يقوم بوظيفة القيمة بالجوهر (ربما كجزء من نظام - أو شبه نظام - للقيم) . ومرة أخرى نقرر أن معرفتنا باشتراطاتنا عن الطريقة التي يجب أن تبنى بها الخبرة بناء قيميا هي معرفة نظرية استنتاجية عن اقيم .

وعلى ذلك يتضح أن الاعتقاد والحكم والعرفان فيما يختص بالقيم لا تتضمن من العناصر ما يختلف أماماً عن تلك التي تتضمنها المواقف التي لا تكون مسائل القيم فيها موضوعاً للبحث . والعبارات المتصلة بقيمة الأشياء أو الأحداث بالعرض تدعم بالأمانيد بنفس الطريقة التي تدعم بها العبارات التركيبية الأخرى . ولما كانت معرفة القيمة بالعرض متعلقة بشئون الواقع ذي الزمان والمكان فإنها لا تكون

نهائية ولا مطلقة فقط . أما معرفة القيمة بالجواهر فإنها لما كانت متعلقة بها كل الخبرة الناقلة كان من الممكن أن تتمتع - عن طريق التنظيم الجاد - بالثقة الأصولية الموجودة في النظم الإدراكية الأخرى . ومع ذلك فإن « قيمة » مثل هذا النظام - شأنها شأن صدق أى نظام لبناء الخبرة - تكمن في الفائدة الموضوعية (غير الشخصية) البعيدة المدى في تسيير دفة الشؤون الإنسانية .

مثال ذلك ، أن النظم السياسية - الاجتماعية السائدة يمكن أن تعتبر خطأ إدراكية شكلية بديلة لبناء الخبرة . فهناك اعتبار وجيه يمكن به مقارنة الثورة الأمريكية وثوراة كوبرنيكس ، وهو كيف سيكون تصور النظام الشمسى ؟ وكيف سيكون تصور النظام السياسى - الاجتماعى ؟ وفى كلتا الحالتين ستكون القضية قضية الفائدة البعيدة المدى للمفاهيم السائدة . وفى نطاق مجتمع معين يقوم لب القيم الحضارية بالوظيفة التحليلية فيما يتصل ببناء خبرة القيمة السياسية - الاجتماعية . ولكن كيف يفضل المجتمع مجموعة من القيم اللبية على غيرها ؟ هذه هى المشكلة التى تواجه ما يسمى بالأمم غير الملزمة بشئ فى عالمنا اليوم .

والواقع أنه ليس فى مقدور أى مجتمع أو أى فرد أن يظل بمنأى عن التجربة انتظاراً للدليل الكافى الذى يجعله يختار هذا أو ذاك وهو آمن . بل لابد لكل واحد منهما أن يتقدم - عن طريق البناء وإعادة البناء - استناداً إلى ما تيسر من الأدلة والشواهد هنا وهناك . وإنها لمهمة التربية والتعليم (سواء أ كنا نفكر بأسلوب الفصول المدرسية أم بأسلوب صوت أمريكا) أن تساعد الناس على أن يقوموا بالتقدير الموضوعى لأنظمة القيم السائدة استناداً إلى خبرتهم الخاصة الجارية ، ولا بد بالطبع أن يصبح التاريخ المدون ميسوراً . ذلك لأن بعض الفهم له قد يصبح جزءاً من خبرة المرء الجارية . وهكذا قد تصبح حقائق التاريخ شواهد وأدلة . وعن طريق عملية الصياغة وإعادة الصياغة

للأحكام القيمة المضبوطة ينمى الأفراد والمجتمعات الالتزام نحو كل من المثل الأعلى للموضوعية في أحكام القيم، ونحو الترتيبات السياسية الاجتماعية التي تتيح للعملية أن تستمر. وأخيراً عندما يقال إن أحكام التقييم تتضمن خلقية من أصدرها كجزء من المادة المبحوثة، وجب ألا نفترض أنها تتضمن شيئاً شخصياً بصفة خاصة. ذلك لأن الشخص عندما يعبر (شفهياً أو بوسيلة أخرى) عن اعتقاداته بشأن القيم نقول إنه يكشف عن خلقية. وعندما يعبر الشخص نفسه عن أمور أخرى فإنها لا تقل كشفاً عن شخصيته ولا تقل عن كونها اعتقاداته. والواقع أن اعتقاداته بشأن القيم تكشف عن الظروف الثقافية والتعليم والبحث والتأملات الخاصة، نفس المزيج الذي تكشفه اعتقاداته بصفة عامة.

وكثيراً ما ساد الاعتقاد بأنه لا بد من اتخاذ بعض الاحتياطات الخاصة ضد الذاتية، وذلك لكي ينظر المرء في أخلاقه بصورة موضوعية. وقيل إن الخلق يجب أن يطرح على بساط البحث أمام الأفراد والجماعات. وقد يكون الرأيان أفضل من الرأي الواحد في بعض الأحيان. ومع ذلك فمازلنا نكتشف بعض القصور في العمل الجمعي في العلوم كما أننا جميعاً نعرف أن التقليل من الجهل لا يزيد من الحكمة، فإذا كان الهدف هو ضبط أحكام التقييم لم يبد أن هناك سبباً واحداً يدعو إلى الزعم - قبل البحث - بأننا بحاجة إلى طرق فنية تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التي اصطنعناها لضبط الأحكام التي نصدرها على الموضوعات الأخرى، ومن الواضح أننا نفتقر إلى علم ضبط أحكام التقييم، ومع ذلك فقد نحسن صنعاً إذا تذكرنا أن كل علم موجود الآن كان فناً في يوم من الأيام؛ وأن نلاحظ أيضاً أن الطرق الفنية المناسبة لضبط الأحكام في نطاق كل موضوع لم تتطور إلا عندما صيغ أفضل ما كان معروفاً من الوسائل في وقت معين، ونقمت بالتجربة وفي التجربة وعن طريق التجربة.

ويكشف تاريخ كل علم من العلوم عن صراع دائم من أجل الموضوعية، وبعبارة أدق من أجل الطرق الفنية والمعايير الخاصة من أجل الموضوعية، ومن هنا يؤمن بصورة جدية بأن الإنسان أصبح موضوعياً كلياً (بمعنى أنه توصل إلى الضبط الكامل للأحكام) حتى في يومنا هذا، وفي أعظم علومنا تقدماً؟! الواقع أن بعض الارتباط العاطفي بالاعتقادات والأفكار ما زال يمارس في أرزن الشؤون الفكرية، وأين هو العالم الذي لا يهتم فعلاً بما سوف تثول إليه بحوثه حتى من بين أولئك الذين يقال إن اهتماماتهم التجريبية خالصة مجردة؟! إن إعادة بناء الاعتقاد تتضمن دائماً إعادة بناء الشخص.

والدرس الذى يستفیده المدرسون هنا يبدو واضحا . فالوعظ والإرشاد والضغط
الجماعى والإغراء العاطفى ليست — من حيث المبدأ — مناسبة لتدريس القيم
إلا بقدر ما هى مناسبة لتدريس الفيزياء أو علم الاجتماع . على أنه فى المراحل المبكرة
من تطور أى علم من العلوم يكون من وظائف المدرسة المهمة أن تساعد الأجيال
الصاعدة على أن يدركوا أن ضبط الأحكام ضبطاً موضوعياً ليس بالشى البعيد عن المثال
وإن كان من العسير التوصل إليه . ومنذ أجيال غير بعيدة كانت المدرسة تؤدى هذه
الوظيفة فيما يتصل بالعلوم الطبية ، ثم أدت هذه الوظيفة فيما يتصل بعلم النفس ثم اتجهت
مؤخراً نحو هذه الوظيفة فيما يختص بالتخطيط الاجتماعى . وفى هذه الحال الأخيرة بدا
بوضوح — آخر الأمر — أن العربية أمام الحصان ، فبدون الأحكام المنضبطة عن القيم يصبح
التخطيط الاجتماعى أمراً لا مسوغ له .

القسم الثالث

أدوات التفكير

والتعليم

إن كون الإنسان صانع أدوات أمر معروف جيداً ، وقد انتقل من صناعة البلطة إلى أعاجيب التكنولوجيا الحديثة في زمن قصير نسبياً ، وقد حولته بعض أدواته إلى « حيوان مفكر »

والتفكير على إطلاقه هو الانسحاب بعض الشيء من مواقف الحياة المحسوسة بما فيها من ألوان التوتر والمطالبة الملحة بالتصرف . هذه المواقف التي تنشأ فيها الرغبات والآمال والقلق والمشكلات ، والتفكير هو الاثتناس بالمعاني وارتدادها ، والقيام بألوان الاستدلال ، والاستجابة عن إدراك ، وتسمية الأشياء والأحداث بأسمائها ، والتحدث والكتابة عن الطريق التي يسلكها المرء للخروج من المشكلة ...

وأدوات الإنسان المتميزة يسرت حياته المتميزة ، وقد نقل مكاسبه جيلاً بعد جيل بفضل امتلاكه لتلك الأدوات ، ولكنه فعل ما هو أكثر من ذلك إذ نقل أدواته نفسها إلى الأجيال ، فمكن بذلك كل جيل من أن يتقدم إلى أبعد مما حققه أسلافه . على أن عجيبة العجائب هذه يجب ألا نخدعنا ؛ فالأدوات قد تستعمل استعمالاً سيئاً ، بل إنها قد تستخدم لتحقيق أغراض سيئة ، وقد أوضح لنا التاريخ هذا إيضاحاً كافياً ، وعلى ذلك فينبغي أن يتخلى اهتمام المدرسين السيطرة على المهارة في استعمال أدوات التفكير ، ويجب أن يمتد إلى فهم هذه المشكلة العويصة ، وهي مشكلة الهدف الذي تستخدم هذه المهارة لبلوغه .

الفصل الثامن

الاستدلال والمغالطة

ألقى أرسطو على كاهل الإنسان واجبا هاما منذ ما يقرب من ألفي سنة مضت عندما وضع قوانينه في المنطق . والواقع أنه ألزم رجال المستقبل مسئولية دائمة ، وهي أن يكونوا حساسين نحو الأخطاء التي يمكن أن تقع عند القيام بالاستدلال . ونتيجة لذلك كانت غاية الذين علموا المنطق - منذ ذلك الحين - هي أن يعرفوا التلاميذ ببعض الأخطاء الشائعة القياسية التي يمكن أن تحدث عندما يتابع الرجال « المفكرون » الأفكار . وقد انصب هذا الاهتمام على هذه النقطة لسببين :

- ١ - مساعدة الطلبة على أن يجودوا نوع تفكيرهم الخاص .
 - ٢ - ولماوتهم على أن يكتشفوا الجدل البارع - والمليء بالمغالطة مع ذلك - الذي يعتمد إليه غير الأمناء أو غير المخلصين ممن يحاولون التأثير في الحكم .
- على أنه لم تتجمع - عبر تلك السنين الطوال - شواهد كثيرة تكفي للتدليل على قيمة هذه الدراسة بالنسبة للطالب . فالمعرفة التي كانت تحصل في الفصول الدراسية عن الأخطاء الشائعة في التفكير - أو بالمغالطات القياسية كما قد تسمى بصورة أكثر أصولية - لم تنتج عنها ، في العادة ، زيادة ملحوظة في حصانة الفرد ضد الجدل المضلل في الغالب .

ويعتقد الكثيرون من دارسي المشكلة الآن أن هذه النتيجة الخيبة للأمال يمكن إرجاعها إلى أن اهتمام الطالب قد أسيء توجيهه . فقد طولب بأن يألف أشكال التفكير ، وكان من نتائج ذلك - عند أصحاب هذا الرأي - أن أهمل محتوى التفكير أو مادة حياة الإنسان التأملية ، إن صح هذا التعبير . وهكذا فقد وجه النقد إلى الفصل بين الشكل والمحتوى باعتباره المصدر الأساسي للمشكلة .

وهذا نقد غريب ؛ إذ يبدو أنه مصوب إلى الاتجاه الصحيح ، إلا أنه يطيش في طيرانه - بطريقة ما - عن الهدف بزاوية قدرها ١٨٠ درجة . فالذين يسمون بالمناطق الأصوليين في العصور القديمة والوسطى وأوائل العصر الحديث متهمون بفصل الشكل عن المحتوى . وهم لم يفعلوا من ذلك شيئا على الإطلاق ، بل العكس

فادعاء أن مجموعة معينة من الأشكال هي أشكال الكون أو أشكال الحقيقة ليس تطبيقاً أو فصلاً للشكل عن المحتوى ، بل هو وصلهما أو تزويجهما زواجا ميتافيزيقيا . أما تطرفاتهم الأصولية فقد نبعت من عجزهم عن أن يدركوا أن الشكل يمكن أن يعتبر مسألة شكلية بحثة من حيث الوظيفة ، وأن أشكال التفكير تنمو - بل وتنشأ فعلا - على يد الإنسان أثناء البحث ، وعن طريق البحث ، بغية إقامة هيكل الخبرة . ومن الصحيح بطبيعة الحال أن تخطيط هذه الأشكال الأصولي يبدو أثناء بذل الجهد من أجل التوصل إلى أكبر قدر ممكن من الأحكام العامة عن الحقيقة - غير كاف بدرجة تتجاوب مع علاج الوقائع الخاصة . وقد نتج عن هذا حالة فكرية محزنة حينما حاول كل إنسان أن يبين بالجلل كيف يحتمل أن « تطبق » هذه الأشكال على المادة الوجودية ، أو بعبارة أدق . كيف أمكن للمحتوى الخاص السليم أن يوضع - أثناء البحث الفعلي - في الأشكال أو القوالب المناسبة لكي يمكن التوصل إلى حل مشكلة فعلية قائمة .

وبالرغم من هذه الحال الفكرية المحزنة فقد تقدم الإنسان ليحل المشكلات الملموسة بدرجة ملحوظة من النجاح . وكما اكتشفنا في الفصل الخامس والسادس والسابع أنه لا يمكن لمسلك حل المشكلات هذا أن يفهم إلا حينما نفحص الوظيفة التي يؤديها الشكل أو الصورة في عملية بناء الخبرة . ويبدو أن مثل هذا الفحص يعوقه الزعم المسبق بأن بعض الأشكال المعينة هي أشكال المحتوى « الحقيقي » لخبرتنا .

على أن القصور العام للمنهج العتيق في المنطق هو أقرب إلى أن يكون مسألة فصل أو طلاق الجانب السيكولوجي من الجانب المنطقي . وإنه لو وضع سليم أن يعتبر المنطق علماً متميزاً عن علم النفس . ومع ذلك فالظاهر أن الكثيرين من مدرسي المنطق ما زالوا يتصرفون كما لو كانوا خائفين من أن يعنى إدخال الاعتبارات السيكولوجية في فصولهم الدراسية إرغام عليهم المحبوب على زواج الضرائر . وإذا كان المتوقع من الطلبة أن يحسنوا نوع تفكيرهم الخاص ، وأن يبنوا التاريس التي تحميمهم من الجدل الخداع في المواقف الحقيقية فإنه يبدو من الحكمة أن نرتاد سيكولوجية الموقف ومنطق الجدل على حد سواء .

الإنسان ليس آلة

ليست الكائنات البشرية آلات بطبيعة الحال حتى وهم يفكرون تفكيراً تأملياً . فالإنسان يمكن أن يسمى — بحق — « الحيوان المفكر » أى الكائن القادر على التفكير . أما ما لا ينبغي أن يسمى به إطلاقاً فهو أن يكون « عقلاً ميكانيكياً » أو إلكترونياً . فهذا الأخير — بكل أصول عملياته وأشكالها وأنماطها التى وضعها الإنسان أولاً — قد يعطى « مسائل » ليحلها بعد ذلك . وغالباً ما تكون النتائج رائعة مذهلة حقاً ، ومع ذلك فقد تسوقنا حماستنا لهذا التقدم إلى أن ننسى أن الإنسان هو الذى يسخر الآلة لى تحل مسائله هو . وهذه العلاقة لا يمكن أن يصدق عكسها . وفضلاً عن ذلك يجب أن نلاحظ أن الإنسان — حتى عندما يسيطر على أصوله الإجرائية (بما فيها عمليات الآلة) يواجه أعماله التأملية أو المنطقية بوصفه شخصاً — شخصاً يهتم بالنتائج — وهو مالا يهتم به الآلة

والمشكلة مسألة شخصية دائماً ، ويحسن بالمدرسين أن يتذكروا ذلك ؛ فالفرد — سواء أكان فى المدرسة أم خارجها — لا يواجه المشكلة إلا إذا ادعاها لنفسه . وعندما يفعل ذلك يتصرف كما لو كان يصيح ليسمع الجميع : « هذه هى مشكلتى ! وأنا لها . » والحقيقة البسيطة هى أن الأشخاص لا يدخلون إلا فى المشكلات التى قبلوا حلها . وعلى ذلك فلا مفر لتحيزاتهم ومعارفهم وقيمهم — وبالاختصار لا مفر لشخصياتهم — من أن تكون من بين العوامل الجوهرية فى التفكير الذى يقومون به فى المواقف المشكلة .

ومن قديم وجه فرانسيس بيكون ^(١) النظر إلى العبث الذى تحدثه — فى حياة الإنسان — الاتجاهات أو التحيزات القبلية التى سبق له أن اكتسبها ، وذلك عندما كتب عن « الأصنام » الأربعة ، أو أنماط الفكر الخاطيء التى يجب أن يتعاشاها المرء إذا رغب فى اتوصل إلى الأحكام السليمة . وفى بحث هذه « الأصنام » يقول :

١ — أصنام القبيلة : وهى تلك الأفكار الخاطئة التى يحتمل جداً

(١) انظر علاجه الفصل فى « الآلة الجديدة » Novum Organum

— اكون الإنسان إنسانا — أن تشوش أحكامه أو تفقدها لونها . ويرى يكون في « العقل » أنه عامل نشيط يميل إلى أن يسقط أفكاره ورغباته على ما يحيط به ، ولذلك اعتقد أن مجموع الناس يميلون إلى أن يكونوا بشريين أو « متمركزين حول الإنسان » في بحوثهم عن الطبيعة .

٢ — أصنام الكهف: وهى تلك الأخطاء التى يرتكبها نتيجة لمزاجه الشخصى أو الخاص وبيئته . وقد تأثر كل فرد تأثراً لا حيلة له فيه — وقد لا يكون له أى مسوغ — ببعض التقاليد وأصعاب الرأى ومن إليهم ممن ساد الإعجاب بهم بصفة خاصة فى ذلك الكهف الخاص ، أو البيئة التى نشأت منها قيمة كانعكاس لما كان رفاقه يقدرُون ويحترمُون .

٣ — أصنام السوق : وهى تلك الأخطاء التى تلشأ نتيجة للطرق التى نلغز (نلخبط) بها بعضنا البعض ، وخاصة عن طريق استعمال اللغة استعمالاً متهاوناً أو غامضاً أو ذا احتمالات . ويرى يكون أن اللغة لا تعكس بالضرورة محتوى الحقيقة ولا بناءها ؛ إذ من الممكن جداً أن نبتدع « أسماء » لسميات غير موجودة أصلاً . وقد يحسب الناس أن الفكر يسيطر على استعمال الكلمات ، ولكن الواقع أن الكلمات هى التى كثيرا ما تسيطر على الفكر .

٤ — أصنام المسرح : وهى تلك الأخطاء أو الأفكار الخاطئة الكامنة فى أى تقليد تقبلناه دون فحص ولا نقد . وهكذا قد يصبح الاعتزاز بالعنصر أو القومية المتطرفة أو الوطنية المنحرفة هى التقاليد الجوهرية لحضارة معينة . وفى بعض المجتمعات ينشأ الأطفال فى جو من الادعاء الاجتماعى ، والطائفية الضيقة الأفق فى الدين ، والحزبية الصارمة فى السياسة .

ويعتقد يكون أن قوة « العقل » وهبت للإنسان القدرة على أن يسمو فوق التحيز أو التعصب . وقد اعتبرت « أصنامة » هذه مزالق ما إن تعين وتحدد بوضوح حتى يمكن تجنبها وتحاشيها عن طريق العقل الحازم . إلا أن التطورات التى حدثت منذ أيامه حتى اليوم فى العلوم الاجتماعية كشفت عن أن استبعاد التحيز أو التعصب أمر ليس بالهين ، فى المقام الأول ، من الصعب على أى فرد أن يعتزم أن يكون معقولاً ، وألا يظل متحيزاً بنفس البساطة التى يعتزم بها ذات صباح ألا يخلق لحيته مثلاً .

فالتعصبات تضرب بجذورها في مشاعر تبلغ من العمق حداً لا يخطر ببالنا معه أن نناقشها . إن الشخص الذي يبذل جهده بأمانة وإخلاص من أجل التوصل إلى الحكم السليم قد يسأل نفسه عما إذا كان تفكيره متأثراً - بلا مسوغ - بهذه العوامل التي تمثلها أصنام يكون . على أنه في المسائل التي تتضمن تعصباته العميقة يكون بذله للجهد أمراً بعيد الاحتمال ، إذ أنه في مثل هذه الحال يعرف ماذا يفعل بفضل آرائه الراسخة أو اعتقاداته المفروغ منها . وما دام لا يشعر بمشكلة ما فهو لا يواجه توتراً ولا صراعاً ، أي أنه لا يشعر بأية حاجة لبذل الجهد .

والموقف هو هو من الناحية الاجتماعية ؛ فالبيئة الثقافية التي تعمل على تنشئة ألوان التحيز لا تهيب في العادة - الظروف التي تستدعي مناقشتها أو بحثها (١) والعقل الثقافي - إن صح هذا التعبير - كثيراً ما يكون مغلقاً ، وربما ظل مغلقاً دائماً على اعتقادات متخصصة وقد يساعدنا التحليل التالي على فهم المغزى التربوي لهذا :

الاعتقادات وأنماط الاستدلال

كل نمط من أنماط التفكير يصاغ نتيجة لعملية لا تفكير فيها أو مشروطة بحوز أن يسمى تعصبا أو تحيزاً . وجميع مثل هذه الاعتقادات لا يعمل المرء فيها فكره . وإن لم يكن جميعها غير معقول . ومعنى هذا أن بعض الاعتقادات التي يتقبلها الأفراد دون تقدير حازم قد تكون مع ذلك مشابهة - أو تكاد تكون مشابهة - لتلك التي صحت سلامتها التحقيق الوافي . وفي بعض الأحيان يؤمن المرء باعتقادات سليمة نتيجة لأسباب خاطئة . وفي أحيان أخرى يؤمن بها دون أية أسباب على الإطلاق .

وعندما يقال إن التربية تهتم بالقضاء على التحيز أو التقليل منه فإنه لا ينبغي أن نخرج من هذا بأنه لا مفر للعملية التربوية من أن تسبب في تغير محتوى الاعتقاد

(١) توضح بعض جوانب رد الفعل الذي حدث في بعض الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية لقرار المحكمة العليا الصادر في ١٧ من مايو سنة ١٩٥٤ بشأن التفرقة العنصرية في المدارس العامة هذه النقطة توضيحاً كاملاً : على أن بعض الجوانب الأخرى توضح التوتر الداخلي لدى الأفراد والمجتمع على السواء عندما تصارع القيمة الراسخة في النفوس رسوخاً عميقاً « مثل الدين أو الديمقراطية » مع تحيز أو تعصب لم يفحص حتى الآن . وكل ذلك يوضح العمق الذي يستقر عنده التعصب أو التحيز في حياتنا .

بالنسبة لشخص معين؛ فالتربية - في مقابل التلقين المتعمد أو تهئية الظروف الثقافية العادية - تهتم بالعملية التي تتكون بها الاعتقادات وبالطريقة التي يتم بها إيمان الفرد. وعلى ذلك فالاعتقاد من حيث هو - لا مجموعة معينة من الاعتقادات المقبولة - هو موضع اهتمام التربية. وهذه النتيجة تبرز مكانة العملية التأملية في التعليم، وتعطينا مفتاح ما يسمى « بمشكلة الالتزام » في مدارسنا - كما سوف نرى فيما بعد.

وعندما يتأمل الفرد الاعتقادات التي يؤمن بها فعلا يكتشف أنها تميل إلى تسويغ بعض الاعتقادات الإضافية المعينة. وهذا الانتقال التأمل من الاعتقادات الأصلية إلى الاعتقادات الإضافية يسمى بالاستدلال كما قال أرسطو. وبينما كان الإنسان يدرس العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الاعتقادات، كانت الاستدلالات نفسها تخضع للتصنيف وفي بعض الأحيان تتميز بثلاثة أنماط عامة من الاستدلال (١) يألف معظمنا نمطين منها وهي الاستدلال الاستنتاجي والاستدلال الاستقرائي. ومن سوء الحظ أننا نميل - بسبب الاستعمال الثابت - إلى أن ننظر إلى هذين النوعين من الاستدلال على أنهما نمطان منفصلان من التفكير، بدلا من أن ننظر إليهما - كما ينبغي لنا - على أنهما حركتان تنشآن (أو ربما بالأحرى على أنهما أداتان ميسورتان) في نطاق العملية التأملية كلها. أما النمط الثالث وهو الاستدلال اللامح Abductive فقليل ما يذكر. إلا أنه لا يقل في نظرنا أهمية عن النمطين الآخرين، عندما يكون التفكير - كما يقوم به الناس فعلا - هو موضع البحث. والناس لا يعمدون بطبيعة الحال - إلى تصنيف أو تسمية أنواع الاستدلال التي يقومون بها عندما يكون التأمل ماضيا في طريقه في الموقف المشكل. ومع ذلك فلكل نمط من هذه الأنماط الثلاثة خصائصه المميزة، ويمكننا أن نقدم قواعد ومقترحات معينة تكون بمثابة توجيهات للتحليل التأملية بغية ضبط الاستدلال في التفكير.

(١) التصنيف الثلاثي للاستدلال الذي توضحه هذه الدراسة يحذو حذو ما كتبه

الاستدلال الاستنتاجی

الاستدلال الاستنتاجی هو حركة فی التفكير تقوم علی المضمون - أى علی علاقة الضرورة المنطقية بین المحمولات أو التوكيدات أو الاعتقادات - ولنفرض مثلاً أنك ألحمت علی عمدة مدينتك أن یقترح علی مجلس المدينة أن یوضع الفلورید فی صهاريج مياه الشرب العامة بالمدينة . فاستمع عمدة المدينة لحديثك ، ثم أجابك بأنه فی الوقت الذی یشعر فیهِ بأنه لا یتستطیع أن یعدك بشيء قاطع فی الوقت الراهن إلا أنه سوف ینظر فی الأمر بكل تأکید . ثم أضاف قائلاً : هناك شيء واحد یجب أن تثق به : وهو أنه إذا أید رئیس المجلس عملية وضع الفلورید فی المياه فإتی سوف أعطيها تأییدی الكامل علی الفور .

ولنفرض أنك تحدثت بعد ذلك إلى رئیس المجلس وفزت منه بوعده بتأیید عملية وضع الفلورید فی المياه . والآن إذا كنت تشعر بأنه یحق لك أن تصدق ما قاله لك هذان السیدان فإنه یحق لك إذن أن تعتقد (استنتاجاً) أن العمدة سوف یناصر عملية وضع الفلورید .

وبالاصطلاحات الأصولية نستطیع أن نعرض موقفاً من هذا النوع علی النحو التالی :
لفرض أن ب یرمز إلى أى اعتقاد ، وأن ق یرمز إلى أى اعتقاد آخر ، إذن :
إذا كان ب یتتبع ق ، وإذا كان ب هو الحاصل (أى أن ب صادق) إذن
(بالاستنتاج) « ق » هو الحاصل (أى أن ق صادق) .

دعنا الآن نغیر الصورة . لنفرض أنك - بعد أن فزت بوعده العمدة ، وهو أن تأیید رئیس المجلس لعملية وضع الفلورید فی المياه سوف یتتبع تأییده - لم تبذل أية محاولة للتحدث مع رئیس المجلس ولكنك اکتشفت فيما بعد أن العمدة لم یؤید عملية وضع الفلورید فی المياه . عندئذ یحق لك أن تؤكد (استنتاجاً) أن رئیس المجلس لم یؤید عملية وضع الفلورید فی المياه . ومعنى هذا أنه :

إذا كان ب یتتبع ق ، وق لیس هو الحاصل (أى أن ق غیر صحيح) إذن
(بالاستنتاج) « ب » لیس هو الحاصل (أى أن ب غیر صحيح) .

هاتان القاعدتان توضحان معنى نوع الاستتباع المسمى بالتعلیق (أو الشرط) المادی . والکی یكون التعلیق المادی سلیماً یجب أن توجد العلاقات التالية : حينما

يكون ب صحيحا فإن ق لا بد أن يكون صحيحا هو الآخر ، وحينما يكون ق غير صحيح فلا بد أن يكون ب غير صحيح أيضا .

ولتوضيح معنى نوع التفكير القائم على (إذا كان ... إذن) - وهو المسمى بالمضمون المنطقي - يمكن ربط القاعدتين السالفتين على هذا النحو :

[ب ، (ب يستتبع ق)] تتضمن ق .

لاحظ أن (إذا كان ... إذن) المستعملة في الجملتين الأوليين أصبحت مضموني الجملة الثالثة . والمضمون يكون سليما عندما يكون ما يستتبع ناتجا بالضرورة المنطقية عما يتضمنه . وهذا يعني - في هذه الحال - أنه إذا كان ق هو المستتبع فإنه ينتج بالضرورة المنطقية عن ب ، ف (ب يستتبع ق) . والاستدلال القائم على هذا النوع من علاقة الضرورة المنطقية يسمى بالاستدلال الاستنتاجي (١) .

فإذا بدا في هذا كله بعض الدوران والحشو ، إذن فقد بلغنا النقطة التي نتوخاها وهي أن في المضمون المنطقي من الحشو والدوران ما في المعادلات الرياضية . تأمل مثلا هذه المعادلات : $s^2 - s^1 = (s - s) (s + s)$: فالمرء لا يستطيع أن يستنتج أحد طرفي المعادلة من طرفها الآخر إذا لم يكن كل واحد منهما متضمنا فعلا في الآخر . وإثبات المعادلة - أي إظهار صحتها - يعني توضيح علاقة هذا المضمون .

وقد يقع الإنسان في الخطأ - بطبيعة الحال - في موقف من هذا النوع . تصور مثلا أنك - بعد أن حادثت العمدة بعدة أيام - وجدت عناوين الصحف تعلن أن العمدة يؤيد وضع الفلوريد في المياه . فهل يحق لك أن تؤكد أن رئيس المجلس يؤيد عملية وضع الفلوريد ، أو بعبارة أخرى : هن :

١ - لاحظ أن المحتوى المادى الذى يمثله عبارة (ب يستتبع ق) لا يقدمه المنطق الأصولى . وفي هذه الحال يعتبر تأييد رئيس المجلس لوضع الفلوريد في المياه ، المستتبع لتأييد العمدة ، مسألة قررها البحث الواقعى . كما أن الحقيقة الفعلية - وهى تأييد رئيس المجلس - مسألة فوق منطقية extralogical وأن الربط المنطقي بين هاتين المسألتين فوق المنطقيتين هو الذى أوجد حالة المضمون المنطقي - الأمر الذى يسر للاستدلال الاستنتاجى أن يتم .

[(ب يستتبع ق) ، ق] يتضمن ب ؟

ولنفرض مرة أخرى أن رئيس المجلس أعلن أنه لن يؤيد عملية وضع الفلوريد في المياه ، فهل يحق لك — في هذه الحالة — أن تؤكد أن العمدة لن يؤيد عملية وضع الفلوريد في المياه ؟ فإذا أردنا أن نعبر عن ذلك بصورة أصولية قلنا : « هل [عدم وجود ب ، (ب يستتبع ق)] يتضمن عدم وجود ق ؟ »

ربما كانت حقائق الموقف بحيث تجعلك على حق في تأكيدك ، ومع ذلك فالمنطق الاستنتاجي لا يقدم أى ضمان لصحة مثل هذا الاستدلال . فإذا أعطينا حقائق الموقف المستوحاة من عبارة (ب يستتبع ق) ، وإذا لم نكن قادرين إلا على تأكيد وحده فإن حالة ب تظل غير جازمة من الناحية المنطقية . وإذا لم نكن قادرين إلا على نفي ب وحده ظلت ق غير جازمة من الناحية المنطقية . ويحتاج الأمر إلى البحث فوق المنطقي (أى البحث عن الوقائع دون الشكل) لكي نمنى سند الإثبات أو النفي .

والخلط بين الحركات غير الجازمة منطقياً وبين الجازمة منطقياً يعنى ارتكاب مغالطة أصولية في التفكير . ومثل هذه المغالطات تعادل الأخطاء الرياضية التى قد يرتكبها الفرد ، وهو محل المسائل التى تتضمن المعادلات والعوامل وتغير طرفى المعادلة ، أو تغيير وضع المصفوفات وما إلى ذلك . ومثل هذه الأخطاء تسمى بالأخطاء الأصولية ؛ لأنها تتضمن خرق قوانين الاستدلال الاستنتاجي والعوامل وتغير طرفى المعادلات وما إلى ذلك . فهى ليست أخطاء صادرة عن سوء فهم الحقيقة الوافعة للمادة المحتواة ، ومع ذلك فكل من ارتكب مثل هذه الأخطاء يعرف حق المعرفة أنها غالباً ما تؤدي إلى سوء فهم جسيم لما هو صحيح أو غير صحيح واقعياً .

وقد تبين أن قوانين الاستدلال الاستنتاجي هذه قابلة للتطبيق فى حالات كثيرة حيث تعرض المناسبة للمرء لكي يقوم بالاستدلال عن مواد الواقع ، وعلاقة السبب والنتيجة ، والتغيرات المصاحبة والقوى المترابطة ، وما إلى ذلك . والواقع أن هذه القوانين أو القواعد لم تنشأ إلا بعد أن اكتسب الجنس البشرى خبرة طويلة فى معالجة الأشياء والقوى والحوادث الواقعية . والموقف لا يختلف كثيراً عن الطريقة التى تقدمت بها الهندسة ونمت ؛ إذ من المؤكد أن قدراً ملحوظاً من الهندسة قد نما وتقدم عن طريق الأحكام النظرية العامة قبل إقليدس ، فمن الواضح مثلاً أن

المساحين المصريين القدماء فهموا علاقة ٣ — ٤ — ٥ لأضلاع المثلث القائم الزاوية . على أنه قبل أن تعرض نظرية فيثاغورث على أنها « نظرية » — أى على أنها تؤكد يمكن التدليل على صحتها استنتاجا — كان لا بد من إيجاد نظام أصولي تعطى فيه مختلف العناصر — مثل النقطة والخط والزاوية والمثلث القائم الزاوية وما إليها — التعريفات الأصولية الدقيقة وتوجد فيه البديهيات والفروض لتضبط إجراءات الإثبات .

ومن الناحية التاريخية تقدم العمل بصورة منتظمة تقريبا : فى بعض الأحيان على أنه علم عملي للقياس أساسا كما كانت الحال فى مصر وبابل ، وفى بعض الأحيان الأخرى على أنه منفصل انفصالا كبيرا عن الاعتبارات العملية ، فكان يدرس لذاته كما كانت الحال عند الإغريق القدامى حوالى ٦٠٠ إلى ٣٠٠ قبل الميلاد . على أنه فى حدود سنة ٣٠٠ قبل الميلاد جمعت نواحي التقدم المختلفة فى الهندسة ونظمت بصورة منطقية . وكان لا بد أن تنصرم ٢٠٠٠ سنة أخرى قبل أن يبدأ الإنسان فى فهم طبيعة ما خلقه يديه . فى الجيل الماضى فقط عرضت بديهيات إقليدس فى مدارسنا العامة على أنها حقائق تدلل على صحة نفسها بنفسها . على أننا نعترف اليوم بأن الهندسة يمكن أن تعتبر نظاما أصوليا وأنه من الممكن أن توجد نظم أصولية بديلة أخرى — وقد أوجدت بالفعل . فلعل أنواع معينة من المسائل وجدت نظم أخرى من الهندسة غير نظام إقليدس مفيدة تماما . والنقطة التى يجب أن نتذكرها هى نفس النقطة التى لاحظناها من قبل فى الفصل السادس وهى أن القواعد أو القوانين الأصولية لا تنشأ تاريخيا إلا بعد أن يفسر الإنسان التجارب السابقة تفسيرا عقليا . ومن ثم تصبح معلومات نظرية بهذا الاعتبار . ولكن ما إن يوجد النظام الأصولى حتى تصبح المعرفة بهذا النظام استدلالية سابقة بمعنى أنها معروفة من قبل علاج المواقف التجريبية التى قد يمكن تطبيقها عليها فيما بعد .^(١)

والجائز من الناحية المنطقية — أو الاستدلال الاستنتاجى — قلما يكون مشمرا إذا انعزل . على أن ما يمكن ضمنا فى سلسلة من المحمولات — أو فى نظام أصولى من المفاهيم — كثيرا ما يتطلب دراسة أطول لتوضيحه . تأمل مثلا مسألة رسم دائرة تمر بنقطة معينة ، وفى الوقت نفسه يمر محيطها دائرتين معينتين ،^(٢) تجد

(١) يقدم جون ديوى دراسة ممتعة لهذه النقطة فى كتابه :

Logic: The Theory of Inquiry (New York : Henry Holt & Company, Inc., 1938), pp. 16-19.

(٢) مسألة رسم الدائرة هذه تعرف عادة برقم ٧ من مسائل أبولونيوس .

أن العلاقات الضرورية التي لا بد أن تفهم جيدا حتى يمكن رسم هذه الدائرة تقع ضمنية في نطاق التعريفات والبيدييات والفروض الموجودة في هندسة إقليدس . وإثبات مثل هذا الرسم هو توضيح أو إظهار هذا السكامن ضمنا .

تأمل الآن الموقف التالي

افترض أنك قائد لقطاع دفاعي في جبهة حرية معينة ، وقد استخدم العدو طرازا جديدا من المدفعية البعيدة المدى يطلقها في فترات غير منتظمة فيصدر عنها صوت متميز كما انطلقت . ولو كنت تعرف موقع هذا المدفع الجديد لتوجهت نيران مدفعيتك نحوه محاولا أن تصيبه بالعطب . ولكنك لا تملك في قطاعك سوى ثلاث محطات استماع غير مزودة بأدوات الاستماع الموجهة وكل ما لديها هو ساعات توقيت . إنك ستعتمد إلى تحديد مواقع المحطات الثلاث على خريطة القطاع ، وستلاحظ الوقت المضبوط الذي سمعت فيه كل محطة آخر طلقة لمدفع العدو ، وستعرف سرعة الصوت في الظروف الجوية السائدة . فهل يمكنك بعد هذا أن تحدد على خريطة موقع مدفع العدو بالضبط ؟

إن هذه المسألة تبدو مستعصية على الحل إلى أن تعتبر تطبيقا للرسم الهندسي السالف الذكر .

وبالرغم من مثل هذا التطبيق المحسوس للاستدلال الجازم فإن تفكيرنا لو انحصر في الاستدلال الجازم من الناحية المنطقية وحده لظلت أحكامنا غير كافية تماما لمواجهة الحياة اليومية ، وعلى ذلك فلا بد لنا من أن نتدبر الآن النمطين الثاني والثالث من أنماط الاستدلال ، وكلاهما غير جازمين من الناحية المنطقية .

الاستدلال الاستقرائي

الاستدلال الاستقرائي حركة في التفكير تتقدم على أساس الادعاء بأن ما يصدق على عينة من فئة معينة من الظواهر يصدق على جميع أفراد هذه الفئة . مثال ذلك ما قيل في مثال العمدة وعملية وضع الفلوريد في المياه : « . . . فإذا كنت تشعر بأنه يحق

لك أن تصدق ما قاله لك هذان السيدان . . . ، ما الذى يدفع المرء إلى الشعور بأنه يحق له تصديق العمدة ؟ فى مثل هذه الحال يجوز جداً أن يقوم الضمان على أساس الاستدلال الاستقرائى (بمعنى أننا نعرف أن العمدة قطع على نفسه عدداً من الوعود فى الماضى وأثبت أنه رجل عند كلمته فى كل مرة) وعلى أساس هذه العينة نستدل - استقراء - على أننا يمكن أن نعتمد باطمئنان على وعده ، وأن نتوقع ما يستتبعه من نتائج .

ومن الواضح أن هذا النوع من الاستدلال الذى يشمل المادة المحسوسة الواقعية هو دائماً أكثر عرضة للخطر من الاستدلال الاستنتاجى الأصولى - أو الاستدلال الموثوق به من الناحية المنطقية فى المقام الأول نجد أن كل العناصر المؤلفة للموقف المحيط بالشئون الواقعية موجودة . ومن الجائز أننا قد أخطأنا فهم ما قاله العمدة ، ومن الجائز أن العمدة تعمد أن نسيء فهمه ، كما أن العمدة - بطبيعة الحال - قد يموت بالسكتة القلبية قبل أن تتاح له فرصة تأييد وضع الفلوريد فى المياه . وعلى ذلك فإذا شئت الدقة قلنا إننا يحق لنا أن نضمن التوكيد أو الاعتقاد بأنه من المحتمل جداً أن رئيس المجلس إذا أيد عملية وضع الفلوريد فى المياه أيدها العمدة أيضاً .

وهناك - بالإضافة إلى احتمالات الموقف غير المؤكدة التى من هذا النوع - جانبان مشكلان إضافيان يصاحبان الاستدلال الاستقرائى . تحدثنا عن « عينة من فئة معينة من الظواهر » ونحن لا يمكن أن نطمئن بصفة قاطعة إلى أن العينة التى اخترناها صحيحة أو عادلة ؛ فالوعود التى قطعها العمدة على نفسه تحت ضغوط معينة أو تحت تأثير الخمر مثلاً يصعب أن تعتبر عينة عادلة . ومن الناحية الأخرى هب أننا وقفنا إلى عينة عادلة فعلاً فلا تزال أمامنا مشكلة تقرير أى الظواهر الجديدة ينتمى إلى هذه الفئة . مثال ذلك أن العمدة إذا أعطانا هذا الوعد مازحاً أو مراوغاً لم يجوز لنا أن ندرجه تحت (الوعود التى قطعها العمدة) .

ولقد حاول الناس قروناً أن يصوغوا قوانين معصومة للقيام بالاستدلال الاستقرائى . ويجب ألا ندهش إذا لم توجد هذه القوانين قط . ولو كان ذلك ممكناً لأصبحت الاستدلالات أصولية ، وإذن فهى جازمة من الناحية المنطقية ، وبالتالي استنتاجية أكثر منها استقرائية . إلا أن هذه المحاولات ساعدتنا مع ذلك على أن نحسن فهم طبيعة الأمور

المزرعة التي يتضمنها هذا النوع من الاستدلال ، فقادنا ذلك إلى فهم نوع الإجراءات التي يحتمل جداً أن تقلل من هذه المزرعة (وهي لن تقضى عليها قط) .

ولقد اكتشف إجراء ان مفيدان لتقرير ما إذا كانت عينة معطاة تعتبر عينة عادلة أم لا . أما الإجراء الأول فهو تكبير حجم العينة والنظر فيما إذا كانت نفس الخصائص مازلت ماثلة أم لا . مثال ذلك أنه إذا كان لديك قدر مليئة « بالبلى » الملون وسحبت منه حفنة ، ووجدت أنك قد سحبت « بلبا » أبيض وأسود بنسبة ثلاث إلى واحدة ، فقد يفريك هذا بأن تؤكد - استناداً إلى الاستدلال الاستقرائي - أن القدر مليئة بالبلى الأبيض والأسود بنسبة ٣ : ١ إلا أنك إذا عدت فسحبت مرة ثانية وثالثة فقد تجد أن نسبة الأبيض إلى الأسود قد اختلفت . بل إنك قد تكتشف بعض البلى الأحمر أو الأخضر . ومع ذلك فتجارب البلى في القدر قد تشير إلى أنك إذا سحبت من القدر عدة مرات - محركاً البلى حركة دائرية كل مرة - وتبعت نسبة كل سحب فإن النسبة سوف تستقر - إن صح هذا التعبير - بعد عدد معين من المرات (ولنقل بعد ست مرات) ، فإذا استقرت النسبة يمكنك أن تخرج بأنك قد حصلت فعلاً على عينة عادلة لمحتويات القدر .

ينتج عن هذا أن رغبتنا في أن نعتبر العينة عادلة لا تقوم على أساس قوانين أصولية إطلاقاً ، بل على أساس استدلال استقرائي آخر من تجربة سابقة . وكما وجدنا الاستدلال الاستنتاجي يتسلسل في سلسلة أو شبكة كذلك الاستدلال الاستقرائي . وسلسلة الاستدلال الاستنتاجي أو شبكته مشدودة إلى البديهيات والنظريات والتعريفات والمجالات . وأما شبكة الاستدلال الاستقرائي فمشدودة إلى الأحكام النظرية العامة الملتزمة من التجربة الجارية (المستمرة) .

وأما الإجراء الثاني لتقرير ما إذا كانت العينة عادلة أم لا فهو فحصها قياساً في ضوء مجموع المعرفة التي قبلناها من قبل . ومن حسن الحظ أننا نعرف الشيء الكثير عن العالم بحيث إنه قلما نجابه بمواقف تتألف أغلبيتها من عناصر مجهولة لدينا أو جديدة علينا تماماً . فعندما يعطينا العملة وعداً فإنها ليست بأول مرة يعطينا فيها رجل مسئول موظف عام وعوداً . وإذا جابهتنا قدر مليئة بلبا فإننا لسنا غريباء تماماً عن القدور ولا عن البلى . وبالإضافة إلى خبرتنا الخاصة فإننا نستطيع التوصل إلى تسجيلات واسعة النطاق لخبرة جنسنا البشري بأسره .

ومسألة الاستقراء برمتها تبدو في ضوء مغاير عندما نتدبر المدى البعيد الذي نظمت به المعرفة البشرية . وإن يثبتنا المحيطة بنا قد بنيت مصنفة إلى أشياء وعمليات وحوادث وما إلى ذلك . ونحن نمر بالتجارب إلى درجة كبيرة — في ضوء ما تعينه الأشياء التي يمكننا أن نتعرف عليها باعتبارها متجهة إلى هذه الفئة أو تلك مما له كيت وكيت من الخصائص . وأي عينة معطاة يمكن أن تحلل وتقاس وتقارن وتعارض وتقابل بالمواد الأخرى التي تعتبر معرفتنا بها أكثر ثباتاً ووثوقاً ، وكما لاحظنا من قبل ليست جميع أجزاء عالمنا هذا موضع شك في آن واحد .

ولمعالجة بعض أنواع المواد تطورت الإجراءات الحسابية والإحصائية لتقرير عدالة أو كفاية العينات . ولمعالجة كثير من المواد نستطيع إجراء التحليلات العضوية أو السكياوية أو البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية للعينات . وهذه سوف تكشف عن وجوه الشبه ومواطن الخلاف إذا قيست إلى غيرها من المواد المعروفة جيداً ، وبهذه الطريقة يوضع أساس « القياس » للحكم على مدى كفاية العينة .

وهذه الإجراءات نفسها يمكن استعمالها في علاج مشكلة تقرير اتناء ظاهرة معينة اتناء سلماً إلى فئة لدينا منها عينة عادلة . فإذا كنا نعرف بعض الشيء عن نوع المادة التي نعالجها لم يكن الاستدلال الاستقرائي — أو الوثب إلى ما وراء المعروف — بحاجة إلى أن يتأسس طريقه في الظلام الدامس . والعجز عن الإقرار بأن الاستدلالات الاستقرائية لا تتم بمعزل عن التجارب أو الخبرات الأخرى قد يفضي بالمرء إلى الخروج بأن أي استدلال استقرائي لا يمكن تسويغه على الإطلاق ، وهي نتيجة قل بها أكثر من رجل من رجال المنطق في ألفي السنة الماضية ، إلا أن القول بمثل هذه النتيجة ليس معناه سوى القول بأن الإنسان لا يمكنه أن يكون واثقاً بأي شيء مالم يعرف كل شيء .

الاستدلال اللهاج

يعرف النوع الثالث من الاستدلال الذي يتم أنماط التفكير باسم الاستدلال اللهاج abductive . وتوضح بعض قصص شرلوك هولمز قوة هذا النوع من الاستدلال أجمل توضيح . وقد عرف المؤلف هذا النمط من الاستدلال بأنه استدلال استنتاجي وكذلك فعل الآلاف من قرائه .

ففي ذات مرة قرر وطنس أن يختبر قوى شرلوك هولمز فقال له : (١) سمعتك تقول إنه من العسير على الإنسان أن يستعمل أى شيء استعمالاً يومياً دون أن يترك عليه طابعه الفردى بطريقة تمكن الملاحظ المدرب من أن يقرأها . والآن لدى هنا ساعة انتقلت إلى حوزتى أخيراً . فهل تسكرم بأن تعطينى فكرة عن خلق أو عادات مالكها السابق ؟

ثم نازل وطنس الساعة لهولمز . ففحصها هولمز بعناية وفتح غلافها الخلفى ونأمله بعدة ، وفحصها بطرق أخرى . ثم أعاد الساعة إلى وطنس وأدله بالملاحظات التالية :

« لانكاد توجد أية بينات ؛ فالساعة مسحت حديثاً مما يسلبنى أهم الحقائق إجماعاً . . . وبالرغم من أن بحثى غير مرض فإنه ليس خالياً تماماً . . . ويمكننى أن أحكم بأن الساعة كانت ملكاً لأخيك الأكبر الذى ورثها عن أبوك . . . وكان (أى أخوك) رجلاً ذا عادات غير مهذبة ، رجلاً غير مهذب تماماً . وكان مهملاً فقد ترك وأمامه احتمالات طيبة ، ولكنه ضرب بفرسه عرض الحائط ، وعاش فقيراً فترة من الزمن تخللتها فترات قصيرة من الازدهار ، وأخيراً مات نتيجة الإدمان على الشراب . هذا كل ما أستطيع جمعه من المعلومات . »

فأيد وطنس حكم هولمز فى كل تفصيلاته ، ولكنه وجد صعوبة فى الاعتقاد بأن هولمز استطاع أن يستنبط كل هذا من فحصه المختصر للساعة . فشرح له هولمز الأمر بهذه الكلمات :

« إن ما يظهر لك غريباً لا يبدو لك كذلك إلا لأنك لا تتابع سلسلة تفكيرى ولا تلاحظ الحقائق الصغيرة التى قد تركز عليها الاستدلالات الضخمة . . . (فهذه الحروف الأولى هـ . و التى على الغلاف الخلفى) توحى الواو باسمك . ويرجع تاريخ صنع الساعة إلى ما يقرب من خمسين سنة مضت ، إذن فهى قد صنعت للجيل الماضى . والمجوهرات فى العادة يرثها الابن الأرشد . ومن المحتمل جداً أن يكون له نفس اسم والدك ، وإذا لم تخنى الذاكرة فإن والدك قد مات منذ زمن بعيد . ولذلك فإن الساعة كانت فى حوزة أخيك الأكبر . »

(١) وردت هذه الحادثة فى كتاب ١ . كونان دويل : Sign of the Four

« وحينما تأمل ذلك الجانب الأسفل من غلاف الساعة ترى أنه ليس بمعرضاً في موضعين فحسب ، بل إنه مخدوش ، وأن العلامات تغطيه كله نتيجة لعادة الاحتفاظ بالأشياء الصلبة كالنقود والمفاتيح — في نفس الجيب . ومما لاشك فيه أنه ليس كشفاً كبيراً أن تدعى أن الرجل الذي يعامل ساعة قيمتها خمسون جنياً بهذه المعاملة يجب أن يكون رجلاً مهملًا ، كما أنه ليس استدلالاً عويصاً أن الرجل الذي يرث شيئاً له هذه القيمة يعتبر ميسوراً إلى حد ما في الجوانب الأخرى .

« ومن المؤلفون جداً لدى أصحاب محال الرهون في إنجلترا أنهم إذا أخذوا ساعة خدشوا رقم البطاقة بسن الدبوس على الجانب الخلفي من الغلاف ... وهناك ما لا يقل عن أربعة أرقام ظاهرة لعدس في هذا الجانب من الغلاف . والاستدلال — هو أن أخاك كان رقيق الحال غالباً . وهناك استدلال ثانوي ، وهو أنه كان يصادف حالات طارئة من الازدهار ، وإلا لما استطاع أن يوفى بالتزامه . وأخيراً أطلب إليك أن تنظر إلى السطح الداخلي الذي يحتوي على ثقب المفتاح . انظر إلى آلاف الخدوش التي حول الثقب — العلامات التي خلفها المفتاح وهو ينزلق عن ثقبه . فهل كان بإمكان الرجل اليقظ أن يحدث كل هذه الخدوش بمفتاحه ؟ ولكنك لن تجد ساعة المدمن على الخمر بدونها . فهو يملؤها ليلاً ويترك آثار يده غير الثابتة على هذا النحو .

فأين الغموض في كل هذا ؟ »

لاحظ كيف يختلف هذا النوع من التفكير عن صورتى الاستدلال اللتين ناقشناهما من قبل . في الموقف الذي يتطلب الاستنتاج تجاهها محمولان يعتقد أنهما مترابطان بالمضمون ، وسبب تفكيرنا هو أن نستدل على صحة أو بطلان أحدهما من صحة أو بطلان الآخر . وفي الموقف الذي يتطلب الاستقراء تجاهها مادة يعتقد أنها عينة عادلة لفئة كبيرة من المادة المشابهة . وسبب تفكيرنا في هذه الحال هو أن نستدل بما يمكن اكتشافه من العينة على ما يمكن توكيده باطمئنان عن الفئة كلها . ولكننا في حالة الاستدلال اللامح تجاهها بعض الحقائق والحوادث والمواقف وما إليها مما يعتقد أنها ذات صلة باهتمام أو سؤال أو مشكلة معينة . وسبب تفكيرنا هنا هو أن نوجد — بالاستدلال — التفسيرات الممكنة لهذه الحقائق ؛ فنحن — إذ نحاول أن نفسرها وأن نفهم لماذا كانت هي الحاصل أو الوضع — نحلق فرضاً . وعلى ذلك فالاستنتاج اللامح

هو بذل محاولة لترتيب ما نلاحظه وهكذا تخلق الفروض ، وهي توجه البحث الذي يؤدي إلى الترتيب المنشود . وفي نطاق البحث قد يعمل كلا الاستدلاليين الاستنتاجي والاستقرائي .

وهناك طريقة أخرى للتفكير في الاستدلال اللامح ؛ وهي أن تتذكر شيئاً قيل من قبل عن الاستنتاج . إذا عرفنا أن ب يستتبع ق ، وإذا لم يواجهنا سوى ق وحده كان الاستدلال على ب غير جازم . مثال ذلك أننا إذا كنا لم نتحدث قط إلى العمدة عن عملية وضع الفلوريد في مياه الشرب وإنما قرأنا فقط في الجرائد أنه يؤيد هذا المشروع ، كان استدلالنا على أنه إنما يفعل ذلك لأن رئيس المجلس أيد المشروع ، استدلالاً غير جازم تماماً ؛ وإن ظل واحداً من التفسيرات الممكنة ، ولكننا عن طريق الاستدلال اللامح نستطيع أن نخلق فرضاً يفسر سلوك العمدة .

ومثل هذه التفسيرات لا تنبثق من الفراغ ؛ إذ قلما يواجه الإنسان مواقف جديدة تماماً أو غير مألوفة كلية ، أو حتى إلى حد كبير . والواقع أن المشكلة لا تعتبر مشكلة - ولا يمكن أن يقرر أنها مشكلة - إلا إذا توافر لدينا بعض الائناس بموضوع الموقف الذي تنشأ فيه المشكلة . وكأما جانبها مشكلة في مواقف لا يقيد فيها تفكيرنا ولا يدفع دفعا أتيينا بخبرتنا الماضية لتعالجها بطبيعة الحال . وهذا الفعل - كما لاحظ جون ديوى ذات مرة - طبيعي كالتنفس ، فنجد أنفسنا نخلق الفروض بالاستدلال اللامح لحل الصعوبات التي تعترضنا .

الاختيار من بين الفروض

غالباً ما نجد كثيراً من الاحتمالات والإيحاءات بالفروض تعرض لنا ، وعلينا أن نختار من بينها . ففي حالة الاستدلال اللامح لا تكون بداية التفكير السليم هي القيام بالاستدلال الصحيح ، بل اختيار أفضل ما يقدمه نشاطنا الإبداعي . وكما هي الحال في الاستقراء لا يمكننا أن نضع قوانين جازمة . وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نقترح الشروط المهمة التي يجب أن تتوافر في الفروض التي نخلقها بالاستدلال اللامح إذا أرادت أن تستأثر بانتباهنا الجدى .

يجب على الفرض أولاً وقبل كل شيء أن يفسر كل ما نعرفه حتى الآن من الحقائق ذات الصلة بالموضوع . وكما كان من الجائز أن نقفز - قبل الأوان - إلى حكم عام غير سليم في الاستنتاج الاستقرائي - فإننا قد نرى كثيراً بأن نقبل أول احتمال

يبدو لنا أنه يفسر أكثر من غيره حقائق الموقف الظاهرة . وتعتبر مسألة تقرير أى الحقائق هى ذات الصلة بالموضوع فعلاً مسألة بحث جدى بطبيعة الحال . والواقع أن كل فرض يدعى مقدماً أن بعض الحقائق يجب أن تعتبر غير ذات صلة بالموضوع إلا أننا عند القيام بالاختيار من بين الاحتمالات التى تعرض نفسها يجب أن نستبعد أو نعدل أى اقتراح لا يفسر الحقائق التى يمكن أن تعتبر ذات صلة بالموضوع إذا قبل الاحتمال كأساس يبنى عليه الحل . مثال ذلك لفترض أن شرلوك هولمز حين فحص الساعة ولاحظ الحروف الأولى « ه . و » خطر له احتمال أن هذه الساعة يمتلكها أخو وطسن الأصغر لا الأكبر . فى ظل هذا الفرض يكون قدم عهد الحروف الأولى كقدم عهد الساعة نفسها حقيقة ذات صلة ، ولكن هذا الفرض لا يفسرها . ولنفرض - من الناحية الأخرى - أن أول ما تبادر إلى ذهن هولمز من الاحتمالات هو أن وطسن اشترى هذه الساعة أخيراً من محل الأدوات المستعملة . فى ظل هذا الفرض يحتمل ألا يكون لتاريخ الحروف الأولى أو حتى الحروف الأولى نفسها أى مغزى . فقد ينظر إلى أن « و » - وهو الحرف الأول من « وطسن » - على أنه محض تشابه . ولا يمكن استبعاد هذا الفرض بسبب الحقيقة غير ذات الصلة - وهى الفرق بين زمن كتابة الحروف الأولى وعمر الساعة .

وهذا يظهر لنا شرطاً آخر . وهو أن الفرض يجب أن يكون مشمراً ، أى أن يكون أداة نافعة لتوجيه البحث أو التصرف التالى . ووظيفته هى أن يوجه البحث عن المزيد من البيانات ، ومن ثم يجب أن يمكننا من التمكن بنتائج الملاحظات الخاصة المقبلة . وهكذا نجد أن وظيفة الفرض الأولى وظيفة توجيهية . أضف إلى ذلك أننا يجب أن نلاحظ أن كلا من شرط تفسير الحقائق وشرط التوجيه إلى المزيد من البحث هما « شرطان منطقيان » مستخلصان من واقع عملية الملاحظة والتفسير . والفرض - آخر الأمر - افتراضى بمعنى أنه معرض للتعديل المستمر خلال العملية ، بل ومعرض للاستبدال ، وعلى هذا فى البحث العلمى يحدد الفرض المناسب لإجراء التجريبى الجازم ، ويعمل كأساس للاستنتاج بالاتصال مع هياكل المعرفة المقررة .

واشترط أن يكون الفرض مشمراً يتطلب أن نعتبر الاتساع النسبى للحقائق المتصلة بأغراض البحث أو اهتماماته ذات صلة بالموضوع - وذلك فى الاتجاه الذى

يتجه إليه الفرض . وهذا التأکید على الاهتمام أو الفرض الشخصی لا يحظم —
بأية حال من الأحوال — الموقف الموضوعی للبحث العلمی . وفي حالة الاستدلال
اللامح لا سبیل إلى إلغاء العنصر الشخصی الإبداعی إلا أن العنصر الشخصی المائل
دائماً كلما فكر الإنسان تضبطه الشروط التي يتم بها بحث الفرض . ويمكن
أن يقال إن الاستدلالات الاستنتاجية يمكن أن تقوم بها الآلات بعد أن يخلقها الإنسان
على صورة عملياته الخاصة ومثلها . وبنفس الشروط يمكن أن تصنع الآلات لتقوم
بتحليل العينات وحساب الاستقرارات الإحصائية ولكن حينما يتحرك الإنسان
في المشكلة حركة إبداعية فإن وقع تفاعل الشخص ككل مع الموقف المشكل هو
الذي ينتج الاحتمالات والإيماءات التي من شأنها أن تنظم وتفسر الحقائق وتيسر
حل الجوانب المشكلة من الموقف . وفي القيام بالاستدلالات اللامحة يلعب عنصر الإبداع
الشخصی أو العبقري دوراً حاسماً في تقدم العمل العلمی (١) .

وهناك شرط ثالث يجب أن يتوافر للاستدلال اللامح وهو أن يكون بسيطاً
نسبياً . وما يقال أحياناً إنه إذا تساوت الأمور الأخرى كان الفرض الأبسط هو
الأجود . ولكن البساطة ليست بالأمر السهل وهذا يبدو غريباً . ويجب أن نكون
على حذر — في المقام الأول — ألا نخلط بين البسيط والمألوف . فما يبدو
بسيطاً لأحد الناس قد لا يبدو كذلك لغيره ممن تختلف خبرتهم . والمطلوب
هو البساطة النظامية . وحينما نقرر أي الفرضين أبسط يجب أن نتدبر أولاً
أيهما يشتمل على عدد أقل من العناصر أو الدعاوى المستقلة . وثانياً أيهما
يفسر تفسيراً أكبر كل ما يمكن ملاحظته في الوقت الحاضر من الحقائق

(١) مما يمكن إدراكه — بطبيعة الحال — أن الإنسان يمكنه أن يركب آلة إذا شئنا
بمقادير ضخمة من المعلومات عن الفروض الناجحة السابقة أمكنها أن تكون فروضاً تشبيهية
بصورة آلية . وإن الإنسان ليندد في التهكن إطلاقاً بما يمكن أن يراد بالآلات أن تفعل فإذا اعتبر
المرء أن سلوك الإنسان العقلي لا يختلف كثيراً عما نسميه في وقتنا الحاضر « بالعقول الإلكترونية »
فإن التحسين المستمر لهذه الآلات يجب أن يقلل هذا الفرق . أما إذا اعتبرنا تفكير الإنسان
متفوقاً تفوقاً هائلاً (وخاصة من جهة نظر الإبداع) على العمليات التي تقوم بها الآلات
فالمفروض أن نتوقع أن الإنسان سيخترع في النهاية آلات « متفوقة تفوقاً هائلاً » ولكنها
بالرغم من أنها قد تساعد على أن يفكر بكفاءة أكبر فإنها سوف تظل مع ذلك
أدواته هو .

ذات الصلة بالموضوع. أو ما يمكن أن يلاحظ فيما بعد في ضوء ما تعينه المضامين النظامية التي يمكن أن تستنبط من دعاواه الأساسية .

مثال ذلك أن هناك نظريات كثيرة يمكن التقدم بها لتفسير سلوك الإنسان في ضوء ما تعينه غرائزه الأساسية العاشمة ، فالنظرية التي تعرض لغريزة واحدة من هذه الغرائز — كالدافع الجنسي مثلا — تبدو « بسيطة » بالقياس إلى مجموع العناصر الأساسية . إلا أنه يتضح أن مثل هذه النظرية ظاهرة العجز عن تفسير كل ما نلاحظه من مسلك الإنسان دون الاستنجاد بعدد كبير من الدعاوى الفرعية والشروح المتخصصة وما إلى ذلك . وأما إذا تعرضت النظرية لقائمة طويلة من الغرائز الأساسية — بالإضافة إلى الدافع الجنسي — استطعنا أن نجعلها تفسر السلوك الإنساني برمته . ولكن ما لم يمكن إظهار ترابط الغرائز المدونة في القائمة ترابطاً نظامياً فيما بينها من ناحية ، ومع جوانب السلوك الأخرى التي يقال إنها تفسرها من ناحية أخرى ، فإن هذه النظرية لا يمكن أن توصف بأنها بسيطة . إن قصة الغرائز برمتها تبدو — في ظاهرها — مسألة بسيطة ، إلا أن أحداً لم ينجح ، حتى يومنا هذا في تكوين نظرية للسلوك الإنساني الغريزي يمكنها أن تطابق ما تتطلبه البساطة النظامية .

إثبات الفروض

كثير مما قيل حتى الآن في هذا الفصل يمكن وضعه في إطار أكثر وظيفية بأن نتدبر كيف يمكن إثبات الفروض . فعندما يصاغ الاستدلال اللامح بعناية لكي يفسر ما لوحظ ويوجه المزيد من البحث ، يصبح فرضاً . والموقف المشكل — من الوجهة السيكولوجية — هو ، في العادة ، المناسبة السانحة لتوكيد جملة الشرط في المحمول الافتراضي توكيداً مبدئياً مشروطاً . واصطلاح الفرض قد يستخدم في بعض الأحيان ليدل على المحمول الافتراضي كله . وهو يستعمل أيضاً — كما يستعمله المؤلفان هنا — ليدل على الفكرة أو الاحتمال المبدئي الذي يصبح ، حينما يصاغ ، صدر المحمول

الافتراضی^(١) وقد يمكننا أن نكتسب بعض البصيرة في منطق الإثبات بتدبر الموقف.
المشكل البسيط التالي :

لنفترض أن إنسانا وجد زجاجة صغيرة مليئة بسائل صاف ، وتساءل: ماذا يمكن أن يكون هذا السائل ؟ ففتحها وشمها فلما لاحظ الرائحة النفاذة تبادرت إلى ذهنه أنماط معينة من المعاني تكونت أيام دراسته للكيمياء في المدرسة الثانوية وأكد أن هذه زجاجة حامض . وهذا تأكيد مبدئي بطبيعة الحال ، ولكنه يكون حله الافتراض لمشكلة أثارها زجاجة السائل المشكوك فيه . ثم عندما يتذكر أن ورق عباد الشمس هو أحد طرق اختبار الحامض ، فإنه في تلك اللحظة يكون قد قام بتكهن ضمنى يمكنه أن يستغله ليفحص توكيده المبدئي .

فإذا أراد الإنسان أن يكون أصوليا في مثل هذا الموقف أمكنه أن يصوغ سلسلة أو أسرة من الجمل الشرطية (إذا كان — إذن) ليكتشف معنى التوكيد المبدئي . والجمل التالية توضح ذلك :

إذا كنت أتذكر تذكرنا سلبا الكيمياء التي درستها في المدرسة الثانوية ، إذن فالحامض نفاذ الرائحة ويحول ورق عباد الشمس إلى اللون الأحمر .

(١) هذه الجملة (التي تسمى أحيانا بالفرض المناسب Collateral أو الموازي) لها وظيفة خاصة وهي ربط المشكلة الراهنة بمجموعة من المعلومات الثابتة إلى حد ما . وهي بهذا تفسر أو ترتب ما قد لوحظ فعلا (وهي الرائحة النفاذة) وتوحي بخطوة أخرى في البحث (وهي استخدام ورق عباد الشمس) .

(٢) إذا كان السائل الموجود في هذه الزجاجة حامضاً ، إذن فإنه سيحول ورق عباد الشمس إلى اللون الأحمر .

هذه الجملة (وتسمى أحيانا بفرض العمل) تشير إلى خطوة أبعد ؛ فهي تقرر المعنى الوظيفي لمجموعة المعلومات بالنسبة للمشكلة القائمة ، وتشير إلى ما يجب أن يعمل لاختبار ما تقدم ثم تأكيده بصورة مؤقتة مبدئية .

(١) سوف تناقش في الفصل الثالث عشر وظيفة جملة الشرط (إذا كان — إذن) في اختبار الفرض .

(٣) إذا وضع ورق عباد الشمس في السائل إذن . فإنه سيلاحظ أن عباد الشمس سيتحول إلى اللون الأحمر .

هذه الجملة (وتعرف أحيانا بالفرض الإجرائي) تتحدد في مقدمتها عملية تنفذ كما يشتمل جواب الشرط فيها على تكهن يمكن ملاحظته .

ونستطيع أن نجمع هذه الأسر من الجمل في صيغة افتراضية واحدة على هذا النحو :

(٤) إذا كنت أتذكر تذكراً سليماً انكيميا التي درستها في المدرسة الثانوية ، وإذا كان السائل الموجود في هذه الزجاجات حامضاً ، وإذا وضع ورق عباد الشمس في السائل ، إذن فإنه سيلاحظ أن عباد الشمس سيتحول إلى اللون الأحمر .

من هذا نرى أن أسرة الجمل الشرطية بأسرها هي التي تعرض للاختبار وليس التوكيد أو الفرض المبدئي المؤقت وحده . وفي العلوم المتقدمة جيداً مثل الفيزياء نجد فروضاً كثيرة مناسبة مفعوسة جيداً وإجراءات عملية منقحة جيداً إلى درجة أن مقدمة فرض العمل هي الجزء الذي يعتقد أنه هو الجدير بالفحص فقط . أما العلوم الاجتماعية والسلوكية فإن الافتقار إلى الفروض المناسبة المقررة وإلى إجراءات العمل يحدث من الارتباك ما يجعل البحوث في هذه العلوم تقرر دون بذل أية محاولة للصياغة الدقيقة .

ولعل هذا الافتقار إلى الوضوح قد أسهم في تكوين الفكرة الخاطئة ؛ وهي أنه إذا صيغ مضمون أو أكثر من مضامين الفرض كتكهنات ، ثم نجحت عندما عرضت للاختبار بعد ذلك - فقد يعتبر أن المشكلة سويت تسوية مرضية بعد أن تم إثبات الفرض - وذلك إلى أن تجد صعوبة أخرى على الأقل . ولكننا إذا تذكرنا طبيعة المغالطة الأصولية وجب أن نكون على حذر في هذا المقام .

فتأييد أو إقامة جواب الشرط تترك جملة الشرط غير جازمة من الناحية المنطقية . وهذا هو الوضع لأنه يجوز دائماً أن يؤدي صدر جملة شرطية أخرى إلى نفس جواب الشرط أو النتيجة المشاهدة . ففي هذا المثال الذي ضربناه ربما كانت الزجاجات تحتوي على صبغة سرية غير منظورة تحول أي قطعة من الورق إلى اللون الأحمر . والرجل المفكر تفكيراً تأملياً يواجه المهمة الشاقة ؛ مهمة توضيح أنه لا يفسر التكهن الذي تأيد فعلاً سوى فرض واحد دون سواه . وبالاختصار فإثبات صحة أي فرض معناه تنفيذ جميع الفروض الممكنة الأخرى .

وهذه النتيجة توجه النظر مرة أخرى إلى أن معرفتنا بشئون الواقع يجب أن (١٠ - التفكير التأمل)

تظل دائماً عرضة لإعادة النظر الممكنة في ضوء الشواهد الجديدة . كما تبين أن الخطط النظرية التي تقوم بوظيفة تحليلية في البحث لا تثبت صحتها بصورة نهائية قط . وأنها أيضاً عرضة لعمليات إعادة النظر أو الاستبعاد إذا أنشأ بعض الناس لبناء التجربة طريقاً آخر يثبت أنه أكثر نفعاً . وقد اكتسب منطق الإثبات معنى إجرائياً لاذعاً في عبارة نسبت إلى « لويس باستير » عندما قال : « لقد طلبوا إليك أن تثبت أنك على حق ، ولكني أقول لك : حاول أن تثبت أنك على خطأ » .

والواقع أن العلم يتقدم بالطبع بمقتضى عملية تجميع الشواهد الموجهة نحو تبديد الشك المعقول . وهذا لا يتطلب تنفيذ الفروض المناقصة فحسب ، بل وخلق واختبار الكثير من « أجوبة الشرط » . مثال ذلك إذا كان السائل حاضراً فإن المرء يتوقع — بالإضافة إلى اختباره بورق عباد الشمس — أنه يحتوى على الأيدروجين ، وينتظر أنه من الممكن أن يتحول إلى ملح . ومثل هذا الدليل الإضافي هو — من وجهة النظر المنطقية — دليل ليفند الفروض المناقصة المختلفة الأخرى . إلا أنه — من وجهة النظر المنطوقية — ربما كان أكثر جدوى أن تنمى وتفحص عدداً واسع المدى من الجمل الشرطية (إذا كان — إذن) القائمة على الفرض المبدئي ، وذلك قبل الدخول في بناء الفروض المناقصة واختبارها . وهذا الإجراء إجراء مطلوب — بطبيعة الحال — لأنه كلما اتسع مدى أجوبة الشرط أو النتائج قل عدد الفروض المناقصة التي تفسر نفس أجوبة الشرط أو نفس النتائج .

ومن الوسائل المنطقية التي بدأت تشيع باطراد — وخاصة في البحث الذي لا يصاغ صياغة دقيقة — الفرض المنفي ، ونستطيع أن نوضح منطق الفرض المنفي ببساطة : لنفرض — في حالة زجاجة الحامض — أن فرض العمل قد صيغ على هذا النحو :

٣ — إذا لم يكن السائل الموجود في هذه الزجاجة حامضاً ، إذن فإنه لن يحول ورق عباد الشمس إلى اللون الأحمر .

فإذا لم يتحول ورق عباد الشمس إلى اللون الأحمر فإن هذا قد يفند جملة الشرط (أى مقدمة الفرض المنفي) ومثل هذا المنفي للنفي يعادل الإثبات وهذا يتخطى — كما هو ظاهر — الصعوبة الأصولية وهي عدم القدرة على تأكيد جملة الشرط بإثبات جواب الشرط . والصعوبة — بطبيعة الحال — هي أن القضية ليست مسألة شكل بل مسألة واقع ونحن نقوم بالبحث والتجريب ، لا لإقامة المضمون المنطقي ،

ولكن لإقامة سند أو دليل لتوكيد الشرط المادى . فما لم يتقرر فعلا أن الحامض — والحامض وحده — هو الذى يحول ورق عباد الشمس إلى اللون الأحمر فليس هناك مسوغ (أو فرض مناسب) لاتخاذ (٢) فرضا للعمل . أما إذا تقرر ذلك فعلا فإنه لا يكون ثمة شيء افتراضى حول هذا الشرط . ولو كان هذا هو الوضع لكان فرض العمل هو :

٢ — إذا صار لون عباد الشمس أحمر فى هذا السائل إذن فإن هذا السائل حامض .

وعلى ذلك فإذا أيد الاختبار الفعلى صدر جملة الشرط أمكنى للمرء أن يؤكد جواب الشرط عن طريق الاستدلال الاستنتاجى .

وفى بعض الدراسات الإحصائية يقرر الفرض المنفى فى الواقع أن « النتائج المتوصل إليها » قد تفسر عشوائيا أو بتقليل عامل الاختبار بالمصادفة . ومعنى هذا أنه حين يكشف التحليل الإحصائى للبيانات عن ارتباط له مغزى (كدلالة ، الذى تقيمه الفروض المناسبة Collateral) فإن الإنسان يكون قد الفرض المنفى وأثبت (عن طريق نفي النقي) أن « اللامصادفة » هى التى تعمل . ولكن ما معنى « اللامصادفة » ؟ وهكذا نرى أن الأداة الأصولية لا يمكنها قط أن تستبعد حاجتنا إلى البحث الواقعى .

وكقاعدة عامة يحسن الباحث أن يقرر — بأ كبر ما يستطيع من الكمال والإيجابية — ما هو احتمالُه بالضبط ولماذا : عندئذ فقط يسكون فى وضع يمكنه من أن يقوم — بأى قدر من الجدية — بتخطيط لتجميع الأدلة . ومن السهل أن تكشف النقاب عن الحقائق بما تتضمنه من معاملات الارتباط . ولكن إنى أن تتعد الحقائق مع شيء ما — مع فكرة تعد جزءا من نمط من أنماط المعانى مثلا — فإن الحقائق لا تسكون دليلا على أى شيء . ولعلنا نسميها بحق بيانات بعد أن تصل إلى مقام الأدلة وليس قبل ذلك .

المغالطة

إننا الآن على استعداد لأن ننظر مرة أخرى في المشكلة العامة ، مشكلة الانتقال إلى توكيد الاعتقادات الجديدة على أساس ما تقبلناه فعلاً من الاعتقادات المدعومة بالأسانيد . لقد لاحظنا أن هذه الحركة عندما تتم بصورة تأملية فإنها تتم في ضوء ما يعنيه نمط أو أكثر من أنماط الاستدلال الثلاثة . ولكننا نجد دائماً الكثير ممن حولنا يحشوننا على أن نفرغ من العملية التأملية وننتقل بسرعة إلى الاعتقادات التي يؤكدون لنا أنها تتصل اتصالاً معقولاً بما نعتقد فعلًا .

وقد تستغل وسائل كثيرة لإقناعنا بذلك ، ومن أشيعها الدعاية ، وقد استعملت كلمة الدعاية Propaganda في الأصل مرتبطة بجماعة من كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كانت مهتمهم إدارة الإرساليات . وأما المعنى الأصلي للكلمة فهو المجهود أو الحركة المنظمة لنشر أو إذاعة أو تنمية دعوى معينة . غير أن استعمالها المعاصر كثيراً ما يعنى أى محاولة للإقناع بالمناشدة الوجدانية أكثر منها بالنقاش الجدى . وهكذا قد تستعمل الدعاية لاختصار الطريق إلى النتائج التي يجوز التوصل إليها عن طريق عملية أبطأ فعلاً ، أو عن طريق البحث التأملی .

فهل يحق للمدارس أن تستغل الدعاية لكي تقنع التلاميذ بالوصول إلى نتائج معينة ؟ إن هذه مسألة تبلغ من الأهمية مبلغاً يدفعنا إلى أن نتناولها بتفصيل أكبر في فصل تال إلا أننا نكتفي الآن بأن نورد بعضاً من المغالطات الأكثر شيوعاً مما يوجد في المناقشات التي تستهدف إحداث التقبل السريع لنتيجة ما .

هناك قائمة طويلة بالمغالطات في التفكير مما قد يلجأ إليه المرء عن عمد وهو يحاول إقناع الآخرين عن طريق ما يبدو نقاشاً معقولاً . إلا أن ما يلي يعتبر متصلاً — بصفة خاصة — بمسألة اختصار بغية فرض الالتزام :^(١)

(١) يستطيع القارئ المهتم أن يرجع إلى الكتب المعتمدة في المنطق ليستكمل بحث المغالطات . ومعظم المؤلفين يتابعون عن قرب تصنيف المغالطات الأصلي الذي قام به أرسطو وخاصة كتابه De Sophisticis Elenchis والواقع أن التصنيفات المعتمدة كثيراً ما تتداخل ولا تستنفد كل الاحتمالات ، ولكن =

تدبر الجدل التالي :

ما هو موافق للطبيعة جيد وسليم ،

وإشباع دوافع الفرد الأساسية موافق للطبيعة ،

إذن فإشباع دوافع الفرد الأساسية جيد وسليم .

لاحظ التعبيرات المبهمة الزائفة : فتعبير « موافق للطبيعة » يستعمل في المرة الأولى بالمعنى العام غير الشخصى ، وفي المرة الثانية بالمعنى الخاص وهو الرغبة الشخصية . والاستدلال السليم يتطلب الوضوح والثبات في استعمال المصطلح سواء أكان هذا الاستدلال استنتاجيا ، أم استقرائيا ، أم للاحا . ومن الجائز جدا أن يزحف استعمال المصطلح استعمالا غامضا أو ذا احتمالات إلى المناقشات في كل مرة تؤخذ فيها المصطلحات من الاستعمال العام أو الاستعمال الفلسفى لتستعمل في التفكير في المشكلات العملية المتخصصة المحسوسة . والمناقشة التالية معروفة جيدا في الدوائر التربوية المعاصرة ولعلها تصلح في يوم من الأيام إيضاحا كلاسيكيا لهذه النقطة . فهى تخلط الشيء الظاهر ونصف الحقيقى وأغراض المؤلف التى لم يفصح عنها — بصورة لا يملك معها القارىء سوى أن يقول : « آمين ! » دون أن يكتشف — إلا بعد مدة على الأقل — أنه قد ألزم نفسه بموقف لا يمكن التمسك به : ^(١)

« من أهداف التربية استخلاص عناصر طبيعتنا الإنسانية المشتركة ، وهذه العناصر هى فى كل زمان ومكان . وعلى ذلك ففكرة تعليم المرء أن يعيش فى أى مكان معين أو زمان بالذات ، وأن يتكيف لأية بيئة خاصة ، فكرة غريبة على المفهوم الصحيح للتربية » .

= الطرق المحتملة للوقوع فى الخطأ قد تكون غير جازمة ، ومن الجائز أن تكون فائدة التصنيف لتحقيق هدف معين أهم بكثير من « صحة » التصنيف بالمعنى المثالى . وقد يحقق المدرسون غايتهم جيدا بالرجوع إلى الكتاب الذى ألفه سيتوارت تشيس

Guide to Straight Thinking (New York : Harper & Bros, 1956)

الذى يتناول « المغالطات الثلاث عشرة » ويوضح كل واحدة منها من واقع الوقائع اليومية التى يواجهها الناس فعلا .

(١) Robert M. Hutchins, The Higher Learning in America (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1936), p. 67.

« والتربية تستتبع التعليم . والتعليم يستتبع المعرفة . والمعرفة هى الحقيقة . والحقيقة هى هى أينما كانت . ومن ثم فالتربية يجب أن تكون هى فى كل مكان . »

وهناك مغالطة مضللة أخرى تعرف باسم تحميل العبارات فوق (١) ما تحتمل Hypostatization وهى صورة من التفكير الخاطيء تعرف أحيانا بمغالطة التجريد Fallacy of abstraction وهى تتكون من استعمال المفاهيم المجردة كما لو كانت تمثل مواد أو وحدات محسوسة . وطبيعة اللغة الإنجليزية تجعل من السهل نسبيا تحويل معظم الأفعال والظروف والصفات إلى أسماء . وكثير من الأسماء يدل على وحدات حقيقة أو أشياء وجودية مثل الكلب والشجرة والذهب وما إلى ذلك . ولكننا حينما نزع أن كل اسم يدل على شيء يصبح التفكير مخطئا . وعلى ذلك فلا بد من توجيه العناية الخاصة عند التعامل بمصطلحات من قبيل : الدولة ، المجتمع ، الرأى العام وما إلى ذلك . صحيح أنه عندما توحد العناصر فى كليات كثيرة ما تفقد شخصيتها كأجزاء ، وتصبح من النسيج العضوى لكلية جديدة . إلا أن المدى الذى يحدث به هذا يجب أن يتقرر فى كل حالة . وقد ترتكب مغالطة تحميل العبارات فوق ما تحتمل مثلا بادعاء أنه لما كان اتحاد الأكسجين والهيدروجين بطريقة معينة يفقدهما شخصيتهما فى كل مادة جديدة لها نفس تماسك العناصر الأصلية فإن أفراد البشر قد يفقدون شخصياتهم بنفس الطريقة فى كل محسوس جديد ، وهو « الجماعة » .

وكثيرا ما يتم التعبير بالأسماء عن بعض ألوان النشاط الإنسانى مثل الشعور والرغبة والتصرف بذكاء وما إلى ذلك ، فتحمل فوق طاقتها . ويجب أن يكون المرء على حذر من هذه المغالطة بصفة خاصة عند القيام بالاستدلال اللماح ؛ ذلك لأنه من الجائز أن يعرض النشاط أو العملية المحملة فوق ما تحتمل - نفسها كقوة عرضية أو كل عرضى عندما نبحث عن الفروض التفسيرية . ومن المشروع لأغراض التحليل المنطقى أن تخلق كليات إدارية ليس لها مدلولات وجودية إلا بربطها بألوان من النشاط أو العمليات المعقدة .

وعلى ذلك فمثل هذه الكليات الإدارية يجب أن تؤخذ بمعناها الاستكشافية .

(١) قد يجد القارئ المهتم من المفيد أن يتابع الإشارات المفهرسة إلى تحميل العبارات فوق ما تحتمل فى كتاب ديوى المذكور .

مثال ذلك مفاهيم فرويد وهي الذات السفلى والذات العليا — التي هي في الحقيقة الشعور واللاشعور . قد تكون كليات إدراكية مفيدة دون أن تقابل في الواقع أى عنصر حقيقى من عناصر الجهاز العضوى البشرى أو دون أن تقابل تماماً أية عملية معينة أو نشاط محدد . فالمغالطة تتكون من جعل مثل هذه الهياكل أو البناءات أشياء .

Irrelevant Evidence وأشهرها الجدل المتمركز حول الإنسان Argumentum
ad hominem والجدل المستدر للعطف Argumentum ad misericordiam
والجدل المستغل للجهل Argumentum ad ignorantiam والجدل المستغل
للمشاعر الشعبية Argumentum ad populum والجدل المستغل لتأييد الشخصيات
البارزة Argumentum ad verecundiam .

وهناك عدد من المغالطات التي تستعمل عن عمد في محاولات فرض الالتزام بدون تفكير ، وهي تقع في التصنيف العام تحت عنوان « الدليل غير ذى العلاقة بالموضوع » وكلما أدخلت الشخصيات والدوافع واللمزات والغمزات حول السمعة والعادات الشخصية وما إلى ذلك في عملية التفكير استدعى النقاش أن يكون المرء على حذر . فالجدل المتمركز حول الإنسان — وهو عادة توجيه النقاش إلى الإنسان أكثر من توجيهه إلى مزايا الاقتراح نفسه — قديم وشائع . ولقد نشأت صورة خبيثة خاصة من هذه المغالطة بفضل التقدم الذى حدث في علم النفس الاجتماعى والتحليل النفسى بحيث أصبح فى مقدور أى رجل له بعض الإلمام بهذين العلمين أن يفند آراء أو مناقشات خصمه بأن يشرح بعض الحوادث التى حدثت في حياة الخصم الماضية ويبين أنها قد « تسببت » فى أنه يعتقد أو يؤمن باعتقاداته الراهنة . وتكمن وراء مثل هذا الشرح دعوة ، وذاها أن اعتقادات الخصم هي برمتها مسألة تدريب أو تهيئة ظروف . والواقع أن الادعاء العام بأن الجنس البشرى عاجز عن التعليم الحقيقى (أى وزن الاعتقادات فى ضوء ما تعينه الأدلة) قد يكون ماثلاً أيضاً . إلا أن الشخص الذى يقدم هذا الشرح يزعم أيضاً أنه هو والجمهور المستمع إليه يشذون عن ذلك ، لأنه يدعى معقولة تفسيره لموقف خصمه .

والجدل المستغل للعطف هو الاسم الذى تسمى به المغالطة التى تتجه إلى أن تستدر العطف أكثر من مزايا الموقف . وقد كان من الشائع لدى الإغريق القدماء

أن يحضر المتهم أسرته إلى المحكمة حتى يرى المحلفون بؤسهم . وبما لا شك فيه قطعاً أن العدل بدون رحمة كثيراً ما ينتج عنه عدم المساواة . ولكن الشيء نفسه يصدق على الرحمة بدون عدل .

والجدل المستغل للجهل هو مغالطة تحويل ثقل البرهان بصورة تخدم قضية اقتراح المرء بملاحظة أن خصومة غير قادرين على أن يفتدوا الاقتراح بالدليل الإيجابي . وهذه الطريقة في « التفكير » محيرة بصفة خاصة عندما تستخدم فيما يتصل بما لا يمكن إثباته من المحمولات التي تتضمن المفاهيم الدينية أو الميتافيزيقية . وهي في بعض الأحيان قوية الإقناع والإغراء إذا هي استعملت للحصول على الالتزام بطريقة معينة في التصرف لا يمكن التكهن بالكثير مما يترتب عليها من نتائج في الظروف الراهنة . وإذا تحالفت هذه المغالطة مع الجدل المستغل لمشاعر الشعب وعواطفه وانحيازاته ، أو مع الجدل المستغل لتأييد الشخصيات البارزة ، وهو الإشارة إلى أن الشخصيات المبجلة والمنظمات وقادة الرأي في الميادين الأخرى ومن إليهم يؤيدون هذا التصرف المراد الالتزام به ، احتاجت مدافعتها إلى شجاعة حقيقية .

ويشتد الإلحاح في الآونة الحاضرة في المطالبة بتنفيذ الكثير من المقترحات الرامية إلى إعادة تشكيل التعليم العام ؛ لأن الشخصيات البارزة في المجتمع والكتاب المحترفين والجميع في التاريخ وفي تصميم العواصم الذرية ، وفي شعر روبرت براوننج ومن إلى هؤلاء يؤيدونها . وحينما يصدر المؤرخ أحكامه النظرية العامة عن التعليم العام المعاصر كان من الجائز أن تكون نتائج ومقترحاته سليمة تماماً . إلا أن رسوخ قدمه وعلو كعبه في علو التاريخ لا يدل — في حد ذاته — على سلامة المقترحات التي يقدها في ميدان التربية والتعليم بأية حال من الأحوال .

وعندما نستعمل مثل هذه المغالطات جميعاً كأدوات لقطع الطريق على التفكير تعتمد في نجاحها على الجهل بمقومات التنفيذ أو العجز عن تمثل النقطة موضع البحث . وهنا يكمن لب الموضوع . فأكثساب المعلومات عن صور التفكير الصحيحة والخاطئة لا يكفي لإكساب المرء المناعة ضد الالتجاء الماكر إلى عواطفه وانحيازاته .

إن التربية الحقة التي يجب أن تكون علاقتها بطريقة البحث التأملی بنسبة واحد

إلى واحد ، لا تهتم قط بالالتزام حتى ولو كان نحو القضايا السليمة ، وإنما هي تهتم مباشرة بالتدرج في استبعاد الجهل بمقومات التنفيذ أو تمثل موضوع البحث بوصفه قوة عرضية في حياة التلاميذ . ولكي نقرر ذلك بصورة إيجابية نستطيع أن نقول إن الترية الحقة تهتم بالتنمية التقدمية الدائمة الثابتة للذكاء كما يتجلى خلال القدرة والاستعداد المتزايد من جانب كل فرد على التفكير .

الفصل التاسع

المعنى واللغة

عندما نلاحظ ثلاثة أو أربعة أفراد صم بكم « يتحدثون » ، فإننا قد نرثي لحالهم لأنهم لا يستطيعون الكلام أو السمع . إن قدرتهم على استخدام أصابعهم ، وقبضات أيديهم ، وأعينهم ، وروءوسهم ، بل في الحقيقة جميع أجزاء أجسامهم ، في « التحدث » دائماً ما تثير إعجاب من يشاهدهم . ولكنه مما يدعو إلى الأسى أن نشاهد نواحي نقص أولئك الذين بلا لغة لفظية تحررهم كما يتمتع الرجل الطبيعي بالحرية . ومما لا شك فيه أن أولئك الأفراد لهم أوجه نقص ، ولكن من المهم أن نعرف طبيعة نقصهم هذا . إنهم يشبهون الشخص الذي يجد نفسه في أرض غريبة . فهم قاصرون بنفس الطريقة ، بمعنى أنهم لا يستطيعون التحدث فقط إلا مع أولئك الذين يجيدون لغتهم الخاصة . فلغة الأصم والأبكم لغة خاصة ، غالباً ما يطلق عليها البعض « لغة الإشارات » ذلك لأن ما يستخدم عن قصد كإشارة (أى يستخدم ليشير إلى شئ ، ما أو ليعنى شيئاً ما) قد يستخدم أيضاً ليحمل معنى للأفراد الآخرين . ومن ثم فأصداقونا الصم والبكم لا تنقصهم اللغة ، ولكنهم ببساطة عاجزون عن مشاركة الأفراد العاديين في لغتهم إلا إذا تعلموا قراءة حركات الشفاه .

وعندما تستخدم الإشارات في الاتصال ، ابتداء من اثناء الجذع إلى استخدام الطلاسم الخاصة بالشعوذة في حفلات التدشين ، فاللغة موجودة . وليس هناك من لغز فيما يتعلق بهذا الأمر إلا ما قد يسميه البعض لغز الإنسان نفسه . إن تكوين المعاني العامة لأمر يصعب تحقيقه دون تهيئة السبل لتكوين الخبرات المشتركة . إن اللغة أداة اجتماعية ، وعلى ذلك فإذا لم تيسر هذه الأداة لكل فرد فسيصبح كالجزيرة المنعزلة وسيبقى على هذه الحال . ولن يكون للتاريخ وجود كما لن يكون للفن وجود ولن تكون هناك حضارة بالمعنى الذي نعرفه ، وفي الحقيقة لن يكون هناك إنسان كما نعرفه . ومع ذلك يجب ألا نختم هذا القول بأن المعنى يعتمد كلية على اللغة الصناعية

أو الرموز المحددة التي طورها الأفراد . ذلك لأن أساسيات المعنى ، ووجوده في أى موقف يؤدي فيه أى شيء وظيفة الإشارة . وعلى الرغم من أن اللغة الصناعية لا تمثل ضرورة للتفكير ، وذلك عكس الإشارات التي هي ضرورية ، فإن تفكير الإنسان سيكون محدوداً لدرجة ملحوظة بدونها .

انبثاق المعانى من خلال الخبرة

تنبثق المعانى لأن الإنسان كائن نشط . إنه لا يقف مكتوف اليدين أمام بيئته الأصلية التي تشبه بقعة غير محدودة المعالم . ودقة المعنى وثباته يتكوران عندما ينشط الإنسان للتعامل مع بيئته التي تحيره في بادئ الأمر . وتنمو اللغة وتتطور عن طريق حاجة الإنسان إلى الاتصال والتعاون مع الأفراد الآخرين . ويجب أن نلاحظ أن هذا التطور يعمل بأثر رجعى لتعديل المعانى التي كونها الإنسان . ومع ذلك فلن يتغير الأمر في أن المعانى التي يكونها الإنسان عادة ، لها مغزى أعمق من التعبير اللفظي الصحيح عنها . ويجب على المدرسين أن يتذكروا هذا عندما يبنون أحكامهم عن تلاميذهم على الاستجابات اللفظية كلية .

وقد تمتاز بحق بين الإشارات الطبيعية والإشارات الصناعية ، أى بين اللغة الطبيعية واللغة الصناعية . فأغنية « الطائر الطنان » قد تستخدم كإشارة لأترابه من الطيور بنفس الطريقة التي يستخدم فيها الديك صياحه كعلامة للطيور التي تشاركه الحياة في حظيرته . وهز الكتف إشارة ، كما أن انهمز بالعين إشارة . وبكاء طفل واحد في دار حضانة مكتظة قد يعنى وجود قلق يؤدي إلى بكاء الآخرين حتى إن نوعاً من المستيريا قد يسود السكان . ومع ذلك إذا ما استرعى هذا البكاء الانتباه ، وأدت نتائجه إلى توفير سبل الراحة والسكينة ، فإن الطفل يخطو خطواته الأولى بعبور (العتبة) التي تقوده إلى عالم اللغة الصناعية . ويدخل بعد ذلك عالماً غريباً عجيباً ، عالماً لا بد أنه يشبه العالم الذي وصفه جيمس للطفل بأنه « الفوضى ذات العجيج والضجيج » ولكن بالطبع ليس في مقدور أى منا أن يصف هذا العالم للطفل . إننا نعرف فقط أن عليه أن يمر بفترة طويلة من التدريب الشاق قبل أن يستطيع المساهمة بحرية في عالم الكبار وشئونهم ، من أصوات وإشارات وأشياء وحوادث .

ويذكر أحد المؤلفين أنه كان يمر بأم صغيرة كانت تصطحب طفلها في فسحة في الهواء الطلق ، وعندما تقابلت عيناه بعيني الطفل حاول الأخير أن يستخدم لغته في الكلام وانبعث منه صوت لكلمة « بابا » . ولقد سر المؤلف لهذا ، كما أن السرور ربما قد ملأ نفس الطفل أيضا ؛ لأن وجهه على الأقل قد اعتلته بسمة تشير إلى ذلك . ولكن أمه كانت على عكس ذلك بل إنها أسرعت بالسير . وقد نستنتج أن هذه الأم (وكذلك الأب) قد عرفا هذه اللحظة أن في استطاعة طفلها أن يقول « بابا » . وربما تساءل بعد ذلك : « هل طفلنا من الذكاء بالقدر الذي كنا نظن ؟ » ولكن يجب ألا تعتريهما الدهشة ؛ إذ أن ربط الصوت والتصاقه التصاقا وثيقا بشيء أو معنى واحد يستغرق فترة زمنية طويلة مهما حاولنا الإسراع بهذه العملية كما سيعاود الوالدان (ويحاول جميع الآباء ذلك بنوع من الفخر لا محالة كما سمعوا التتمات الأولى لأطفالهم ، والتي يرغبون أن يبلغوها للآخرين على أنها أول ما « نطق » به أطفالهم) .

ولقد أشار ما كس . س . أوتو إلى أن « التتمة » — أو إصدار الصوت — ليست هي « الكلام » . فالكلام يعني الفهم المتبادل للمعنى ، ويعتبر هذا لب الاتصال والتخاطب . وأما التتمة فتشير إلى إصدار الصوت ليس إلا ، على الرغم من أن معظمها سيكون صوتاً في طريقه ليصبح لغة . ويلاور أوتو^(١) هذه النقطة كما يلي :

« ... لا يمكن إرجاع الكلام أو التحدث لمجرد النطق أو لانعكاسات العلامات . إن العلامات تصبح إشارات ، والأصوات تصبح كلمات ، ويبدأ الكلام أو التحدث في الظهور عندما يتطلب السلوك استجابة . وعندما يقصد بالاستجابة من جهتها أن تكون كذلك . ويتخذ الكلام صورته نتيجة لأنه الجهد المشترك لمركزين رئيسيين من مراكز النشاط على الأقل ، يعملان في الاتصال ما بين الأفراد . ويتضمن هذا الإشارة المتبادلة ، والتوقع المشترك ، اللذين يؤديان — إذا ما تما — إلى فهم متبادل لكل فرد مشترك في هذه العملية ، كل بحسب مدى مساهمته فيها » .

(١) Max C. Otto, "Speech and Freedom of Speech,"
Freedom and Experience (Ithaca, N. Y.: Cornell University
Press, 1947) p. 83

اللغة كأداة

وكلما سيطر الطفل الصغير على أصواته المتطورة عن طريق استخدامها استخداماً ذا معنى في المواقف التي يشترك فيها مع أولئك الذين سيتعلم بعدئذ أن يسميهم بوالديه وأفراد أسرته ، فهو يسيطر على أداة عمله إلى تكوين علاقة مع جميع مجالات الثقافة الإنسانية ، إذا ما استخدم هذه الأداة استخداماً حكيماً . إن هذه الأداة — وهي اللغة — أداة إنسانية خاصة ، كما أن القدرة على تكوينها وتحسينها قد عزلت الإنسان عن باقي الكائنات الحية ، ويساعدنا أوتو^(١) ثانية على توضيح هذا بقوله :

« غالباً ما نسمع أن الإنسان معزول عن أقرب الأقربين إليه من الكائنات الحية ؛ لأن له يدين تمكنانه من أداء الحركات المتناسقة من الإبهام والأصابع . إن هذه في الحقيقة لقدرة رائعة ... ولكن إذا ما أردنا الاختيار بين قدرة وأخرى ، فإنني شخصياً أفضل اختيار الكلام ، أي اختيار القدرة على التحدث كأعجب المعجزات البيولوجية . »

وإنه لمن المعروف أن الإنسان صانع للأدوات . فقد تطور من الفأس التي كان يستخدمها بيديه إلى أعاجيب التكنولوجيا الحديثة . وبالطبع كانت اللغة التي هي أداة من أدواته ، تمتد له يد العون أثناء ذلك التطور ، ولم يستطع باستخدامه هذه الأداة أن يحدد فأسه وأدواته الأخرى فحسب ، ولكن الأمر الذي له مغزى أكبر ، هو أنه استطاع باستخدامه اللغة أن يسمي تلك الأشياء ، ويتحدث عنها مع الآخرين وأن « يفكر » فيها عندما لم يكن لها وجود . وأن يوصل تاريخها للأجيال التالية .

ولقد وجه هربرت فندت الاهتمام للاختلاف الفكري الرئيسي بين القرد الشبيه بالإنسان والرجل البدائي ، بعد أن لخص نتائج بحثه الذي أجراه على عينة من القردة الشبيهة بالإنسان بقوله :

« على الرغم من قدرة القردة الشبيهة بالإنسان على استخدام الأدوات تماماً ، فإنها لا تصنعها » .

وإذا ما اعتبرنا اللغة ضمن الأدوات التي يستخدمها الإنسان ، كما يجب أن نفعل ، فإن الشقة بين الإنسان والشعبانزي تزداد بدرجة ملحوظة . إن هذه الأداة هي التي أكسبت الإنسان قوة لم تكتسبها أي مخلوقات أخرى على ظهر البسيطة . إنها القوة التي يحدد بها ما يود تحقيقه كأساس قد يبني كل جيل تال حياته عليه ، مبتدئاً دائماً بمكاسب الأجيال السابقة كحصوله جاهزة . وعلى ذلك ، يتقدم الإنسان فكراً من جيل إلى جيل ، وهذا ما لا يصدق على أجيال المملكة الحيوانية .

ومع ذلك فما هذه الوثبة إلى الأمام سوى طاقة كامنة في حياة كل فرد . ذلك لأن اللغة أداة اجتماعية ، وعلى الفرد التام أن يتقنها بدرجة ما ، إذا أراد أن يشترك في الثقافة التي يولد فيها . إن هذه الأداة ضرورية لإدارة مراسم حفل التنشئة الذي يعتبر بدءاً للنمو . ويجب على المدرسة أن تساعد كل فرد على أن يقدر أن الكلمات الجديدة التي يكتسبها الفرد ، ما هي في الحقيقة إلا أدوات قد يستخدمها مستقبلاً لضبط خبراته وتوسيع دائرتها . وكما يعرف كل صانع (أو لنقل كل معلم للعمل أو للأشغال اليدوية) يجب أن تحفظ الأدوات مرتبة وبحالة جيدة إذا أراد لها أن تؤدي وظيفتها على أكمل وجه . ومع ذلك ، فكم من مدرس دقيق في العناية بالأدوات الخاصة التي يستخدمها في مادة تدريسه ، ومع ذلك لا يكون حساساً للطريقة التي يستخدم بها هوائاً وتلاميذه الأداة الإنسانية الرئيسية . ألا وهي اللغة ، ويستخدم جميع المدرسين وطلبتهم هذه الأداة يومياً ، وليس في دروس اللغة وحدها . ومع ذلك يجب ألا نسمح بأن تصبح هذه اللغة خاملة أثناء الاستعمال ، أو أن يعلوها الصدا بإهمالها في أية مرحلة من المراحل التعليمية .

وترديدنا ما يقول بعضهم : « إن الطفل يرث اللغة » يساوي تماماً قولنا إنها في متناول يديه عندما يشترك تدريجياً في حياة الكبار في المستقبل . إن هذه الوراثة لا تختلف عن وراثتهم لتكنولوجيا الحضارة التي يولد فيها . إنها وراثة على المستوى الاجتماعي ، وهي في هذه الحالة ربما تسمى وراثة سلبية . فهي عديمة الصفة أو الشخصية بالنسبة للطفل إلى أن تدخل دائرة خبرته بعد سماعه الأصوات التي يخل إليه أنها ثابتة وموجهة ، وبعد بذله الجهود ليردد ثانية ما قد سمعه في موقف الاستماع السابق .

وبهذه الطريقة يبدأ الطفل في معرفة كيفية استخدام الآخرين للأدوات التي ينميها ، أى كلماته الأولى . ويبدأ في اكتشاف ما تعنيه تلك الكلمات في الموقف الاجتماعي ، على الرغم من أن كونه هو نفسه جزءاً من الموقف الاجتماعي اكتشاف لن يدركه إلا بعد مدة في المستقبل ، وبطريقة مبسطة ، نقول إنه يكتسب معاني الكلمات ويحدد مسمياتها . ويتلقى الطفل الكثير من المساعدات في المراحل الأولى لنموه على الأقل . فالأمهات والآباء ، والإخوة والأخوات ، والعلماء ، وأبناء العمومة والجيران ، والأطفال ، يقدمون له يد المساعدة ، وربما كان الوالدان هما أوسع أولئك خيالا في الحكم على نجاحه .

وعلى ذلك فعندما يسمع الوالدان الصوت العادي ، « با . . . » من الطفل (الذي سيصبح رجلاً) وهو يجرب حباله الصوتية الواحد تلو الآخر . يصيحان في صوت واحد والإعجاب يملأ قلوبهما : « هل استمعتم إليه : لقد قال بابا » . وسيردد الوالدان الكلمة ثانية ، وسيربتان طفلهما ويحضنانه . وسيتصرفان كما لو كان في استطاعتهما بالحديث والإشارة ، أن يحصلوا على تلك الكلمة ، منطوقة نطقاً كاملاً مرتبطة بـ « بابا » في ذلك الوقت وفي ذلك الموقف ، وسيجلس الوالدان بدون مبالغة ، في الأيام التالية وهما على أهبة الاستعداد للقفز على طفلهما من بعيد . ويحدوهما الأمل في أن يسرعاً بتلك العملية قليلاً ، ولهذا فهما يكرران هذه الكلمات « قل بابا — قل بابا » في أذن الطفل بلا هوادة . وبالطبع سيكرر الطفل قائلاً « بابا » في الوقت المناسب قاصداً الشخص الذي تنطبق عليه الكلمة فقط . (١) إن هذه الجمل القليلة تشير بوضوح إلى النشوة ، والنشاط ، والتوقع ، والفخر ، وكلها من صفات اندماج الوالدين في حياة الطفل لكي يتأكدا مستقبلاً من اندماج الطفل في حياتهما . وهذا أحد أنواع العلاقات مع الأطفال الصغار ، التي يعرف فيها الوالدان جيداً — دون ما حاجة إلى إعمال الفكر في هذا الأمر — أن عليهما أن يعطيا من ذات نفسيهما لكي يستطيع الأطفال أن ينالوا فرحتهم للاندماج تدريجياً في الحياة النامية المثمرة .

(١) مناقشة تكوين الاستجابة اللغوية مناقشة فعالة انظر الفصل الثالث عشر من الكتاب

التالي: Albert P. Weiss, A Theoretical Basis of Human Behavior: (Columbus, Ohio : R. G. Adams)

وبين المؤلف في وصفه لتكوين الاستجابة اللغوية لكلمة البرتقالة كيف يشترك البصر والسمع والتذوق والرائحة جميعاً لتكوين ما نعتقد نحن أنه استجابة لفظية بسيطة .

معنى المعنى

ومن المفيد هنا أن نذكر — كما قال بويد . ه . بود — أن « السلوك الذكي رهن باكتشاف المعنى » (١) فطفلنا ، مثلاً ، يكتشف أن ما يسميه « ماما » مستقبلاً ، يعنى الاهتمام ، والراحة ، والدفع ، واللعب ، وسد الجوع وماشابه ذلك . وكل هذه على مستويات لم يقرنها بأسمائها بعد . وكذلك ، تتكون مجموعة من المعانى متعلقة بما يربطه هو بطبيعة الحال بالصوت الذى يعبر مستقبلاً عن كلمة « بابا » . ولشرح هذا ببساطة نقول إنه كلما نمت اللغة ، فقد تنفصل المعانى عن المواقف الطبيعية التى ظهرت فيها أولاً (فى الحضانة ، أو الحمام ، أو كرسى الأطفال) وترتبط بإشارات صناعية — والتى هى فى حالتنا الراهنة تعبر عن رمز الأم — وعلى ذلك تأخذ هذه المعانى مكانها جنباً إلى جنب مع المعانى الأخرى التى انفصلت بدورها أيضاً من المواقف الطبيعية للعلاقات اليومية ، وتصبح أجزاء لا تتجزأ من مجموعات للمعانى . ويمكن أن نقول إن هذه المجموعات بارتباطها فيما بينها بكلمة معينة ، وبارتباطها بالشيء الذى تعنيه هذه الكلمة تشمل معنى الكلمة ، ككلمة « ماما » التى ترتبط بمجموعات للمعانى فى كل مرحلة مطردة من مراحل نمو الطفل . (٢) :

ولسكى تفهم معنى كلمة المعنى بدقة أكبر فمن الضروري أن نوضح الطريقة التى استخدمت بها بعض الكلمات الرئيسية فى المناقشة السابقة (٣) أولاً ، يمكن لأى شيء أن يؤدي وظيفة الإشارة ، وبهذا يكتسب المعنى الذى لا يخرج عن حد قولنا إن

(١) انظر: Boyd H. Bode, Fundamentals of Education (New York: The Macmillan Company, 1921) p.105.

(٢) يبدأ تكوين المفاهيم أو ما قد نسميها على وجه أصح بالاستجابات للمفاهيم أو أوجه نشاط المفاهيم فى ظل إطار أوجه النشاط المبدئية للمعنى . وسنعالج أوجه النشاط هذه فى الفصل العاشر .

(٣) سيعتمد الكاتبان فى الصفحات التالية على ما كتبه C. I. Lewis فى مناقشته للمعنى فى كتابه: An Analysis of knowledge and Valuation (La Salle, Ill.; Open Court Publishing Company, 1946.

الفرد يعرف كيف يستجيب لذلك الشيء . وليس لأى شيء معنى كامن فيه لدرجة أننا جميعاً نتساوى في فهمه إذا ما أحسن تعليمنا . ويحسن بالمدرس العجول أن يتذكر هذا ، فمتسلك الجبال مثليداً تكيفه للتسلك الذى سيقوم به حالما تطفأ قدماء السفوح التى تعنى وجود الجبال أمامه . ولكن هذه الإشارات فى هذا المستوى إشارات مشوشة ولا يمكن التحكم فيها . ولحسن الحظ ، كون الإنسان إشارات صناعية أو رموزاً ليستخدامها كأدوات لتوصيل المعانى . فالرمز هو أى إشارة صناعية تعتبر جزءاً من اللغة المنطوقة أو المكتوبة . وعلى ذلك فقد يقوم متسلك الجبال بتكيفات معينة حتى قبل بدء رحلته وذلك عن طريق دراسته للخرائط .

ومن المفيد غالباً أن نفرق بين الرمز والتعبير اللغوى ، وبين التعبير اللغوى والمعنى المعبر عنه . فالتعبير اللغوى يتكون نتيجة الارتباط الثابت المصطلح عليه معنى ما برمز ما . ولكن قد ندرج على ربط أكثر من معنى للرمز نفسه . فمثلاً رمز العين قد تعنى عضو الإبصار المعروف ، وقد تعنى ينبوع الماء كما قد تعنى الجاسوس أو الشخص الذى يرسله المرء للاطلاع على أحوال معينة رمن الواضح أن هذه جميعاً تعبيرات لغوية مختلفة . ومن ناحية أخرى قد نوصل المعنى نفسه بتعبيرات مختلفة أو برموز مختلفة كما هو الشأن فى المترادفات الحقيقية أو التعبيرات المترادفة فى لغتين أو أكثر كقولنا : «هات Hat» باللغة الإنجليزية أو «شابو Chapeau» بالفرنسية أبو «بوشى boshi» باليابانية .

ويوصل كل تعبير لغوى معنى بطريقتين : الفهم الشامل والمغزى . إن الفهم الشامل يعبر عنه إما بمعنى الدلالة أو التسمية كما فى حالة الأسماء (كلفظة قبعة) أو بمعنى «التطبيق على» كما فى حالة الصفات (أسود ، أحمر ، أزرق) وغيرها من الصفات المشبهة (كمحبوب ومتأنق وهش) . وفى كلتا الحالتين يشير التعبير إلى — أو يعنى — بعض السمات أو الخصائص التى يجب أن تقترح على علاقة الفرد والشيء المشار إليه فى كل فرصة تتاح للاستخدام الصحيح للتعبير . ويقوم مثل هذا الاستخدام على الموقف الاجتماعى ، أى على موقف الاعلام . إن الفهم الشامل لأى تعبير قد يقال عنه إنه تصنيف لكل الأشياء الممكنة (سواء أكانت موجودة أم مدركة) مما يمكن أن يصدق عليها التعبير .

وتبدو هنا نقطة طريفة فيما يختص بالتعبيرات التي يظهر لأول وهلة أنها ليست مفهومة ، أو إذا شئنا الكلام بدقة أكبر قلنا إن درجة فهمها الشامل تبلغ الصفر (أى التعبيرات التي قد لا تستخدم استخداما صحيحا إلا للأشياء المستعيلة) وانفسكر مثلا في المربع الثلث أو الديكتاتور الديموقراطي . ولا يعنى هذا أن مثل هذه التعبيرات عديمة المعنى ، لأن الفرد لا يستطيع أن يفهم عدم استخدامها لأى حادث أو أى شىء قد ينبثق أثناء الخبرة إلا عن طريق فهمه لمعانيها أولا (ولو أن هذه المعانى قد تختلط كما اختلطت في الأمثلة السابقة) .

ويجب أن نفرق بين مثل هذه التعبيرات والصيغ الفارغة . فهذه الصيغ الأخيرة لا تدخل في نطاق الفهم الشامل إطلاقا (إنها تعبيرات غير قابلة للفهم بعكس تلك التعبيرات التي تبلغ درجة فهمها الشامل صفرا) كما هى الحال في الكلمات التي لا معنى لها ككلمتى « جزمبيطى » و « تفهوى » ، بل إن هذه التعبيرات تمثل خطوة تكاد تصل بنا إلى معنى ولكنها هى بعيدة عنه . ولقد عبر ديوى عن ذلك مرة بقوله : « إننا كأفراد أذكاء نفترض وجود المعنى ، كما أن عدم وجوده يعتبر انحرافا عن المؤلف . (١) »

وقد نستنتج أيضا بعض أوجه التمايز المفيدة بين الشمول ، والتسمية ، والتحديد ، إن شمول الكلمة يعنى فئات جميع الأشياء الموجودة التي تصدق عليها التسمية بتلك الكلمة وتحدد الكلمة الشىء أو الأشياء التي تصدق عليها التسمية في أى مناسبة من مناسبات استخدامها . فمثلا لفظ الآلة الكتابية يشمل فئات (غير محدودة الحجم) من جميع الآلات الكتابية الموجودة حاليا . وعلى ذلك فقد نسمى الشمول أحيانا بالامتداد . ومن ناحية أخرى فعند ما يستخدم الفرد كلمة الآلة الكتابية في مثل هذا التوكيد : « إن آلتى الكتابية فى حاجة إلى شريط جديد » فإن الكلمة تحدد الآلة الكتابية التي يشير إليها ذلك الفرد في تلك المناسبة على أنها آله هو . إن الفهم الشامل لكلمة الآلة يتضمن كل شىء يمكن إدراكه (سواء أكان موجودا أم غير موجود) مما تصدق عليه التسمية .

وبالطبع تبلغ درجة امتداد الكثير من الأسماء صفراً ، وللكثير أيضاً امتدادات مشكوك فيها أو غير محدودة . وفي استطاعتنا بكل تأكيد أن نفكر في الكثير من الأشياء الخيالية أو التي لا وجود لها . كما أننا نستطيع أن نطلق عليها أسماء ، وفي الحقيقة إذا حرماننا من هذا التحليق في أجواء الخيال فإننا سنفقد عنصراً هاماً من عناصر التفكير وربما كانت الكلمات كالإلكترون والثقافة والذات السفلى التي يستخدمها العلماء أقرب صلة بميالاتها مما يستخدمه القصاصون كالحصان وحيد القرن وملك لانا منها إلى الكلمات ذات المدلولات المنظورة كالحصان والمخ والحديد وما شابه ذلك .

وظيفة الخيال

يجب أن نقف هنا لكي نعرف ما نحن بصدده على وجه التحديد . إن النقطة مثار الجدل التي نعرضها هي أنه لا يمكن للتفكير أن يسبح بعيداً عن ظهر البسيطة بدون هذه التحليقات الخيالية المناسبة . ولا يخرج الخيال عن كونه القدرة على جعل الشيء الغائب عنا ماثلاً أمامنا لا أكثر ولا أقل . إن هذه القدرة هي التي تقود الأفراد إلى مرحلة فرض الفروض في خطوات تفكيرهم . فالفرض كما نعرف جميعاً ، خطوة نحو المجهول ، وبينما ينبثق الفرض من خلال الخبرة إلا أنه يتجه دائماً إلى ما وراء الخبرة . وهذا هو السبب الذي دعا وليم جيمس لأن يقول ذات مرة : « إن الرجل العبقري هو الشخص الذي يستطيع القيام بقفزات فكرية واسعة » .

حقاً إن في مقدور بعض الأفراد أن يقوموا بقفزات فكرية بشجاعة وثقة ، ويتردد البعض أكثر ولكنهم لا يقلون عن الفريق الأول ثباتاً . ويتعثر البعض أيضاً عند محاولتهم القفز ، في حين قد نرى البعض عاجزين عن تركيب أى زمبرك في أعضاء تفكيرهم . ولم نقل هذا إلا لكي نبين أن الأفراد مختلفون ، ومن الثابت أنه بينما يمكن أن نرجع حقيقة هذا الاختلاف لدرجة ما إلى الوراثة إلا أنه من الحق أيضاً أن نقول إن كيفية ومدى خبرة الأفراد عاملان فاصلان في انطلاق أو تضيق نطاق تحليقاتهم الخيالية . وعلى ذلك يعمل هذان العاملان أخيراً على تضيق نطاق قدرة أولئك الأفراد على التفكير أو انطلاقها .

ويعتبر قولنا السابق دليلاً للمدرس هنا ، فيجب أن يشجع الطلاب على اللعب بالأفكار ، لا لكي يعيشوا في عالم الخيال حيث المعرفة الدقيقة لأهمية لها ، ولكن - على

العكس من ذلك - لكي يكتسبوا شعورا بالطريقة التي تفتح بها الفكرة الفرضية الإستراتيجية الطريق أمام معرفة جديدة وإلى التطوير المستمر للحياة الإنسانية إذا ما اخترنا هذه الفكرة بما نعرفه نحن . واقد كتب الكثير عن موضوع الابتكار . ولكن الكثير مما كتب ينتهي بنعمة عاطفية أو صوفية . إن العمل الابتكاري في هذا العالم لا يتكون إلا نتيجة للمجهود المتواصل لرؤية ما وراء الأشياء الحالية الحقيقية مع مسئولية اختبار صدق الأفكار التي تنبثق .

فلا يكتفي الطالب مثلا باكتشاف أن زيادة المعلومات الطبية قد أدت إلى الهبوط بنسبة وفيات الأطفال وإلى إطالة عمر الإنسان . فهو في حاجة أيضا إلى أن يفكر في معنى هذا فيما يختص بالاحتياجات التعليمية للوطن مستقبلا وبمشكلات التوظيف والإسكان وبالخطوات الحالية والتي يمكن القيام بها في مجال الرعاية الاجتماعية . هذه هي المشكلات التي سيعيش هو معها في الحقيقة . وستتغير هذه المشكلات في طبيعتها كلما تغيرت المعرفة التي يكتسبها الآن أيضا . ويشير هذا كله إلى سبب أبعد - ربما يكون أساسيا بدرجة أكبر - لتأكيد أهمية عنصر الخيال في حجرة الدراسة . إن حياة الرجل الحر هي حياة تمنحه حرية الاختيار . وإنه بهذه الطريقة يستطيع أن ينمو خلقيا . والاختيار الحصيف يعني دائما التمهّل في السلوك إلى أن يستخدم الفرد خياله في فحص البدائل التي تواجهه وفي التكهن بنتائجها . ولهذا السبب صرح ايفريت دين مارتن مرة بأن الحياة الأخلاقية كانت مستحيلة نتيجة لإهمال النمو المشبع للخيال .

المعنى يبر اللغة

إذا رجعنا إلى مناقشتنا لكلمتي المعنى والمعنى الشامل والمغزى بوصفهما الطريقتين اللتين يوصل بهما كل تعبير لغوي المعنى ، فسنرى أن معاني المعنى ، التي تعتبر أساسية بدرجة أكبر ، توجد في الكلمة الثانية . ولقد درجنا من قديم على القول بأننا يجب أن نفرق بدقة بين الصفات الأساسية للشيء وبين خصائصه العرضية أو الطارئة . وهذه طريقة لإدخال الأمور الميتافيزيقية الخاصة بالجواهر ، ولخلق ثنائية مشكوك في قيمتها بين التعاريف الحقيقية والتعاريف الاسمية . فمثلا ، لقد قيل إنه في تعريف كلمة « اتربية » يجب أن نذكر المحاولات المقصودة لتشكيل الخبرة عن طريق توجيه وضبط التعلم بدلا من أن نذكر مثلا أن التربية عملية اجتماعية تتضمن توظيف المعلمين ، والإداريين .

وماشابه ذلك ، والمعتقد أننا بذلك قد نقرر تعريفا حقيقيا ، وهو التعريف الذى يعكس هياكل « الحقيقة نفسها » فى مقابل تأكيدها الحقائق العرضية للتنظيم الاجتماعى (١) . وعلى ذلك نحن نتشجع لتفسير الاعتبارات الهامة لوظيفة التربية وعلاقتها بالأهداف الإنسانية . ومع ذلك ، فمن المرغوب فيه أن نميز بين تلك الخواص لأى شيء سواء أكانت موجودة أو متضمنة ، والتي تعتبر أساسية حتى تصدق عليها التسمية بكلمة أو تعبير ، والخواص الأخرى التى ليست كذلك . ويمكننا أن نقول بعد ذلك إن مغزى الكلمة راجع إلى هذه الخواص الأساسية .

إننا ندرك هنا السبب الذى يجعل المعنى أكثر عمقا من اللغة ، فإذا استبعدنا استخدام أى تعبير لغوى ، نجد أن الفرد قد يفهم — إما تدريجيا وإما فجأة — العالم الرئيسية لظاهرة تحدث من وقت لآخر (وهو بهذا الفهم يقوم بتمييز العناصر من البيئة المشوشة سابقا) وحتى إذا لم تتح له الفرصة إطلاقا للتحدث مع الأفراد الآخرين عن هذه الخبرة ، فقد لا يزال يجد أنه من المفيد أن يصطنع لفظاً أو تعبيراً لغوياً ليدل على ما فهمه . وعلى ذلك فهو يطلق على الظاهرة اسما ويستخدمه بعد ذلك ليحدد أنه يقصدها ، إما كما حدث بالفعل ، وإما كما أوضحنا سابقا .

إن إطلاق الاسم على شيء ما يتضمن استخدام بعض معايير الضبط للسيطرة عليه وربما توضح هذه الحقيقة بعض أنواع الأساليب اللطيفة التى تجمعت حول استخدام الأسماء . ففي المجتمعات البدائية مثلا ، لا يجوز التلفظ بأسماء بعض الأفراد البارزين أو الآلهة . وفي المجتمعات المتحضرة ، يرى الأفراد أن أى مرض أو اضطراب جثمانى لا يعرف الطبيب له اسماً متداولاً ، أمر يبعث على الخوف الشديد . وفى القوات المسلحة عندما يتعلم المجندون الجدد طريقة استخدام وضبط أى سلاح ، نجد أن الدرس الأول قد يكون عن التعاريف المستخدمة . وقد شعر الكثير من المعلمين أن الدرس الأول الذى يجب أن يتلقاه الطالب عند التحاقه بمؤسسة أكاديمية جديدة يجب أن يكون عن المصطلحات . ولقد رأينا نحن فى هذا الفصل من الكتاب ، أن من الحكمة أن ندخل

Harry S. Broudy Building a Philosophy of Education (١)
(Englewood Cliffs, N. J. Prentice-Hall, Inc. 1954)

أنظر الفصل الأول لتوضيح مثل هذه المحاولة لوضع تعريف حقيقى « للتربية » .

اعتباراً للأسماء المناسبة للجوانب المختلفة للمعنى واللغة ، على أمل أنها ستزيد من ضبط وتحديد الموضوع الذى كثيراً ما يبدو بصورة مشوشة .

وعلى الرغم من ذلك ؛ فإن هذا الميل الطبيعى الضرورى للاختيار والتسمية لا يشير فى حد ذاته إلى أن الطريقة المثلى لتعلم التلميذ هى أن نسلحه أولاً بالمصطلحات الفنية التى يعرفها المعلم (سواء أكان ذلك ليتعلم التلميذ طريقة استخدام البندقية والعناية بها أم ليتابع درامه أكاديمية .) فالمعنى ينبثق من السلوك ، وعلى ذلك فى عمليات التجريب والمحاولة ؛ وفى السلوك وتحمل نتائجه ؛ يصبح للتسمية معنى ومغزى . إن مثل هذا النشاط سيساعد التلميذ بعدئذ على فهم المعنى فهما كاملاً لأى شىء أو حادث إذا ما وجد أنه سيقصر نفسه على استخدام ذلك اللفظ فقط لتسميه الشىء المذكور . وليس فى مقدورنا هنا أن نقترح أى وصفة سهلة لتدريس هذا . ويختلف الأفراد فى استجاباتهم الميكانيكية واللفظية بشكل ملحوظ ، كما يختلفون فى أشياء أخرى . ومع ذلك ، فإن ما يمكن أن نقوله هو ما يأتى : إن التقدير غير المستنير للأشياء أو مجرد التمرين الشفهى على المصطلحات لن يسهل عليه فهم الشىء المقدر أولاً ، أو فهم المفردات المرتبطة به ثانياً .

وحيال هذه النقطة ، يجب على شخص يأخذ التدريس بعين الجدى ، أن يضع فى اعتباره جيداً ما عبر عنه جون ديوى فى كتابه « كيف تفكر » فعند إشارته إلى أن التعليم الصحيح هو تعلم معنى الأشياء ، وليس تعلم الأشياء إطلاقاً ، أوضح أن مشكلة المدرسة فيما يختص بالكلام هى أن توجه كلام التلميذ الشفهى والتحريرى - الذى يستخدم أساساً للأغراض العملية والاجتماعية - حتى يمكن أن يصبح تدريجياً أداة واعية لتوصيل المعرفة ومعاونة الفكر^(١) وتعتبر اقتراحات ديوى نصائح ثمينة لكل معلم بغض النظر عن المادة التى يدرسها أو الفرقة الدراسية التى يدرس لها ؛ إذ أنه يؤكد :

- (١) زيادة مفردات التلميذ .
- (٢) استخدام الكلمات بدقة وصحة أكبر .
- (٣) تكوين عادة الحديث المتسلسل .

(١) ديوى ، المرجع السابق .

ويمكن تنمية ما يشير به ديوى فى الاقتراحين الأول والثانى بزيادة الاهتمام بالاقتراح الثالث .

وليس هناك من شىء يحافى هدف خلق الحساسية اللغوية ، أو يعترض الجهود التى تبذل لتنمية كيف التأمل لنشاط التلاميذ أكثر من تقبل المدرسين للإجابات أو الجمل المقصورة على كلى (نعم) أو (لا) ، أو بدلا من هذا تقبل المدرسين لما قد نسميه « بحيج الإثبات أو النفى . » وإذا ما دعم هذا الاتجاه باستخدام الاختبارات التى يحجب عنها بوضع خطوط تحت الكلمات ، أو وضع علامة أمام الإجابات الصحيحة أو توصيل خط من كلمة لأخرى أو تكملة الأما كن الحالية بكلمة واحدة أو جملة بسيطة دون استخدام اختبارات أخرى ، فإن هذا يحرم التلميذ الفرص الأساسية للنمو الفكرى القيم . وكما أنه ليس هناك من بديل للكتابة فى توضيح الأفكار ، فكذلك أيضاً ليس هناك من بديل للمناقشة المتبادلة للتكوين الدقيق للأفكار . وقد يعود الاهتمام بالتعبير الشفهى الملىء بالأفكار ببعض النتائج سواء فيما يتعلق بقدرة التلميذ على الفهم ؛ أو بقدرته على تذوق ما يقرأه (ويبدو هذا على الأقل كمضاربة مضمونة النتيجة .) وعلى الرغم من أن المعانى أكثر تعمقا من اللغة ، فإننا نخطئ إذا تسرعنا باستنتاج أن هناك معانى محدودة لا يمكن بطبيعتها أن نعبر عنها لغويا . وكقاعدة عامة للفصل يجب على التلاميذ والمدرسين على السواء أن يفترضوا أنه إذا لم يستطع الشخص أن يعبر عما يعنيه ، فإن هذا التبليل يتجاوز مشكلة القدرة على التعبير اللغوى السليم .

بعض الصعوبات المعينة

هناك اعتبارات أخرى كثيرة متعلقة بالمعنى واللغة جديرة بالبحث . ومن سوء الحظ أننا لانعرف حتى هذه اللحظة كيف نبدأ مثل هذه البحوث دون الخوض بالقارىء فى أمور فنية تتعدى كثير مجالات اهتمامات معظم أعضاء مهنة التدريس ، كما تتعدى اهتمامات أفراد الجمهور المثقف عامة . ورغم كل هذا ، فنحن نعرف هذا القدر فعلا ، وهو أن المعلم قد ينمى حساسية نحو المبهات اللغوية ، وبهذا يكون فى موقف يساعد تلاميذه على أن يحدوا حذوه .

وهناك أخطاء شائعة تحدث فى استخدامنا اليومى للغة ، سواء أكان ذلك فى حجرة الدراسة ، أم فى الصحف المطبوعة أم فى اجتماعات رؤساء الدول

وأحد هذه الأخطاء هو الغموض والآخر هو اللبس . ورغم هذا ، فهناك خطأ آخر وهو الفشل في معرفة أن الكلمات تتغير عن طريق الاستخدام سواء كان ذلك بإضافة معان أم بحذفها . والحقيقة الأخيرة بالغة الصدق لدرجة أننا كلما اتصلنا أكثر فأكثر بالمعسكرات السياسية الأخرى زادت علينا صعوبة استخدام الكلمات — دون أن يساء فهمنا — التي قد اقتبستها هذه المعسكرات وأعطت لها لونا خاصاً مثل كلمة التقدمي ، والتحرري ، والديمقراطية . ويظهر الاضطراب لمثل هذا التغير في الولايات المتحدة بالطبع ، في فترات القلق ، عندما ينأى بعض النقاد الاجتماعيين حتى عن استخدام « الحبر الأحمر » .

فأي معنى من المعاني الكثيرة الممكنة في جملة معينة يحاول التلميذ أن يوصله في إجابته الغامضة ؟ وأي معنى من المعنيين اللذين ضمنهما التلميذ في جملة بها لبس هو المعنى الأوفق للموقف مدار الدرس ؟ وهل يقصد التلميذ بالكلمة معنى بطل توصيله بها حالياً ؟ أو : هل هو حقاً يحمل الكلمة معنى جديداً وجد طريقه فجأة إلى ذوق الجمهور ؟ وربما تساعد هذه الأسئلة المعلم ليتبع في مناقشاته مع تلاميذه تلك الخطوات التالية التي تؤدي إلى الوضوح كما تؤدي أيضاً إلى التفكير التأملی المتبادل .

إن اللغة أداة يصعب التحكم فيها ، إنها أداة تتغير غالباً حتى في أثناء استخدامها . ويجب على المعلمين أن يعرفوا هذه الحقيقة البسيطة وهي أن أي شخص يقوم بالتدريس بأي لغة ، سواء أكانت اللغة الإنجليزية أم الألمانية ، أم اليابانية أم الفرنسية ، معلم لتلك اللغة ، سواء أراد أم لم يرد . وعلى ذلك يجب على جميع المدرسين أن يكونوا حساسين للمجالات الغريبة لتلك اللغة — والا يقتصر هذا على المدرسين الذين من واجهم الخاص البحث في تراكيب اللغة وتحسينها — ومع ذلك ، فيجب عليهم ألا يكونوا دقيقين أكثر مما يجب ، إذا أرادوا حقاً أن يشترك جميع التلاميذ في « متابعة الحديث » الذي يهمهم متابعته للغاية ، فمن الأفضل ألا يكونوا بتلك الدقة الزائدة عن الحد . ومع هذا ، فقد يتعلم كل مدرس ، عن طريق الخبرة ، أن يتحسس تلك اللحظات التي تعتبر فيها الكلمات الحساسة قريبة قريباً كافياً من الخبرات العامة لجميع التلاميذ ، وإن كانت في نفس الوقت بعيدة بعداً كافياً عن الخبرات الفردية بحيث يصبح التساؤل المشترك لتحديد المعنى عملية تأملية مشمرة .

وعندما يترنم أى دارس لساندبرج بالكلمات « الشعب ، نعم » فليس هناك من فرد يستمع إلى ذلك إلا وله درجة معينة من فهم ما يقال . ومع هذا ، فإن المشاركة فى المعانى التى ترى كلما استمر الترنيم ، تجعل تيار تاريخ أمريكا الجارف يبدأ فى أن يتخذ له شكلا ، مع إعادة تنظيم واتساع للمعنى البدئى . وفى الحقيقة ، إذا تفيد المدرسون بالمعجم ، سواء بحكم العادة أو الخوف ، لدرجة أنهم يحدون من انطلاق التلاميذ فى عالم الخيال ، فقد يحدون بعض الفائدة فى متابعة ما يقوله كارل ساندبرج فى السطور التالية : (١)

التعاريف البدئية التسعة للشعر (النموذج الأول)

- (١) الشعر تنظيم للقوافى عبر فترات السكون بحيث تكسر حدة ذلك السكون بأصداء ومقاطع وأطوال موجية مقصودة معينة .
- (٢) الشعر فن يمارس بالمادة اللينة للغاية من لغة الإنسان .
- (٣) الشعر صدى يدعو الشبح الراقص أن يكون زميلا له .
- (٤) الشعر موسيقى راقصة تنظم جماعات الشبان والشابات ، كما أنها تنظم أنغم (المرشات) العسكرية وأكثرها صرامة .
- (٥) الشعر صرخة استخفاف بالفرح للثور على مليون من الدولارات كما أنه ضحكة استخفاف لفقدانه .
- (٦) الشعر مجموعة من الصداقات غير المرئية .
- (٧) الشعر نتاج تجميع الياقوت مع البسكويت .
- (٨) الشعر رياضيات صوفية حسية للنيران ، وتجمعات الدخان ، والفظائر ، وأزهار البانسيه ، والناس ، وغروب الشمس القرمزى .
- (٩) الشعر تنظيم لصورة ، أو أغنية ، أو نزعة فى منشور مقصود من الكلمات .

Copyright, 1928, 1956 by Carl Sandburg. Reprinted from (١) The Sandburg Range (p. 36) by Permission of Harcourt, Brace & Company Inc.

ولقد نشر ساندبرج ، التعريف المؤقت ، النموذج الأول ، للشعر فى Good Morning, America (New York, 1928 Harcourt Brace & Co)

حيث عرض ٣٨ تعريفا للشعر .

وكذلك عندما يترنم طلابنا الذين يدرسون شاعر النيل حافظ إبراهيم فى قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » أو قصيدة أبى الهول لأحمد شوقي : فإن المشاركة فى المعانى التى تتوالى كلما استمر الإنشاد تجعل تيار تاريخ مصر الجارف يبدأ فى أن يتخذ له صورة تصنع وتتسع - المترجمان .

ویمکن أن نقرر ما یحتاج المدرسون إلى تذكره حین یساعدون تلامیذهم على تنمية نشاطهم التأملی بطرق عدة . وهنا أيضا ، نستطیع تكوين نماذج مبدئية . ومع ذلك یمکن أن نقول شیئا واحداً بدرجة من التأکید ، ألا وهو أنه یجب ألا تبعد قيمة اللغة كأداة ضرورية لتنمية التفكير عن بؤرة شعور المدرس . كما أنه یجب على المدرسین ألا ینسوا أنه ما دامت اللغة أداة یصعب التحكم فیها فإنه یصعب الاتصال بها لدرجة كبيرة حتی فی ظل أحسن الظروف .

وأخیرا ، فكلما تقدم عمل الفصل الیومی ، فعلى المدرسین أن یذكروا دائماً أنهم باستخدامهم للرموز لتعديد ما یشیرون إلیه ، وللمساعدة تلامیذهم الصغار على نشر أجنحة خیالهم ، إنما یسهمون مباشرة فی حصولهم على مكاسب تساعد على نمو قدراتهم واتجاهاتهم التأملية عندما تنظم هذه المكاسب بعد ذلك فی حياة كل فرد من أولئك التلامیذ .

لفصل العاشر

المفهوم والاستجابة إليه

لقد عالجنا مشكلة النشاط الإدراكي للمفهوم بطريق غير مباشر عند بحثنا في المعنى واللغة ، ولو أن ذلك لم يكن مكان فحصها على وجه التحديد . إن كل ما يقال عن المفاهيم ، وتكوينها ووظيفتها ، يجب أن يقال مرتبطا بالمعنى واللغة وفي الحقيقة فالمفهوم مثل معين لاستخدام الإنسان للمعنى واللغة . (١) . ولا يستطيع الإنسان أن يستجيب إدراكيا للمفهوم بدون اللغة ، وعلى ذلك لن يكتسب إلا أقل القليل على المستوى التأملی ، هذا إذا استطاع في الحقيقة أن يكتسب أى شيء على الإطلاق على هذا المستوى . وعلى ذلك فسيجد المعلمون الذين ترقى اهتمامهم عن تدريبات حفظ المعلومات التي قد نشبهها بتدريب الحيوانات ، أنه من المفيد لهم أن ينظروا إلى المعاني ، واللغة ، والمفاهيم وتشابك علاقاتها مع بعضها البعض كأدوات للتفكير . إنها أدوات ضرورية . ولحسن الحظ ، من الممكن لأوجه نشاط التلاميذ أن نسهل نموها واستخدامها إذا أحسن اختيار تلك الأوجه .

وغالباً ما يقال - وبحق - إنه من الممكن أن يتقدم في تحقيق الأهداف التربوية الملائمة للثقافة الديمقراطية إذا كانت الدراسة في كل حجرة دراسية تعمل على زيادة نمو الحياة الإدراكية للمفاهيم عند التلاميذ . فعندئذ ستطرد الاتجاهات المرنة الابتكارية ذات المغزى ، بدلا من العادات العمياء الثابتة والمصبوبة في قوالب معينة وهي العادات التي تتكون بالتدريس الذي يتجاهل عملية الإدراك للمفاهيم . ومع كل ، فإننا بهذا نسبق حوادث قصتنا . إن النقطة التي نوردها هنا ببساطة هي ملاحظتنا أنه على الرغم من الفهم المتزايد لأهمية التعلم على المستوى الإدراكي للمفاهيم فإننا نعطي اهتماما قليلا جدا للطرق التي قد يتبعها المعلمون لنمو تكوين المدركات وجعلها أكثر وظيفية . . هذا فيما يتعلق بالتدريس في حجرة الدراسة .

(١) سيكتشف القارئ أن المؤلفين يجدان أن كلمة مفهوم بعيدة كل البعد عن أداء المعنى ، ويقترحان بعد ذلك إحلال الاستجابة الإدراكية للمفهوم بدلا من تلك الكلمة .

ويظهر أن هناك سببين مرتبطين ببعضهما البعض مسئولين عن هذا الإهمال . أحدهما : تغير الأساس السيكولوجي الذي بنيت عليه العمليات التربوية عبر مئات السنين . والآخر : هو الطبيعة المعينة لهذا الأساس السيكولوجي . وقد تغيرت ماهية هذا الأساس بدرجة ملحوظة عندما أصبح الإنسان وعلاقاته بعالمه الطبيعي مركز الدراسة بدلا من عقله أو حياته العقلية الداخلية . ولم يتلق المعلم مساعدة صريحة في أى من الحالتين .

الآراء المختلفة لتكوين المفاهيم

عندما كان ينظر إلى العقل والمادة كشيئين منفصلين متعارضين مع اعتبار الجسم الحامل الموجه للعقل اللامادي الذي يوجهه ، كان ينظر إلى المفاهيم ، في رأى من الآراء ، على أنها من تكوين العقل كلية . وحيث إن المفهوم في عموميته كان من طبيعة مختلفة عن الخصائص المحددة للتفكير والسلوك (مثلا «كالحرية» أو «البياض» في مقابل الحركة الطليقة على جوانب الطريق العام أو قطعة معينة من الورق الأبيض) فإن المصدر الوحيد للمفهوم - إذا اتبعنا البصيرة السيكولوجية لهذه الفترة السابقة - كما يبدو هو العقل نفسه . وفي ضوء هذه النظرية الثنائية للعقل والجسم لا يمكن لمفهوم مثل « الحرية » أن يكون موضوع خبرة حسية مباشرة . فالعقل ، كذلك ، لا يمكن أن يكون موضوع خبرة مباشرة أيضا لأنه شيء لا مادي . ومع ذلك ، خبرت المفاهيم ، وبهذا استخدمت المجادلة على الوجه الآخر . فكما أن المفاهيم لم تشتق من الخبرة المباشرة ، فإن حقيقة وجودها أصبح موضع مجادلة بقصد الاعتقاد بوجود عقل مستقل بذاته . وعلى هذا المستوى فإن كل ما كان يأمل فيه أفضل المعلمين هو أن يباركهم الله بالتدريس لأطفال باركهم الله أنفسهم «بعقول» ابتكارية .

وكان الرأى الثانى رأيا أفضل من وجهة نظر المعلم . وقد افترض أن فى استطاعة العقل أن يعزل العنصر العام من الخبرات المختلفة المتعددة ، وبهذا يكون مفهوما شاملا . فمثلا ، كون العقل مفهوما «البياض» بعد المرور بخبرة بمجموعة من «الأشياء البيضاء» ممتدة من الثلج المتساقط حديثا إلى القمصان المغسولة لتوها . وهنا نجد وسيلة يستطيع المعلم أن يعتمد عليها . ففي استطاعته أن يجعل التلاميذ يعينون جميع صور الأشياء التى لا ارتباط بينها ولكن يمكن تمييزها بالبياض رغم بعد الصلة

فما بينها . وعلى ذلك ، كان يظن أن في استطاعة عقل التلميذ أن يجرد الصفة العامة ويكون مفهوم « البياض » . وعلى الرغم من أن هذه الوسيلة الإجرائية كانت تبدو مناسبة ، فإن المعلم وجد أنه يتعامل ثانية مع عنصر لا مادي بعيد عن متناول يديه على حسب ذلك التعريف . وللمرة الثانية ، كان كل ما يأمل فيه هو أن يباركه الله بالتدريس لتلاميذ باركهم الله أنفسهم بمنحهم « قوة التجريد » الغامضة هذه .

وكان هناك مقدار كاف لما قد نسميه صدق الفهم العام في هذه النظرة للتجريد كطريقة لتكوين المفاهيم لتمكن هذه النظرة من الاستمرار لفترة أطول . وكانت تستهوى الأفراد على وجه الخصوص عند استخدام الأمثلة من مفاهيم علم شكلى كالهندسة . فمفاهيم « الترييع » و « التثليث » لها نوع من « الفراغ الوجودى » في وظيفتها الشكلية التحليلية ، وهى الحصيلة النهائية اللازمة لمثل هذه العملية من التجريد . ومن ثم ، استطاع هذا الرأى بعد إدخال تعديلات مناسبة ، أن يقاوم تغيرات هامة في النظريات السيكلوجية ، كما فعل عندما أبدل الرأى القائل بأن العقل عنصر مستقل لامادى بالرأى الذى جعل من العقل مركزا لاستقبال الإحساسات التى تصله نتيجة لشدة احتياج أعضاء الجسم . (وهو رأى الصفحة البيضاء الذى نادى به جون لوك .) وعند هذا الحد ، أعطيت « قوة التجريد » لعقل لا حول له ولا قوة أساسا ، لى تفسر تنظيم الحياة العقلية وبناءها . وكان يظن أن الحياة العقلية بدأت بإحساسات بسيطة مباشرة ثم تطورت إلى إحساسات أكثر تنظيما وهى الإدراك الحسى ثم إلى تصور المعانى الكلية وهو الأكثر عمومية . وكان من الواجب افتراض قدرة العقل على تجريد صفات عامة لأفكار معينة لى يمكن تفسير الآراء العامة لتصور المعانى الكلية . ومرة أخرى ، أيضا ، أعطى المعلم وسيلة إجرائية خداعة لدرجة كبيرة . فمهما حاول المعلم ، فلم يكن فى مقدوره إطلاقا أن يتعدى الإحساسات المينة بأشياء خاصة . وظل الوسيط الذى يكون المفاهيم غامضا ولا يمكن الوصول إليه .

وفى المرحلة التالية لتطور علم النفس ، تصادفنا فكرة تبدو لأول وهلة أنها فكرة طيبة . فقد حلت روابط المثير والاستجابة محل غموض العقل ولكنه مما يدعو إلى الدهشة أن تستمر فكرة التجريد . فمع ذلك لم يعترف بفكرة العقل كعامل مستقل بذاته ، أو كمستقبل له القدرة على تنظيم الإحساسات . بل يفرق

الميكانيزم الإنساني بين الأشياء البيضاء مثلاً - خلال استجاباته المتعددة - إلى أن تنبثق الاستجابة النهائية للعنصر العام « للبياض » .

ولقد تغير نص المسرحية جذرياً طبقاً لهذا الرأي . ولم يعد تمثيل الدور الأول من نصيب العقل بعد ذلك . ومع ذلك ، ظل التجريد مركزاً للعبكة المسرحية ، على الرغم من أن جانبه الابتكاري لم يعد له وجود ، إذ أصبح أمراً آلياً كما لو كان صورة فوتوغرافية نضعها فوق صورة أخرى بطريقة تؤكد عنصراً واحداً لا غير ؛ وتكون المفهوم نتيجة لتدعيم الاستجابات للعناصر العامة ونتيجة لمحو العناصر غير العامة . وعندما مد المعلم يده للبحث عن وسيلته الإجرائية اكتشف رباطه المثير - الاستجابة لا العقل . وأخيراً ، يظهر أن اللغز قد اختفى . ولكن ، لم يحقق ذلك خدمة أفضل للمدرس عن ذي قبل ؛ إذ كانت إجراءاته تقوده دائماً للاستجابة لهذا الشيء الأبيض أو للاستجابة لذلك الشيء الأبيض ، ولم تقده أبداً للاستجابة للبياض بدون أن يرتبط بأي شيء على الإطلاق . وطبقاً للنظريات السابقة للعقل استطاع المعلم أن يشعر أنه على الأقل في حضرة عامل قادر على قفزات ابتكارية . ولكنه اكتشف الآن أن إزالة غموض العقل لم يكن إلا على حساب خلق لغز آخر . وكان السؤال المحير هو : كيف يمكن لمثل هذا الميكانيزم أن يخلق أفكاراً مجردة على الإطلاق ؟ .

ونستطيع أن نخلص عند هذه النقطة - بالإشارة إلى تكوين المفاهيم - بملاحظة ثلاثة بديلات :

- (١) اعتبار المفهوم من الصنع المباشر لوحدة لا مادية ، وهي العقل .
 - (٢) النظر للمفهوم على أنه تجميع عقلي ينبثق عند تجريد صفة حسية عامة لعدد من الأشياء العقلية المختلفة .
 - (٣) يقال في الحقيقة العامة ، إن المفهوم استجابة شاملة للصفة العامة للكثير من المثيرات التي تعتبر منفصلة في جميع الحالات الأخرى .
- وأخيراً ، يجب أن نلاحظ تعديلاً حديثاً يعرف أحياناً بالنظرية النشطة للبحث عن تكوين المفهوم . وطبقاً لوجهة النظر هذه ، يعتبر الإنسان كائناتاً نشيطاً ، كما ينادى بأنه لسبب أو لآخر - يقوم عن قصد بوضع وإعادة بناء الفروض المتعلقة بالعناصر

الضرورة العامة للأشياء كما انتقل بطريقة تحليلية من خبرة إلى خبرة .

وإذا طرحنا جانباً الحقيقة الواقعة وهي أن كل رأى من هذه الآراء يفسح المجال للأشئلة أكثر مما يضع الحلول لها ، فإن أى رأى منها لا يستطيع أن يستمر في ادعائه بأنه مبنى على أساس سليم . ومع ذلك ، استطاع كل رأى أن يواجه المشكلة بطريقة الخاصة وفي عصره هو ، لنفس السبب الذي يحتاج فيه لمواجهة هذه المشكلة في الوقت الحاضر . فإذا عجزنا عن مساعدة التلاميذ على الوصول إلى تطور لمستوى إدراكهم للمفاهيم فستفشل جهودنا في مساعدتهم على النحو المطرد في كفاياتهم التأملية .

وجهة نظر مختلفة

بما أن الفهم السيكولوجى قد مر بسلسلة من الآراء ، تبدأ من الطرف الأول الذى يؤكد وجود عقل مستقل لا مادى ، إلى الطرف الآخر الذى يصر على أن الإنسان ماهو إلا ميكانيزم معقد خاضع لما تجذبه بيئته إليه ، فمن الممكن أن ننظر إلى مشكلتنا بوجهة نظر مختلفة . فلم نجد مرغمين على تقرير ما إذا كان « الشبح فى الآلة » ، مسترجعين بذلك ، قول جالبرت ريلى ؛ سواء أ كان رأينا فى صف الشبح أم فى صف الآلة . وربما نستنتج مع جون ديوى (١) أن :

« مفهوم السلوك فى صورته التكاملية ، كما يحوى تاريخاً وبيئة ، هو بديل للنظرية التى تستبعد الناحية العقلية ، لأنه لا يعتبر إلا سلوك ميكانيزم الحركة فضلاً عن النظرية التى تؤمن برفع شأن الناحية العقلية بوضعها فى مكان منعزل . »

ولا يواجه المعلوم عقولاً بلا أجسام ، كما أنهم لا يواجهون أجساماً بلا عقول . إنهم يواجهون وحدات إنسانية ، أفراداً ، لكل منهم تاريخه الفريد المتميز ، كما أن لكل منهم القدرة على السلوك بتعقل . ونستطيع أن نبين هذا بصورة مختلفة بقولنا : إن الفرد قادر على القيام بشيء ما لكي يحصل على شيء آخر ، كما أنه قادر

(١) John Dewey, Philosophy & Civilization (New York : Minton, Balch & Company 1931) p.p. 314-315

على تخطيط سلوكه وتنظيمه ، وعلى ضبط جوانب بيئته لكي يحقق الهدف الذي يراه . وباختصار إن للفرد القدرة على السلوك بالبصيرة ، وهو قادر على القيام بالسلوك المعقول . ولا يفترض هذا أنه يقوم بذلك على الدوام ، أو أنه سيفعل هذا لا محالة . ولكن يعترف هذا أولا بوجود إمكانية حدوثه ، وثانيا أن خبرات الفرد التربوية (داخل المدرسة وخارجها) هي التي ستقر درجة التعقل التي تميز سلوكه . إن ما يحدث في حجرة الدراسة عامل قوى في تقرير ما إذا كان سلوكه روتينيا أعمى أو متميزا بوعى لما يعينه هذا السلوك .

ومن المؤلف لنا جميعا كيف يتعلم الطفل - ببطء أولا ، ثم أحيانا بسرعة مذهشة بعدئذ - تحديد الأشياء ، وأوجه النشاط ، والأفراد ، والأصوات التي تحيط به . ويقوم الطفل بالسلوك ويكرره في ظل تلك الأشياء المحيطة به . وبها ، كما أن المعنى واللغة يضعان في هذه العملية الأساس الذي يرتكز عليه السلوك الإدراكي . فمثلا ، قد تصرخ « الدمية » عندما نمسكها ، وسيتعلم الطفل أن يلتقطها متوقعا حدوث هذا الصوت قبل أن يعرف اسم الدمية أو الصوت الذي يصدر عنها عند الضغط عليها . إن النقطة التي نلاحظها هي أن الطفل يستجيب مباشرة « لهذا الشيء » لا إلى صورة عقلية لها أو لمفهوم « الدمية » . ويستجيب الطفل لها في نطاق ما يمكن عمله بها ، أي إنه يستجيب لمعنى الدمية في موقف تناولها . وبعد فترة قد يختصر الطفل الطريق ويشير إلى الدمية بكلمة « يصرخ » فحسب وذلك بعد تناولها لمرات كثيرة ، ونتيجة لمجهود الوالدين الذي لا يفتر لخلق ارتباط بين صوتي « دمية » و « يصرخ » وذلك النشاط ، وبعد إمكانه الآن إصدار كل صوت (أو بعد أن « ينطق كل كلمة » كما يميل الوالدان أكثر إلى وضعها بهذه الصورة .) أو قد يربط الطفل الصوتين معا ربطا تاما لدرجة أنه يشير إلى نفسه كما لو كان دمية عندما يصرخ . ومتحدث أشياء أخرى كثيرة أثناء حدوث هذا التعلم ، فقد تعطى الأم مكانا مرموقا للدمية في حياة الطفل كاللباسها دائما ملابسها للخروج مع الطفل ، عند خروجه للنزهة بالسيارة أو في عربته الصغيرة ، أو كوضعها دائما معه في سريريه على أمل أن يدفعه هذا للنوم سريعا ، لدرجة أن معنى الدمية يمتد لدرجة أبعد جدا من المعنى البدئي المحدود « يصرخ » . وستتسع دائرة الأصوات (الكلمات) المرتبطة بها أيضا ، أثناء هذه العملية .

وحيث إننا اتجهنا الآن إلى تفاعلات الطفل مع بيئته ، وبعدنا عن العمليات « العقلية » الداخلية كمصدر لتطور المفاهيم ، فيجب أن نكون على حذر من الميل إلى افتراض اعتبار القدرة على إخراج الأصوات الصحيحة ، أو النطق بالألفاظ المناسبة دليلاً على أن الطفل ينمي مفاهيمه^(١) . والحقيقة أنه ربما ينمي استجاباته اللغوية لا أكثر . ومع ذلك ، فكما لاحظنا سابقاً أن الاستجابات التي تتضمن اللغة والمعنى أساس ضروري للتقدم لمستوى المفهوم . ويتعلم الطفل كيف يتعامل مع الأشياء المقترحة كما يكتسب الفرصة لنمو حياة عقلية على هذا المستوى . فليس من الضروري للشيء أن يكون موجوداً ليخبره الفرد على هذا المستوى ، ومع ذلك فقد يكون للشيء — في حالة غيابه — معنى ومعزى للقيام بالسلوك مثل الأشياء الموجودة مباشرة — التي لها معنى للقيام بالسلوك تماماً .

وربما كان من المفيد أن نوضح النقطة السابقة بطريقة أخرى . يتعلم الطفل أولاً كيف يسمى الأشياء ، وبعد ذلك يتعامل مع ما تشير إليه تلك الأسماء في حالة غياب الأشياء نفسها . وأثناء حدوث هذا ، تصبح بيئة الطفل للأشياء المادية غنية لإدماج مدلولات الأشياء . وفي الحقيقة أن « الأشياء » البدئية للبيئة ترتفع إلى

(١) للتسجيل المستفيض نوعاً ما ، ولتحليل الدراسات السيكولوجية الخاصة بتكوين المفهوم مع افتراض وجود « المفهوم » دون تحديده ، انظر: David H. Russell Children's Thinking (Boston: Ginn & Company 1956)

وخاصة في الفصل الثامن حيث يقول رسل إن المفهوم عمومية تتعلق بالبيانات المرتبطة به. ويضيف أن « المفهوم » بالطبع ينظم عادة كمجموعة مترابطة من الإحساسات ، والمدرجات والصور مع وضع بطاقة لها . ومن الناحية العملية تكون هذه البطاقة رمزاً أو رموزاً لفظية » ويبدو أن هذا التعريف وهذا الشرح يتجاشيان الوقوع في الخطأ الذي وقعت فيه الطريقة التجريدية لتفسير المفهوم ، ولكنهما يعترفان بجميع المكونات العقلية — من إحساسات ومدرجات وصور — الخاصة بنظرية علم النفس الملائمة لتلك الطريقة التجريدية ومع هذا ، يتضمن هذا الموقف في النهاية حتمية وجود المفهوم مادامت توجد له بطاقة . ويظهر أن الكثير من البحوث التي ذكرت قد وقعت في نفس هذا الخطأ .

انظر أيضاً الكتاب التالي الذي يبين مدخلا لدراسة « إدراك المفهوم » لأنه يتفق عموماً

مع وجهة نظرنا الخاصة بطبيعة التفكير:

Jerome S. Bruner Jacqueline J. Goodnow and George A. Austin in A Study of Thinking (New York: John Wiley & Sons Inc., 1956)

(١٢ — التفكير التأمل)

مستوى « الأشياء المختبرة » أثناء عملية التسمية هذه ، ثم أثناء استخدام الأسماء للبحث بعدئذ في معناها . وبهذه الطريقة ينبثق ما نسميه سلوك المفهوم كما يصبح حدوث التأمل أمراً ممكناً . وعلى ذلك ، إن مشكلة سلوك المفهوم لها أهمية استراتيجية بالنسبة للمشكلات التي يجب على مدرس الفصل أن يعالجها .

وظيفة الأشياء المستدعاة

بقدر اتساع دائرة خبرة الإنسان (وأى شيء يستطيع الإنسان معرفة اتساع مداه أكثر من ذلك ؟) تصبح الأشياء المستدعاة حقيقية وجزءاً من البيئة تماماً كالأحجار ، والعصى ، والملوك ، والصعاليك الذين قد يوجدون في أية لحظة معينة ؛ وتنظم المعاني المرتبطة مبدئياً بالأشياء المادية مباشرة في ضوء علاقتها بالمحددات (الكلمات) التي تميز الأشياء وتحل محلها كلما تعقدت الخبرة لتصبح صورة متكاملة من التاريخ والإمكانات ، والحوادث السابقة والنتائج .

وعلى ذلك ، فالطفل عندما يرى كلباً لأول مرة ، فهو يراه في ضوء الخبرات السابقة التي اكتسبها عندئذ . ومع ذلك ، فهو « لا يرى كلباً » بل قد يرى « شيئاً يلعب معه » ، أو « شيئاً ضحكاً جعل الطفل يصرخ » ، أو قد يرى مجرد « ذاك الشيء » وقبل أن يتعلم الطفل كيف يقول « كلب » لفترة طويلة ، فقد يلعب مع الكثير منها ويتسلى مع البعض ، ويناله الأذى على يد البعض الآخر . وسيطور « الشيء » - الذي لم يعط له اسم بعد - إلى « شيء لعدة إمكانات . وحتى تلك المرحلة لا يكون الطفل قد قام بعزل عامل عام كالأسنان أو الذيل وعلى ذلك يتعلم كيف يلعب بطرف منهما ويتجنب الطرف الآخر . وفي الحقيقة إنه في محاولته اللعب بذيل الكلب الذي يبعث السرور إلى نفسه كلما لامس وجهه ، قد يصطدم عفواً بالأسنان التي تؤذيهِ ، وفي هذه الحالة قد يصبح الكلب الذي يصادفه في المرة القادمة « شيئاً للعب » أو لعدم اللعب - معه « طبقاً للاستجابة الناجمة عن الموقف كله الذي واجهه الطفل وليس طبقاً لعنصر مجرد قد أطلق عليه البعض « مفهوم الكلب » .

وعلى ذلك إذا حدث هذا ، وبينما يتردد الطفل بين الرغبة في اللعب والزرعة إلى الجرى يرفع « هذا الشيء الحير » رأسه ويحركه بخفة ، قبل أن يعرض برفق على رباط

حذائه ثم يعود ثانية ليكرر نفس تلك الحركات وبذلك يتخذ شكلاً جديداً . وستخرج « حركات اللعب » هذه ، الطفل من حالة الحيرة . وعلاوة على ذلك ، كلما ازدادت خبرات الطفل « بهذا الشيء ذي المعنى المطرد » فسيجد صوتاً متميزاً — كلب — مرتبطاً به . ويسمع بعد ذلك الجمل الآتية « اربت على الكلب » ، « دع الكلب يلعب بكرتك » ، « لاتفعل هذا » ، « إن الكلب سيعضك » ، « قل وداعاً للكلب » ، وما شابه ذلك . وفي الوقت الذي يستطيع الطفل فيه أن يقول كلمة « كلب » ستكون له خبرات كثيرة بالكلاب لترتبط بالكلمة . وستصبح هذه الكلمة أساساً منتظماً لعدد من المعاني وكثير من الاستجابات المناسبة ولن تكون الكلمة — بأي حال — ممثلة فقط لعنصر واحد عام لجميع الخبرات بالكلاب . وبطبيعة الحال ، قد يتعلم الطفل — عن طريق الإيعاز — أن ينطق كلمة « كلب » قبل أن تكون لديه الخبرة السكافية لتحويل الصوت إلى محدد ذي معنى منتظم . وفي هذه الحالة ، لن تكون استجابته اللفظية سوى رد فعل آخر قد يقوم به الطفل في حالة وجود هذا « الشيء الذي هو بسبيل أن يكون له معنى » .

وبينما تزداد خبرة الطفل بجميع أنواع الكلاب ، وبينما يلعب معها ويجري منها ، ويطعمها ، ويقذفها بالحجارة ، ويلتقط لها الصور الفوتوغرافية ، ويتعلم كيف يحبها أو يخشاها ، يصبح « الكلب » شيئاً لعدة إمكانيات . وستضيف كلمة « كلب » شيئاً مقترحاً إلى خبرة الطفل ، غنياً أو فقيراً في معناه طبقاً لخبراته السابقة بالكلاب ، سواء أكانت خبراته متنوعة أم محدودة . وقد لا نتنبأ بنوع بسيط من رد الفعل عندما يقابل الطفل كلباً ثانياً ، كما هو المتوقع إذا كنا بصدد عنصر عام مجرد . بل ستكون هناك مجموعة استجابات ممكنة ، على استعداد جميعاً للعمل في وقت واحد بروح من التنافس . وفي الحقيقة ، حيث إننا لسنا بصدد وحدة أو مدرك عقلي قد نسميه « مفهوماً » فقد نكون على حق إذا قلنا إنه كلما استجاب الفرد لشيء كما هو مـشار إليه . بدلاً من الاستجابة لشيء كما هو موجود فعلاً ، فهو يمر باستجابة للمفهوم . وهو لا يستجيب إلى ، أو مع المفهوم ، بل إنه يستجيب للمفهوم ، ويتعامل مع المعاني التي تستدعي معاني أخرى أثناء ارتباطاتها بعضها ببعض . وباختصار ، فهو يقوم بنشاط في إطار المفاهيم (١)

(١) إن نظام هذا الفصل يتبع بدقة مناقشة لهذه المشكلة قدمها هـ . جوردن هلفش من عدة

سنوات مضت في الفصول ٥ ، ٦ ، ٧ من البحث المقدم لجامعة أوهايو بعنوان

وأحيانا يختلط الأمر عند هذه النقطة بحقيقة الصورة المرئية . ففي الفصل الثالث . لاحظنا مدى الاختلاف الواسع فيما يتعلق بالدور الذي تلعبه الصورة المرئية والدور الذي تلعبه أوجه النشاط الأخرى للحواس . ويستجيب الكثير من الناس تصويريا في العادة عندما يجابههم الرمز « كلب » ، وعلاوة على ذلك عندما يواجه أولئك الناس كلباً حقيقياً ، أو كلباً من الذاكرة ، أو موقفاً آخر يشير إلى الكلب ، فإن « مجموعة استجاباتهم المبدئية » تظهر في صورة نشاط حسي لدرجة كبيرة . فلا عجب أن الكثير من الناس قد وحدوا بين مثل هذه « الصورة للكلب » ومفهوم « الكلب » ، وادعوا بعدئذ أن « مفهومهم للكلب » يوجه رد أفعالهم نحو الكلاب الحقيقية . وحتى إذا حدث هذا فإنه من الصعب أن نفهم كيف يؤمن الكثير بأن مثل هذه الصورة تشبه إما فرضاً تصويرياً للخصائص الكلائية ، وإما فكرة الكلائية التي اختزلت إلى عنصر عام لا يشبه أي كلب على الإطلاق . إن النشاط الحسي غالباً ما يكون مسبوقاً بعمليات تجميع وإشباع لا بعمليات تحليل وتجريد . وعندما يفكر الفرد منا فيما نسميه بمفاهيمنا للعدالة ، والأمانة ، وما شابه ذلك ؛ فإن فكرة المفهوم كصورة لاتدعو إلى الارتياح كلية .

Aspects of Thorndike's Psychology in Their Relation to =
Educational Theory and Practice (Columbus, Ohio : The Ohio
State University Press, 1926)

وفي ذلك الوقت كان اهتمام المؤلف منصباً على فحص علم نفس تربوي خاص كانت له عندئذ قوة بالغة في تشكيل العملية التربوية بأمريكا ، وغالباً ما يتجاهل نقاد التربية المحدثون أثر علم النفس هذا ويرجعون جميع العمليات التربوية الحالية لتأثير جون ديوي ..

وفي شرح الكاتب لموقفه الذي يناقض موقف ثورنديك التحصيلي حاول توصيف الشيء المستدعى « والمفهوم » ولم تكن محاولته ناجحة تمام النجاح لسبب واضح الآن : فالشيء كما هو مستدعى لا يخلص الإنسان من مطالب الموقف الحالي الذي يواجهه مما يسمح له بالانسحاب من الموقف لمعالج مضامين معاني الشيء المستدعى معالجة عقلية ، وقد يعود بعدئذ إلى الموقف بخطة للعمل يستطيع أن يفحصها أثناء قيامه بالعمل . ولكن الشيء المستدعى لا يخرج عن كونه الشيء كما هو ، أي شيئاً آخر يستجيب إليه . وليس هو بالمفهوم ولو أنه يتيح الفرصة لتكوينه أو كما يشير قولنا هذا يتيح الفرصة للاستجابة الإدراكية .

وهناك اتجاه عام آخر لتشخيص المفهوم بما قد يسمى التعريف أو المعنى الشخصي للمصطلح . وبمعنى آخر ، إن مفهوم الشخص عن الكلب هو ما يحمله مصطلح « كلب » من معنى له . وهو سيستجيب للكلب الحقيقي في ضوء مفهومه عن الكلب . إن الصعوبة هنا هي الصعوبة التي أشرنا إليها في الفصل السابق — وهي ما معنى المعنى ؟ فإذا كان مغزى المصطلح موضع جدال ، فما لا شك فيه عندئذ أن عمليات تجريد معينة — إيجابية وسلبية — قد دخلت في الصورة . ولكن لا يستجيب الفرد للكلب الحقيقي في ضوء دلالة مصطلح « الكلب » إلا في حالة استخدام المصطلح للإشارة إلى الشيء أو تسميته . ومن وجهة النظر الأخرى . إذا كان فهم المصطلح هو موضع الجدل ، فيبدو أنه ليس من المحتمل أن يستجيب الشخص لـ « كلب معين في حدود » تصنيف جميع الأشياء الممكنة (الموجودة أو المفهومة) التي يمكن استخدامها استخدامها صحيحاً عند التعبير لكلمة « كلب » — إلا إذا كان هذا الشخص ، بالطبع ، من التيسر وعدم المرونة لدرجة أنه ينظر للكلاب عموماً كما لو كانت متشابهة تماماً .

ومن الواضح أن معنى آخر « المعنى » متضمن هنا . ومن المحتمل أن معنى المعنى هذا الذي غالباً ما يسمى ، بشيء من الغموض ، بمصطلح المنطق السليم « التضمن ، الذي يعرف بغير دقة على أنه « مجموع الصفات التي يشير إليها المصطلح » . فإذا لاحظنا أن التعريف لا يتطلب جميع الصفات الثابتة أو المنسجمة ، إذن فليس هناك أي معنى لقولنا إن الشخص سيستجيب لكلب حقيقي في ضوء ما يعنيه مجموع الصفات التي يوحى مصطلح « الكلب » بها إليه . ولكن ماذا حدث الآن لعملية التجريد التي يقال إنها أساسية جداً في تكوين المفاهيم ؟ أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن الفرد قد يستجيب استجابة مناسبة في مثل هذا الموقف بحكم إمكانيات « مجموع الصفات » هذا ، إلا أنه من الصعب أن تكون الاستجابة نفسها متجمعة متحركة في جميع الجهات في الحال . كما أن هذه الاستجابة لن تكون استجابة في إطار المفاهيم إذا اتجهت في تسلسلها خلال المدى الكافي لتجمعات المعاني الممكنة لها . إن وظيفة الاستجابة للمفهوم هي اكتشاف خطة للاستجابة للكلب الحقيقي وذلك بالاستجابة أولاً — في مستوى المعاني — « للكلب بطريق غير مباشر » .

الاستجابة إلى المفهوم

يبدو أن كل ما قيل سابقا يشير إلى أن الكثير من البحوث التي أجريت للكشف عن كيفية تكوين المفاهيم ، قد تصبح ذات فائدة أكبر لو أنها كانت أقل شمولاً وأدق تحديداً . إننا نستطيع أن نستخدم بعض المعلومات المتطورة المتعلقة بالطرق التي يتبعها الأطفال لفهم أنواع التفرقة ، والاشتمال والاستثناء المتضمنة في تعلم مدى دلالة بعض المصطلحات المعينة . إننا في حاجة إلى أن نعرف أكثر عن أنواع التجريد والأحكام العامة التي تدخل في تفكير الشخص في أي سن ، عندما يفهم مغزى أنواع المصطلحات المختلفة في موقف الاتصال الاجتماعي . ونحن في حاجة حقاً إلى أن نعرف أكثر عن الأسباب التي تدعو إلى سيطرة صفات معينة أو مجموعات من الصفات على اتصالات التضمنية للفرد ، وبهذا تنتج استجابات جامدة أو مكررة بنفس الصورة .

ويظهر أن البحث عن المفهوم أمر لا جدوى فيه . ولن نستطيع اكتشاف مثل هذا الشيء ذي الوجود الحقيقي على الرغم من الجهود الانبثاقية عبر الأجيال التي قام بها علماء « الحياة العقلية » أو أولئك الذين يقومون بتحليل السلوك ، إنه من الخطر القيام بالبحث الذي يعالج تكوين ووظيفة « شيء ما » يظن أنه معروف جداً لدرجة أنه ليس في حاجة إلى تعريف ، مع اعتبار وجوده أمراً مسلماً به لمجرد وجود اسم في اللغة نسمي به ذلك الشيء .

ولكن قيام الأفراد بالسلوك في إطار المدرك العام أمر لا منازعة فيه . إن هذه الحقيقة هي التي جعلت المشكلة قائمة لقرون كثيرة . إن الاهتمام بالسلوك حديثاً أمر سليم ، كما أن الاهتمام باللغة أمر لا مناص منه . ومع ذلك فإن استمرار الاهتمام بالجوانب التحليلية للسلوك مع إهمال مظاهره البناءة أو التركيبية لم يؤدي إلى تقدم فهمنا . إن استمرار افتراض أن شيئاً ما يدعى بالمفهوم يمكن عزله بالتحليل يؤدي إلى تجاهل خصوبة المعاني المترابطة التي تنبثق أثناء الاستجابة للمفهوم . إن ما نسميه بالمفهوم - نتاج هذه العملية - مفهوم عقيم ، مجرد من الصفات الحيوية لمجالات الخبرة التي انبثقت فيها معاني ذلك المفهوم .

ولنبحث هذا الأمر أكثر

إن الطرق الصحيحة المختلفة التي يتعلم بها الطفل كيف يستجيب للكلاب في بيئته . تعتبر جميعها استجابات ممكنة كلما قابل الطفل كلباً جديداً . ولنفترض مثلاً ، أن الطفل

قد تعلم أن يبتعد عن «الكلب المزجر ذي الظهر المتخشب» وأن يلعب مع «الكلب الكثير الحركة ذي الذيل الهزاز .» إن كلتا هاتين الاستجابتين (وكثيرا غيرها) استجابات ممكنة ليس في كل مناسبة يقابل الطفل فيها كلبا حقيقيا فحسب ، ولكنها أيضا استجابات ممكنة في كل مناسبة عندما يقود الرمز « كلب » إلى شيء مستدعى في البيئة ، وعلى ذلك تنتقل علاقة المعنى من علاقة الطفل بشيء مادي له معنى إلى علاقة الطفل بشيء مستدعى له مغزى . ومن الممكن للطفل في هذه الحالة أن يرى « الكلب الحقيقي المزجر ذا الظهر المتخشب » كلبا يمكن تحويله إلى « كلب كثير الحركة ذي ذيل هزاز » إذا ما اقترب الطفل منه برفق . وعلى ذلك يستجيب الطفل في إطار المفهوم العام ، ويتعامل مع المعاني ومضامينها قبل أن يستجيب إلى مطالب الشيء المقدم لتوه .

إن مزايا هذه الطريقة في الاستجابة واضحة ويمكن ملاحظتها على طول أي «طريق عام» . إننا نستطيع أن نسافر بهذه الطرق العامة ونستجيب لظروف سطوحها والطبوغرافيا المميزة التي تعترض كل منها كلما اجتازناها . ولا يفعل بعض الأفراد إلا هذا فحسب ، ولا يعيشون ليسافروا ثانية . ولكن العلامات التي اتفقنا عليها والتي تحذرننا من المنحنى أو التل القادم ، ومن القنطرة أو المنخفض تسمح لنا بأن نكيف قيادتنا للسيارة لما لم نره بعد ، وأن نقود السيارة طبقا لمضامين معاني تلك الأشياء الطبيعية التي ستصادفنا ولهذا فنحن نستطيع أن نتصرف بتبصر ، ونسلك بذكاء ، أو أن نستجيب في إطار الإدراك العام إذا أردنا تفسير هذه النقطة في حدود هذه المناقشة .

ولقد لاحظ ديوى أهمية هذه الاعتبارات فقال : (١)

« والأغراض النظرية ، إن الاعتبار الهام هو أن الأشياء الموجودة ، كعلامات ، دليل على وجود شيء آخر ، وهذا الشيء مستنتج في ذلك الوقت وليس مرثيا .

ولكن الكلمات ؛ أو الرموز ، لا تقوم دليلا على وجود أي شيء . ومع هذا فما تفتقده هذه الأشياء في هذه الصفة تعوضه في خلق بعد آخر ، إنها تجعل الحديث المنتظم أو التفكير ممكنا ...

(١) John Dewey, Logic: The Theory of Inquiry (New York : Henry Holt and Company Inc. 1938, pp. 52-53.

« إن الأفكار كأفكار ، والفروض كفروض ، ما كان لها من وجود ما لم تكن هناك رموز ومعان متميزة عن العلامات والفحوى . إن قدرة الرموز الكبرى على جعل الأفكار شيئاً له وجود قدرة لها أهميتها العملية ، ولكن هذه القدرة تتضاءل إذا قارناها بالحقيقة الواقعة ؛ وهي أن الرموز تدخل في مجال التساؤل بعداً مختلفاً عن بعد الوجود ، إن السحب بشكل وحجم ولون معين قد تعنى احتمال سقوط المطر بالنسبة لنا ، إنها تنذر بسقوط المطر ، ولكن كلمة السحابة حين تربطها بكلمات أخرى لها مجموعة رمزية تمكننا من ربط معنى وجود السحابة بأمر مختلف مثل اختلاف درجات الحرارة والضغط ، ودوران الأرض وقوانين الحركة وما إلى ذلك » .

إن مثلاً آخر قد نخدمنا في ربط فهمنا لعلاقة الاستجابة للمفهوم بعملية التفكير وبأدوات التفكير الأخرى وهي المعنى واللغة . ولتجبه هذه المرة نحو الطفل الذي أصبح رجلاً ، والذي أصبح بدوره صاحب مزرعة لتربية المواشي ، وقد وجد عجلاً صغيراً مشوهاً ، ملقى على أرضه المترامية بجوار الجبال وقد التهمت منه بعض الأجزاء ، ففي استطاعته ، بالطبع ، أن يهز كتفيه ويستمر في سيره . وقد يصيح « الذئب » ! ويبحث حوله عن آثار الأقدام المؤدية لهذا ، ويضع الحطة للتخلص من بقايا العجل ، ويعالج الموضوع كحادث منفصل ، معتبراً العجل المشوه كعلامة للذئب أو كما يقترح ديوى كدليل على وجود الذئب . ولكن إذا كانت قدرته التأملية قد نمت عند نضجه . فسيجد أنه لا يزال لديه احتمال بدليل آخر . ففي استطاعته أن يكون علاقة المعنى « بالذئب كشيء مشار إليه » ثم يفكر في الاحتمالات الممكنة لاكتشافه أن الذئب التي قلما تشاهد في جواره ، ربما تتجول الآن في أرضه . فقد يشير له هذا إلى أن المنطقة الشمالية تتعرض لشتاء قاس . وإذا كان ذئب واحد قد أتجه جنوباً بحثاً عن الطعام ، فمن المتوقع نزول ذئاب أخرى . ويجب تحذير الجيران ليحموا جميع الماشية وليجعلوا بنادقهم في متناول أيديهم . وليحذروا الأطفال من التجوال بعيداً عن المنزل ، وقد تنصب المصائد . وربما يجب أن تنصب . وربما يجب ألا تمس بقايا العجل على أمل أن تستخدم كطعم لجذب الذئب المذنب حتى يكون في مدى إطلاق النار . وربما يقوم بسؤال جيرانه من سكان المنطقة الشمالية ليحصل على معلومات محددة عن هذا « الغزو » إذا كان هذا هو حقيقة الأمر .

ماذا حدث إذن ؟ إن الرجل قد استجاب للمفهوم في وجود « الذئب كشيء »
 « مشار إليه » ، مستخدماً رمز « الذئب » كنقطة يبدأ منها تفكيره . إنه بعمله
 هذا قد فتت لنفسه ولجيرانه معنى اكتشافه للعجل المشوه . وما كان هذا ليتم ،
 لو لم يكن في مقدوره أن يحول انتباهه ، من العجل المشوه كما هو موجود أو منه كمجرد
 دليل على شيء آخر حقيقي ، ألا وهو الذئب . وتتضمن الاستجابة للمفهوم تفاعلاً
 للمعاني وإعادة لتنظيمها ؛ إذ أنها تستخدم كأدوات لإعادة بناء المؤثر الأصلي ، وهو
 العجل المشوه . وعند انبثاق خطة للعمل لمعالجة الموقف . فمن الممكن تبيان مدى
 صلاحيتها في الموقف الأكبر الذي جعلت الاستجابة للمفهوم حدوثه أمراً ممكناً .
 وعلاوة على هذا . كلما فحصنا هذه الخطة . فسنجد أن كلا من الخطة والموقف نفسه
 سيمران بعملية إعادة تنظيم أخرى . وعلى هذا نحفظ بقوة المعنى للشيء الأصلي في
 نفس الوقت الذي نعزله فيه عن الموقف المباشر .

الارتقاء بالنشاط الإدراكي

لقد أشرنا سابقاً إلى مدى أهمية توخي المدرس الدقة والحساسية عند استعمال
 التلاميذ للغة ؛ لا لأننا نتطلب الدقة أكثر مما يجب ، أو نريد أن يكونوا كذلك ،
 ولكن بكل بساطة لأن أداة هامة من أدوات التفكير متضمنة هنا ، إنه من الخطر
 أن نكرر هذا التأكيد هنا . ومع ذلك نستطيع أن نقول هذا القدر : إن اكتساب
 الشعور بالوظيفة الرمزية للغة يفتح الباب الذي يقود إلى العالم التأمل ، في إطار المفهوم ،
 حيث قد يرتبط المعنى بالمعنى مع استخدام كل منهما لاختبار صلاحية المعاني الأخرى
 كلما بحثنا عن الفروض المواتية التي تدفع بالسلوك قدماً إلى الأمام ؛ إن السلوك
 بدوره سيقوم باختبار تلك الفروض .

إن أحد أوجه ضعف التربية الشديد ؛ حتى حيث تقوم المحاولات الصادقة لتكريم
 الجهود الفكرية ، هو أن كل بند من بنود التعلم يميل إلى أن يقف بمفرده كما لو كان
 متساوياً في الأهمية مع جميع البنود الأخرى ، ويمكن إرجاع هذا إلى تلك الاهتمامات
 التحليلية التي تعرف التعلم بأنه الحصول على استجابات محددة ، والتي تمجد أهدافاً
 معينة بينما تستهزئ بالأهداف العامة ، أو لا تضعها في متناول يد المدرس وتحت
 مسؤوليته ، والتي تعظم عمليات التدريب مع التأكيد المصاحب عادة على أنها تمد

التلميذ بالمعلومات والحقائق التي قد يستخدمها في التفكير فيما بعد . وبالطبع ، هناك بعض التلاميذ الذين شقوا طريقهم عبر الحدود الفكرية المحدودة التي توضع هكذا ، وبهذا يضربون الأمثلة لما يعرفه جميع المدرسين الحساسين من أن هناك بعض التلاميذ الذين سيحصلون على التعليم مهما كانت العقبات التي يقيعها التدريس لتثبيط همهم .

إن النشاط الإدراكي لن يرقى إذا أهمل المعلمون وظائفه التركيبية والتنظيمية . إننا هنا نمد المدرس بوسيلة تمكنه من الإلمام بالمشكلة . ويجب ألا نهمل الحقائق ، بل على العكس يجب احترامها باستخدامها استخداماً ذا معنى ، لمساعدة الفرد للحصول على تكامل حياته النامية . كما أننا لا نهمل التحليل ، بل على العكس إنه يستخدم للإسهام في تجميع المعرفة الذي يعد أمراً ضرورياً في تكوين الذات المتكاملة .

وعلى ذلك لا بد من وجود أمرين مؤكدين في كل حجرة دراسية : يجب ألا نضن ببذل أي جهد لاستثارة التلاميذ للبحث عن العلاقات بين ما يتعلمونه في مادة ما وما يتعلمونه في المواد الأخرى . ونحن لا نقترح تغيير معالم القواصل بين المواد الدراسية لدرجة أن يقوم كل معلم بتدريس كل شيء . إن غرضنا يختلف عن هذا تماماً . إنه يسلم بأن الميل إلى فصل المواد بعضها عن بعض لمعوق خطير في سبيل نمو النشاط الإدراكي السليم . وهو لا يختلف في خطورته عن فصل الحقائق بعضها عن بعض في كل مادة دراسية . إن القوة في الوحدة ويجب أن تساعد التلميذ على اكتسابها . وعلاوة على هذا ، يجب ألا نضن ببذل أي جهد لاستنهاض التلاميذ إلى استخدام خيالهم في معالجة الحقائق . يجب أن ننظر إلى الحقائق كأساس لتابعة الأفكار إلى أقصى ما تستطيع أن تشير إليه من معان . كما يجب أن ننظر إلى الحقائق كوسيلة لتحريض الأفكار التي يرغب التلاميذ في تأكيدها . وسيؤدي كل تأكيد من التأكيدين السابقين - الترابط والإسقاط الخيالي - إلى تدعيم التأكيدهم الآخر أكثر وأكثر .

ولقد عرفنا الكثير في السنوات الأخيرة عن الإدراك الحسي نتيجة للبحوث.

التي عملت لدراسته^(١) . ويظهر أنه قد تقرر بوضوح أن الإدراك الحسى ذو صفة تشخيصية بدلا من اعتباره كشفا مباشرا لحقيقة موضوعية ، وأن العلاقة بين المعنى المنبثق بين الفرد والأشياء والحوادث فى بيئته مبنية على الخبرات التي مر بها الفرد من قبل . ومع هذا فإن ما لم يؤكد هو الطريقة التي ينتقل بها الأفراد - عن طريق استخدام اللغة - بعيداً عن عوامل الإثارة المبدئية وأن يعالجوا المعانى هكذا فى نشاطهم الإدراكي ؛ إذ أن التجريب فى هذه المجالات المواتية قد اقتصر لدرجة كبيرة على أوجه نشاط الإدراك الحسى^(٢) .

ولكن أبسط التجارب كانت إيجابية فى هذا المجال . فمثلا عندما وضع شعاعان متوازيان من الضوء أمام المشاهدين فى حجرة مظلمة فقد أشاروا إليهما على أنهما « خطان متوازيان موضوعان على سطح مستو . » وعندما أدخل القائم بإجراء التجربة عبارة « أعمدة التليفون » ، أحدث هذا التلميح علاقة مختلفة للمعنى وأشار

(١) يستطيع القارئ أن يجد موجزا طيبا للبحوث المشار إليها هنا فى الكتاب التالى :

Hadley Cantril, The Way of Man's Experience (New York: The Macmillan Company, 1950)

وقد قام أدلبرت آس بمعهد هانوفر بكتابة الجزء الهام فى صورته المبدئية . ويمكن أن نجد مدخلا مختلفا لهذا الموضوع - رغم اتصاله به - فى حين أن علم النفس الاجتماعى فى الكتابين الآتين :

Solomon E. Asch's, Social Psychology (Englewood Cliffs N.J; Prentice-Hall, Inc, (1952)

Donald Snygg & Arthur W. Combs, Individual Behavior (New York : Harper & Brothers, 1949)

ويمكن أن يقال إن جميع البحوث الحديثة المتعلقة بالإدراك لا تزيد عن كونها تطبيقا للآراء الانثاقية القديمة على مواقف تجريبية معدة عن قصد . ولكن قولنا : « لا تزيد عن » له أهمية بالغة لأنه فى حد ذاته مثل للنشاط الإدراكي ، إذ يدل على متابعة معانى الانثاقات أو الأفكار القديمة ونفس الأفكار الناتجة التي أعيد بناؤها وذلك بتهيئة الظروف التجريبية لتجبر تلك الأفكار .

(٢) لقد أجريت بعض البحوث على ما يسمى أحيانا « بنظام الإشارة الثانوى » (التيخالف النظام الأولى كالمثير والاستجابة ، والتعلم الشرطى وما شابه ذلك ، ومن الغريب أن علماء النفس وعلماء التربية الروس هم الذين ارتقوا بهذه الدراسة فيما يتعلق بالمشكلات المتضمنة فى إحداث التغييرات فى الشخصية .

انظر : P.M. Yakobson, Psikhologiya Chuvstva (Psychology of Emotions (Moscow, 1956).

المشاهدون إلى أنهم يشاهدون أعمدة للتليفون على الرغم من أنهم ينظرون إلى نفس الشعاعين السابقين .

وإذا انتقلنا من العمل إلى حجرة الدراسة فإننا نلاحظ تطبيق المبدأ نفسه . فالتلميذ ذو الخبرة المحدودة قد يرى أن غير الأمريكيين « أجانب لا يوثق بهم » . وربما يشعر المعلمون بالأسف لذلك ، ومع ذلك يجب أن يفهموا حتمية حدوث هذا تحت بعض الظروف البيئية . ويجب أن يفهموا أيضا أن الأمر متروك لهم لإدخال علاقة للمعنى تقود الأطفال الصغار إلى أن يغيروا من نظرتهم نحو الجنسيات الأخرى ، إلا إذا أرادوا أن يتركوا إعادة بناء هذا الاتجاه لمحض المصادفة . ولنتظر في حالة الطالب الجامعي الياباني الذي كان تلميذاً في العاشرة من عمره أثناء معركة بيرل هاربور . « إن هذا التلميذ البالغ من العمر عشر سنوات قد أطبقت عليه دعايات وطنية ووجه لأن يعتقد - مع اليابانيين الآخرين - أن الحرب قد تم اكتسابها حتى عندما لم يبق على الهزيمة سوى عدة أسابيع ^(١) .

ولقد قال مينورو « عندما كنت لا أزال على اعتقادي أن اليابان يجب أن تنتصر انتهت الحرب بتسليمها . لقد كنت كبالون منفجر . لقد ضاع هدفى كله ولم أستطع الدراسة إطلاقاً لمدة عامين » .

ونزلت قوات الاحتلال الأمريكية بنومازو . ولقد قيل لمينورو إنه من المحتمل أن يقوم العدو بأعمال قاسية شنيعة نحو اليابانيين المحتلين .

« إننى عندما شاهدت الجنود الأمريكيين في الشارع لأول مرة توقعت أن يركلوني . ولكنهم ابتسموا لى . وتركنى الخوف وحاولت أن أتحدث معهم بالقدر القليل من اللغة الإنجليزية التى تعلمتها في المدرسة قبل أن يوقف تدريس اللغة الإنجليزية . وأعطوني بعض قطع الشيكولاتة . وأثناء سيرى في طريقى إلى المنزل كنت أفكر ، « لماذا قيل لنا الكثير من الأكاذيب عن الأمريكيين ؟ »

وتكررت خبرة هذا الشاب الصغير مرات كثيرة جداً مع الشعب الياباني . لقد دبرت الخبرات السابقة بطريقة يستحيل معها النظر إلى الجندي الأمريكي نظرة

Colin Simpson, 'The Country Upstairs (Sydney, Australia (١) Angus & Robertson, 1956), p.69.

تختلف عن اعتباره « وحشا يجب تجنبه » إن الابتسامة وقطعة الشيكولاتة قد حولتا — كما يبدو — علاقة المعنى بنفس السرعة التي حول بها إدخال كلمات « أعمدة التليفون » علاقة المعنى عند إجراء التجربة بالعمل . ويستطيع معلم الفصل أن يؤثر تأثيراً قوياً سلباً في الطريقة التي يرى بها تلاميذه الناس والحوادث والمواقف في أوجه نشاطهم اليومي داخل المدرسة وخارجها ، وذلك بالشرح المباشر ، وبالقرارات التي يكلف بها تلاميذه ، وباستخدام الوسائل السمعية والبصرية ، وبترتيب دقيق للاتصال بالأفراد والأشياء .

ولسوء الحظ إذا وقفنا عند مستوى الإدراك الحسي ، فسنصل إلى الحقيقة المؤسفة وهو أن من يدهم سلطة بقائنا عند ذلك المستوى يستطيعون أن يحولوا علاقات المعنى كما يحلو لهم . فإذا لم تتخذ الخطوة التالية الهامة لتقودنا إلى المستوى الإدراكي حيث يبحث في معنى الشيء ، أو الحادثة ، أو الموقف في إطار مضامينه الكاملة حيث ترتبط هذه الأشياء بمعان أخرى ، وتختبر في ضوئها ، فلا مفر من أن التعليم لن يختلف عن أوجه نشاط الدعاية .

الاستجابة الإدراكية في المواقف الأخلاقية

إنه عند هذه النقطة مثلاً ، تفشل معظم الجهود في مجال التربية الخلقية . إننا نقول للأطفال الصغار أن يكونوا مشغوفين ، مخلصين ، وازنين للأمر ، ودودين ، كرماء صادقين وهكذا . إنهم باختصار يعلمون القيم التي يرى البالغون أنها جديرة بالاحترام . ومع ذلك ، تعلم كل سمة خلقية على حدة كما لو كانت المشكلات متوقفة دائماً على اتخاذ مثل هذه القرارات ككون الفرد صادقاً أو كاذباً ، مخلصاً أم خائناً ناكراً للجميل ، ولا تتوقف المشكلات أبداً على الحاجة لاتخاذ قرار يفاضل بين الإخلاص أو الصدق مثلاً . وعلاوة على ذلك ، تعلم هذه الصفات في كثير من الأحيان منعزلة عن تيار الحوادث اليومية التي يشاهد فيها الأطفال الصغار البالغون يخالفون المواعظ التي يصرون عليها . إن هذا هو نهاية المطاف لمعظم معلمي الأخلاق . وكلما ازداد تكرار هذا ، يعلن البالغون الذين يجدون الظروف الاجتماعية تزداد تعقيداً أكثر وأكثر ، — وفي هذه الحالة فهم لا يستطيعون اكتساب التوجيه من القيم التي تظل متعارضة وثابتة مع ذلك — أن مطالبهم القبحية ماهي إلا واجهة نبيلة

لما تنقضى به الضرورة . إن الأطفال الصغار سرعان ما يرون ما هو حادث ، ولهذا فهم أيضاً يتسللون للاختفاء خلف تلك الواجهة .

فإذا كانت الثقافة ثقافة مغلقة ، تناسك مقوماتها عن طريق السلطة التي يمارسها الديكتاتوريون ، فربما لم يحدث أى صراع . وقد يحتاج الأمر إلى إجراء عنيف كإطاحة قوة عسكرية جبارة بحكومة من الحكومات لكي تتداعى هذه الواجهة . ومع هذا يختلف الموقف حيث نقدر الحرية حتى ولو لم نحصل عليها دائماً . فهنا ربما نحكم على القيم التي نطالب بها والسلوك الذي تكشف عنه بموازنة كل منها تجاه الأخرى . فإذا قيل للأطفال الصغار إنه يجب عليهم أن يحترموا الكبار دائماً . ثم يكتشفون أن جميع جرائم الرجال يرتكبها بعض الكبار ، فهل سيستمرون في اتباع سبيل الاحترام الذي لا يقبل مناقشة ؟ وإذا قيل لهم إن التسامح أمر جميل ، رغم مشاهدتهم أعمال الإنسان غير الإنسانية نحو أخيه الإنسان ، فهل يحتمل أن يقتنعوا بذلك ؟ وإذا أكد المعلم لهم أن الأمانة خير سياسة ، فماذا يدور بخلدكم حين يرون زملاءهم يكافأون على عمل لم يقوموا به ؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة واضحة وتكشف عن عمق الكثير مما يدرس تحت اسم الأخلاق .

إننا في حاجة إلى تحويل لنواحي تأكيدينا . لقد اتضح أن المجهود الذي يبذل لتعليم القيم كما لو كان في الإمكان تسليمها من المعلم إلى جميع التلاميذ في نفس الوقت وبصورة واحدة ، مجهود ضائع . إننا في حاجة إلى إشراك التلاميذ إشراكاً تأملياً في مواقف تستدعي الموازنة بين القيم حتى يستطيعوا اكتشاف ما يجب عليهم تقديره في كل موقف يواجهونه . ويستطيع المعلم عند هذه النقطة - إذا كان يرى أن واجبه هو تدبير أمور الأطفال الصغار بمهارة - أن يوفر الأدلة لكي يحصل منهم ردود الأفعال « الصحيحة » . وقد يستخدم المعاني والفحوى التي ربطها ديوي بالإشارات كمدخل إلى العالم الإدراكي ، فمثلاً ، قد يحمل تلاميذه على أن يكتشفوا مضامين معنى احترام الكبار في جميع المواقف ، أو معنى إنكار التسامح في سلوكنا ، مع أن الإنسان يرفع من شأنه - لفظياً - كقيمة من القيم . وقد يرى المعلم أن الموقف يسمح بالقيام باستجابات إلى المفاهيم ، وبهذا تنسع دأثرتها وتصبح أكثر إشباعاً عن طريق الاستخدام .

وعلى ذلك فنحن ننتهي من حيث بدأنا . إن حجرة الدراسة التي تدرك على وجهها « الصحيح » ، تسهل السلوك الإدراكي . إن التأكيدي المستمر على المعنى بدلاً من الحقيقة ،

والاهتمام بعلاقة الحقيقة والحادثة والمعنى عوضاً عن المتابعة الممثلة لبسود المعلومات المنفصلة ، ومحاولة دفع التلاميذ قدماً نحو مستويات الإسقاط الخيالي حيث يمكن وضع نتائج الحلول البديلة موضع الاعتبار ، قبل اقتراح أى حل بدلا من المطالبة بردود أفعال سريعة تعتبر تكراراً لحلول الآخرين ، والمجهود الذى لا يكل لمساعدة التلاميذ على اكتساب الإحساس باللغة فى قدرتها كأداة على تقدم فاعلية التفكير بدلا من الميل إلى اعتبارها عقبة يضعها الأفراد الذين يدفقون أكثر مما يجب أمامهم — كل هذه تمثل مبعلا يستطيع المعلمون بها أن يجعلوا استجابات التلاميذ الإدراكية أكثر إشباعا باطراد . إن كل إتمام لأمر من الأمور السابقة سيمثل إسهماً نحو تكوين أفراد تأملين حساسين .

الفصل الحادى عشر

نظريّة التقاسيم مقدّمة للمُعّلمين

إن نظريات التعلم فى الوقت الحاضر تمر بحالة فوضى واضطراب ولم تحظ نظرية واحدة بموافقة عامة من جميع علماء النفس . ويرجع جزء من هذه الصعوبة — مافى ذلك شك — إلى أن كل نظرية تميل إلى أن تكون نظرية دائرية . وتبنى كل نظرية للتعلم على خطة إدراكية تعمل على تحليل المعلومات التى تقوم بجمعها . ولهذا يجددعاة كل نظرية أنها مفيدة لتفسير أنواع المعلومات التى تم جمعها تحت إشرافهم . وبالإضافة إلى هذا يظهر أن عالم النفس الأصل ميال إلى أن يظهر — المرة تلو الأخرى — أن نظريته المختارة ذات جدوى . وعلى ذلك لم تجر إلا تجارب قليلة لتبين خطأ النظرية . والملاحظ أنه لم يبذل أى مجهود يوجه نحو وضع الخطط التى تعدنا بسلسلة من التجارب الناقدة . للتأكد من أوجه النقص ونواحى التداخل والتكامل فى نظريات التعلم الحالية .

ورطة المعلم

إن هذا الموقف يبلبل أفكار أولئك الذين يقومون بالتدريس . ذلك لأن جوهر الأمر كله فى التدريس هو أنه توجيه لتعلم التلاميذ ، ومن الطبيعى أن يتجه المعلمون إلى علم النفس حتى يستطيعوا أن يفهموا واجبه على أساس علمى . ولكن يختلف معظم علماء النفس عن واطسن أو ثورنديك فى أنهم جد متواضعين فى مطالبهم فيما يتعلق بمعنى عملهم فى مجال التربية . إن مثل هذا التواضع ، وإن كان أمراً حميداً علمياً إلا أنه قلما يسكن روع المعلم . وفى الحقيقة أنه ليس بمستغرب أن نجد حتى عالم النفس التربوى يجاهد ويثار أن يكون صورة لنفسه كعالم نفس أولاً — أى عالم نفس — تصادف أن يقوم بالتدريس فى كلية للتربية . وهو ينظر إلى مشكلات علم النفس كنظم للبحث العلمى بدلا من أن ينظر إليها كمشكلات للتربية .

ولقد حاول بعض علماء النفس أن يخترقوا نطاق هذه السكينة المذهلة من المعلومات .

التجريبية التي تسجلت أثناء تجارب علم النفس ، وأن يلخصوا المعنى الأساسي لكل هذا النشاط لميدان التربية . ويقترح ثورب وشملر مثلاً أنه يمكن تقرير خمسة أسس ثابتة للتعلم^(١) . كما أنهما ينتهيان في الحقيقة إلى أن التعلم يسهل بصفة عامة ويصبح أكثر استمراراً عندما :

- (١) يستثار المتعلم — وذلك في حالة ما يكون له هدف في النشاط الذي يقوم به .
- (٢) يكون التعلم في مستوى المتعلم — وذلك في حالة ما يكون متوافقاً مع قدرات المتعلم الجسمية والعقلية .
- (٣) يكون التعلم منظماً — وذلك في حالة ما يستطيع المعلم أن يرى علاقات ذات مغزى بين أوجه النشاط والهدف .
- (٤) يقيم التعلم — وذلك في حالة ما تكون لدى المتعلم طريقة ما لمعرفة التقدم الذي يحرزه . .
- (٥) يتكامل التعلم مع النمو الشخصي — الاجتماعي ، وذلك في حالة ما يمر المتعلم بخبرات تؤدي إلى النمو والتكيف المرضيين .

ويبدى عالم نفس آخر^(٢) الملاحظات التالية فيما يتعلق بهذه الأسس نفسها :

« إن هذه الأسس الخمسة نتاج آلاف التجارب التي أجريت في ميدان التعلم كما تبدو لرجال التربية . وربما يتساءل بحق عما إذا كانت هذه أسساً حقيقية للتعلم أم

L.P.Thorpe & A.M.Schmuller. "Contemporary (١)
Theories of Learning (New York: The Ronald Press
Company, 1953)

ومن جهة أخرى أورد جودوين واطسن قائمة تشتمل على . . اقتراحات تبين ماهو معروف حالياً عن الأطفال والتعلم . وتعتبر هذه الاقتراحات هامة في رأيه بالنسبة لميدان التربية ؛ إذ أنها اقتراحات « سيتفق عليها علماء النفس من جميع المدارس » دائماً . وقد صنفت تسعة من هذه الاقتراحات تحت عنوان « عملية التعلم » في :

“ What Psychology Can We Feel Sure About ? ”

Teachers College Record, Vol. 61, No 6 (Feb., 1960),
pp. 253-257.

B.R. Bugelski, The Psychology of Learning (New (٢)
York: Henry Holt & Company, Inc., 1956), p. 452

(١٣ — التفكير التأمل)

مجرد تحيزات وتقاهات . ومن وجهة النظر العملية ، فإن المبدأ الرابع لحسب (معرفة النتائج) هو الذى له أساس حقيقى ليعطى نتائج عملية . «

فمن ناحية يشجع المعلم على دراسة سيكولوجية التعلم ، وعلى هذا يتبع الطريقة الأكثر عملية في تدريسه . ومن ناحية أخرى ، يظهر أنه كلما أصبحت دراسة سيكولوجية التعلم قائمة على أساس أكثر علمية ، ندر ارتباطها أكثر بالمشكلات التى يواجهها المعلم حقيقة^(١) . فماذا يفعل المعلم ؟ إن ما نحتاج إليه ، بالطبع ، هو نظرية للتربية (تتضمن نظرية للتعلم) تساعد المعلم على الاستمرار فى القيام بعملية التدريس مستخدماً فنون المهنة بطريقة تأملية أكثر وعياً .

وبالطبع يجب على مثل هذه النظرية أن تأخذ فى الاعتبار تطورات علم النفس ، وعلاوة على ذلك يجب أن تأخذ فى الاعتبار التطورات فى العلوم الأخرى كعلم الاجتماع والأجناس ، وما شابه ذلك . ولكن لا يمكن أن نشق نظرية للتربية من مصادر مثل هذه ، سواء أكانت مصادر فردية أم جماعية . إننا فى حاجة إلى أى نظرية تربوية مبدئياً لنستخدمها كأساس عقلى للاختيار من بين التطورات التى تمت فى هذه العلوم الأخرى إنه لمن المستحيل أن نضفى على التطورات النظرية والتجريبية فى علم النفس أى معنى تربوى إذا لم نكن لدينا أى فكرة منظمة إلى حد ما عن ماهية التربية .

« ١ » إنه من دواعى السرور أن نعتزب أن هناك بعض الدراسات التى تشدعنا هذا الرأى . ويظهر أن بعض الدراسات التى عملت فى مجالات الإدراك الحسى ، وعلم النفس الاجتماعى ، وعلم النفس الإكلينيكي لها علاقة مباشرة بنوع المشكلات التى يجب على المعلم أن يواجهها . ومن الدراسات المخالفة لهذا الرأى ، والجديرة بالذكر على وجه الخصوص ، الدراسة التى قام بها جيروم . س . برونر وآخرون من أعضاء Harvard Cognition Project انظر أيضاً

Shepard Liverant. Intelligence . A Concept in Need of Re-examination. Journal of Consulting Psychology. Vol.24 No 2 (April, 1960) pp. 101—110.

إذ أنه يلخص فى تلك المقالة « عدم الكفاية المتأصلة فى المفاهيم الحالية للذكاء » وقد يوحى إلينا هذا الملخص بعض الأفكار؛ لأنه يؤكد مدخلا وصفيا للسلوك المتبع فى طريقة حل المشكلات بعكس الافتراض المعتاد بأن « الذكاء » عامل تفسيري يؤدي إلى وجود فروق فى قدرة الأفراد على حل المشكلات .

أو سيستحيل علينا ، لهذا الأمر ، أن نضفي معنى تربويا على التطورات التي تمت في أى ميدان من الميادين التي يعبر عنها الآن بالعلوم السلوكية أو أصول التربية .

وبالطبع تناول علماء النفس عملية التعلم بالكثير من الشرح ، وربما كان لكل شرح بعض القيمة لتناوله المشكلات المعينة التي يود عالم النفس المعين تناولها بالبحث . ومع هذا ؛ فحتى إذا افترضنا أن كل شرح يعتبر أمراً معقولاً في ظل إطار نظرية سيكولوجية معينة ، فإنه لا يمكن الحكم على معنى كل شرح بالنسبة لعمل المعلم إلا بارتباطه بنظرية للتربية في مقابل نظرية سيكولوجية . وحتى في ميدان علم النفس وفي الحقيقة ، . . « لا يوجد تعريف واضح وظيفي لعملية التعلم في متناول أيدينا . . » كما انتهى بوجلسكى إلى ذلك . إن كلامه الكثير في هذا الموضوع ليستحق منا مايلي من اقتباس مطول لحد ما (١) :

« لقد قام هل وسبنس بعدة محاولات لإقامة تعاريف لأجزاء من مشكلات السلوك التي قاما بدراستها ، ولكننا مازلنا بهيدين عن الوصول إلى تعريف عام أساسى للتعلم يشبه تعريف أى عملية أساسية في علم الطبيعة . إننا إذا ادعينا غير هذا فسيكون هذا ادعاء خطيراً لا معنى له . إننا إذا تكلمنا عن الخبرة السابقة فإننا لا نقول شيئاً وظيفياً . وإذا تكلمنا عن « المراتة » دون أن نحدد معناها فقد تقودنا إلى ما بعد المقدمة في قصتنا ، ولكنها لا تسهم بشيء . ولنفكر في التعريف الذي أورده ما جوسن (عام ١٩٤٢) : « التعلم تغير في الأداء نتيجة للمراتة . » فمن الواضح أنه لم يقرر شيئاً ألبتة ، ولكن توجه إليه بعض الأسئلة : ماذا تعنى بالأداء ؟ وما علاقته بالتعلم ؟ وماذا تعنى بالتغير ؟ وما، أداء ؟ وفي أى اتجاه ؟ وأى نوع من الأداء ؟ وما هى المراتة ؟ ومع هذا لقد ملأ ثورنديك عدة صفحات في كتب مختلفة يسخر فيها من فكرة أن التمرن بمفرده له أى علاقه بالتعلم ..

وربما كان لعلماء النفس الذين يستخفون بالحاجة إلى تعريف للتعلم بعض الحق . إنه كان من الأفضل لو أنهم استمروا في استخفافهم أبعد قليلاً من هذا ، ورفضوا صراحة أن يحاولوا إيجاد ذلك التعريف . ولكن إذا تركنا المسألة بوضع تعريف نصف جدى فإن ضرر ذلك سيكون أكثر من كونه أمراً هزلياً ، إذ أن هذا الاتجاه

یتضمن إما أن الشخص يعرف معنى التعلم حقيقة ، وإما أنه يمكنه إحراز التقدم دون حاجة إلى تعريف له . وليس من شك أن من الممكن إجراء التجارب ، ولكن اعتبارنا هذا تقدماً أم لا أمر آخر . فإذا لم نكن على يقظة دائمة فيما يختص بمعنى تلك التجارب فسندخل بالتأخر الحالیة لعدد من الأنواع المختلفة للتجارب غير المترابطة ، كما سنصل إلى آراء متعارضة تعارضنا شديداً ، واختلافات على أمور أساسية ، ولن نقدم إلا أقل القليل كمثال للعمل العلمی لعلماء النفس الإخصائيين في التعلم . إننا أيضاً لنسأل علماء النفس أن يدربوا كلبنا الخاص بصيد الطيور ، بل إننا نذهب عوضاً عن ذلك إلى الرجل المختص بكلاب صيد الطيور . فإلى أي مدى نبعد عن توجيه معلمينا بمرحلة الحضانة كيف يقومون فيها بالتدريس لأبنائنا ؟ .

وربما كان بوجلسكي قاسياً بعض الشيء في تقديره للفهم الحالی لعلماء النفس الذين يقوون بدراسة التعلم . ومع ذلك يظهر أن هناك أمرين واضحين أولاً : لا يوجد في الوقت الحاضر أي نظرية للتعلم يقبلها الجميع بحيث نستطيع أن نقدمها للمعلمين ليستخدموها في توجيه خبرات التعلم لتلاميذهم . وعلى ذلك يجب على المعلمين أن يستمروا في الاعتماد على « فنون المهنة » فإذا أردنا لقن التدريس أن يتحسن بطريقة منظمة ، فلا شك أن هذه الفنون ستكون في حاجة إلى تنقيح ومعالجة على مستوى عقلی . ثانياً : إذا فرض وحل اليوم الذي نجد فيه نظرية سيكولوجية . أو أكثر للتعلم مبنية على أساس علمي ، فستستمر الحالة على أن تلك النظريات ستكون نظريات سيكولوجية . ومنحكم على معناها فيما يختص بعمل المدرسة في ضوء نظرية مالتربية ، إذ لن تستطيع تلك النظريات أن تعمل بمفردها كنظريات موجهة تربوياً ..

مطالب نظرية التعلم للمعلم

وهناك أمران يجب أن تحققهما نظرية التعلم إذا أردنا أن تكون لها كفاية لتوجيه عملية التدريس (١) أولاً : يجب أن تنظر إلى السلوك في ضوء أسس عريضة

(١) لقد اتبع ب . اوثنال سميث مدخلا طريفا لهذه المشكلة التي نبحثها هنا . ويرى سميث أنه من الأجدى أن نركز اهتمامنا على تحليل عملية « التدريس » بدلا من التركيز على تحليل « التعلم » . انظر :

أو أسس كلية تساعد المعلم على ربط النظرية بالوحدات التي يمكن ملاحظتها في حجرة الدراسة . إن سلوك الطفل يشبه في تعقده الآلات السيرنيتية . ولا يمكن فهم أية استجابة معينة — كإلقاء سؤال أو الإجابة عنه مثلاً ، أو رد الفعل لنوع معين من التعلم ، أو أية ملاحظة تعمل أثناء المناقشة — إلا إذا نظرنا إليها في ضوء الإطار العام الذي يتضمن تبليغ المعلومات وتنسيقها وتفسيرها ، واختيار الخطط وتطويرها وما شابه ذلك . إن المعلم لا يقوم بملاحظة وحدات سلوكية بسيطة (كما أنه من المشكوك فيه أنه يستطيع ، في الحقيقة ، أن يفكر في ضوء تلك الوحدات السلوكية البسيطة .)

إن وحدة الاهتمام — في حجرة الدراسة — هي الخبرة المرئية التي تتجزأ إلى خبرات يمكن ضبطها وتستمر لفترة زمنية تبلغ مثلاً عشر دقائق أو ساعتين أو ثلاثاً . ويضع المعلم خطته لثل هذه الخبرات ويعدل فيها في ضوء السلوك الذي يلاحظه عند حدوث الخبرة . ويتم وضع الخطة وملاحظة السلوك في ضوء أن « الخبرة » وحدة واحدة معقدة ، وينظر إلى هذه الوحدة بدورها على أنها جزء من الخبرة المرئية الأكبر التي تمتد قوتها الزمنية إلى أشهر أو سنين .

حقاً إن عمليتي الفهم والضبط تزدادان عادة إذا حللنا الحوادث الكبيرة المعقدة إلى وحدات أكثر بساطة . ومع ذلك ، فلا يستتبع هذا أن الوحدات البسيطة يجب أن تكون من النوع نفسه الذي يمكن ملاحظته في الحوادث المعقدة . إنه لأمر مريب إذا كانت تلك الوحدات البسيطة من نفس نوع الحوادث المعقدة . ومع ذلك يجب ألا نفترض مقدماً أنها ستكون كذلك دائماً . وعلى وجه التحديد ، يجب ألا نفترض أن السلوك المعقد ، الذي يقوم المعلم بملاحظته ويحاول التأثير فيه ، قد يتجزأ إلى وحدات بسيطة من السلوك الذي يمكن ملاحظته . وفي الحقيقة أن مشابهاً العلوم التي تعالج العمليات العضوية تشير إلى أنه ليس من المحتمل أن تحليل السلوك الإنساني في نطاق عناصر ذرية مرئية كوحدات المؤثر ورد الفعل سيكون ذا جدوى . وعلى أي حال إن اهتمام المعلم ينصب على السلوك المعقد ، كما أن نظرية التعلم للمعلمين يجب — بطريقة أو بأخرى — أن تعالج هذه الوحدات المعقدة .

والشرط الثاني هو أنه يجب على نظرية التعلم هذه أن تنظر إلى السلوك الإنساني على أنه يمكن تقويمه لدرجة ما على الأقل . فإذا لم نبحث هذا الأمر كموضوع ميتافيزيقي للإرادة الحرة ، فإننا قد نلاحظ الحقيقة المرئية وهي أننا جميعاً نسلوك في معظم

الأوقات كما لو كنا نحن والآخرون عملاء، أحراراً أخلاقياً. إننا نعتقد أن السلوك في معظم الحالات حصيلة للاختيار المقصود. وبالإضافة إلى ذلك إننا نعتقد أنه من الممكن أن يكون السلوك كذلك في معظم الحالات. إن تقويم السلوك أمر أساسي في مفهومنا عن الأخلاق، كما أنه أساس للكثير من أغراض التربية التي ننادي بها كنمو الشخصية، والمسئولية، والحكم وما شابه ذلك.

ومن وجهة النظر الأخرى إن حتمية السببية كانت تقليداً أساسياً لكثير من الدراسات العلمية. فقد ينظر إلى أي حادثة معينة على أنها نتيجة موجودة كما هي تماماً لأن الحوادث والقوى الأخرى وما شابهها (والتي تسمى بالأسباب) كانت كما هي تماماً. ويمكن أن ننظر إلى كل سبب من هذه الأسباب بدوره كنتيجة لأسباب أخرى. وعند تأكيد هذه بتعسف، فإن مثل هذه السلسلة الحتمية من السبب والنتيجة تستبعد فكرة الاختيار الحر من جانب الفرد. وعلى ذلك فالأفراد قابلون للتشكيل كما يحتمل أن يجذب علماء النفس الذين يقبلون هذا الرأي نحو الاتجاه العام لمدرسة جون. ب. واطسن السلوكية وإن لم يجذبوا نحو محدداتها. ولقد قال أحد علماء النفس المعاصرين^(١) الذين يمثلون وجهة النظر هذه ما يأتي:

« إن قوى الإنسان الابتكارية التي يفاخر بها... وقدرته على الاختيار، وحقنا في أن نجعله مسئولاً عن اختياره لا يظهر أي شيء منها في هذه الصورة الذاتية الجديدة التي أمدنا بها العلم، لقد اعتقد قديماً أن الإنسان كان حراً في أن يعبر عن نفسه بالفن والموسيقى، والأدب، وأن يبحث في قوى الطبيعة، وأن يتلمس سبل الخلاص بطريقته الخاصة. ويستطيع أن يبدأ العمل، وأن يقوم بتغيرات تلقائية وفق هواه في مجرى حياته... ولكن يصر العلم على أن العمل لا يبدأ إلا نتيجة للقوى التي يصطدم بها الفرد، وإن شذوذ الأطوار ما هو إلا اسم آخر للسلوك الذي لم نجد له سبباً بعد.

(١) Carl R. Rogers & B.F. Skinner, "Same Issues Concerning the Control of Human Behavior," "A Symposium", Science, 124 pp. 1057-1066 as reprinted in Leon Gorlow and Walter Katkousky eds; Readings in the Psychology of Adjustment (New York: McGraw-Hill Book Company, Inc., 1959) p. 518.

ومع هذا ، لا يتفق جميع علماء النفس ، أو العلماء الآخرون ، على أنه يمكن تطبيق مثل هذه النظرة الجبرية الجامدة في جميع أنحاء العالم . وبدأنا نتحقق ، أولا ، أن الرأي الذي ينادى بالسبب والنتيجة ، رأى غامض بعض الشيء . إنه رأى غامض ، وربما يخلع على الأشياء غير الإنسانية صفات الإنسان ، وربما كان الأجسدي أن تستبدل عامة بمثل هذا التعبير . « الترابط عند التباين » إلا عندما نتحدث عن الله أو الإنسان . إن فكرة السبب مرتبطة بفكرة القصد أو الفرض . إن الأفراد يتكلمون عن مقاصدهم وأغراضهم وعن مقاصد الخالق وأغراضه . وفيما عدا ذلك ، فإن فكرة السببية تصبح هباء مجازا واستنباطا .

ثانيا : إن مسألة الاتجاه الجبري في مقابل الاتجاه اللاجبري في دراسة الظواهر المختلفة أمر جدلي إلى حد ما في الوقت الحاضر حتى في العلوم الطبيعية . فقد عرف علم الطبيعة الحديثة ، منذ ربع قرن مضى مثلا ، أنه كان من الضروري تعديل الاتجاه الجبري القديم عند دراسة أنواع معينة من المشكلات . وهناك مواقف في الطبيعة الذرية ينظر فيها إلى الصفات المميزة لكل جزيء على أنه أمر غير متعين ، في حين نجد أنه ينظر إلى النظام الذي تخضع له الجزيئات على أنه اتجاه متعين . إن النقطة التي يجب ملاحظتها هي أن فائدة العلوم للتنبؤ والضبط تزداد ولا تنقص عندما نتخلى عن الجبرية في جميع المجالات في سبيل الحصول على مجموعة من النماذج والخطط الإدراكية حتى ولو أدى هذا إلى تغير في مفهوم العلم ذاته . ولم يعد العلم يحس بالقلق لوجود أكثر من وجهة نظر واحدة للنظر إلى البيانات والبحث عنها لأنه قد قبل مبدأ التكميل .

وقد اعترفت بعض الكتب السيكلوجية بهذه النتيجة ؛ فكارل روجرز مثلا ، يتكلم عن « التناقض الكبير لعلم السلوك » مشيرا بالذات إلى ما يأتى (١) : « لا شك أن أفضل طريقة لفهم السلوك ، عند بحثه علميا ، هي اعتباره محددًا بأسباب سابقة . إن هذه حقيقة علمية كبرى . ولكن الاختيار الشخصي المسئول ، الذي يعتبر أهم عنصر في كون الإنسان إنسانا ، والذي يعتبر لب الخبرة في العلاج النفسي ، والذي وجد قبل القيام بأي مجهود علمي ، حقيقة هامة في حياتنا أيضا .

وفي رأي أن إنكار المرور بخبرة الاختيار المسئول ، لوجهة نظر معتبرة ، لا تقل في تقييدها عن إنكار إمكانية وجود علم السلوك . إن ظهور هذين العنصرين الهامين لخبرتنا كما لو كانا متعارضين ربما كان له نفس المعزى كما في التعارض بين نظرية الموحدة والنظرية الذرية للضوء . ويمكن أن يبين أن كلا منهما نظرية صحيحة حتى وإن كانتا غير مؤلفتين . ولن يعود علينا إنكارنا لحياتنا الشخصية بأية فائدة ، كما أننا لا يمكن أن ننكر الوصف الموضوعي لتلك الحياة .

(فإذا اكتسبنا هذه البصيرة) .. فيكون في استطاعتنا أن نستخدم العلوم السلوكية بالطرق التي تحررنا ولا تقيدنا ، والتي تمهد السبيل لإمكانات بناءة للتغير لا للتماثل والتطابق ، والتي ستتمى النواحي الابتكارية لا القناعية ، والتي ستساعد كل فرد في عملية التوجيه الذاتي لتكوين شخصيته ، والتي ستساعد الأفراد والجماعات ، وحتى مفهوم العلم ، على أن يسموا بذواتهم بطرق جديدة للتكيف مع الحياة بكل مشكلاتها . إن الاختيار أمر متروك لنا . وكما نعرف الجنس البشرى على حقيقته ، فإنه من المحتمل أن نتعزذ نقوم أحيانا بعمليات اختيار للقيم تعود علينا بالنسكبات . كما قد نقوم في بعض الأحيان الأخرى بعمليات اختيار بناءة للغاية .

وسواء أتطور علم النفس في ضوء الأسس التي اقترحها روجرز أم لم يتطور ، فإنه يتضح أنه يجب على التربية ، بطبيعة عملها ، أن تقبل مبدأ التكميل . إن النظرية المناسبة للتربية ستتضمن مفاهيم لعلاقة السبب — والنتيجة بين الخبرات التي صممت عن قصد ، والتعلم الناتج عن ذلك ، في حين تنظر هذه النظرية الى التلميذ في الوقت نفسه على أنه قادر على القيام بعمليات الاختيار المسئول . فإذا لم نعرف بهذا ، فإن العمليات البديلة لذلك قد تكون كما يأتي :

(١) أن ندعن بأن جميع المحاولات لتوجيه النمو عن طريق الخبرات المنظمة ماهي الا افكار تمنى تحقيقها . أو

(٢) أن نسكف عن القيام بجميع المحاولات التي تهدف إلى تحقيق التربية السوية ونوقف هذا العمل لحين وصول الإنسان الكامل (الذي له القدرة على توجيه الذات) ربما في عام ١٩٨٤ ، ليقوم بتدريبنا حتى نحمل مكاننا في عالم اجتماعى كبير لايسير بالضرورة وفق أحكام خلقية .

النظرية الانبثاقية للتعلم

إننا — مع ذلك — لاتواجه مثل تلك البديلات التي تفت في عضدنا ، كالبديلات التي أوردناها سابقاً ، إلا عندما نتوقع من علم النفس (وميادين المعرفة الأخرى التي يطلق عليها التربويون عادة « الأصول ») أكثر مما نستطيع أن يعدنا بتحقيقه . إن محتويات فنون التدريس التي تحت أيدينا محتويات هائلة . وكذلك أيضاً إن مدى تفكيرنا فيما يتعلق بالأهداف التي يجب أن تحققها التربية لمدى واسع . وقد نرجع إلى هذه الأهداف آمليين أنه عندما نتحقق من أنها تصبح نقط ارتكاز نقفز منها للتفكير التالي في التربية ، بدلا من أن تصبح حدوداً يجب ألا يتعداها تفكيرنا الحالي . وقد تنبثق نظرية التعلم ، التي ينظر إليها كجزء من النظرية العامة للتربية ، كلما يبذل المجهود لتنقيح عمليات المرونة التي تلقى قبولا من فن التدريس ، ووضعها في مستوى عقلي .

إننا نلاحظ أثناء نمو الطفل أن سلوكه يتغير . إنه يقوم بأنواع جديدة من السلوك كما أنه يغير من أماليه السلوكية السابقة . وإذا تساءلنا : لماذا يقوم الطفل بالسلوك على الإطلاق ، فربما ننهي إلى أن بعض الحوادث ، في داخل جسمه وفي خارجه ، تؤثر فيه كمثيرات ، ونقول عندئذ إن سلوكه استجابة لهذه المثيرات . إن هذه الطريقة في التعبير تساعدنا على أن ننظر إلى الطفل الإنساني كنوع من الحياة لا ينفصل عن الأنواع الأخرى من الأشياء الحية .

ومع ذلك إذا لم نتساءل : لماذا يقوم الطفل بالسلوك فحسب ؟ بل تساءلنا : لماذا يقوم بالسلوك بالطرق المعينة التي نشاهدها ؟ فإننا عادة مانورد إجابات ثلاثا . إننا نقول إن بعض الحركات المعينة أو السلوك غريزة ، أو إن ذلك السلوك نتيجة للنضج ، أو أنه نتيجة للتعلم . فماذا نعني بمثل هذه الإجابات ؟ .

لقد لاحظ الأفراد عن طريق ملاحظاتهم الطويلة لصور مختلفة للحياة تحت ظروف متنوعة جدا ، أن جميع أعضاء فصيلة معينة يقومون بحركات خاصة تلقائيا . فمثلا ، يبدو أن جميع « السكتا كيت » تلتقط بمنقارها ، كما أن جميع الأطفال الصغار يمصون . وإنه لمن المعقول جدا أن نقول إنه أمر غريزي « للسكتا كيت » أن تلتقط بمنقارها وللاطفال الصغار أن يمصوا مادام يفهم من « المصطاح » الغريزة » أنها تستخدم كاختصار لتقرير

أطول من ذلك بكثير عن عدد المرات الكثيرة للملاحظة في ظل أوسع مدى ممكن للظروف التي يتم فيها هذا إلى أن نصل إلى نتيجة التعميم التي نستخلصها فيما يتعلق بسلوكنا « الكتاكيت » وسلوك المص للأطفال الصغار . فإذا لم يفهم هذا ، وتحدثنا عن الغريزة ، لا على أنها تعميم ، بل كما لو كانت سببا أو شرطا للسلوك ، فإننا نعبر عن مثل هذا اللغو كما فسرت في مبدأ تطور علم النفس . فلقد قيل عندئذ مثلا إن الإنسان اجتماعي لأن له غريزة للاجتماع .

وباستمرار الملاحظة نرى أنه ربما تتم تعديلات معينة للسلوك نتيجة للتغيرات الجسمية كنمو العضلات ، والنمو العصبي وما شابه ذلك . وعندئذ نتحدث عن السلوك الذي يعتبر نتيجة للنضج . وفي الحقيقة ، نحن نكتشف تدريجيا أشياء أكثر وأكثر فيما يتعلق بوظيفة النضج في السلوك ، التي تمتد من عادات إخراج الطفل للفضلات إلى المشكلات الشخصية للرجل المسن . ومن الواضح أنه كلما نما الطفل جسديا ، فإن السلوك الذي كان متعذرا عليه القيام به سابقا يصبح أمرا ممكنا . وعلى ذلك فليس هناك من جدوى (بل وقد يحدث بعض الضرر فعلا) في محاولتنا تعليم الطفل كيف يسلك بطريقة لا تناسب مع المرحلة الحالية لنموه الجسمي كتحسيننا له أن ينتصب في جلسته قبل أن تقوى سلسلة ظهره بدرجة كافية لتحمله .

وإذا مضينا في ملاحظة السلوك فإننا نلاحظ تغيرات قد لا نستطيع أن نرجعها لا للغريزة ولا للنضج . ونحن نجمع التغيرات تحت مصطلح « التعلم » . وعلى هذا فالمصطلح تركيب فكري لتفسير أو لشرح تغيرات معينة في السلوك الذي نلاحظه . ويجب أن نكون على حذر حتى لا نخلط بين التعلم والسلوك الذي يعتبر استدلالا مبتورا . فإذا سألنا السؤال : « ماهو الشيء الذي يتعلم ؟ » فمن المحتمل أن نجيب : « إن ما يتعلم هو نوع معين من السلوك » وعلى ذلك فنحن نتكلم عن « السلوك المتعلم » . وقد تكون مثل هذه الإجابة ذات فائدة في بعض المواقف ، ومع ذلك ، فإننا ننتصح جيدا إذا تذكرنا أن مصطلح « السلوك » مصطلح غامض ، وغالبا ما يكون خادعا .

أما من وجهة نظر العلم فإنه لمن الأجدي له أن يفكر في « المعاني » بدلا من التفكير في « أنواع السلوك » كحيلة للتعلم . ويشبه هذا الاقتراح رأى تولمان إلى حد ما ، لأنه يرى أن « اتوقيعات » أو « المتجهات » هي التي تتعلم . ومن وجهة نظر التعلم يمكن ربطهما — دون أن نقلل من احترام الفرد —

بما يشير إليه تولمان من « خريطة معرفية » عند كلامه عن تعلم الفئران التصميم الكلي للتواهة (١) .

إن ربط المعنى بالشيء ، أو الحادثة ، أو الموقف ، يعنى أن نعالجه كمثير . وفيما عدا حالة الانعكاس البسيط ، فإن المثير لا يعطى أو يقدم على الإطلاق . ويجب على المختبر أن يقوم بعملية التمييز وأن يركز انتباهه كما يجب عليه أن يبحث عن المثير المناسب . وقد ذكر نادىوى كيف أنه عندما نحاول أن نجذب انتباه الكلب الأليف الى الطعام بالإشارة إليه ، فهو عادة سيستجيب بلعق إصبعنا متجاهلا الطعام . ويفشل الكلب في معالجة الطعام كمثير ، حتى عندما نحاول أن نشير له إليه . وعلى ذلك فالمثير لا يعطى أو يقدم على الإطلاق ، فهو يعالج على أنه شيء معطى (أو لا يعالج كذلك) . إن الاستجابة ليست للمثير بقدر ما هي نتيجة لإحساس الفرد إحساسا عميقا بالمثير (٢) . وتلاوة على ذلك ، تبحث الكائنات النشطة عن المثيرات حتى تستمر في الحركة ، فالفرد — بخلاف الآلة — ليست وحدة سلبية لا تستثار للقيام بالحركة إلا إذا استثارت من الخارج .

إن الشيء ، أو الحادثة ، أو الإحساس الذى لا معنى له كلية ، لا يمكن أن يعمل كمثير . وفي الحقيقة ، لا يمكن أن تمارس على أنها حادثة أو شيء أو إحساس متميز . ومن وجهة النظر الأخرى ، إن معنى المثير ليس فى حاجة إلى أن يكون مضبوطا أو غير غامض . إنه من الضروري فقط أن ينظر إلى المثير على أن فى استطاعته أن يحمل المعنى . وعلى ذلك يمكن إطلاق مصطلح « التعلم » على أى عملية تصبح فيها المثيرات الممكنة مثيرات ذات مغزى أو تغير المعنى ، أو مثيرات مميزة فيها يتعلق بالمعنى المحتمل وهكذا .

(١) E.C. Tolman "Cognitive Maps in Rats and Men" Psychological Review, Vol. 55 (1948) pp. 189—208

(٢) هذه نقطة أهمها دارسو السلوك لفترة طويلة ، برغم إشارة دىوى إليها منذ أكثر من نصف قرن فى كتابه المشهور الآن :

The Reflex Arc Concept in Psychology University of Chicago Contributions to Philosophy Vol. I, No. I (1896)

إن لمثل هذه النظرية للتعلّم عدة مزايا من وجهة نظر المدرس ؛ فأولاً ، إنها تفصّل العرى التي كثيراً ما ربطت التعلّم باستجابات سلوكية معينة . إنها في الحقيقة تبعد التعلّم عن السلوك الظاهر عادة . ويتفق المعلمون عموماً على أن التعلّم الحقيقي سيغير من حياة المتعلّم . ولكننا نبسط الأمر أكثر مما يجب إذا قلنا إن جميع عمليات التعلّم تؤدي إلى تغيرات ملحوظة في السلوك . فقد يكون للتلميذ نمط سلوكي نام فيما يتعلق بمواقف معينة ، ومبنى على المعاني التي اكتسبها خلال عملية شرطية غير مقصودة . فإذا ما مر التلميذ بالخبرات المناسبة في حجرة الدراسة ، فإنه قد يفهم أسس ذلك النمط السلوكي . وهذا يعني أن المعاني المشروطة قد ترتبط بمعان أخرى بطرق أكثر دقة وتنظيماً . ومع ذلك ، تظل المعاني المعدلة ذات أثر فعال ، وقد يستمر التلميذ في القيام بالسلوك الذي يمكن ملاحظته ، كما كان يفعل من قبل . وبرغم هذا ، يمكن القول إن تعلمها ما قد تم حيث إن أنماط معاني التلميذ قد عدلت أو أعيد بناؤها .

ولقد قال ديوى مرة عن التربية إنها «إعادة لبناء — أو لتنظيم — الخبرة يضيف شيئاً جديداً إلى المعنى السابق للخبرة ، كما أنها تزيد من القدرة على توجيه مجرى الخبرة التالية» ^(١) . فإذا نظرنا إلى المعاني على أنها العمدة الأساسية للتعلّم . فأى حادثة إذن تؤدي إلى إعادة بناء أو إعادة تنظيم نمط المعنى قد تسمى خبرة تعليمية . وأى خبرة ، إذن ، « تزيد من القدرة على توجيه مجرى الخبرة التالية » نتيجة لمغزاها قد نطلق عليها خبرة تربوية . والخبرات المعينة التي توجه القدرة على السيطرة على الخبرات التالية توجيهها خاطئاً ، أو تقلل من تلك القدرة ، ما هي إلا خبرات ذات أثر تربوي سبيء ، وربما نصف أنواع التعلّم التي لا فائدة منها بأنها خبرات غير تربوية .

ويتضمن تعريف ديوى إمكانية وجود تمييز آخر ، قد يكون ذا مغزى كبير للمعلمين ، إذ يمكن تغيير أنماط المعاني أو توسيع نطاقها بطرق كثيرة ، تمتد من الإعادة البسيطة للتنظيم بطرق التعليق (الشرط) الكلاسيكية إلى إعادة بناء خلاق على

John Dewey, Democracy and Education (New York: (١)
The Macmillan Company, 1916), pp. 89—90.

مستوى عال وذلك عن طريق امتداد أوجه النشاط التأملى^(١) وكما لاحظنا سابقا ، يبنى الكثير من المعانى خلال عمليات التعديل الثقافية غير المقصودة ، وبالطبع يستمر هذا النوع من التعلم ، « سواء أ بقيت المدرسة أم لم يعد لها بقاء . كما يقول جوزيف . ل . هارت فى جملة المقنعة . ويمكن أيضا ، أن يخطط هذا النوع من الخبرات تخطيطا مقصودا لحجرة الدراسة ، وإذا نجح هذا التخطيط فإن أنماط المعانى المستنتجة ستعكس على عادات التلاميذ . ويمكن أن يقال ، إذن ، إن التلاميذ قد درّبوا .

يعاد تنظيم المعانى فى عمليات التدريب ، ولكن النقطة التى يجب أن نلاحظها هى أن أولئك الأفراد الذين يتحكمون فى الموقف هم الذين يوجهون إعادة مثل هذا التنظيم . إنه شئ يحدث للتعلم ، ولكنه ليس بالعامل الذى يتحكم فى إعادة تنظيم المعنى . ومن وجهة النظر الأخرى ، إذا كانت البيئة — سواء فى داخل المدرسة وفى خارجها — من نوع يسمح بإدماج التلاميذ فى المواقف التى يطرد فيها خلق المعانى واختبارها تأمليا ، فسيتوافر إذن ، وجود الشرط الضرورى لإعادة بناء الخبرة ، فالتعلم هنا هو العامل الموجه لمثل إعادة البناء هذه ، بعكس إعادة التنظيم المفروض عليه أو الذى عليه أن يستنتجه . وفى معظم الحالات ، ربما لا يمكن تصنيف الخبرات بهذه الدقة ، لأنها خليط من العناصر التأملية وغير التأملية ومع هذا يجب أن تسعى المدرسة جاهدة لكي تكون واضحة ، ما أمكن ذلك ، فيما يتعلق بنوع الخبرة التى تحاول أن تشجعها .

بعض أمثلة التعلم

ربما نتخذ تدريس جدول الضرب للأطفال مثلا موضحا لما سبق . إننا لم نكن دائما واضحين فيما يختص بالشئ الذى نتوقع أن يتعلمه الأطفال فى هذه الحالة . هل

(١) ربما لم يقصد دوى عمل مثل هذه التفرقة عند هذه النقطة . ولكنه يفرق قطعا بين التدريب والتربية فى أجزاء أخرى من كتابه :

نريد أن يتعلموا كيف يقومون بتسميع الجداول ؟ أو أن يستخدموا الجداول في حل المسائل الحسابية ؟ أو أن يفهموا كيف ترتبط الأرقام بعضها ببعض ؟ ما هو المعنى الحقيقى « لتعلم جدول الضرب ؟ » إذا تذكرنا أن المعانى هى العمدة الأساسية للتعلم ، فمن الواضح إذن ، أن ما نريده هو أن يتعلم الطفل أن « اثنين مضروبة مرتين يعنى أربعة » أى يشير إليها ، أو يمثلها ، أو يمكن أن تستخدم عرضاً عنها ، أو هى نفس الشيء ، وما أشبه ذلك) . وعلاوة على ذلك ، نحن نود أن تنظم أنماط معانى الطفل بطريقة تسمح له بأن يكون الرمز « ٢ » حاضراً فى ذهنه فى الحال عندما يرى الرموز « ٢ × ٢ » ، أو يسمعها ، أو يفكر فيها ، . ويعنى هذا ، أننا نريد الطفل أن يتحقق من معنى « ٢ × ٢ » . وكما رأينا سابقاً ، إذا كانت عمليات التحقق هذه صحيحة (ونحن نعيش معظم حياتنا على هذا المستوى) فلن تكون هناك حاجة إلى إعادة التنظيم التأملى للخبرة . إن الاستجابة تحدث على وجه السرعة على مستوى التعرف .

وبالطبع ، نحن أيضاً نود أن يفهم الأطفال كيف يستخدمون الجداول ، وأن يفهموا كيف أن الضرب مرتبط بالجمع ، وعلى هذا ، نحن نريد أن يفهموا كيف يمكن تكوين جداول الضرب عن طريق الجمع . ويجب أن يسهل هذا الفهم تعلم جداول الضرب طبقاً للأساس الثالث من الأسس التى ذكرها ثورب وشملر . وفى الحقيقة ، يجب أن تستخدم الأسس الأربعة الأخرى التى ذكرناها فى تدريس جداول الضرب . ومع هذا ، يجب ألا نتصور أن مثل هذا الفهم للعلاقة بين الضرب والجمع (مع قدرة التلميذ المصاحبة لهذا الفهم لعمل الجداول) بديل مناسب لأنماط المعنى التى تنظم بطريقة تسمح بأنه كلما عرضنا مجموعات مختلفة من الأعداد المضروب فيها والأعداد المضروبة فستكون حواصل الضرب العددية الصحيحة جاهزة فى الحال على مستوى التعرف ، دون الحاجة إلى أى تأمل . فإذا كان التعلم قد تم ، فلن تنشأ أى مشكلة تفكر فيها ، عندما يقوم النمط المنظم للمعانى بدوره .

إن الأفراد التأملين الأحرار فى حاجة إلى مهارات ومعرفة ، على مستويات التعرف غير التأملية ، بنفس القدر الذى يحتاج إليه الأفراد الآخرون . وفى الحقيقة إنهم فى حاجة إلى مثل هذه المهارات والمعرفة أكثر من الأفراد الآخرين ، كما أنهم يحتاجون إليها بطريقة متميزة . إنهم فى حاجة إلى ضبط المهارات والمعرفة ، وهذه

حقيقة تؤثر مباشرة في كيفية اكتسابهم لها . ولئن تتم عملية الضبط إلا إذا تمت عملية الاكتساب في ظروف تسمح بالنشاط الذي له معنى ومعنى .

ومن الممكن أن يصبح بعض المعلمين الثائرين بحق ضد عمليات التدريب العديدة الأثر ، عاطفيين لدرجة كبيرة ، أو قد يصعب إرضائهم فيما يتعلق بمساعدة التلميذ على تكوين مثل هذه الأنماط من المعاني . ولـكـننا في حاجة إلى دراسة هذا الأمر بدقة أكثر . إننا جميعاً متأكدون أنه عندما يتعلم الولد كيف ينفخ في البوق مثلاً ، فإنه لمن الأفضل لدرجة ما أن يفهم الولد الطريقة التي تعمل بها آلة . إنه لمن المفيد له أن يفهم أنه كلما ضغط على مفتاح أو أكثر ، فإنه في الحقيقة يغير من طول آله ، ونتيجة لهذا فهو يغير كلام من طول عمود الهواء والنغمة التي يحدثها . إنه لأمر طيب أن يعرف هذا . أيضاً ، إذا كنا مازلنا جادين في رغبتنا في أن يتعلم العزف على الآلة ، فإننا نطلب منه أن يزن بعقله عملية وضع الأصابع وضعا صحيحا لإحداث النغمات المختلفة . وفي الحقيقة إن أنماط المعاني التي يجب أن تنظم والتي لا تتضمن الرموز والأصوات المكتوبة فحسب كما هو حادث فعلا في تعلم العزف على آلة موسيقية هوائية ؛ بل تتضمن أيضاً أنماطاً معقدة للتوتر العضلي . إنما هي أنماط متشابهة جداً لدرجة يحتمل معها أن تبوء بالفشل أى محاولة يقوم بها التلميذ لتكوين الأنماط عن طريق التأمل . ولكن لا يشير هذا إلى أن نحدد التدريس أو التعليم إلى مستوى التكرار الذي لا معنى له . إنه يشير إلى أن المدرس والتلميذ على السواء بما اكتسباه من بصيرة في طبيعة وهدف هذا النشاط ، قد يقدران إتقان هذا النشاط إتقاناً تاماً ، بقدر ما تسمح به القدرة على ذلك .

إن هذه الاعتبارات تدفع إلى الأمام نقطتين يجب على المعلمين أن يتذكروها أولاً : هناك أنماط معينة للمعنى . يمكن تنظيمها تنظيمًا فعالاً عن طريق المراتبة التي تقترب اقتراباً وثيقاً من الطرف الإشرافى لتيار هذه المراتبة ، لدرجة أن هذه العملية تعتبر عملية غير تأملية إلى حد كبير . ومع ذلك ، فمن الممكن أن يصبح تعلم هذه الأنماط خبرة تربوية عندما يعمل مثل هذا التعلم على « زيادة القدرة على توجيه مجرى الخبرة التالية . » ثانياً : إن من واجب نظرية التربية أن تبين أنماط المعاني الجديرة بالتعلم ^(١)

(١) وكما أنه لا يمكن اعتبار هذه الوظيفة من مهام عالم النفس أو عالم الاجتماع فكذلك لا يمكن اعتبارها من مهام الفيلسوف الذي يتناول الأمور بصورة عامة . إن من واجب الخصائي التربية أن يبنى نظريته التربوية المشحونة بقيمه هو .

إذا أعطينا موقفاً تعاليمياً معيناً ، ونظرية للتربية تحدد أنماط المعاني التي تعلم ، فإننا قد نتوقع مساعدة لا تقدر قيمتها من الأخصائى فى علم النفس . فمثلاً أثناء الحرب ، وبعدها ، عندما استنجد بعلماء النفس ليساعدوا القوات المسلحة ، تمت غالباً تحسينات مذهلة إلى حد ما فى تعليم طريقة مورس للإشارات ، والتعرف إلى الطائرات وما إلى ذلك . وبالطبع لقد أدى نشوب الحرب ، بالإضافة إلى وجود نظرية متطورة للعلوم والتكتيكات الحربية إلى تحديد الأهداف التى يجب تحقيقها تحديداً واضحاً . وإننا نأمل فى الحصول على مثل هذه النتائج الباهرة عندما يعمل علماء النفس والتربويون معاً لمساعدة التلاميذ على تعلم أنماط المعاني التى سيظهر أثرها فى نواحي الابتكار وقابلية التغير اللتين تسكلم روجرز عنهما .

ولننظر فى حالة تعليم الأطفال «أسباب الحرب الأهلية الأمريكية» لقد جاء وقت من الأوقات كان يطلب فيه حقيقة من التلاميذ فى بعض المدارس أن يحفظوا جدولاً بالأسباب عن ظهر قلب . وكان هذا الجدول يسير بما يشبه الآتى :

إن السبب المباشر للحرب الأهلية هو إطلاق النار على قلعة سمتر ، والسبب القريب هو انتخاب لنكولن ، والسبب الأيديولوجى هو عدم الاتفاق على مشكلة العبيد ، والسبب السياسى هو انشقاق الولايات الجنوبية ، والسبب الاقتصادى هو انخفاض سعر القطن وما إلى ذلك . ولهذا فإنه من الصعب على الإنسان أن يقول إن حفظ مثل هذا الجدول «مفيد من القدرة على توجيه مجرى الخبرة التالية» إلا إذا كان يشير إلى خبرة الامتحان التالية التى يتوقع من التلميذ فيها أن يكرر ذلك الجدول .

فإذا أردنا للخبرة أن تكون خبرة تربوية عند دراسة أسباب الحرب الأهلية ، بدلاً من أن تكون خبرة غير تربوية أو حتى خبرة مضللة تربوياً ، فيجب على التلميذ أن يندمج فى عملية تأملية حيث تخلق منها أنماط للمعنى وتوضع محل الاختيار . وستبنى المعانى ، عندئذ ويعاد بناؤها بدلاً من أن تستنتج بعملية غير تأملية . ويحسن أن يقوم تلميذ أو أكثر بعمل مثل هذا الجدول عند محاولتهم تلخيص مافهموه عن الحرب الأهلية . فإذا كان الأمر كذلك ، فربما تصبح محاولة تلاميذ الفصل اختبار صلاحية هذا الجدول عملية أخرى تستثير تفكيرهم ، وخبرة تربوية تميل إلى زيادة القدرة على ضبط توجيه مجرى الخبرة التالية ، فى داخل المدرسة وفى خارجها على السواء .

النتائج التي يمكن التنبؤ بها والتي لا يمكن

ومرة أخرى فهناك أيضاً نقطتان جديرتان بالملاحظة الأولى : عندما نستنتج المعاني التي تعلم وتنظم بطريقة تدريبية أساساً (وبالطبع انه من الأوفق دائماً أن يفهم المتعلم في أى مدرسة للكائنات البشرية طبيعة وهدف النشاط ، وعلى ذلك يصبح عاملاً دافعاً في تطوره هو) فإن أنماط المعاني الناتجة تميل إلى أن تكون متجانسة نسبياً . ويميل السلوك الناتج — على مستوى تعرف هذه المعاني المنظمة — إلى أن يكون سلوكاً يمكن التنبؤ به نسبياً . فإذا اتبعنا هذه الطريقة ، فمن الممكن أن ندرس مشكلات التعلم دراسة ملائمة إذا تحرينا مدخل السبب والنتيجة . وهدف التدريس هنا هو أن نجعل أنماط المعاني تنتظم بطرق معينة مفروضة . ولكن تعلم النمط المنظم للمعنى لا يقوم به إلا التلميذ المدفوع في العملية ، والذي يعرف طبيعة ما يعرفه ، كما تشير الجملة التي أوردناها سابقاً بين الأقواس .

ومن وجهة النظر الأخرى ، يميل التعلم الذي يطرد عن طريق تكوين المعاني وإعادة بنائها تأمياً إلى تكوين أنماط غير متجانسة نسبياً . وهدف التدريس هنا هو أن نجعل التلميذ قادراً على أن ينمى نواحي الابتكار ، وإصدار الأحكام واتخاذ القرارات التي يتحمل مسئوليتها وهكذا . ويجب أن تدرس مشكلات التعلم المتضمنة في هذه العملية باتباع خطة إدراكية تنظر إلى الاختيار الذاتي المسئول كجانب أساسي للخبرة ، كما تنظر إلى السلوك الإنساني على أنه سلوك يمكن تقويمه لدرجة كبيرة . ويستتبع هذا ، بالطبع ، أن من واجب النظرية التربوية أن تبين هل التنظيمات المتطابقة لأنماط المعاني أم التراكيب الفريدة نسبياً ، هي التي قد تؤدي في أية حالة معينة إلى زيادة ضبط توجيه مجرى الخبرة التالية .

والنقطة الثانية هي أنه يمكن دراسة مشكلات التعلم من النوع الثاني دراسة علمية . ولقد أظهر معظم علماء النفس الذين تخصصوا في دراسة مشكلات التعلم اهتماماً رتيباً لدرجة ما بالانحياز الجبري الضيق الأفق (تجاه تلك المشكلات) ومع هذا . فقد أظهر بعض علماء النفس مرونة أكبر — وعلى الأخص بعض علماء النفس الأكلينيكيين ، والأخصائيين في الإدراك ، والإخصائيين في التوجيه والطب النفسي وبعض أولئك الذين يخاطرون بالبحث في مجال القيم . إن لدينا الآن أويايت المعرفة (١٧ — التفكير التأمل)

المبنية على أساس علمي فيما يتعلق بكيفية تسهيل عملية التعلم الذي يبدأ بالبناء وإعادة البناء . إننا نعرف الآن شيئاً ما عن كيفية مساعدة الأفراد على أن يصبحوا أكثر توجهاً لذواتهم ، وأكثر مراعاة في النواحي البناءة وأكثر ابتكاراً . وعلى هذا فنحن نعرف شيئاً ما عن الطريقة التي نحمل بها الأفراد على القيام بالسلوك التأملی غير المتناسق نسبياً ، الذي لا يمكن التنبؤ به (وعلى ذلك فهو غير متعين) .

ويظهر أن مسكن وآخرين كثيرين يعتقدون أننا إذا اعتبرنا أن الإنسان القدرة على أن يكون خلاقاً وموجهاً لذاته ، وعلى المبادأة باتخاذ مجرى للعمل وتغييره ، وحق إذا اعتبرناه متقلب الأطوار ، فإننا ندعى أن للإنسان القدرة بطريقة ما على الحصول على النتائج التي ليست لها أي مقدمات ، وإحداث الآثار التي ليست لها أي أسباب . إن ادعاء هذا ، من الوجهة الظاهرية ، أمر سخيف ما في ذلك شك . وعلى ذلك ، يجب أن ينتهي أولئك الأفراد إما إلى أن المصطلحات كمصطلح « تلقائي » و« متقلب الأطوار » تستخدم ببساطة للدلالة على الآثار التي لم نستطع أن نجد لها أسباباً ، وإما أن بعض السلوك الإنساني لا يخضع ببساطة للبحث العلمي ، لأنه سلوك تلقائي ومتقلب الأطوار بطبيعته .

هناك خطأ في مثل هذا النوع من التفكير ، فإذا أحدث الإنسان تأثيراً فهو عندئذ السبب في هذا . وهو لا يستطيع قطعاً أن يحدث « آثاراً لا سببية » . فعندما يحدث الفرد آثاراً تلقائية أو بمحض الهوى ، فربما كان من الأوفق أن نقول إن هذه الآثار غير متعينة من وجهة النظر الحسائية للقوى التي يصطدم بها الفرد . ومع ذلك ، فلا يعني هذا القول بأن حقيقة اتخاذ القرار تلقائياً أو بمحض الهوى أمر غير متعين في حد ذاته . ومن حسن الحظ أننا قد نعرف ما فيه الكفاية مما يساعدنا على التنبؤ بالوقت والظروف التي سيقوم فيها الفرد المعين بالسلوك أو لا يقوم بذلك السلوك بمحض الهوى .

ويقودنا هذا إلى الخطأ الثاني - ألا وهو أن العلم ، بحكم تعريفه تقريباً ، لا يستطيع أن يعالج الظواهر غير المتعينة . ويمكن أن نطرح هذا جانباً بكل بساطة بالإشارة إلى حقيقة علم الطبيعة السكمية . ولكن ربما قدمت لنا المناقشة القليلة لمعنى « غير متعين » مساعدة أكبر في هذا المجال . إننا نميز معنيين شائعين : أحدهما قد نطلق عليه المعنى العام ، والآخر نسميه المعنى الخاص .

ويختص المعنى العام بإمكانية تقدير أو التنبؤ بالحالة المستقبلية لأي تنظيم للعلاقات المادية، من الملاحظات المنظمة لحالتها في الماضي وفي الحاضر. وتدون مثل هذه الملاحظات بصورة تبين الوظائف، والترابطات غير المتباعدة وما إلى ذلك. فإذا مادونت مجموعة من الملاحظات بصورة ملائمة، فإنه يمكن حساب الحالات الأخرى لذلك التنظيم للعلاقات المادية في الماضي وفي المستقبل وذلك بالاستعانة بالحالة المعينة التي تعطى لنا. إن العلاقات قد رتبت طبقا للأسس العلمية. وبناء على هذا الفهم العلمي لذلك الوضع، إذا ثبت نجاح التنبؤ أو الإسقاط للحالات المستقبلية لتنظيم العلاقات، استطعنا أن نقول إذن إن التنظيم متعين. ومن جهة أخرى، يعتبر تنظيم العلاقات المادية تنظيماً غير متعين إذا لم نستطع ترتيبها ترتيباً سليماً من التنبؤ بحالاتها المستقبلية.

ويختص المعنى الخاص للشيء غير المتعين بطبيعة عدم التعيين بصورته العامة. ويجب أن تؤخذ المقاييس الدقيقة لكي نصف أو ننظم الحالات الحاضرة والماضية لأي وضع تنظيمي ملائماً. ولكن إن كل وسيلة معروفة للقياس تغير دائماً من الشيء الذي نقيسه. فإذا وضعت ترمومتراً في سائل لكي تقيس درجة حرارته، فإن درجة حرارة هذا «الترمومتر» ستغير درجة حرارة السائل تغيراً طفيفاً. ولكن، إن ما نريده هو درجة الحرارة المضبوطة للسائل فحسب — وليس للسائل «الترمومتر».

ويمكن إهمال مثل هذا النوع من عدم التعيين على هذا المستوى الإجرائي. ومع هذا، فإذا كانت العلاقات التي نود تنظيمها تنظيماً للدقائق الذرية التي لا تعين الذرة، فإن هذا النوع من عدم التعيين يصبح أساساً لعدم التعيين بصورته العامة. أو لفرض أن شخصاً ما يريد أن يصف أو ينظم النظام الاجتماعي للكائنات البشرية بطريقة عملية فإن أدوات القياس التي سيستخدمها هي عادة الملاحظات التألوفة والمقالات الشخصية، والاستفتاءات وما إلى ذلك. أما إذا أرسلنا فرقة للبحوث، بكل أجهزتها، لدراسة مجتمع محلي أو فرقة دراسية، فإننا بهذا نضع الأساس لعدم التعيين بصورته العامة.

وأخيراً، فقد يكون لعدم التعيين الخاص صفة شبه منطقية أو شكلية كنتيجة لطبيعة النموذج أو الخطة الإدارية المستخدمة. وربما كان زينو أول من اكتشف بعض جوانب هذه المشكلة، ووضع النتائج في صورة تناقض ظاهري فقد أوضح،

مثلا ، أنه ليس في مقدور الفرد أن يتصور بنجاح شيئا متحركا عند نقطة . معينة وفي لحظة معينة . وتبين قصته المشهورة عن السباق بين أخيل والسلحفاة أن الطريقة التي يدرك بها الفرد موقفا ما ، تضع قيودا عجيبة على المعلومات التي قد تنمينا . ولاشك ، أنه الممكن أن الحطط الإدراكية أو النماذج المستخدمة في بعض مجالات العلوم الحديثة . تحمل بين طياتها عدم تعين خاصاً من هذا النوع .

إننا نتعلم الكثير مما ذكرناه : إننا نعرف أن أى نوع من التوقع العام للتعين الشامل . لا يعتبر لب العلم . ومع ذلك ، فإنه هو الذى يحافظ على استمرار هذا العمل لأن الإنسان يستطيع أن ينظم كل شيء يصادفه ، بصورة أو بأخرى . ويمكن إدماج كل حادثة جديدة في النظام الموجود . مهما كانت جديتها أو غرابتها ؛ وذلك بعمل التعديلات المناسبة ، حتى ولو لم تكن هناك من طريقة أخرى لتحقيق ذلك سوى إضافة التفسيرات خصيصا لهذا الأمر . ولكن إذا لم يسمح ذلك التنظيم بالتنبؤات الناجحة — التنبؤ الناجح والضبط — فسيفقد الإنسان حتما إعجابه بالعلوم . ومع ذلك ، فإن ما حدث هو أن العمل كان ناجحا لدرجة ملحوظة ، وعندما يصادف العلم الحديث بعضا من عدم التعين الخاص فإنه يستحدث طرقا خاصة وعادة ما تكون طرقا إحصائية — لمعالجة ذلك الأمر . ويستمر العلم في تقدمه بنفس الطريقة التي يتحرك بها الجيش الحديث المستعد حول نقط المقاومة الصغيرة مع تصويب اهتمامه الاستراتيجي نحو الأهداف الأكبر .

ولا يثبت أى شيء من هذا أن العالم عالم جبري ، وليست سلاسل التنبؤات الناجحة بضمان إطلاقا على أن المستقبل سيستمر في تشابهه بالماضي . ولكن هذا يشير ، أولا ، إلى أن العلم يبدأ بتوقع تعين عام ، وثانيا (وهذه هي نقطة بحثنا في هذه الأمور) إننا لانجأ في اتباع الطريقة العلمية عندما نؤكد أن مظاهر السلوك الإنساني غير متعينة ، على حين نطالب بشدة في الوقت نفسه بتنمية نظرية (علمية) للثرية . وباختصار ، إننا نعرف الآن شيئا عن كيفية حمل التلاميذ على زيادة أو نقص ممارستهم للاختيار الحر . ومع هذا ، إننا في الحقيقة ، في حاجة ماسة إلى دراسة علمية عميقة لهذا الموضوع .

بعض الاقتراحات الأخرى

من الواضح أنه رغم استطاعتنا حاليا أن نطور النظرية التي اقترحناها باختصار تطويرا كاملا ، وأن نبحث أيضا في ضوء هذه النظرية ، معنى التطورات الجارية في علم

« النفس ، وعلم الاجتماع وما إلى ذلك لتطبيقها تربويا ، إلا أننا نستطيع أن نفعل هذا في حدود فصل واحد . ومع ذلك ، فقد نخدم بعض الاقتراحات الأخرى القليلة في تحديد الطريق الذي يجب أن يتخذه البحث الأدق لهذا الموضوع .

لقد أثرت بعض التطورات التي تمت في السنوات الأخيرة في علم النفس الاجتماعي ، واجتماعيات التربية تأثيرا كبيرا في عدد كبير من المعلمين وهيئاتهم . فلقد استخدم بعض أفراد المعلمين ما يسمى « بالطرق السوسيومترية sociometric لتحليل عمليات « اجتماعية الأطفال » . وكانت جمعية تطوير الإشراف الفني والمناهج (وهي نوع من الجمعية الأهلية للتربية) نشطة في نشر المعلومات والاقتراحات الخاصة بديناميات الجماعة . فإذا ما طبقت هذه المعلومات في حجرة الدراسة ، علاوة على نظرية تربوية كاملة التطور أيضا ، فلا بد أن يحصل المعلم من ميدان ما على مجموعة من الأهداف أو الأغراض الموجهة لكي يعمل على توجيه العمليات التي يقوم بضبطها . إن هذه الأهداف الموجهة ، ما في ذلك شك ، أهداف فلسفية في طبيعتها إذ أنها تمثل فلسفة جيدة أو سيئة على حسب ما تقتضيه كل حالة . ولا يستطيع العلم بمفرده أن يمدنا بهذه القدرة على التوجيه . وينبع الخطر في هذا المجال من أننا نميل إلى نسيان التعذير الذي وجهه أحد قادة العلم المشهورين ^(١) في هذا المجال من الدراسة . إنه يقول « . . . يمكن لرجل احصابات والطبيب على السواء أن يستخدم النتائج التي توصلت إليها العلوم الطبيعية والاجتماعية ، كما أنها قد تستخدم في الحرب وتستخدم في السلام ولتدعيم نظام سياسي معين أو آخر . »

وعند افتقارنا إلى نظرية تربوية محددة ، فمن المحتمل أن يعثر المعلم على مثل هذا الهدف الغامض وهو « مساعدة التلاميذ على أن يصبحوا مواطنين سعداء أسوياء . » فما معنى مثل هذا الهدف من الناحية الإجرائية ؟ وقد ينشد المعلم العون من أرسطو مثلا فيعرف أن المواطن السعيد هو الذي يشعر بالسرور عندما يقوم بأعمال تقتضى العدالة ، أو الشجاعة أو ضبط النفس ، كما أنه موجه نحو تحقيق الرفاهية لجميع الأفراد . وإنه لا أكثر احتمالا أن يلتقط المعلم المعنى حرفيا ، في أغلب الأحيان ، من الهواء - أي من الموجات الهوائية للراديو والتلفزيون حيث تقدم لنا النصائح بأن « نكون اجتماعيين » وأن « نحافظ على شبابنا وبشرتنا وجمالنا » . إنه يقال لنا هنا أن « نعيش وفق مطالب الحياة الحديثة » وأن الطريقة الأمريكية

(١) Kurt Lewin, Resolving Social Conflict (New York : Harper Brothers, 1948), p. 83.

هى أن « نرقى بالنوع » ويؤكد لنا أنه يجب علينا أن نبعث « أكثر عن الأشياء الأخرى فى الحياة » كالبيئة الفاخرة مثلاً .

ولقد أثبتت هذه المعرفة العلمية للسلوك الإنسانى قوتها فى ميدان الإعلانات للجواهر . فالمعرفة قوة هنا . إن الشخص الذى يود أن يبيع سلعته واضح فى هدفه ، كما أن المعرفة العلمية الخاصة بأسباب ونتائج السلوك الإنسانى تعتبر أداة فعالة . وعند افتقارنا لنظرية تربوية تهتم بالقيم السلوكية ، فمن المحتمل أن نستخدم نفس هذه المعرفة فى حجرة الدراسة لحل التلاميذ على السلوك وفقاً لخصائص « المواطن ذى الدرجة الكبيرة من التعلم » .

فإذا استعرنا ما يقوله برنارد شو فإن نتائج مثل هذا التعليم قد تبلور كما يلى :

ألا يكون الفرد اجتماعياً حقيقة ، بل مجرد شخص يعيش مع الجماعة .

ألا يكون الفرد على خلق حقيقة ، بل مجرد شخص يحافظ على التقاليد .

ألا يكون الفرد رحيماً فى قرارة نفسه ، ولكنه عاطفى بحسب .

ألا يكون كريماً ، بل استعطافياً فقط .

ألا يراعى شعور الآخرين ، ولكنه مؤدب بحسب .

ألا يكون متمسكاً بالفضيلة ، بل جباناً فقط .

ألا يكون مخلصاً ، ولكنه حقير ذليل بحسب .

ألا يكون معتاداً حب النظام ، ولكنه مملوء بالرعب والخوف .

أو قد يصبح هذا النتاج كما يلى :

ألا تسيطر عليه الروح الوطنية ، ولكنه مجرد شخص وطنى .

ألا يعيش حقيقة مع الجماعة ، ولكنه يميل إلى الشجار فقط .

ألا يكون ذا سيطرة حقاً ، ولكنه شخص متسلط فقط .

ألا يكون مثابراً ، ولكنه عنيد فقط .

ألا يكون محترماً لذاته ، ولكنه ممتلىء غروراً فقط .

ألا يكون ذكياً ، ولكنه مكابر فقط .

ألا يكون خيالياً ، ولكنه مؤمن بالخرافات فقط .

ألا يكون عادلاً ، ولكنه يميل إلى الانتقام فقط .

وباختصار ، إن نتائج مثل هذا التعليم قد تكون مجرد أشياء تحفظ في المدرسة ولا تعمل حقاً على تربية التلاميذ .

ويجب على التربية ألا تخلط إطلاقاً « زيادة ضبط توجيه مجرى الخبرة التالية » بازدياد التكيف مع أى اتجاه تسير فيه الخبرة التالية . « وليس هناك من شيء معطل للتربية أكثر من المذهب الذى روجه أولا المثاليون المطلقون فى ألمانيا ، والذى يتشدد به الآن صورهم المعكوسة — وهم الماديون المطلقون فى روسيا — وهو أن « الحرية تتكون من الاعتراف بالحاجة » . إن هذا تفكير مزدوج فى أحسن صورته ؛ إذ أنه لا يعطى الحرية إلا لأولئك الذين فى يدهم سلطة تحديد معنى « الحاجة » (وحتى سلطتهم هذه تحد فى النهاية بحكم الحاجة للبقاء فى الحكم) .

ويجب ألا ندع هذه الحقيقة تغيب عنا حيث إننا نميل جميعاً إلى أن ننخدع فى كل ما يتعلق بقدرتنا على المحافظة على حرية التفكير . ونحيل إلى الكثيرين منا ، كما لاحظنا فى الفصل الأول ، أنه مهما أبعدنا جانباً ، أو مهما تحكمت الإدارة فىنا بدهاء ، « فلن يستطيع أى إنسان كائناً من كان ، أن يمنعنا من التفكير فى أى شيء نريده فى أى وقت نشاء » . والحقيقة هى أننا قد نحمل إما على اختيار ممارسة حرية التفكير وإما على اختيار عدم ممارستها . ويستتبع هذا أن التربية التى خططت لأعضاء المجتمع الحر يجب أن تشجع التلاميذ على اختيار ممارسة حرية التفكير وربما نكون فى بعض المناسبات شرسين بما فيه الكفاية لممارستها ، لا لسبب سوى أننا نريد ممارستها لمجرد الممارسة فقط . وأيضاً ، يجب أن نلاحظ أنه عندما يكون التنظيم أمراً سائداً فى المجتمع ، فإن قيمة التفكير التأملى الناقد غالباً ما تكون قيمة هامشية للغاية لى تكون حافزاً كافياً لتطور ذلك التنظيم نفسه .

القسم الرابع

التفكير الناظمي كهدف وطريقة

إنه لأمر مألوف وصحيح أن نتجه إلى المعلم وعاداته عندما ننظر بعين الاعتبار إلى موضوع تنمية النشاط التأملى للتلاميذ . إن الفرصة لتنمية التفكير تنبع من حجرة الدراسة أو قد تخلق فيها فيما يتعلق بالتربية الشكلية . إن حجرة الدراسة هي المكان الذى يكشف فيه المعلم عن قوته أو ضعفه . كما أنها المكان الذى يبين فيه فهمه للعملية التربوية والأهداف التى يجب أن تحققها .

ومع هذا ، فهناك نقطة غالباً ما نهملها . إن المعلمين يعتمدون على نوع الموقف الذى يقومون فيه بالتدريس ، كما يعتمد التلاميذ على نوع الموقف الذى يتعلمون فيه . ويتكون الجو الدراسى (أو ربما نقول بإيجاز أكبر ، الجو التعليمى ^(١)) من عدة عوامل تتدرج من قيم المجتمع إلى مهام القراشين فيها . إن نوع القيادة الإدارية هي الحقيقة الرئيسية التى تربط جميع تلك العوامل الأخرى بعضها ببعض . كما أنها هي التى تعمل على تشكيلها وتهيشها .

وتظهر الصعوبات الأخرى عندما يختلط الأمر على المعلمين ، بصفهم مواطنين وأعضاء في جمعيات مهنية ، فيما يختص بالتزاماتهم ومعنى هذه الالتزامات في الظروف المحلية المعقدة .

ورغم كل هذا ، فإن في استطاعة المعلمين كأفراد أن يقوموا بالشئ الكثير للدفع بقدره تلاميذهم على التفكير التأملى حتى في ظل الظروف غير المواتية .

(١) Ordway Tead, The Climate of Learning : A Constructive Attack on complacency in American Colleges; The First John Dewey Society Lecture (New York ; Harper & Brothers, 1958).

الفصل الثاني عشر

حجرة الدراسة كاستمرار للتفكير التأملی

غالباً ما يقال إن التلاميذ يتعلمون رغماً عن أنف بعض المعلمين . وقد يقال أيضاً إن بعض المعلمين يدفعون بتفكير تلاميذهم قدماً رغم الظروف التي يعملون في ظلها . وليس من السهل أن تضيق الخناق على العقل النشط . إن هذه الحقيقة جديرة بالاهتمام لهذا السبب ؛ إذ يؤمن معظم المعلمين أنه من المستحيل أن يرقوا بتفكير تلاميذهم إلا إذا تمت إعادة تنظيم المناهج على نطاق واسع أولاً . وعلاوة على هذا ، فهم يؤمنون باستحالة ذلك الأمر إلا إذا أحللتنا الكثير من الأدوات الدراسية وخطّة الدراسة المرنة محل الكتب المدرسية وجداول الدراسة الجامدة .

حقاً إن مثل هذا النوع من التنظيم على نطاق واسع يسهل الأمر للقيام بمحاولات في التدريس تختلف اختلافاً ملحوظاً عن الطرق المتبعة المقيدة بأدوات قليلة وأنماط جامدة . ومع هذا ، فإننا لا نعدو الحقيقة أيضاً إذا قلنا إن النتيجة النهائية لكثير من إعادة التنظيم هي بكل بساطة أن تتيح الفرصة للعادات القديمة للمعلمين لتعمل بشكل إجرائي في بيئة جديدة . وعندما تجد البرامج الجديدة طريقها عبر طرق التدريس التي لم يعد بناؤها ، فإن إعادة التنظيم سيبقى حبراً على ورق ، ولن تكون له قيمة سوى أنه مادة تستخدم أساساً لتوطيد العلاقات العامة للمدرسة . ومن الوجهة الظاهرية ، قد يبدو أن الموقف الجديد يقسم بدرجة أكبر من الحرية للمعلمين والتلاميذ ، ولكن غالباً ما يكشف التلاميذ أن حجرات الدراسة الأوسع ، وفرصها الأكبر للحركة لا تحررهم أوتوماتيكياً من حصار القيود الفكرية التي أوجدتها عادات التدريس القديمة .

المعلم هو نقطة الارتكاز

إن نقطة الهجوم لتحقيق إعادة بناء التربية إعادة ذات معنى — في حجرة الدراسة وعلى المستوى الذي يلتقي عنده العقل بالعقل — هي إعادة بناء قيم المعلم . إن إعادة التنظيم

هذا لأمر ضروري لخلق جو تلمسی تأملی . ولكن باختصار ، إن إعادة بناء قيم المعلم هذه ، هي التي لها القيمة النهائية في أي إعادة لتنظيم المنهج .

وعلى هذا يجب ألا نسأل أنفسنا عما يستطيع المعلمون القيام به إذا أسعدهم الحظ وحصلوا على المباني الجديدة ، والمواد الدراسية الوفيرة ، وجداول الدراسة الأقل جموداً (ولو أننا نتمنى مثل هذا الحظ السعيد لجميع المعلمين) ولكن نسأل أنفسنا عما يستطيعون القيام به لتحسين جو التعلم في ظل الظروف الأكثر تشييطاً ، وهي التي يواجهها معظمهم . ويشعر الكثير من المعلمين بالإحباط لأنه بعد اكتسابهم للبصيرة بالتدريس في ظل الظروف المقترحة إلا أنهم لا يستطيعون تكرار ما يقولونه في فصولهم . وعلى هذا فهم يحسون دائماً بأنهم غير صالحين ويلقون اللوم إما على أنفسهم وإما على الظروف التي تحد من أدائهم لعملهم . فإذا ألقوا اللوم على أنفسهم ، فإنهم يقاسون من الشعور بالذنب ، وهي حالة قد تؤدي إلى فساد أكبر للعلاقات بينهم وبين تلاميذهم . أما إذا ألقوا اللوم على الظروف فقد يصبحون ساخرين ، ويتخذون اتجاه من يقولون : « لماذا نحاول ؟ إنه لا يمكن القيام بأي شيء على أية حال » .

ومع هذا ، فإن كل معلم — بحكم طبيعة التدريس نفسه — في موقف يسمح له بإدخال قيمة تأملية على علاقاته بتلاميذه . ويصدق هذا حتى على أولئك المعلمين الذين يعملون في ظروف يمكننا أن نصفها بحق بأنها ظروف متأخرة أو بدائية . ويشترك جميع المعلمين في عملية التقادم . ويتضمن هذا العمل ، إذا كان عملاً ناجحاً ، مشاركة في المعاني . ويرجع فشل هذا غالباً إلى الفشل في فهم أن القدرة على ترديد كلمات الشخص الآخر لا تتساوى مع فهم المعاني المقصودة . وعلى ذلك يسأل المعلمون الأسئلة ليحصلوا على إجابات صحيحة أو مناسبة . وتمتلىء نفوسهم بالسرور إذا نجحوا في ذلك ، كما يشعرون بالاضطراب إذا فشلوا . فإذا ما نجحوا فإنهم غالباً ما يمتدحون تلاميذهم لأنهم كانوا مستعدين ، ولأنهم كانوا يفكرون . أما إذا ما فشلوا ، فإنهم يصبون عليهم اللعنة . وهم مخطئون في كلتا الحالتين .

ولا تقوم قدرة التلميذ على إعطاء الإجابة الصحيحة (أو لنعبر عن هذا بصورة أدق ، القدرة على استخدام الكلمات المتقبلة على أنها صحيحة) دليلاً على أنه يفهم ما قد عبر عنه . ولقد أشارت مناقشتنا للغة إلى هذا عندما لاحظنا الفرق الهام بين

القدرة على النفوذ ، والقدرة على الكلام (١) . ويمكن إجراء اختبار بسيط لتعيين هذا الفرق . إننا إذا عملنا هذا الاختبار فإننا نتخذ الخطوة الأولى للبدأة بخلق جو تأملی فی حجرة الدراسة .

عندما يتقوه التلميذ ، يجب على المعلم أن يشجعه على الكلام بسؤاله سؤالاً آخر . وعلى ذلك تبدأ عملية التساؤل في المعاني . إن كل ما يحتاج إليه المعلم من أدوات لعمل هذا هو معرفة المادة الدراسية التي تزيد إلى حد ما عن المادة الدراسية التي تكشف عنها صفحات الكتاب المدرسي المعد إعداداً جيداً ؛ كما أنه يحتاج إلى خيال خصب ، ورغبة في اللعب بالأفكار ، وشجاعة كافية للسير قدماً دون أن يعرف تماماً إلى أين سيقوده مجرى الأسئلة . ولا شك أن هذه أداة تستحق الاعتبار ، ولكن لا يحصل عليها المعلم (أو ربما كان من الأفضل أن نقول إنه لا يخلقها) إلا عندما ينمو في تكوينه المفهوم الصحيح لواجبه كمعلم . وهذا لا يحتاج إلى الانتظار لحين اتخاذ إجراءات إدارية .

ويجب على المعلمين أن يعرفوا أن الإجابة المبدئية التي يتلقونها من أي تلميذ ما هي إلا نقطة البداية لعملية يبدى فيها كل من المعلم والتلميذ استعداداً للاشتراك في عملية التفاهم حتى يتم اكتساب الفهم والمشاركة فيه . وليست تلك الإجابة بالنقطة التي نقف عندها لنضع درجة في دفتر تسجيلنا . والحقيقة هي أنه ليست « للإجابة الصحيحة » أي قيمة تربوية أكثر من الإجابة الخاطئة . إن ما يفعله المعلم بعد الحصول على الإجابة هو الذي سيحدد وظيفتها التربوية .

ويمكن أن تتاح للتلميذ الفرصة لاختبار إجاباته عن طريق عملياته الإجرائية الخاصة به في العمل (أو في المشروعات الميدانية في الزراعة مثلاً) وقد نعطيه بعض التوجيه ، ونسمع له بأن يقوم باكتشافاته وبأن يتولى شرحها . ومع هذا ، فإن الأمر متروك للمعلم في حجرة الدراسة العادية لكي يخلق موقف الاختبار ، وذلك بعمل الاكتشافات ومناقشته لتلاميذ فصله تولى شرحها . أو بمعنى آخر ، يتولى المعلم تقديم الحقائق التي تساند أو تدحض الإجابات (الاقتراحات) التي يعرضها تلاميذ فصله . ويحقق المعلم هدفاً مزدوجاً باتباعه هذا الإجراء - فهو لا يقود تلاميذه خلال عملية التفكير لمراجعة صلاحية معانيهم فحسب ، ولكنه أيضاً يوسع دائرة نشاطهم المفهومي ويزيده إشباعاً عن طريق المعلومات الوفيرة التي يقدمها فيما يختص بالمشكلة التي يبحثونها .

فمثلا : قدم تلميذ مرة اقتراحا في الفصل بأن « البخار يتكاثف عندما ترتفع درجة الحرارة . » وكان التلميذ مخلصاً في إعطاء تلك الإجابة ، ولكن المعلم بدلا من أن يقول : « لا ، إن هذه إجابة خاطئة ، أجب أنت يا جورج » (وكان جورج وعدة تلاميذ آخرين رافعين أيديهم دلالة على أنهم يعرفون أن الإجابة خاطئة) ، تولى المبادأة بسلسلة من الأسئلة ليضطر التلميذ « أن يناضل » للحصول على الإجابة الصحيحة . لقد أشار المعلم أنه عندما يدخل الشخص الذي يلبس نظارة حجرة دافئة في أيام باردة الجو ، فإن زجاج نظارته يغطي بطبقة من البخار . وسأل بعدئذ عما إذا كان الاقتراح يعلل هذه الحقيقة . وابتدأ التلميذ في توضيح أن الجو في الحجرة كان دافئا ، وعلى ذلك فإن ارتفاع درجة الحرارة هو السبب . ولما سئل عن قطرات الماء التي تراها على الزجاج الخارجى لدورق من الماء المثلج في الصيف ، والجليد الذي نراه على شارب الرجل في الشتاء ، وبرودة أنابيب التلاجة الكهربائية في الجو الحار ، والبخار الذي نشاهده على زجاج النوافذ شتاء ، والظاهرة العامة للجليد ؟ أوضح التلميذ — وهو يشعر بالرضا في كل حالة — أن ارتفاع درجة الحرارة هو السبب . فالجو الحار كان محيطا بالدورق ، وكان نفس الرجل أدفا من الهواء الذي استنشقه ، وكان الهواء الدافئ محيطا إحاطة تامة بأنابيب التلاجة الكهربائية ، وكان الجو بالعرفة دافئا ولذلك تبخر الهواء الأكثر قربا من زجاج النافذة ، كما أن سخونة الأرض هي السبب في وجود الغلاف الجليدى المعتاد في الليالى التي يحوم فيها الهواء البارد فوق الأرض .

وكان هذا التلميذ يبارى المعلم في الفطنة بكل شغف . وكلما استمرت العملية ، كان يبدو للعيان أن بقية تلاميذ الفصل يؤيدون جانبنا على آخر ، على الرغم من عدم اشتراكهم علانية . ومن الواضح أن المعلم استمر في ذكر الحقائق المختلفة المتعلقة بالاقتراح ، مع معرفته أن التلميذ في كل حالة سيزيد من توطيد موقفه أكثر بشرح تلك الحقائق في ضوء الفرض الذي وضعه . ومن الواضح أيضا أن الأمر متروك للمعلم (أو تلاميذ الفصل إذا اتجه هو إليهم) لكي يورد حالة متعارضة ، أو موقفا خاصا لا يتفق وذلك الفرض . فإذا لم يتم هذا ، فيجب على التلميذ أن يذعن لحصوله على إجابة معقولة ظاهريا لمشكلة التكشف . وعلى ذلك وصف المعلم في النهاية حالة البخار المتسرب من الغلاية التي تغلى ، وكما قلنا سابقا استمر التلميذ في متابعة الفرض الذي وضعه ، على الرغم من أنه كان أقل تأكدا . وعندما ابتدأ المعلم في سؤال

التلميذ عن سبب وجود السحب فوق رؤوسنا إذا كانت إجاباته هي التفسيرات الصحيحة ، صاح التلميذ في الحال : « يتكثف البخار عندما تنخفض درجة الحرارة . » وبعدئذ استرجع بسرعة — تحت إشراف المعلم — جميع الحالات التي أخطأ في تفسيرها ليبين أن انخفاض درجة الحرارة كان هو السبب في كل حالة .

ويقدم لنا هذا الشرح حالة واضحة من حالات التفكير . كما أنه يقدم أيضا حالة يشترك فيها الفصل بأكمله في النشاط الفكري الضروري لمتابعة المشكلة إلى نهايتها على الرغم من تركيز إلقاء الأسئلة على تلميذ واحد . ويختلف اتجاه هذا المعلم الذي علق على موقف تفكيرى مشابه بقوله : « إن هذا مضيعة للوقت . أخبر تلاميذ فصلك أن هذا الشيء صحيح أو خطأ . » وينتمى المعلم الأخير لمجموعة كبيرة من الأفراد الذين يؤمنون بأن « الوقت » هو العامل الأوحـد الجدير بالاعتبار في ميدان التربية . وعلى هذا ، فإنه لأمر طبعى للغاية ألا يكون للتفكير مكان في خططهم ؛ إذ أنه يستغرق فعلا بعض الوقت .

ويجب أن نبين نقطة أخرى هنا ؛ لقد اشترك جميع أعضاء الفصل في هذه التجربة على الرغم من أنه لم يشترك سوى عضو واحد فقط اشتراكا ظاهريا . وربما يتم الاشتراك التأملی ، حتى ولو أن المراقب للموقف قد لا يرى سوى « شخص هادى » وأوضحت إحدى المجلات هذه النقطة ؛ إذ أنها بعد أن ظلت صامتة في حلقة بحث خاصة لمدة أسبوعين ذهبت لتشكر الأستاذ لتوفيره الفرصة لها . كما عبرت هي بقولها . « لأنك أتحت لى الفرصة ، مرة في حياتى ، لأشترك بعقلى بدلا من أن أشارك بلسانى » .

وظيفة السؤال

يلقى الكثير من المعلمين الأسئلة على تلاميذهم بطريقة تدل على أنهم لم يسألوا أنفسهم إطلاقا عن الغرض الذى دفعهم إلى ذلك . وهذا هو السبب فى أنه من الممكن إلقاء هذه القائمة الطويلة الخفيفة من الأسئلة فى حصة دراسية واحدة عندما تكون مادة الكتاب جاهزة بين أيدي التلاميذ . وهذا هو السبب أيضا فى أنه عندما ينسى التلاميذ الكتاب ، يجب أن تكرر الأسئلة . وتكرر ثانية . ويضاف إليها الأسئلة الإضافية . وهذه نتيجة تجعل العملية التعليمية عملة لكل من يشترك فيها .

ولا شك أن اكتساب المعلم للمهارة والثقة في استخدام إجابات التلاميذ كنقطة انطلاق تساعد على الانتقال بسرعة للاشتراك معاً في عملية التفكير يحتاج إلى التروى والتسهل . ولكن هنا ، كما يصدق على تعلم السباحة ، يجب على الفرد أن ينزل إلى الماء قبل لكي من اكتساب القدرة على السباحة . وكما لاحظ أرسطو ، أن حلول فصل الربيع لا يتعدد بظهور عصفور واحد للجنة ، أو بحلول يوم صافى الجو .

إن المعلم الذي يقطع جزءاً من وقته ليسأل نفسه : « لماذا أسأل أنا هذا السؤال ؟ » يكتشف عدة أسباب مناسبة لإنجاح أغراض مختلفة . فربما كانت حاجة المعلم لذلك — في فترة ما — هي لمعرفة المعلومات التي لدى التلاميذ حتى يستطيع أن يخطط بذلك لجهود القادة في التدريس . وربما كان إلقاء سلسلة من الأسئلة الرئيسية أسرع طريقة لاكتشاف هذا . والطريقة الأخرى هي استخدام اختبار موضوعي يغطي مجالاً معيناً من المعلومات . فإذا استخدمت مثل هذه الاختبارات استخداماً تشخيصياً في بدء العلاقة بين المدرس وتلاميذه ، فقد تسهم لدرجة كبيرة نحو جعل هذه العلاقة علاقة مثمرة . ولا تقل حاجة المعلم إلى معرفة المعلومات التي يحملها التلاميذ معهم إلى حجرة الدراسة عن حاجته إلى معرفة مواهبهم الخاصة وبيئتهم الاجتماعية واهتماماتهم الشخصية . ورغم هذا ، فإذا استخدمت مثل هذه الاختبارات كأدوات مضبوطة ، أو لم يستخدم سواها لقياس تقدم الفصل في نهاية الحصة ، فإنها ستحيل إلى أن تنحرف بالعملية كلها وتحولها إلى تمرين ممل في الحفظ . ولا شك أن التلاميذ يكتشفون مبكراً نوع الاختبارات التي تتوقع منهم في كل مادة ، ومن الطبيعي أن يتلون إدراكهم للخطوات اليومية التي يتخذها المعلم أثناء تدريسه نتيجة لمعرفةهم الساحة لهذا الهدف النهائي .

وهناك مناسبات أخرى تلقى فيها الأسئلة لأسباب تختلف عن الأسباب السابقة ؛ فقد يسأل المعلم خصيصاً للحصول على معلومات معينة (كما هو الشأن في مختبر الكيمياء مثلاً) وذلك لكي يمنع تلميذاً أو مجموعة من التلاميذ من ارتكاب خطأ يعرف هو أنه سيعود بنتائج خطيرة عليهم شخصياً . وفي بعض الأحيان ، قد يسأل المعلم بعض التلاميذ المعينين لمجرد أن يعرفهم أن خدعهم لم تنطل عليه ، أو لأن يقود التلاميذ الهيايين برفق نحو اكتساب الثقة بأنفسهم بوسائلهم أسئلة تساعد على اتخاذ الخطوات العقيدة (١٨ — التفكير التأملی)

بثقة متزايدة . ومع ذلك ، فإذا عرف المعلم وظيفته دائماً على أنها تحرير للأفراد الصغار بصورة تساعد على الحصول على الحرية خلال جهودهم الفردية الخلاقة أثناء العملية التأملية ، فسيكف عن التفاخر بأنه معلم يجيد عمل الاختبارات ، وسيعمل على دمج التلاميذ بروح سقراطية لكي يحققوا الربط بين أنفسهم والمعرفة التي يكتسبونها .

وضمن أ . هـ . ماسلو^(١) هذه النتيجة في تقريره عن دراسة الأفراد الذين يحققون ذواتهم ، وهي «دراسة للصحة النفسية» كما يشير عنوان الدراسة :

إذا أخذنا علاقة المعلم بالتلميذ كمثال معين ، فإننا نجد أن العينة التي أخذناها من المعلمين كانت تسلك طريقة غير عصابية للغاية لأنهم بكل بساطة كانوا يفسرون الموقف كله بطريقة مختلفة ، كمزاملة سارة ، بدلا من اعتباره موقفاً تتصارع فيه الإرادات والسلطة والكرامة الخ ، وإحلال البساطة الطبيعية الى لا تهدد بسهولة بدلا من الكرامة المزيفة التي يسهل تهديدها لا محالة ؛ والإقلاع عن ادعاء معرفة كل شيء ، والقدرة على كل أمر ؛ وعدم وجود ديكتاتورية تهدد التلاميذ ؛ ورفض اعتبار التلاميذ أفراداً يتنافسون فيما بينهم أو ينافسون المعلم ؛ ورفض افتراض أن «الأستاذ» صورة لفرد تنقصه نواحي الذاتية والابتكار ، والإصرار على أن يستمر في بقائه إنسانا بحق — كالسباك أو النجار مثلا . ولقد خلقت كل هذه جوا دراسيا اختفت منه عوامل الشك ، والحذر ، والمدافعة ، والعداوة والقلق .

وإحدى الطرق ، التي تناقشها هنا ، التي قد يصبح فيها المعلم «إنسانا بحق» ويستمر هكذا ، هي أن يعالج الإجابات التي يدلي بها التلاميذ (أو في الحقيقة ، الأسئلة التي يثيرونها) كبداية لخطوة مشتركة من «المزاملة السارة» التي تستهدف اكتساب التبصر الذي سيساعد على زيادة كل من الضبط العقلي لجميع التلاميذ ، وبالتالي السهولة التي يقدمون بها على عمليات التعلم الأخرى .

(١) A.H. Maslow, Self-Actualizing People : A Study of Psychological Health" in Clark E. Moustakas, ed. The Self (New York: Harper & Brothers, 1956) Ch. XIV pp.190-191

ولا شك أنه من المهم أن يصوغ المعلم الأسئلة بعناية . ويجب عدم الدخول في التساؤل الفكري مصادفة . ولكن ليست هناك من قاعدة موحدة تتبع ، كما اعتقد البعض سابقا ، لكي نفرق بها بين « السؤال الذي يحتاج إلى تفكير » و « السؤال الذي يحتاج إلى ذاكرة » . ويمكن أن يستخدم أى سؤال كاستهلال للتفكير ، إذا ما نظرنا إليه كوسيلة للحصول على إجابة قد نضعها موضع الاختبار التأملی . إن المشرف الفنى الذى قال فى أحد المؤتمرات إنه نصح المعلمين باستخدام الأسئلة التى تحتاج إلى تفكير — كهذا السؤال مثلا : هل توجد جنيات الآن يا أطفال ؟ — بدلا من الأسئلة التى تحتاج إلى ذاكرة — كهذا السؤال مثلا : متى اكتشف كولبس أمريكا ؟ كان لديه إيمان أكثر مما يجب بما تأتى به اللغة من عجائب . إنه أيضاً وضع المعلمين فى موقف جعل تلاميذهم ينظرون إلى تلك الأسئلة على أنها أسئلة غير هامة أو سخيفة .

إن ما يحتاج إليه المعلم المبتدىء (أو أى معلم مبتدىء جاد فى اتخاذ نمو التفكير هدفاً له) على وجه الخصوص عندما يصمم الأسئلة التى سيثيرها مع تلاميذه ، هو أن يقوم ببعض « التدريس » الخيالى قبل أن يلتقى بتلاميذه . وعندما يفعل هذا ، فإنه سيسقط الأسئلة التالية التى سيثيرها مع تلاميذه الذين ستكون إجاباتهم صحيحة لكى يساعدهم على تنظيم الأدلة التى تؤيد موقفهم . وكذلك ، إنه سيسقط الأسئلة التى سيثيرها مع تلاميذه الذين ستكون إجاباتهم خاطئة لكى يوجههم فى إعادة تكوين إجاباتهم ، وذلك بتقديمه للحقائق والمواقف التى تتعدهم لعمل ذلك وسيؤدى اتخاذ هذا الموقف نحو التخطيط (وسيتعلم الفصل الجيد حقاً مرات كثيرة قبل أن يلتقى به المعلم) إلى زيادة براعة المعلم ومراته فى معالجة المواقف حتى ولو كان معلماً لم تتح له إلا فرصة محدودة جداً لتغيير النظام المدرسى الجامد .

وإنه لمن الخطأ أن نقترح أنه على المعلم أن بهجم على كل إجابة ويفندها بنفس الغضب والإصرار الذى يهز بهما كلب الصيد الفأر الذى يصطاده . وليس هناك من بديل للحساسية وللذكاء من جانب المعلم فى هذا المجال أو — فى الحقيقة — فى أى عمل آخر . ويجب ألا يؤدى التخطيط الذى نقترحه هنا ، مثلاً ، إلى تكوين نمط ثابت لإلقاء الأسئلة ليتبعه المعلم دون أن يحيد عنه . إن المعلمة التى بدأت حصتها فى مدرسة إعدادية بقولها : ان الدرس سيتناول معالجة قصيدة كتبها روبرت بيرنز ، ثم قوبلت بالصمت عندما سألت التلاميذ : « ماهى القصائد الأخرى التى قرأتموها لروبرت بيرنز ؟ » ،

يجب عليها ألا تدهش لاستمرار الصمت عندما سألت سؤالها التالى الذى كانت قد أعدته من قبل وهو : « وما هو مدى إعجابكم بها ؟ » ويجب على المعلم أن يتعلم — كالللاكم — كيف يتكيف مع الموقف كما يتمايل الملاكم مع الضربات التى توجه إليه . إننا نقترح ببساطة تطور جو حجرة الدراسة ، بحيث يكون من الطبيعى أن يتوقع التلاميذ « إظهار الأدلة » على حين يعرفون فى الوقت ذاته أنه ستتاح لهم الفرصة بروح رياضية لكي يتحسنوا إذا ما أخطأهم التوفيق . يجب أن يكون ذلك الجواب بحيث يعتبر فيه التلاميذ أنفسهم مساهمين فى عمليات البحث والاكتشاف ، وهى العمليات التى تغذى الروح التأملية .

علاقة الثقة أمر ضرورى

حيثما يستمر التفكير ، فاحتمال الخطأ موجود (إذ لو عرفت الإجابات دائماً كلما واجهتنا الأسئلة لانعدمت فرص التفكير) ولكن إذا أئحنا للتلاميذ الفرصة لكي يخطئوا فيجب أن نقدم لهم الضمان — الذى لا يوفره إلا نوع الموقف فقط — بأن المعلم لن ينزل بهم الأذى إذا اختلفت إجاباتهم عن إجاباته هو . ويعلم جميع المعلمين كيف ينطوى التلاميذ عندما يحسون بأنهم منبوذون . وإن نبذنا لإجابة التلميذ باستبداد هو فى الحقيقة نبذ للتلميذ نفسه . إنها فضيحة قومية . إن الكثير من المعلمين يستخدمون الطرق التى تعمل على نبذ التلاميذ كحيل لجعل التلاميذ ينطوون إلى مكان الخضوع الملائم حيث إن يثيروا للمعلم أى متاعب أخرى . وإنه لأمر يتضاعف فيه العار حيث إن مثل هذه الطرق — كما هو معروف جيداً — لن تقلل من متاعب المعلم .

ولا عجب أن الكثير من التلاميذ يرتابون عندما يسمعون المعلم يعلن لهم ما يأتى : « إننى أتوقع منكم فى هذه المادة أن تقوموا بتفكيركم الخاص . » وأحياناً يجد بعض مدرسى الكليات طالباً صريحاً بما فيه الكفاية بحيث يرد عليه قائلاً : « إننى وثقت بأستاذ قل هذا الكلام فى الفصل الدراسى السابق وقد دفعت ثمن هذا غالباً . كيف أعرف أتى أستطيع أن أثق بكم ؟ » إن هذا السؤال سؤال عادل . ويسكتشف الطلبة فى أغلب الأحيان — حتى فى قاعات الدراسة بالكليات حيث يؤدى نضج الطلبة إلى نتيجة مختلفة — أن التفكير و « اتوافقة » مصطلحان مترادفان . وحيث لاتتوافر الثقة ، فقد يجد الطالب أنه لأمر ممتع ومثمر أن يبذل الجهد التأملى الخيالى لكي يصل إلى حل يمكنه من كسب الجولة .

ويدو وضوح بعض الاستنتاجات عند هذه النقطة . فغالباً ما أظهر المعلمون اهتماماً بالغاً بطبيعة السؤال لدرجة أنهم أهملوا النتائج التربوية للبحث في مدى صحة الإجابات التي يتلقونها . إن العناية بصياغة الأسئلة هامة ، ولكن اهتمامنا ينصب على دفع التفكير وتنميته ، وعلى ذلك يجب أن ننظر إلى الإجابة كوسيلة لتحقيق هذا الهدف . إن المعلم الذي يرى في نفسه أنه « زميل لطيف » في خبرة التفكير ، لن يرفض أى إجابة باستبداد ، كما أنه لن يقبل أى إجابة بعدم اكتراث . إنه سيتأكد — بقدر ما يسمح به تعقد العلاقات الإنسانية — أن علاقته بتلاميذه ، علاقة يسودها نوع من الثقة ..

ويستطيع جميع المعلمين أن يتقدموا في هذا الميدان — سواء أكان الواحد منهم معلماً في مدرسة تقليدية أم في مدرسة تقدمية ، وسواء أكان يقوم بتدريس المواد المنفصلة أم يقوم بتدريس المنهج المحوري ، وسواء أكان لايهمه في أمر الحياة المدرسية سوى التدريس فقط ، أم يسهم في تطوير سياسة المدرسة . فإذا اشترك كثير من المعلمين في تحقيق هذا التقدم فإن جو التعلم والبرنامج التربوي بأجمعه الذي يلزمه سيخضعان لعملية إعادة بناء أساسية . وبالطبع يستطيع أى معلم ذى حساسية لهذا الأمر ، أن يبدأ عملية إعادة البناء الخاصة به . وليس أى معلم في حاجة الى أن يشعر بأن تنفيذ طرق التدريس التي تستمد قيادتها من تبصر ديوى بأن « التفكير هو سبيل الخبرة التربوية » أمر صعب المزال عليه أو أنها مقصورة فقط على القلة التي أسعدها الحظ بالتدريس في مواقف تجريبية يهاب الفرد أن يشترك فيها ..

اختبار المعانى هو العامل الحاسم

كلما اكتسب المعلم فهماً للعملية التعليمية وللخبرة المربة فإنه سيقدر ما يوحى به تعريف بويد . ه . بود للتفكير على أنه « العثور على المعانى واختبارها » (١) لما يقدمه لطلبة ، وبالطبع يجب أن يكون البحث عن المعانى مركزاً لتلك المواقف ذات المصالح المشتركة التي ننبثق فيها عملية التدريس والتعلم ، ولكن المعانى التي نثر عليها (أى التي نقدّمها كما لو كانت معانى صحيحة) ولا نختبرها ستترك التلاميذ على مستوى

(١) انظر Boyd H. Bode, How We Learn (Boston: D.C. Heath & Company, 1940) p. 251

من التقبل الأعمى للسلطة ، والخرافات أو سرعة التصديق . وباختصار إنها ستتركهم على مستوى من الجهل ، وقد يقول البعض كما ردد الكثيرون في الماضي إن هذا الاقتراح يهمل ما هو معروف جيداً من أن التفكير لا يمكن أن يتم في فراغ ، وإنه يجب أن يكون لدى التلاميذ بعض الحقائق والمعرفة قبل أن يحملهم المعلمون إلى عالم المعاني . إن هذا أمر حقيقي ، ولكن من المهم أن ننظر بعين الاعتبار إلى مغزى صدق هذا في علاقته بالتدريس .

لا يمكن أن يتم أي تدريس دون احتكاك فكري بالتلاميذ . ولكن من وجهة النظر الأخرى ، فإن عملية التدريس لن تتم بمجرد سؤال التلاميذ أن يكرروا ما يعرفونه من قبل . وعلاوة على ذلك ، فإن جميع التلاميذ — حتى أولئك الذين في مدارس الحضانة — يأتون إلى حجرات الدراسة وفي جعبتهم ثروة من المعرفة . وفي الحقيقة ، قد يكون الطفل العادي الذي يبلغ السادسة من عمره قد تعلم ما فيه الكفاية ، فيما يتعلق بمجرد الكم ، مما قد يتوقع له أن يتعلم في باقي سني حياته (في إطار عدد ردود الأفعال التي سيستخدمها بعد تركه للمدرسة) . ويجب أن نلاحظ هنا أن التغيرات الهائلة التي تمت في وسائل الاتصال بال جماهير وفي وسائل الانتقال قد وسعت من دائرة هذه الثروة من المعرفة التي لدى الأطفال الصغار لدرجة كبيرة (هذا ، في دول العالم الحر على الأقل) .

ومع هذا إنها خبرة جادة تدعونا إلى أن نلاحظ أن المعلمين متوسطي العمر يقللون من قيمة مدى ووفرة هذا الكنز المجهول باستمرار ، على الرغم من أنه قد يكون مرتباً ترتيباً سيئاً ، أو في حالة فوضى إلى حد ما ، أو يكون مختبئاً غالباً في بعض أجزائه تحت إطار من سوء الفهم الشاذ أو المضحك أحياناً — إلا أن أولئك الأطفال الصغار يمتلكون هذا الكنز من المعرفة رغم كل هذا . ولا يبدأ أي معلم عملية التدريس في فراغ ولكن لسوء الحظ ، يستطيع هو أن يخلق هذا الفراغ إذا ساء فهم الموقف الذي يجد نفسه فيه . وسيدله الفهم الصحيح للموقف على أن من واجبه تعرف الخبرات التي اكتسبها التلاميذ بطرق تقودهم إلى خبرة واسعة أعيد بناؤها تأملياً . وبهذا يزداد اكتساب ضبط الخبرة التالية ، وهذا الضبط هو الطابع المميز للتربية . وليس لأي معلم أن يتطلب من تلاميذه أن يقودوا بما ليس في مقدورهم القيام به ، بل يجب على جميع المعلمين أن يطلبوا منهم الوصول إلى تحقيق الأهداف ، وأن يتيحوا لهم الفرصة لعمل هذا .

وكنتیجة لهذا، إذن ، نجد أن الاهتمام الصحيح بالحقائق، وبالمعرفة ، التي لا تكون جميعا على علم تام بها في العادة ، قد يقود المعلمين إلى تقبل تلك الإجابات التي يعرفون أنها صحيحة فحسب . وقد يبدو أن هذا الجهد أمر حميد لأول وهلة ولكنه أيضا أمر يرثى له إذ أنه يميل إلى تشجيع إهمال المعاني . إن ما تتجاهله هو أن المعرفة التي لدى البالغين لا تصبح معرفة بالنسبة لأولئك التلاميذ إلا عندما يكتسبون بصيرة بالمعاني ويتحول ردود أفعالهم ، كما قال ديوي ، إلى استجابات ، وبهذا يكتسبون القدرة على ضبطها . وإن يقول أي صياد مثلا أن ابنه قد تعلم صيد السمك إلا إذا ترجمت الكلمات التي تبادلها عن كيفية الصيد إلى سلوك له معنى باستخدام قصة الصيد ، والبكرة والطعم - أي ترجم إلى سلوك يؤدي إلى صيد السمك . ولكنه - كزميل لطيف في مشروع مشترك - سيساعد نجله على اختبار استدلالاته (التي هي إجابات عن أسئلته التي يبحث بها عن المعرفة إلى أن تفحص لتبيان صحتها) بالإسهام معه في الموقف التعلیمی، وهو الموقف الذي تتيح فيه الفرصة لأن تصبح معرفة الأب هي معرفة الابن .

إعادة بناء الخبرة في كليات ذات دلالة

يشارك المتعلم في الموقف التعلیمی وهو يعرف الشيء الكثير من قبل . فإذا لم يكن الأمر كذلك ، فلا يمكن أن يتم أي تعلم آخر . ولكن يجب ملاءمة ما هو معروف مع بعضه البعض كما تربط الأجزاء المعروفة في اللغز حتى نستطيع استخدام الأجزاء غير المعروفة . والنعم - أي إعادة بناء الخبرة - مسألة ملاءمة وإعادة ملاءمة ، في كليات ذات معنى للأشياء المعروفة ، والأشياء التي يبدو احتمال معرفتها ولكنها يجب أن تظل غير مؤكدة إلى أن ترتبط جميع الأجزاء بعضها ببعض . إن المعاني هي مركز عملية التعلم ومن ثم فهي مركز التفكير ؛ لذلك فهي تسود الخبرة التعليمية . إنها تدخل على مستوى المعرفة ، وهذا إنتاج التعلم السابق ، كما أنها تدخل على مستوى الاستدلال ، وهو ما يتعهد به التعلم اللاحق . ولكن عندما يهتم التدريس أساساً بتكرار الأفكار التي عبر عنها الآخرون ، فإن تضمين المعنى لا يتم إلا مصادفة ، ولا يتم التعلم إلا مصادفة أيضاً . وقد وجه جيروم . س . برنر^(١) الأنظار إلى دور إعادة التنظيم لجعل الحقائق في متناول اليد ليستخدمها التلميذ فيما بعد . وأشار على وجه الخصوص إلى ما يأتي :

(١) Jerome S. Bruner, "Learning & Thinking,"
Harvard Educational Review Vol. 29, No. 3 (Summer, 1959) p. 185

إن الحقائق التي تتعلم فقط دون تنظيم حقيقي ما هي إلا أباطيل سافرة وعديمة الفائدة ... وليس الجزاء الحق لعملية التعلم في أنه يبعث السرور في نفس المعلم أو الوالدين ، كما أن الجزاء ليس في أننا نصبح « أفراداً قادرين على حل أسئلة الاختبارات » . إن الجزاء الحق هو أننا نستطيع أن نستخدم ما تعلمناه ، وأن نعبّر الحدود من التعلم إلى التفكير .

وكانت إحدى الفرق الدراسية تقوم بمناقشة الفصول الثلاثة الأولى لقصة « ايفان هو » وبعد أن شرحت شخصيتنا وامبا وجيرث بالتفصيل سأل أحد التلاميذ بكل جد : « حسنا ، إذا كانت هذه (الياقات) التي كانوا يلبسوها مصنوعة من المعدن المصمت ، فكيف كانوا يغسلون رقابهم ؟ » وضحك كل تلميذ لهذا السؤال ، ولكن أبدي كل فرد في الفصل اهتمامه به . ومن الوجهة الظاهرية فهو سؤال لا مغزى له . ومع ذلك فقد أورد نقطة للمعلم ذي الحساسية ليسأل بعض الأسئلة لكي يوضح اختلاف الظروف الاجتماعية في العصور السابقة ، ومكانة العبد في ظل تلك الظروف ، ونقص المعرفة في أمور الصحة الشخصية وما إلى ذلك . وأمكن بهذا أيضاً عمل المقارنة بين حياة الأفراد في عصر سابق وحياة أولئك الذين يعيشون في الوقت الحاضر في الأحياء القذرة في المدن أو تحت ظروف ريفية بدائية وخاصة فيما يتعلق بالنظافة الشخصية . وقد استخدمت المعرفة التي اكتسبت من قبل في اكتساب بصيرة جديدة ، كما أنه أعيد بناؤها هي نفسها أثناء تلك العملية .

ويمكن أن يستخدم هذا بطريقة فعالة كنقطة ارتكاز لبيان التقدم السريع في العلوم ، كما أنها تكون ذات تأثير محائل إذا استخدمت كنقطة بداية لتكوين اتجاهات تتسم بالتقدير والاحترام نحو شعوب مجتمعاتنا الأكثر تخلفاً . وعلى ذلك يمكن أن يخدم ما يدرسه التلميذ في إلقاء الضوء على مشكلات العالم الذي يعيش فيه . وعندما يصبح هذا شيئاً حيواً ، وبالتالي شيئاً ذا مغزى ، فقد يصبح شيئاً يقدر ولا ينظر إليه على أنه مجرد « المعلومات القديمة التي يجب علينا دراستها » .

وبالطبع ، نجد أن « الخلق » و « الفضائل » من الموضوعات التي لا مناص من دراستها في دراسة الأدب ، كما أنه يهتم بها في تلك المادة أكثر من أي مادة أخرى . ومع ذلك ، نجد أن الاهتمام في أغلب الأحيان منصب على الرموز التي لا معنى لها بدلاً من الاهتمام بالنشاط التأملي المشيع . وعندما كان أحد التلاميذ

يقوم بتقديم تقرير شفهي عن شخصية جيمس فيتز - جيمس في قصته «سيدة البعيرة» التي كان الفصل يقرأها ، قرر أن فيتز - جيمس كان «شريفًا ، عادلاً وصادقًا» .
وابتدأ بعدئذ في بلورة موضوعه بتأكيد أن فيتز - جيمس كان رجلاً لا يتسامح مع أولئك الذين كانوا يقومون بأعمال تتنافى مع وجهات نظره هو ، وأنه كان رجلاً يمكن أن تدخل القسوة إلى قلبه ، بل إنه كان قاسياً عديم الرحمة في معاملته للأفراد الذين يرتكبون أعمالاً يعتبرها هو أعمالاً غير عادلة .

وامتدح المدرس والفصل ذلك العمل على أنه عمل ممتاز . ولم يسأل المعلم كما لم يسأل تلاميذه عن معنى أن فيتز - جيمس كان «شريفًا ، عادلاً وصادقًا» . فماذا نعني عندما نصف رجلاً بهذه الأوصاف ؟ وهل من الشرف أن نهين الأفراد الآخرين لأن آراءهم تختلف عن الآراء التي ندين بها ؟ وهل يكون الإنسان «عادلاً وصادقاً» عندما يضطهد بقسوة وبلا رحمة أولئك الذين يختلف سلوكهم عن سلوكنا ؟ وماذا نعني بالرجل العادل ؟ وهل يعتبر الفرد عادلاً إذا استخدم معايير جامدة وثابتة في تقديره لموقف من المواقف ثم يصر بعدئذ على التمسك بها كموجهات سلوكية مطلقة غير قابلة للتغيير ؟ وألا يسمح بالكذب إطلاقاً ؟ وهل يجب ألا نسرق إطلاقاً ؟ وهل يجب ألا نكذب على شخص تبليت حواسه من كثرة تعاطي الخمر أو على العدو أثناء الحرب ؟ وألا نسرق سلاحاً خطيراً من رجل مجنون وخاصة إذا كانت حياة الأطفال في خطر ؟ وهل نعتبر القواعد مبادئ نستخدمها بمرانة للبحث عن كيفية التصرف بذكاء في المواقف التي تواجهنا أو هل نتبعها دون تساؤل ؟ إن التفكير لا يتم إلا عند اختبارنا للمعاني . ولم يبدأ التفكير بعد في تلك الفرقة الدراسية التي أشرنا إليها سابقاً لا اكتفاء المعلم بتقبل تلك الإجابات الخاوية . ولم تثر الأسئلة التي كان من الممكن أن تعتبر نقط بدء للتأمل إذا ما أجاب عليها التلاميذ ، حتى ولو كانت إجاباتهم خاطئة .

« الحياة الحقيقية » في حجرة الدراسة

إن أحد ردود الأفعال السيئة الطالع ، رغم عدم إسكاننا الهرب منها ، ضد التدريس الشكلي الذي انتزع منه التكرار والحفظ كل اهتمام أو حيوية هي أن ندير ظهورنا للمعرفة بحثاً وراء « خبرات الحياة الحقيقية » و « مشكلات الحياة الحقيقية »

لاستخدامها كوسائل لتحقيق بهما نبذله من جهد في التدريس . ويبدو أن حجرات الدراسة كانت خالية من الحياة لدرجة يبدو أن الهرب منها كان أمرا لزاما ، وذلك لاكتشاف العوامل الدافعة الضرورية لتهيئة المواقف المناسبة للتعلم . ومع هذا فالحقيقة هي أن الحياة توجد حينما يوجد الأفراد . ولسنا في حاجة إلى ترك حجرة الدراسة للبحث عنها .

إن ما نقصده بهذا التأكيد ، بالطبع ، هو أنه يجب علينا أن نواجه التلاميذ بالمشكلات أو ندعهم في خبرات لها جذورها في حياة الأفراد اليومية المستمرة ، وألا نطلب منهم أن يصفوا إلى المشكلات الواردة في الكتب البعيدة كل البعد عن مجالات اهتمامهم . إنه مهما حاول المؤلفون أن يكونوا المشكلات التي يدونونها في كتبهم ، فإن هذه المشكلات لن تكون في نهاية الأمر إلا أشتاتا من الحوافز المتناثرة . إن ما نأمل فيه ، طبعا ، هو أن بعض الأطفال سيتقبلون مشكلة أو أكثر من هذه المشكلات كما لو كانت مشكلاتهم هم . ويقوم بعض التلاميذ بذلك فعلا ، كما فعل أحد التلاميذ عندما قرر أنه مما يبعث على السرور أن يكتشف اختلاف الأحوال الجوية في العالم باختياره موضوعا من الموضوعات التي حوتها قائمة الموضوعات المقترحة — لم يثراهم أى فرد من الأفراد الآخرين — ألا وهو موضوع « لا يوجد ما يسمى بالطقس الرديء » .

إن حالة هذا التلميذ الوحيد حالة تعليمية لسببين : السبب الأول هو أنه مادام قد تقبل هو هذا الموضوع الشكلى كموضوعه هو للبحث فيه ، فإنها خبرة حقيقية لا تقل عن أية خبرة أخرى يمكن أن نوفرها له . إن الحياة هي حيث نجدها أنت ، ويبدو أنه من الطبيعي أن نجدها في حجرة الدراسة حيث توجد الكائنات الحية . والسبب الثانى ، أن الموضوع لم يستهو معظم التلاميذ ، إن هذه الحقيقة هي التي أسرعت بعملية التعلم بعداكتشاف أن الاهتمام ضرورى لمساندة النشاط العلمى لإدخال خبرات « الحياة الحقيقية » كبديل لأوجه النشاط المستقاة من الكتب .

ومع هذا يجب أن نلاحظ أن مضمون « الحياة الحقيقية » لا معنى له إلا إذا ارتبط بحياة التلاميذ الحالية فيما يختص بتنمية التفكير . إن حجرة الدراسة جزء من الحياة ، قد تكون جزءا مملا في بعض الأحيان . وإذا أضفنا كلمة « حقيقية » كصفة مميزة ،

فإن هذا يعتبر تكراراً لا ضرورة له . إننا نستطيع أن نأخذ التلاميذ من حجرات الدراسة ليواجهوا مشكلات الحياة في المجتمع وجهاً لوجه ولا نحقق شيئاً أكثر مما حققه أولئك المؤلفون الذين كدوا طويلاً حتى استطاعوا كتابة قوائم المشكلات المناسبة في الكتب المدرسية التي يكتبونها . وقد يكون السير بين أرجاء المصانع ، أو زيارة البنوك والمحاكم ، أو الجلوس على كرسى العمدة ، أو فحص وسائل الترفيه ، شيئاً مجرداً ومملاً لبعض التلاميذ ، لا يختلف في ذلك عن متابعة موضوعات الكتاب . أما الشيء الحقيقي للتلميذ فهو ما يدخل في دائرة خبرته المستمرة ويفسره بطريقة ذات معنى لدرجة أنه يستطيع ضبط الخبرة التالية (١) .

إن ما نقترحه هنا هو أن نتاح لسكل معلم الفرصة في عمله اليومي في حجرة الدراسة كل يوم لكي يجعل عملية التعلم عملية حيوية ، إن الموقف الذي يجد فيه نفسه وتلاميذه موقف حقيقي لا يقل في ذلك عن أي موقف آخر يجد فيه نفسه أو تلاميذه على الإطلاق ، وقد تعمل المسالك الجديدة على أن يكون ذلك الموقف أكثر ترغيباً ، وبهذا تزيد من الشغذ الفكري ولكن ليست هناك من حاجة لحيل خاصة أو تغييرات في المنهج لجعله موقفاً حقيقياً بدرجة أكبر ، لقد اقترحنا أن الطريقة السهلة التي في متناول كل من يقوم بالتدريس ، هي أن يعالج التدريس كما لو كان هو العملية التي تعتبر فيها ، تابعة الأفكار المشكلة الوحيدة التي نضعها موضع الاعتبار ، واقترحنا ، أكثر من هذا ، أنه يجب على المعلم أن يدمج تلاميذه في هذه العملية وذلك بأن يعمل عمل من يحصى الأفكار التي يقدمونها . فقد يشعرون ، بعدئذ ، بأنهم يشتركون في عملية الاكتشاف المثيرة وقد يشعرون بأنه يجب أن يكون للأفكار أساس مضمون من الأدلة ترتكز عليه إذا أردنا تقبلهم لها ، وإنها إذا ما قبلت

(هـ) قد يحمل المعنى الآخر لمشكلات الحياة الحقيقية المعلم إلى ارتياد منطقة يجب ألا يرتادها إلا إذا دعى خصيصاً لذلك . فالتلاميذ مشكلاتهم ذات الصفة الشخصية والتي تعتبر حقيقية لمجرد أنها مشكلاتهم هم . إن جعل هذه المشكلات موضوعاً للدراسة يعتبر وقاحة من جانب المعلم ، كما أنه قد يكون محطماً للفرد ، مهما كانت هذه المشكلات مناسبة لجعلها موضوعاً للاستشارة تحت ظروف معدة إعداداً دقيقاً . فقد يدخل المعلم (في الأدب أو في المواد الاجتماعية مثلاً) دراسة شخصية خيالية أو مشكلة اجتماعية تلقى بعض الضوء ، بطريق غير مباشر على المشكلات الشخصية المعينة التي يماني منها بعض التلاميذ المعينين . ولكن هذا شيء آخر .

فستؤدي إلى بعض النتائج . وبهذه الطريقة قد نستطيع أن نعمل باطراد على تكوين استمرار تأملی في حجرة الدراسة . وعلاوة على هذا ، فإن هذه الطريقة في تناول أيدي جميع الذين يقومون بالتدريس .

ولن يكون تحقيق هذا الهدف أمراً سهلاً . وليس من السهل إطلاقاً أن ندمج الآخرين في النشاط الفكري ، كما أنه ليس من السهل أن نساعدهم إذا ما أشعلت تلك الشرارة . وقد أوردنا في الجزء الأول من هذا الكتاب بعض العوامل التي حالت دون تحقيق مطلبنا في ضرورة قيام مدارسنا بتعليم الأطفال كيف يفكرون . إن مطلبنا هو أن تعلم طريقة للتفكير أفضل بكثير من تعلم أي مجموعة من الحقائق . وفي الحقيقة ، قد نضع هذا المطلب بصورة أقوى ، أي إنه لأمر محال أن نتعلم أية حقيقة من الحقائق على الإطلاق دون اكتساب القدرة على ضبط طريقة التأمل .

وبالطبع ، هناك عقبات كثيرة يجب أن يجتازها المعلمون إذا ما قرروا أن عادات التلاميذ وأبحاثهم التي يظهرونها في عملهم اليومي في حجرة الدراسة هي العوامل المحددة لتقدم نمو تفكير تلاميذهم أو اعتراض سبيله . وبالطبع ليس هناك من عقبة أكبر من فشل المعلم في فهم ما يتضمنه السلوك التأملی ، على الرغم من اعتقاد المعلمين أن أعظم عقبة تقف في سبيل نمو تفكير التلاميذ هي فشل التلاميذ في أن يكتسبوا المهارة في العملية التأملية^(١) . ومن الحق أن نقول إن التلاميذ ليسوا مهرة

(١) انظر اكليلو هابته في بحث رسالة الدكتوراه غير المنشورة المقدمة لجامعة أوهايو

عام ١٩٥٨ بعنوان

Obstacles to the Development of Reflective Thinking in the Secondary School & Practices Used to Overcome Them.

وتضمنت هذه الرسالة في بعض أجزاءها تقديم قائمة معدة إعداداً دقيقاً للعقبات التي تقف في سبيل نمو التفكير التأملی لبعض قادة التربية وبعض أعضاء هيئات التدريس المختارة في بعض المدارس المختارة ، كما تضمنت أيضاً زيارة سبع عشرة مدرسة في ست ولايات ، وقد كوت قائمة العقبات بعد دراسة واسعة لما كتب بخصوص هذا الموضوع وبعد التشاور مع أعضاء هيئة التدريس بالجامعة وطلبة الدراسات العليا . ومن النتائج التي تبعت على الاهتمام للترتيب النسبي للعقبات الخمس والعشرين ما يأتي : =

بما فيه الكفاية عموماً ، ولكن لا تزال الحقيقة ماثلة في أن نقص مهارتهم مرتبط بارتباطاً مباشراً بوجود هذه المهارة عند المعلمين أو افتقارهم إليها . فقد يتعلم التلاميذ والمعلمون معاً ، وإننا نأمل أن يفعلوا ذلك ، ولكن يبدو أنه من الأصح أن أننبثق القيادة ، — كما يجب أن تنبثق في نهاية الأمر — من المعلمين .

لقد وضع قادة التربية عقبة « نقص مهارة المعلم في توجيه التلاميذ في نمو التفكير التأملی » في المرتبة الأولى ، في حين وضعها المعلمون في المرتبة الثامنة . وعلاوة على هذا ، لقد وضع المعلمون هذا البند « عدم قدرة التلاميذ على اكتشاف الاستنتاجات الخاطئة التي تعتبر نتائج للعمليات المنطقية في التفكير (كقياس التشبيه الخاطئ ، أو زيادة التعميم ، أو الاستدلالات الخاطئة) ونقص توفير الفرص التعليمية لتحسين الموقف في المرتبة الثانية بينما وضعها قادة التربية في المرتبة الثامنة .

الفصل الثالث عشر

كل حجرة دراسية قد تكون مجالاً للتفكير التأملى

ناقشنا بشيء من التفصيل فى الفصل الثالث النشاط التأملى المنبثق من الموقف المشكل . ومن المهم أن نستعيد هذه المناقشة هنا . سبق أن قلنا إنه لن تتاح الفرصة للفرد للقيام بالتفكير حيث لا وجود لأى مشكلة ، وحيث لا تعترض التيار الطبيعى للخبرة أى عقبة من العقبات . وعندما يكون الفرد على وعى بمعنى تيار السلوك فإن المعرفة ستؤدى إلى استمرار الخبرة . وإن يكون هناك شك فى معنى ما يقوم به الفرد أو يمر به ، ومن الضرورى أن يفهم المعلمون العلاقة الوثيقة بين طريقة حل المشكلات والتفكير . ويتساوى مع هذا فى الأهمية أيضا أن يكونوا على وعى بالكيف المشبع للسلوك الذى يلحق التقدير لاستمراره دون انقطاع فى المجالات المألوفة . وإذا طلبنا من المعلمين أن يهتموا بالتفكير فليس معنى ذلك أننا نشير عليهم بإدماج تلاميذهم فى نشاط لحل المشكلات فى كل لحظة من اليوم المدرسى .

وفى أغلب الأحيان يعتبر المعلمون اقتراح جعل تنمية تفكير التلاميذ مركزا للجهود التربوية التى يبذلونها بمعنى أن تحتل طريقة حل المشكلات مركز الصدارة فى العملية التربوية ، وأن نستبعد جميع المظاهر الأخرى لأوجه نشاط الفصل لتحتل أما كن أقل أهمية بكثير . إنه لمن الأوفق أن يرتبط كل ما يحدث من نشاط فى حجرة الدراسة بجو تأملى شامل . ومع هذا فليس من المتوقع أن نجد كل تلميذ منهمكا فى حل مشكلة ما فى كل لحظة ، كما أننا لا نتوقع من الفصل كمجموعة أن يقوم بهذا .

إن هذا الميل فى المغالاة فى تقدير تلك الحالة يمثل اهتزازة من البندول ضد جذب الطرق التى كانت تستخدم فى حجرات الدراسة لحفظ الحقائق والتى هبطت بجميع أنواع المعرفة إلى مستوى عبارات لا معنى لها توضع فى صوامع غير مميزة

لتخزينها بالذاكرة . وكان من الضروري أن يحدث رد فعل لهذا . ومع هذا فقد كان له بعض النتائج السيئة ، وهي النتائج التي قللت من فاعليته كما قللت في الحقيقة من جاذبيته . ويقول بعض النقاد مثلاً إنه ما دام التفكير لا يتم في فراغ ، فيجب أن يزود التلاميذ أولاً بالحقائق التي قد يستخدمونها في عمليات التفكير بعد ذلك . وبالطبع إن البديلات التي تقدمها الآن ليست اكتساب الحقائق منفصلة عن عملية التفكير ، ولا التفكير منفصلاً عن الحقائق . والسؤال الذي نسأله هو كيفية اكتساب الحقائق بأفضل الطرق . ويقدم هذا بديلاً ثالثاً وهو استخدام الحقائق أثناء العملية التأملية .

ويصر النقاد الآخرون على أن المشكلات الهامة ليست في تناول العقول غير الناضجة ، وأن الأطفال الصغار لن يستطيعوا القيام بكل ما يتضمنه الحصول على الحلول المناسبة لتلك المشكلات . وهذه نتيجة لا تخلو من بعض الصديق الكافي لجعل المعلمين يترددون في الانهماك فيما يخشون ألا يكون أكثر من مناقشة هائلة حامية الوطيس ، مشعونة بالآراء ولكنها خالية من الحقائق . ومع هذا ، لقد وضع هذا الاقتراح بصورة خاطئة إذ قد صيغ في ضوء ما يؤمن به البالغون . فقد يحصل الأطفال الصغار على إجابات مناسبة لمستويات نموهم وفي حدود اهتماماتهم وفهمهم الحالي . وليسوا هم في حاجة إلى امتصاص الإجابات التي تتفق وبصائر البالغين في كل مرة يواجهون فيها المشكلات . ولقد أوضح أحد الشبان الصغار هذه النقطة إذ عندما وجه إلى والدته سؤالاً عن الجنس ، أجابت بقصد حسن « إن والدك عالم من العلماء ، فلماذا لا تنتظر حتى يعود إلى المنزل وتسأله سؤالك هذا عن الجنس ؟ » فرد عليها بدوره « ولكني لا أود يا أمي أن أعرف هذا القدر من المعلومات » ومن الممكن أن يفكر الفرد تأملياً بطريقة مناسبة على جميع المستويات ، ابتداءً من الحضنة إلى الدراسات العليا بالجامعة .

ومع هذا فهناك نقطة أخرى نضعها موضع الاعتبار ، وهي أن الإيمان بأن استمرار التفكير التأملية في حجرة الدراسة سيجعل جو الدراسة جواً لحياتة فيه ولا يمس شخصيات التلاميذ ، كما أنه سيقضى على تلك اللحظات الخاصة بتقدير الجمال

واستحسانه في الحياة ، والتي تعتبر ضرورية للنمو الكامل للفرد . وقد قدت هذه الحجة من نفس النسيج الذي قدت منه دعوى أن التفكير لا يوفر فرصة للعمل في المجال الخلقى ، وذلك بإحلال الإيمان محل الذكاء في ذلك الميدان . واستمرت هذه الحجة دون أى اعتراض عندما كانت معرفتنا المحدودة تدعم النظرة الثنائية للإنسان ، وبالتالي للحياة . ولكننا نعترض عليها الآن نتيجة لفهمنا لوحدة الخبرة . إننا نتمتع ببعض الأشياء في الخبرة دون أن نجعلها موضوعات للتأمل الفكرى . كما أننا نخرج أيضا من النشاط التأملی الذى يضطرب فيه عاطفيا ، وقد تعمق فهمنا وزاد تقديرنا لقيمة الأشياء . وغالبا ما نقوم بالسلوك بدافع من الإيمان ، لا لأننا عديمو التأثير بما يستطيع أن يسهم به الذكاء في مجال الخبرة ، ولكن لأن نتائجه ليست في متناول أيدينا في الحال . وفي الحقيقة ، غالبا ما نقوم بالسلوك غير العقول .

وفي مثل هذه المواقف ، ليست مسائل المعرفة أو دور الذكاء موضوعات للمناقشة الجدلية ، كما لن يكون هناك أى توقع لأن تكون هذه خصائص للخبرة تؤدي إلى الضبط الواعى للخبرة المستقبلية . ولا يعيش الإنسان بالفكر فقط ، ومع هذا ، فإنه إذا أراد أن يعيش بحكمة ، فإنه في حاجة إلى اكتساب الإحساس بالوحدة والتكامل عن طريق التنظيم التأملی لخبرته . وستتسع دائرة فهمه عندما يقوم بهذا ، كما أن تقديره لقيمة الأشياء سيرتفع . إنها مظاهر تفاعل وتكامل للخبرة برمتها . إنها ليست خبرات منفصلة ، توضع كل منها في قسم خاص .

من الممكن أن نبدأ

غالبا ما يقوم المعلمون ، غير الواعين بما ينجزون من أعمال ، بعملية مبادأة التأمل في فصولهم . إن حب الاستطلاع يدفعهم إلى الترحيب بالطالب المتشكك ، كتوماس مثلا الذى لا يقل عنهم جبا للاستطلاع ويسأل عن السبب في حين يظهر التلاميذ الآخرون بلادة حسية لأنهم جبلوا على تقبل كل شيء . وأحيانا يقوم البعض الآخر الذى يستخدم خياله النشط بتقديم المساعدة للتلاميذ للانتقال من الاسترجاع الممل لما تقدمه الكتب المدرسية إلى أجواء التفسيرات مستخدمين الذاكرة كنقطة بدء

بدلاً من تشجيعهم على استخدامها دون أى هدف سوى استخدامها بحسب . ومع هذا ، يواجه هؤلاء المعلمون الأسئلة التى تسبب لهم الضيق كسؤالهم لأنفسهم : « وهل لدينا وقت لهذا ؟ » أو : « هل منستطيع إتمام المقرر ؟ » أو : « هل سيكون لدى تلاميذى المعلومات التى هم فى حاجة إليها عندما ينتقلون إلى الفرقة التالية ؟ » أو : « كيف سيكون ترتيب تلاميذى عند مقارنتهم بتلاميذ الآنسة س أو الأستاذ ص ؟ » .

إن هذه أسئلة هامة ، إذا توافرت لديهم أنماط التدريس وأنماط الاختبارات العامة لمعظم المدارس . ولا يستطيع أى معلم أن يتجاهل تلك الأسئلة ، كما نضيف أنها يجب ألا تهمل . إن المعلم فى حاجة إلى الأمن حالياً ، وسيكون التلميذ فى حاجة إلى هذا الأمن فيما بعد . ويجب ألا ننبد الأنماط القديمة بلا تفكير ، كما أنه لا داعى فى هذه الحالة لأن ننبذها .

وهناك مكان للحقائق الهامة التى يشعر المعلمون بأنهم مضطرون إلى توصيلها لتلاميذهم . إنهم فى حاجة إليها للدفع بعمليات التأمل قدماً . إنها تكتسب معناها بالنسبة للتلميذ عندما يقومون بتلك العمليات . وهناك مكان ، أيضاً ، لأى وجه من أوجه النشاط المتكرر التى نود تثبيتها (أو كما نسميها غالباً بالعمليات التدريبية) لكى يكتسب التلميذ أنواع الضبط التى تجعل الخبرات التالية ذات معنى أكبر . ولقد سبق أن ذكرنا أنه إذا ما اكتسب الفرد تبصراً ، مهما كان هذا التبصر جزئياً ، فإن الحاجة إلى إتقان المهارات المناسبة غالباً ما تنبثق . إن كل تلميذ يتعلم كيف يقذف كرة البيسبول بشئ من الميل؛ يعرف هذا ، كما أنه يكون على استعداد بل ويظهر شغفه للتمرن على هذا بصبر لساعات طويلة . وكذلك أيضاً ، يقوم الميكانيكى بفك الآلات لالسبب (هذا فيما يشعر به الناظر إليه) سوى إعادة الأجزاء ثانية إلى مواضعها . ويستطيع القارئ أن يضيف أمثلة أخرى كالتلميذ الذى يلتقط النغمة الموسيقية عندما يكرر تصاريف الأفعال فى لغة أجنبية المرة تلو الأخرى . أو كالتلميذ الذى يجلس أمام مفتاح الآلة الكاتبة ويكتب عشرات المرات كلمات مثل : « يترك » ، « صحيح » ، « وموسيقى » ، « ويسرع » ، « ويبدأ » وما شابه ذلك لكى ينطبع المفتاح — إذا صح هذا التعبير — على أطراف أصابعه ، إن النقطة هنا بسيطة للغاية ، وهى أن التفكير يزيد من أهمية المعرفة والمهارات وأنه لا يعمل على التقليل منها .

ويجب أن نلاحظ ، علاوة على ذلك ، أنه إذا اكتسب الفرد بصيرة مع اكتساب العادات الحساسة للملاحظة التي تزداد باطراد نمت قدرته على التأمل ، فإن الكثير من الأشياء المهمة على أولئك الذين يفتقرون إلى تلك القدرات تتضح وتأخذ مكانها الصحيح كلما تابعوا القيام بأوجه نشاطهم اليومي . وتنطبق نفس الأسس التي تصدق على تعلم قذف كرة البيسبول بميل أو إجادة ميكانيكات الآلة ، على تعلم وإجادة الرياضيات ، والعلوم ، والتاريخ والأدب ، والاقتصاد المنزلي والفنون الجميلة . ولا يؤدي اهتمامنا بتنمية التفكير في حجرة الدراسة إلى إهمال المعرفة أو إلى الفشل في اكتساب القدرة على ضبط أوجه النشاط الهامة . بل على العكس ، إننا نعلم من قدر المعرفة عندما تتيح لها مجال العمل على مساعدة الأفراد للوصول إلى مراحل النمو التي تقدرها حيث يزداد معنى ما يقومون به من سلوك نتيجة وعيهم بعمليات الضبط التي ينمونها ، كما أنه من الأمور المتعلقة بهذا أن نشير إلى أنه حيثما نعلم من قدر المعرفة بهذه الطريقة ، فإننا نعلم أيضاً من قدر الأفراد الذين نساءدهم على اكتسابها .

وتقل سلسلة التجارب التي أوردتها إرنست ، أ ، بيليز فيما كتبه خاصاً بالتدريس التأملی من شأن هذه النقطة ^(١) . وفي هذه التجارب التي سميت الخطوة الأولى فيها « بإثارة المشكلة » والخطوة الثانية « بحل المشكلة » أظهر التلاميذ تفوقاً (أظهروا درجة كبيرة من التفوق) كما يقول التقرير على التلاميذ الذين تعلموا بالطرق التقليدية ، على الرغم من أنه لم يجر أحد من المعلمين أي اهتمام باسترجاع المعلومات والحقائق . وهناك نتيجتان أخريان أوردتهما بيليز تسترعيان الاهتمام ^(٢) أولاهما هي أن المعلمين الذين يقومون بعملية المبادأة للنشاط التأملی في فصولهم « يكونون أقل إجادة لعملهم أثناء السنة الأولى لتدريسهم التأملی عما يتوقعون القيام به في السنوات التالية ، مع بذل قدر معقول من الجهد » . والنتيجة الثانية هي أنه « من الممكن تحقيق الكثير من فوائد التدريس التأملی في إطار المواد الدراسية والتنظيم المدرسي القائم حالياً » .

(١) وردت في : Ernest H. Bayles Democratic Educational Theory (New York: Harper & Brothers, 1960)

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣١

عملية التفكير

من تحصيل الحاصل أن نقول إنه يجب على أولئك الذين يقصدون تسمية تفكير الآخرين ، أن يفهموا أولاً ، طبيعة التفكير ، وثانياً كيف نمارس تفكيرهم . وقد يكون من المعين للقارىء أن يسترجع عملاً قام به أخيراً ، عملاً يتأكد فيه من أنه اندمج في التفكير ليرى ما إذا كان يستطيع أن يعين مظاهره الرئيسية . وإذا قام المعلمون بهذا من وقت لآخر ، فإنهم سيكتشفون — ولنكرر نقطة ذكرناها سابقاً — أن التفكير عموماً « عملية تتم داخلياً بمحض المصادفة ، وبلا نظام وبصورة متكررة » كما أنه يتبع أى طريق مرسوم . وهذا حقيقى عندما يفكر المعلمون ، كما أنه حقيقى عندما يفكر التلاميذ . وكما لاحظنا في الفصل الثالث ، إنه رغم هذا فمن الممكن تحليل بعض عمليات التفكير ، كما يمكن اكتشاف الخطوات الرئيسية أثناء مثل عمليات التحليل هذه وأن يفهم معناها .

وعند تحليل عملية التفكير ، كما أوضحت مناقشتنا السابقة ، نكتشف أن الشخص الذى كان يقوم بأداء عملة ، مثلاً ، صادف عقبة يجب أن تذلل قبل أن يستمر . إن هذه العقبة هي ما نسميها عادة « بالمشكلة » (ومن المتوقع أن يشير المعلمون العقبات في حجرة الدراسة ، رغم أنهم لو نجحوا في تكوين جو تأملى مستمر فإن الموقف سيثيرها ، تماماً كما تثير الحياة العقبات باستمرار خارج حجرة الدراسة .) وعندما يعرف الفرد أنه يواجه عقبة أو مشكلة — ويجب أن يعرف هذا ، حيث إنه لا توجد مشكلات عامة — فعليه أن يستخدم معلوماته المتعلقة بهذه المشكلة وينتج فكرة يعتقد أنها ستذلل تلك المشكلة . ويمكن إحلال المصطلحات الأخرى مثل معنى ، وتحمين ، واقتراح ، وفرض ، واحتمال بدلاً من مصطلح فكرة . ومع ذلك فالنقطة هي أنه بدون احتمال موجه عند هذه المرحلة ، فلن يستطيع الفرد أن يعمل أكثر من أن يكرر ويكرر : « إننى أواجه مشكلة ، إننى أواجه مشكلة . » وإذا ما قبلت فكرة موجهة على أمل أنها ستحل المشكلة ، فمن الضروري أن نفحصها في ضوء ما يكون في متناول اليد من حقائق ، أو التي يمكن التنبؤ بها خلال تنمية مضامين الفرض .

وإذا دققنا أكثر في وصف العملية التي وصفناها سابقا ، فسنكتشف أن العقبات تظهر أثناء النشاط المستمر (فالشخص السلي لا يواجهها إطلاقا) وثانيا ، إن الصفات التأملية للخبرة تنبثق للإسهام في تحقيق توضيحها وإنها تنتمى عند التغلب على تلك الصعاب المعينة . وإذا نظرنا إلى هذه العملية خطوة بخطوة فسيكتشف لنا الآتي :

١ - يعوق القلق الفرد من القيام بالجهد اللازم لإتمام أى سلوك . ويجب أن يتأكد من معرفة طبيعة هذا القلق .

٢ - عند تحديد الصفة المعينة للعقبة التي يواجهها الفرد (وقد يأخذ هذا منه دقائق أو أياما) يجب عليه أن يخرج بتخمين معقول عن كيفية تغلبه عليها وهذه هي خطوة وضع الفرض . وإذا ما اتخذت هذه الخطوة فإنها تمده بالمسار والتنظيم لجميع الخطوات الأخرى التي سيتخذها بعد ذلك .

٣ - يحتاج الفرد الآن إلى الاختبار الذي يأخذ صورتين ، فالصورة الأكثر وضوحا هي النشاط الشرطي المعروف « إذا حدث كذا ... إذن فسيحدث كذا » (إذا كان الفرض صحيحا ، فمن المؤكد حدوث نتائج معينة) . ويعرف بعض الأفراد هذا النشاط بالتفكير بدلا من النظر إليه في إطار وظيفته الصحيحة كنشاط لجمع الأدلة . وتعمل الخطوة الأولى بصورة مختلفة . فهي لا تنبأ بما قد يتوقع نتيجة للتمسك بفرض معين . إنها بكل بساطة تربط الحقائق التي تكتشف بالفرض ، لكي ترى ما إذا كان الفرض يساعد على تفسير الحقيقة ، ولتري ما إذا كانت الحقيقة تتحول بدورها إلى بيانات تدعم الفرض . وتمثل كل خطوة لاختبار الفرض طريقة متميزة للحصول على الأدلة المطلوبة لإقصاء الفكرة الموجهة عن المرحلة الفرضية .

٤ - عندما تحيط الأدلة الكافية بالفرض ، فإنه يقال إن الفكرة الموجهة المبدئية فكرة صادقة مهما تبدلت أثناء عملية الاختبار . فإذا لم تكن تلك الحقيقة صادقة ، فيجب القيام بعملية اختبار أخرى . ويجب أن نقول هنا إنه من النادر أن يمنع الفرد كل الوقت الذي قد يحتاج إليه لإتمام تفكيره قبل أن يضطر إلى القيام بعمل ما . ومع هذا ، يجب عليه أن يستمر حسبما يسمح له الوقت (ولحسن الحظ ، لا يدعى لأن تتسلط حجرة الدراسة في هذا المجال كما تتسلط الحياة خارج المدرسة) . وبالإضافة إلى هذا ، يجب أن يستمر في إعادة النظر في جميع النتائج التي توصل إليها

تحت ضغط معين ، وأن يكون مستعداً لتغييرها عندما تشير الحقائق الجديدة إلى عدم صلاحيتها .

ويمكن عمل تحليل آخر مفيد لعملية التفكير ، بأن نذكر خطواته الرئيسية كما يفعل الكثير من المؤلفين . وإنا إذ نعمل هذا ، نقدم إعادة بناء لتحليل العملية الكاملة للتفكير ، كما صاغه بويد . ه . بود . وقد ربط هذا التحليل بطريقة مباشرة بالتعريف البسيط المقيد الذى وضعه للتفكير ، والذى قد يتذكره القارىء على أنه « العثور على المعانى واختبارها » (١٢) .

التعريف العملية الكاملة للتفكير

- ١ - مشكلة معروفة
 - ٢ - الفرض (فكرة ، اقتراح ، معنى احتمال) .
 - ٣ - خطوات الاختبار :
 - (أ) الاكتشاف والتفسير
 - (ب) التنبؤ والتحقق
- المعنى :

ونحن فى حاجة إلى فحص هذه الخطوات لئلا نرى ما تتضمنه بالنسبة لما يقوم به المعلم من نشاط .

عدم وجود عملية ثابتة

لا يمدنا هذا التحليل لعملية التفكير إلى خطوات ، بأى نمط نرغم التفكير على اتخاذه (١٣) . إن أهمية مثل هذا التحليل للمعلمين ، هى بكل بساطة أنه قد يساعدهم

(١٢) Boyd H Bode, Fundamentals of Education (New York: The Macmillan Company, 1921), Ch. VI.

(١٣) وكما يبدو من دراسة الكتب التى عالجت طرق التدريس لسنوات قليلة وكانت الاقتراحات الخاصة بخطة الدروس — وخاصة فيما يتعلق باقتراحات التدريس بالطرق الاستقرائية والاستنباطية — تحدد بدقة عدد الدقائق التى تخصص لكل خطوة من هذه الأنواع من التفكير التى كان يظن أنها أنواع منفصلة بعضها عن بعض وكان يتم هذا على أساس الافتراض الخاطيء بأنه من الممكن دفع الفصل — لا مجرد التلاميذ كأفراد — للقيام بعملية التفكير فى عدد الدقائق المخصصة لكل حصّة .

على اكتساب الإحساس بالعملية التي سيشترون فيها مع غيرهم . فربما يرون بوضوح أكثر مسؤولياتهم في جعل التلاميذ يتعرفون المشكلات ويحددونها بوضوح ، وفي استنتاج الفروض المواتية ، وفي مجابهة التلاميذ بالحقائق (أو قيادتهم لاكتشاف مثل هذه الحقائق) التي إذا لم تفسر ، فستكون مقترحاتهم في خطر ، وفي مساعدة التلاميذ على التقدم في أوجه نشاط التنبؤ والتحقق التي يجب أن تتم قبل تقبل أي اقتراح على أنه حل صادق . ولما كان المعلمون هم أكبر أفراد الجماعة التي يقومون بالتدريس لها نضجاً وخبرة فإن عليهم تقع مسؤولية توجيه المسار أو الطريق الذي يتخذه التفكير والصفات التي يكتسبها أو يحصلها . وعلى ذلك يجب عليهم أن يكونوا دائماً على وعي أثناء العملية التأملية بخطواتها الأساسية .

ولن يتقدم التفكير التأملی بالخطوات العشوائية في جميع الاتجاهات . وليس التفكير بسلوك بسيط من المحاولة والخطأ ، مهما قيل إنه تطور من مثل هذه العملية . ومن المهم أن نلاحظ أيضاً أنه أثناء عملية التفكير ربما تتكرر خطواته المختلفة عدة مرات . وبالإضافة إلى هذا ، يجب أن نؤكد صفة الوحدة لكل خطوة من خطوات اختبار الفرض وها : الاكتشاف والتفسير ، والتنبؤ والتحقق . إن كل عملية اكتشاف تستدعي تفسيراً ، كما أن كل تنبؤ يحتاج إلى تحقيق . فإذا تحققت كل عملية اختبار بنجاح للنهاية ، فإننا نحصل على مواد إضافية تستخدم كأدلة . وتعتبر العملية كلها ناجحة عندما تكون الأدلة التي في متناول أيدينا كافية لرفض جميع الفروض الأخرى التي تنافس الفرض السابق .

وكما اقترحنا سابقاً ، سيجد المعلم أنه من غير المفيد أن يحاول أن يجعل عمل الفصل يتطابق تماماً مع خطوات العملية الكاملة للتفكير . ويبدو أن هذا يتضمن — دون ما ننص على ذلك صراحة — قولنا للمعلم : « ادرس تحليل عملية التفكير وطبقه على سلوكك ، وكن على معرفة بالخطوات التي تتبعها في تلك العملية . ولكن نرجو أن تتناسى هذا النمط عندما تقوم بالتدريس لأي فصل » . إن عليه أن يتناسى هذا النمط بعض الشيء لا أن ينساه كلية ! .

يجب أن يكون المعلم حساساً باستمرار للحاجة — كلما دعت المناسبة — إلى تحديد المشكلة باختصار ، وإلى وضع الاقتراحات لحلها ، وإلى مساعدة التلاميذ على تخطيط السبل التي يتبعونها لاختبار هذه الحلول . ولا يعني هذا أنه يجب على المعلمين القيام

بتدريس هذه الخطوات كخطوات يجب على التلاميذ اتباعها بدقة شديدة ، بل يعنى أنه يجب عليهم إدارة فصولهم بحيث يتعلم التلاميذ أن يتخذوا خطوات التفكير كسبيل طبيعى لمعالجة التعلم بلا خجل . وربما نتوقع أن ينتشر التفكير فى أى لحظة فى الجو الذى يتسم بالصفة التأملية . وإذا لم ينتشر فربما كان من المفيد أن نتساءل : لماذا يصبح الأطفال الصغار المحبون للاستطلاع فى مرحلة الحضانة والسنة الأولى الابتدائية مترددين ، منطوين ، فاقدي الحساسية ، معارضين ، بل وعدوانيين كلما تقدموا فى الدراسة بالمدرسة .

إن النقطة الهامة التى يجب ألا تغيب عن ناظرنا هى بكل بساطة أن : التفكير لا يمكن أن يقيد بجدول زمنى ، ولا يمكن أن يبقى فى إطار نمط ثابت إذا تم حدوده ولا يمكن تشجيعه فى الجو الذى يبدل العقل الذى يميل إلى التساؤل إلى عقل ملىء بالخوف وتدير المكائد . ويجب على المعلمين أن يشعروا متى يكون الحديد ساخنا ثم يطرقون .

الفرص المتاحة فى كل حجرة دراسية

هناك سبل كثيرة للمعلم المفكر لى « يطرق الحديد وهو ساخن » ويمكن عمل الكثير لإشغال النيران التى ستجعل لون الحديد أبيض من شدة الحرارة . وسيجد أولئك المعلمون (وخاصة أولئك المعلمين الذين تعتبر فرصهم للتجريب وتغيير الطرق فرصا محدودة) أنه من الخير لهم أن يعيدوا تقويم مثل هذه الأعمال العادية بحجرة الدراسة كالامتحانات الفكرية ، والتلخيص ، ووضع الخطوط العريضة ، والتخطيط ، والتوضيح ، وأعمال التلاميذ التحريرية وما إلى ذلك . ومن المفيد أن نناقش بعض هذه الموضوعات .

الامتحانات

لقد قلنا سابقا إن طبيعة الامتحانات تحدد لدرجة كبيرة طبيعة الدراسة التى يقوم بها التلاميذ . ولن تكون هناك أدنى فائدة من حضنا التلاميذ على القيام بتفكيرهم الخاص ، ثم نعطيهم امتحانات إما أنها لا تتيح الفرصة للتفكير أو تعاقب كل من يبذل مجهوداً فيه . ومن الممكن أن تستخدم الامتحانات للاحتفاظ بوضع الاهتمام

بالتفكير في موضع الصدارة . وقد يطالب التلاميذ باستخدام الحقائق ، لا أن يقصوها عنهم فحسب . وقد يطالبون بأن يفكروا في ملائمة الفروض التي تقترح للمشكلات الى يقررونها ، وأن يضعوا تخطيطاً لطرق الاختبار لفحص الفروض المقترحة . وباختصار ، قد تستخدم الامتحانات كوسائل تشجع التلاميذ على اكتشاف وتوسيع دائرة حدودهم النامية بطريقة تأملية .

وإذا قيل إن تصميم وقراءة الامتحانات التي تستهدف دمج التلاميذ في النشاط التأملی عندما يستخدمون وينظمون معلوماتهم ، يحتاجان إلى بعض الوقت ؛ وإذا قيل أكثر من هذا ، إنه من الصعب إعطاء درجات لمثل هذه الامتحانات ، فإن الرد على هذا يجب أن يكون أن تلك الوقائع صحيحة . ومع هذا ، فالسؤال الذي نسأله هو : هل هناك من بديل حقيقي لهذا ؟ فعندما نسمح بسيطرة الامتحانات التي تتطلب البحث عن الحقائق على الموقف التعليمي ، كما هي الحال غالباً في الوقت الحاضر ، فإنها تشجع التلاميذ على حفظ المعلومات لغرض واحد وهو النجاح في الامتحانات وعندئذ — كما عبر أحد التلاميذ عن ذلك — : « إننا نتخلى عن المعرفة على أوراق الإجابة في الامتحانات » ونحن لا نشجع اكتساب مهارات التأمل كما لا نشجع احترام المعرفة المبنية على الإحساس بالسرور لاستخدامها بنجاح عندما لا تتطلب الامتحانات من التلاميذ سوى تظهير ذاكرتهم بطريقة الامتحانات التي تعتمد على حفظ المعلومات .

التلخيص

إن الاستخدام الحكيم للتلخيص وسيلة أخرى فعالة لتكوين مجال تأملی مستمر . ويمكن أن يقوم المعلم أو أفراد التلاميذ بعمل الملخصات التي تقدمها جماعات صغيرة في صورة تقارير ، أو يقوم الفصل ككل بذلك . ويمكن أن تعمل عن طريق المناقشة التي يتم فيها تبادل الآراء ، ويمكن أن تقدم شفاهاً أو تحريرياً . ومع هذا يجب ألا تكون هذه الملخصات مجرد تجميع للنقط الهامة المنفصلة ، كما لو كانت كل حقيقة أو قانون أو مثال توضيحي أو نتيجة تعرض لها الفصل تعيش على مستوى من الأهمية لا حياة فيه . يجب أن يكون التلخيص خبرة في التمييز وفي تحديد النقاط الهامة التي قد تنظم المعرفة حولها ، وبهذا ترتفع الى مستوى التعرف . وكما يصدق الكلام

على الامتحانات ، يجب ألا يعتبر الملخص النقاط النافهة كما لو كانت تتساوى في الأهمية مع النقاط الهامة .

ولا يختلف الخطأ هنا عن الخطأ الذي غالباً ما يرتكبه المفسرون الذين يقدمون تقريراً معاداً لكلام أحد المتحدثين نقطة نقطة بدلاً من تقديم خلاصة أفكاره ، وبهذا تضع عليهم الفرصة في أن يندمجوا شخصياً في أفكار المتحدث أو تفكير المستمعين . إن الملخص هو فرصة التلميذ ليكون المفسر والمنظم لخبرته الخاصة . ويجب ألا نحرمه منها .

وضع الخطوط العريضة

يمكن أن تعمل الملخصات من النوع الذي وصفناه سابقاً ، حول بعض الخطوط العريضة . هذا إذا نظمت تلك الخطوط نفسها تنظيماً حقيقياً لكي نمدنا بالمشاجب التي نعلق فوقها المعلومات المتصلة بها . ولكن قد تكون للخطوط العريضة فائدة خاصة أيضاً في بدء الدراسة . ويحتاج المعلمون عامة إلى بعض الوقت لإدماج التلاميذ في تخطيط كيفية مواجهة كل خبرة دراسية . ويصدق هذا حتى على المعلمين الذين يشعرون أنهم لا يستطيعون القيام بأكثر من متابعة فصول الكتب الدراسية المقررة التي يطلب منهم استخدامها . وسيتأني المعلم الحكيم لكي يعطى تلاميذه فكرة سريعة عامة عما ينتظرهم من عمل . إنه بعمله هذا يوفر الوقت .

لقد أشرنا قبلاً إلى استخدام الاختبارات الشخصية عند بدء الدراسة . وقد يستطيع المعلم — إذا أوتي قدراً كافياً من الشجاعة — أن يطلب من تلاميذه تقديم اقتراحاتهم عن أفضل الطرق لمعالجة ما يتطلب منهم القيام به ، وذلك بعد تحديد الوقت المسموح به لالتهاء من الصور مستخدماً في ذلك المعلومات التي يكشفها له استخدام تلك الاختبارات . ولن يطلب منهم أن يخبروه بما يودون دراسته ، لأن هذا أمر قد تقرر . ومع هذا ، إنه سيجعلهم يندمجون في وضع خطة للدراسة ، مع تحملهم مسؤولية ذلك العمل . وكلما اكتسب التلاميذ خبرة ، فإننا نتوقع أن تتغير الخطط ، كما سيكشف هذا الفحص وإعادة الفحص المستمر للخطوط العريضة التي ارتضوها مبدئياً عن مدى كفاية أو عدم كفاية تفكيرهم .

التخطيط

قد يشعر بعض القراء أنه كان من الواجب استخدام التخطيط بدلا من وضع الخطوط العريضة فيما قلناه سابقا . وقد يكونون على حق في هذا . ومع ذلك ، فليس اهتمامنا منصبا على مصطلح ، ولكنه منصب على الطريقة التي نستطيع بها أن نهرب من تلك المواقف التي لا تكاد تسمع فيها صيحة المعلم الحزينة : « لا تنسوا واجب الغد » على حين يدفع التلاميذ خارج الفصل . ويجب أن يعد التلاميذ لمعرفة ما هم مقبلون عليه عندما يقبلون على دراسة مجالات جديدة . ويفهم المعلمون عموما أهمية هذا الإعداد الفكري عندما يقومون بالرحلات إلى الأماكن التي تسترعى الاهتمام في المجتمع . ولا يقل الإعداد المائل في الأهمية للقيام برحلات إلى ميادين المعرفة في حجرة الدراسة . ولا شك أن بعض المعلمين يترددون في دعوة تلاميذهم للاشتراك معهم في وضع خطة « لرحلة فكرية » خوفا من أن يؤدي عدم نضج التلاميذ ، أو نقص خبرتهم ، إلى اضطراب « الخطة » التي أعدها المعلم بكثير من الدقة . ويجب على المعلمين أن يقضوا سنتين أو ثلاث سنوات في تدريس مادة معينة قبل أن يلجأوا إليها كافيابعضها الهامة . وليس من العدالة تماما إذا أنتهم المعلمين بأنهم يحاولون مجرد تجنب القيام بعمل إضافي عندما يترددون في دعوة التلاميذ للاشتراك في تخطيط المادة . فقد يعكس هذا التردد اهتماما حقيقيا بصالح التلاميذ .

ومع هذا ، إنها حقيقة مفاجئة أن الاهتمام الحقيقي بصالح التلاميذ لا يكفي لتأهيل الفرد ليكون معلما . وسيستمر الحال على هذا حتى عندما يكون الاهتمام مصحوبا بشعور الثقة . إن الفرد يسيطر سيطرة تامة على العناصر الهامة للمادة التي تدرس . وينسى الكثير من الزملاء التربويين الحاليين هذا عندما ينادون بإلغاء المواد التي تتطلب من الفرد دراستها قبل الحصول على إجازة التدريس ، وإلغاء أقسام اتربية ومدارسها وكتباتها التي أنشئت خصيصا لإعداد المعلمين . ولسوء الحظ ينسى بعض الذين يقومون بالتدريس لأولئك الذين نعدم ليكونوا معلمين تلك الحقيقة أيضا . ولهذا يجب أن نذكر أنفسنا أيضا بأن مشكلة التدريس الرئيسية يجب أن تختص بتوجيه العملية التي تتحول بها المعرفة التي لدى المعلم لتصبح معرفة لدى التلميذ . ولن تؤدي العملية ثمارها إلا عن طريق إعادة بناء الخبرة وحسب ، مع اتخاذ النشاط التأملی كسبيل لإعادة هذا البناء .

ومن جهة أخرى ، فمن الممكن أن يؤمن المعلمون بفكرة المراتبة والتحرر من النظام المقيّد لحرياتهم لدرجة يجعلهم يبقون على غير وعى بأن الفرد لا يستطيع المبادرة بالانطلاق نحو انجاء ابتكارى جديد له مغزى إلا إذا توفر لديه شيء قد يستطيع أن يبدأ منه . وتتضمن عملية إعادة البناء الحقيقية وجود بناء سابق . ول سوء الحظ نجد أن بعض المعلمين يقللون من أهمية كل من المحتوى والصفات الفكرية التى يجب أن تتغلغل فى العملية التربوية كرد فعل لبعض الأساليب التقليدية التى يساء فهمها ، والى لا تزال سائدة فى مدارسنا ، وكرد فعل أيضاً لآراء بعض النقاد الذين يتجاهلون بعض انتطور التربوى الحقيقى الذى أمكن تحقيقه ، وذلك لأنهم قلقون لإعادة تثبيت أركان أهداف وطرق التدريس القديمة . وعلى ذلك فهم يشتركون مع النقاد الذين يعارضونهم — بحق — فى الإساءة بإساءة واضحة إلى مهنة التدريس من جهة ، وفى الإساءة إلى المجتمع من جهة أخرى .

الإيضاح

إن التأكيد على استخدام الإيضاح فى معالجة الأفكار — سواء أكان من جانب المدرس أم التلاميذ — أمر ضرورى لجميع الجهود التى نبذلها لخلق جو تأملى فى حجرة الدراسة والمحافظة عليه . إن الإيضاح وسيلة لاختبار استيعاب الفرد للفكرة . إنها طريقة للقول : « انظر ، إن الفكرة تؤدى وظيفتها الإجرائية هنا فى هذا الموقف المعين » إنها سبيل أيضاً لربط الأفكار العامة التى توضح حياتنا — والى يجب أن تنير الطريق أمام أوجه النشاط العادية اليومية — بخبرات الأطفال الصغار . وكما بينا فى الفصل العاشر ، أن الإيضاح وسيلة قوية لإشباع الاستجابة الإدراكية وتنقيحها . فإذا أنعمنا النظر فى مصطلح « قوة » كمنحنا مثلاً للمعانى التى توحى بها القوة المالية ، والقوة السياسية ، والقوة الأخلاقية ، وكذلك عند فحص معنى القوة البشرية ، وقوة حصان ، قدم — رطل وهكذا ، مع توضيح كل مثل للقوة بمواقف تقع فى مجال خبرات التلاميذ ، فإن هذا سيساعد على ربط المفاهيم المتضمنة فى الاستجابة الإدراكية بمواقف معينة للقوة ، سواء كانت مواقف حقيقية أم مستوحاة .

وعلاوة على هذا . سيصبح مثل هذا النشاط توضيحاً للرأى — الذى غالباً ما نقرره بصورة غامضة وتبعه بصورة آلية — القائل بأن الأفكار يجب أن تقطع الحدود

التعسفية لمعرفة الإنسان . إن التلميذ الذي قدم كتوضيح « لمشكلة حسائية » محددة مثلاً « مشكلة في الأسمنت » دل على سوء فهم لمعاني الكلمات لدرجة كبيرة (لأن كلمة Concrete في الإنجليزية تحمل المعنيين) . ومع هذا ، إذا أتيح لهذا التلميذ ، المدرس الذي لديه الرغبة في استخدام إجابته كنقطة ارتكاز فإن المسرح سيعد بسرعة لقيام مزاملة سارة لإعادة بناء الخبرة . يجب أن تتاح الفرصة للتلميذ لينمو في جو من التعلم والتدريس بحيث يدفعه برفق ولكن بإصرار دائماً لفحص وإعادة بناء الأفكار . ولن نكون متعجلين إذا بدأنا خلق هذا الجو منذ السنة الأولى بالمدرسة الابتدائية .

أعمال التلاميذ التحريرية

إن تشجيع التلاميذ على الكتابة الجديدة ، فرصة أخرى تتاح لكل معلم لخلق جو تأملي . وإن كانت كتابة التلاميذ من المجالات التي يزداد إغفالها يوماً بعد يوم ولا يمكن أن يتم هذا بالطبع ، إلا إذا قرأ المعلم بإمعان كل ما يكتبه التلميذ وعلق عليه . إننا نعترف بأن عدد الفرق الدراسية وعدد المواد الدراسية التي يطلب من المعلم القيام بتدريسها ، بالإضافة إلى زيادة حجم الفصول ، والمسئوليات التي لاحصر لها التي تلقى على كاهل المعلم في المدرسة ، وفي البيئة ، وفي المجالات المهنية ، علاوة على الأعمال التي يطلب رجال الإدارة من المعلمين القيام بها ، رغم أن هذه الأعمال يجب أن يقوم بها الكتيبة ... إننا نعترف بأن هذا كله لا يترك إلا القليل من الوقت والجهد لكي يبدلهما المعلم للعناية بأعمال التلاميذ التحريرية . إننا نعترف أيضاً بأن كراسات التمرينات والاختبارات الموضوعية التي قد تظهر أن التلميذ على علم بأساسيات المادة ، تصبح الآن بسهولة أكبر ، كما توضع لها الدرجات إذا تطلب الأمر ذلك . ولكن يجب أن نسأل أنفسنا كما فعلنا ذلك عندما رثينا للتأجيل المؤسفة للاتجاه التأملي بين التلاميذ عندما تكون الامتحانات جميعها موضوعية في طابعها ، يجب أن نسأل عما إذا كان الأمر كذلك ، فما هو الحل البديل ؟

ونسلم المعلمين يقولون إنهم رغم ثقهم بأن تشجيع الأعمال التحريرية للتلاميذ أمر هام فإنه لديهم أهدافاً أخرى عليهم تحقيقها . ولهذا فهم لا يستطيعون تدبير الوقت اللازم لقراءة إجابات التلاميذ . ولا شك أن هذا يتطلب بعض الوقت . إنه يتطلب

فكراً أيضاً . إن الكتب الجديدة للتلاميذ ، فى أى فرقة دراسية كانت ؛ لا يمكن أن تعطى للمساعدين أو نسلهم للآلات لى تعطىها الدرجة طبقاً لمقياس مقنن . ورغم هذا ، يبدو أنه من العدل أن نسأل : أى شىء أكثر أهمية للمعلم ، بوصفه معلماً من أن يشترك فى العملية المباشرة الودية لتبادل الآراء مع أفراد تلاميذه ؟ إن هذا هو ما يقوم به بالضبط عندما يكون جاداً فى قراءة ما يكتبه التلاميذ بصورة جدية . علاوة على هذا ، أى شىء أكثر أهمية للتلميذ ، كتلميذ ، من أن يشترك فى النضال الفكرى ليكتسب ضبطاً لأفكاره ، من الكتابة وإعادة الكتابة التى بهما يحاول جاهداً الاتصال بالآخرين ! ولقد استطاع بعض المعلمين أن يخلتسوا الوقت لى يدونوا بعض التعليقات التى تدل على حساسية وتفكير على إجابات التلاميذ . ولقد شعروا بالرضا عندما قيل لهم : « إنها المرة الأولى التى يقرأ فيها أى شخص إجاباتى بشىء من الجدة » . ومع هذا يجب عليهم أن يشعروا حقاً بالأسى لمعرفهم أن هناك الآلاف من التلاميذ الذين سيقولون نفس الشىء إذا ما أتيت لهم الفرصة .

بماذا يجب أن يهتم المعلم عند قراءته للأعمال التحريرية لتلاميذه ؟ إنه لا توجد إجابة سهلة لهذا السؤال . يجب أن تساعد التلميذ على أن يكتسب ضبط الجملة . يجب أن يتعلم قيمة الجملة المقتضية ، أو قيمة الجملة المطولة أيضاً . يجب أن ينمى الشعور بعمل الفقرة ، وبالتنظيم عامة . ويجب أن ينمى احترام الكلمات كأدوات للتفكير ، وعلى ذلك ، يجب أن يعامل هذه الكلمات بالعناية التى تستحقها الآلة الهامة ، وألا يسمح لها بالصدأ نتيجة لسوء الاستخدام أو بالإرهاق نتيجة لسوء المعالجة .

وسيكون المعلم الحساس على وعى بهذه الأهداف عندما يقرأ تلك الإجابات ، ولكنه لن يفعل هذا بصورة آلية إذا كان حقاً معلماً ذا حساسية . وسيكون هدفه أن يدمج التلميذ فى الأعمال التحريرية التى تحتاج إلى تفكير ، وأن يحافظ على إدماجهم بهذه الصورة . وعلى ذلك فسيقرأ المعلم كل إجابة فى ضوء ارتباطها بالتلميذ الذى قام بكتابتها . فإذا كانت تعبيرات التلميذ غير متسمة بالصراحة المطلقة فمن الممكن أن تكون التعليقات الهامشية جادة وذكية ، على ألا يحاول المعلم أن ينسخر من التلميذ ، ولكن ليستعنه للقيام بعمل آخر يعيده قليلاً إلى الصراحة . وإذا كان التلميذ هيباً فى الكتابة — نظراً لعدم الطمأنينة المتولدة عن قلة خبرته — فإن التأشير الهامشية الرقيقة يجب أن تبين هذا بدلاً من استخدام الممحار . وإذا اعتبر

التلميذ أن نقل ما كتبه الآخرون تمرينا على الكتابة نتيجة لجهله — وهذا يتعارض مع المجهود المقصود للخداع — فإن التأشيرة تكون مناسبة إذا اقترحت على التلميذ أن يقابل المعلم للتشاور . فإذا ظهر أن الخداع مقصود فإن على المدرس أن يعاونه . ولكن المعلم الحكيم قد يحتاج إلى أن يتأكد من حقيقة الطالب قبل أن يقوم بهذا العون . ولقد كمال الكثير من المعلمين المدح لكثير من التلاميذ لتعبيراتهم الجميلة واختيارهم الفعال للكلمات، وكان كل ما قام به تلاميذهم هو النقل من كتابات نموذجية مما يؤدي إلى أنه سيصعب على التلميذ العادي أن يصدق أي شيء آخر سوى أن سرقة المؤلفات من المتوقعات العادية في حجرة الدراسة . وتبدو هذه الحالة خصوصا في تلك الفصول حيث يعاقب الطالب المبتكر الذي لا يكتب كتابة سليمة ؛ لأنه ليس مستعدا بنفس الدرجة التي يستعد بها الطالب الناقل لأفكار غيره . وهناك نتيجة واحدة لا تقبل الجدل — ألا وهي أن الطريقة التي يطلب بها المعلمون من التلاميذ الكتابة إنما تعتبر ذات علاقة مباشرة بجو الفصل الدراسي الذي ساهمت تصرفاتهم أو أعمالهم في تكوينه .

ولا شك أن اهتمام المعلم الصحيح ينصب على مادة الكتابة قبل أي شيء آخر . وسيبحث المعلم عن الدليل على دقة العبارة ، وعن الابتكار في الصياغة والتوضيح . وعن التمكن من ربط الأفكار ، وعن معرفة بالكتاب اثقات المختصين (إذا كان هذا ملائما للكتابة المطلوبة) ، وعن التعليق في الخيال الذي يرتفع بالكاتب عن مستوى تسميع الحقيقة ، أو ذكر الحادثة بصورة صحيحة ولكنها كثية . وعلى ذلك لن يسمح المعلم لاهتمامه بأدوات التعبير — رغم صحة هذا — بأن يحوله عن هدفه الأصلي عند القراءة . ومن جهة أخرى ، لن يسمح للمجهود المبسر الذي لا يدل على عناية أن يشوه ما يحتمل أن يكون تعبيرا يدل على تفكير . إن اهتمامه يجب أن ينصب على النتيجة الكلية ، كما أن التقاعس في أي جانب من جوانبها قد يؤدي إلى إضعاف النتيجة كلها (١) .

(١) فيما يتعلق بفكرة الترابط التي عبرنا عنها هنا ، يقوم الافتراض أيضا على أننا إذا وجهنا عناية أكبر للكتابة أدى هذا إلى التحسن في مجال القراءة ، وهو المجال الذي لا يزال موضع جدل كبير . إننا نعرف هذا القدر . فإذا كان المعلم في حصة تلو الأخرى يفضل أن يضع التلاميذ علامات أمام الإجابات مع الاستغناء عن الكتابة ، فستحول القراءة من نشاط له إمكانات المنة والنشوة الفكرية إلى مجهود لوضع أكبر عدد من العلامات .

كلما طلبنا الكتابة من التلاميذ كان من المعتاد أن نعلم التلاميذ أن يستخدموا الهوامش الكافية . ولا بد أن التلاميذ يعجبون أحياناً من سبب هذا ؛ إذ أن الهوامش في نظرهم لا وظيفة لها سوى أنها تتطلب منهم استخدام أوراق إضافية . والمعلمون على حق في طلبهم للهوامش . إن الخطأ الذي وقع فيه المعلمون هو فشاهم في اعتبار الهوامش المساحة الخاصة بعملهم هم ، أي إنه المساحة التي يتصلون بها مع كل تلميذ بطريقة تأملية . إن التعليقات من النوع التالي قد تدمج التلميذ والمعلم في مشاركة فكرية أخرى أفضل من المشاركة الأولى :

« هل قرأت ما يقوله س عن هذه النقطة ؟ »

« إنني معجب بهذا ، هل تستطيع التوسع فيه ؟ »

« رأى أم حقيقة ؟ »

« هل يساعد تجزئ الجملة على تحسين تعبيرك ؟ »

« إن التوضيح قد يساعد هنا . »

« لنحدث معاً في هذه النقطة . »

« هل هذا يتفق مع ما تقوله أسفل صفحة ٢ ؟ »

« نقطة جميلة . إنها لم تخطر ببالى . تمسك بها وأوضحها أكثر . »

« هل يوافق والدك على هذا ؟ »

« كتابة تدل على إهمال هنا . حاول ثانية . »

« لقد أوضحت هذا جيداً ، فكيف تطبقها في ... ؟ »

« هل تعتقد هذا حقيقة ؟ »

إن السبب في مثل هذه التعليقات هو ، بالطبع ، أن نرجع التلميذ ثانية الى كتابته الأصلية بروح ناقدة ، وهذا شيء لا يدل على الملاحظة المنفردة التي تشير الى أن هذا عمل ممتاز أو فاشل . وفي الحقيقة ، يجب أن تكون الكتابة المبدئية والتعليقات موقفاً مستمراً لإعادة الكتابة . ولا يعنى هذا أن يكرر ما كتبه بل يتوسع فيه . ويبنى عليه ويعيد بناءه . وتتيح مثل هذه الكتابة ، أثناء الدراسة ، الفرصة للمعلم ليتعامل مع كل فرد في إطار تأملی يتناسب مع عمره ومرحلة تبصره ،

كما تعمل على إضفاء نوع من التأمل على عمل الفصل ككل بدلا من الكتابة الشكلية للمقالات التي تطلب في نهاية الفصل الدراسي عندما يكون الوقت متأخراً جداً لكي يعود التلميذ ثانية الى إعادة النظر فيما وصل اليه من نتائج .

الإلمام بجميع الحقائق ضد التفكير

والآن كلمة أخيرة : إن كاهل المعلمين مثقل في نواح كثيرة ، وكذلك التلاميذ . وعلاوة على هذا ، يزداد تعقد الموقف للطرفين بنجاح الإنسان المطرد في بحثه عن معارف أخرى . ولا يمكن أن نعلم كل ما هو معروف ، بل يجب أن تكون هناك عمليات اختيار . وكما قال ج . ب . ستراود ذات مرة « ... اذا تعذرا اكتساب معرفة الحقائق معرفة تامة ، متكاملة ، مفيدة الا على حساب تدريس حقائق أقل فحسب — وهذا هو الشأن إلا إذا استطعنا أن نتعلم كيف نعلمها بفاعلية أكبر — فعندئذ نوصي بهذا العلاج من كل قلوبنا (١) .

إن طريقة التدريس الفعالة — هذا إذا ما اتخذت القرارات بشأن الحقائق التي يجب أن تؤكد في كل مرحلة من مراحل النمو — هي الطريقة التأملية . إنها ذات فاعلية لأنها طريقة الإنسان الوحيدة لضمان استمرار التعلم الذي سيتعدى نطاق حجرة الدراسة إلى الشؤون المستمرة للحياة . وعلى ذلك ، عندما يتعارض الإلمام بالمعرفة مع دفع التفكير وتنميته فإنها من أوليات الحكمة التربوية أن تخلى الطريق للتفكير .

الفصل الرابع عشر

القيادة التربوية والعملية التأملية

إنه من المعتاد ، بل من الصحيح ، أن نتجه إلى العلم وعاداته عندما نفكر في أمر النشاط التأملى للتلاميذ وتنميته . أما فيما يتعلق بالتربية الشكلية ، فإن فرص دفع التفكير وتنميته تنبثق ، أو قد تنهأ في حجرة الدراسة ، إن المعلم يكشف عن مواطن قوته أضعفه في حجرة الدراسة ، كما أنه يظهر فيها مدى فهمه للعملية التربوية والأهداف التي يجب أن يحققها .

ومع هذا ، فقبل أن نتجه إلى التفكير في دور المعلم الشائك ، يجب أن نقرر نقطة غالباً ما تهمل في كثير من الأحيان . فكما أن المعلمين يعتمدون على نوع الموقف الذي يقومون بالتدريس فيه ، فكذلك يعتمد التلاميذ على نوع الموقف الذي يتعلمون فيه . وعلى هذا ، فعلى القادة التربويين (مديري المناطق ، والنظار ، والمفتشين وما إلى ذلك) دور يجب عليهم القيام به لإمكان تحقيق اطراد زيادة القدرة التأملية للتلاميذ . ويجب ألا يلقي العبء كله على كاهل أفراد المعلمين من فرقة لفرقة . ويستطيع المعلمون كأفراد أن يقوموا بتحقيق الكثير حتى في ظل الظروف غير المواتية (كما اقترحنا في الفصلين الثاني والثالث عشر) ولكن يعوق العمل كله من البداية إذا فقدت القيادة حساسيتها نحو المسؤوليات الملقاة على كاهلها .

ويتسكون الجو المدرسى — أو ربما نكون أكثر إيجازاً فنقول جو التعلم ، مستخدمين بذلك عنوان محاضرة « أوردواى تيد » التي ألقاها في جمعية جون ديوى — من عدة عوامل ، تبدأ من القيم الاجتماعية إلى الخدمات التي يقدمها الفراشون . ومع ذلك ، فإن نوع القيادة الإدارية هو العامل الرئيسى الذى يرتبط بالعوامل الأخرى ويكيفها . ولقد نادى تيد في هذه المحاضرة بالحاجة إلى إداية جو التواكل في التعليم العالى . إن ما عبر عنه تيد فيما يختص بأهمية القيادة في تلك (١٧ — التفكير التأملى)

المرحلة ينطبق تماما على المراحل الأخرى في المجال التربوي . إن حياة جميع الإداريين قد أصبحت مكدسة بالأعمال أكثر وأكثر ، كما أن المطالب العاجلة التي يجب عليهم تحقيقها حاليا لا تمت إلى دورهم الفنى كقادة تربويين بأية صلة . ويجد تيد في ضوء هذا الموقف أن : (١)

« ... المطلب العاجل الذى يجب على الشرعيين ، وأمناء الجماعات ، وأعضاء هيئة التدريس أن يحققوه هو (أن) يتقذوا قادة الكليات حتى يستطيعوا القيام بدورهم التربوي الصحيح ... »

وعلى هذا يعتمد تحسين جو التعلم في معظم المعاهد أساسا على تعيين هيئة إدارية جديدة . إذا أردنا أن نضع الأمور الهامة الأولى بالكلية في الاعتبار الأول ، وأن نحفظ لها بأوليتها ، فيجب أن يكون على رأس الكلية قائد حازم ، شجاع ، ذو تفكير متسع الأفق لكي يقود عملية التعلم بالكلية .

المفاهيم المتعارضة للقيادة

فما معنى هذا في إطار السلوك الإداري وخاصة على مستوى التعليمين الابتدائي والثانوي ؟ لننظر في الوصفين التاليين المتناقضين لاثنتين من الإداريين ، على ألا يغيب عن بالنا ، بالطبع ، أنه لا ينطبق أى وصف منهما تماما على أى إداري في أى موقف معين .

الإداري « أ » . إن الجدارة تستهويه . فهو ينوي أن يضع كل أمر في نصابه ، حتى ولو اضطر هو أن يرى آخر قلم للرصاص بنفسه . إنه يفقد الصبر في المناقشات غير المجدية ، إنه يبدأ اجتماعاته في الميعاد المحدد تماما وينتهيها في الميعاد المحدد أيضا . إنه يكرس هذه الاجتماعات لقراءة الأوامر وتوزيع التعليمات . إن اجتماعات مجلسه

(١) Ordway Tead, The Climate of Learning: A Constructive Attack on Complacency in American Colleges, The First John Dewey Society Lecture (New York Harper & Brothers,) pp 21-22.

تعتبر نماذج للدقة ؛ فهو ينتقل من « بند » إلى « بند » في جدول الأعمال الذي أعد إعداداً دقيقاً ، واضعاً نصب عينيه دائماً كل ملهم يصرف ، وكل قرش يقتصد . وعلى الرغم من أنه مغرم بقوله : إنه « ديمقراطي » ، فإنه حريص دائماً أن يضيف : « ولكن يجب علينا أن ننجز ما علينا من عمل » . وعلى ذلك ، فهو يكتب « فلسفة المدرسة » في أغسطس حتى تستطيع المدرسة أن تبدأ في الميعاد المحدد في أول كل عام . وهو يعمل مع نخبة مختارة من هيئة التدريس في تنظيم الجداول ، واختيار الكتب المقررة ، وتنظيم التقويم الزمنى للمدرسة ، ووضع القواعد التي سيتبعها التلاميذ . وفي الحقيقة ، إنه يفعل كل شيء يمكنه من إطلاق المدرسة بأقصى سرعة عندما يضغط على الزر . وبالطبع إنه يتولى جميع شئون العلاقات العامة . إنه يرغب في أن تسير دفة الأمور بسهولة في السنة الدراسية التي هو مقبل عليها . وعلى ذلك ، فإن تحذيره الأول للمدرسين في هذا المجال ، هو أن يتعدوا في فصولهم عن مناقشة المشكلات التي قد تجعل التلاميذ يحملون أفكاراً خاطئة معهم عند عودتهم إلى منازلهم . إنه يقول للمعلمين إن واجبهم هو تدريس الحقائق إذ سيكون لدى التلاميذ متسع من الوقت للتفكير فيما بعد . وعلى أي حال إن أولئك التلاميذ لن يستطيعوا القيام بأي تفكير جدير بالاهتمام إلا إذا كانوا على علم بالحقائق . إن الإداري « أ » يقبض بيد من حديد على كل شيء (كما يعرف التلاميذ هذا جيداً) . إنه يدعى أنه واثق تمام الثقة أن الإتيان الذي يتطلبه لن يتحقق إلا بتلك الطرق وحسب .

الإداري « ب » . إنه يرغب ، أولاً ، في أن تكون المدرسة التي يديرها مدرسة جيدة . ومع هذا فإنه على ثقة بأنه هو والمعلمين يتمتعون بقدر كاف من الذكاء يسمع بأن تكون المدرسة الحالية أكثر تقدماً إذا ما اشترك كل فرد في التفكير بحرية . إن همته تثبط في بعض الأحيان عندما ينزل مستوى اجتماعات اللجان إلى مستوى المناقشة التي لا تنتهى . ورغم هذا ، فإن التغير الملحوظ في سلوك الكثير من أعضاء هيئة التدريس منذ ابتدأوا في الاشتراك في مناقشة سياسة المدرسة ، قد ملأ قلبه بالأمل . إنه ينظر إلى الأعمال الروتينية بنظرة سليمة ، معتقداً أنه من الخطأ أن يترك أمر معالجتها لأعضاء هيئة التدريس . إن السرور يفعم قلبه ، خاصة عندما يرى الاهتمام الجديد الذي يبداه أعضاء مجلسه بعد الاجتماع الذي يديره لهم مع لجنة النظام التي يشكلها من أعضاء هيئة التدريس . فقد يحضر أعضاء المجلس أو عضوان مصادفة

ويشتركان فى اجتماع هيئة التدريس . ولقد وجد أيضا أنه على الرغم من أن المعلمين قد يبذلون جهدا أكبر فى العمل فإنهم فيما يبدو أكثر راحة واطمئنانا ، وهذه نتيجة لها آثارها الهامة فى تغيير اتجاهات التلاميذ . وعلى الرغم من أن الدلائل ليست جميعها فى صفه فإنه يفقد بالتدريج الخوف الوحيد الذى كان متمكنا منه عندما ابتدا فى اتباع هذه الاتجاهات الجديدة . إنه الخوف من أن مستوى اكتساب التلاميذ للمعلومات (أو « المعرفة » كما قد يسميها نقاد سياسته) سيهبط عن ذى قبل . إن معظم التلاميذ يقومون بأعمالهم بنفس المستوى الذى كانوا عليه من قبل ، بل إن بعضهم قد تحسن عن ذى قبل ، كما أن بعض التلاميذ الذين لم يظهروا عندئذ أى دلالة على الاهتمام الفكرى قد أظهروا أنهم حصلوا على نتائج باهرة . ومما يدعو إلى العبطة أنه على الرغم مما يبدو من تخليه عن السلطة ، فإنه يشعر أنه قد اكتسب مزيدا من القوة فيما يتعلق بقيادته للمدرسة . إن هذا على الأقل مجرد افتراض وهو على استعداد لاختباره أكثر .

وبالطبع لا يجمع أى إدارى كل الحسنيات ، كما لا يجمع أى إدارى كل المساوىء . إن الميل إلى تقييد الأفراد فى إطار مفهوم معد من قبل للمدرسة الناجحة له مجموعة معينة من النتائج ، كما أن الميل إلى تحرير أولئك الأفراد وجعلهم مشتركين مسئولين وسفكرين تأمليا فى تكوين وإعادة تكوين المفاهيم له مجموعة أخرى من النتائج . إن موضوع مناقشتنا هو خلق جو يشعر فيه المعلمون بحرية النمو مهنيا . وعندئذ فقط ربما نستطيع بحق أن نتوقع من المعلمين أن يخلقوا « جوا للتعليم » يشعر فيه الأطفال الصغار بالحرية لكي ينموا .

وربما كانت الصفة الكيفية لسلوك القائد أكثر أهمية من أى وسيلة أو تنظيم إدارى عند مواجهة المشكلات المدرسية . وكما بينت أوصافنا السابقة للإداريين « أ » ، « ب » ، فإن طبيعة هذا السلوك سيكون لها آثارها فى كل من أعضاء هيئة التدريس والتلاميذ . وقد قام أحد المؤلفين من عدة سنوات بدراسة وثيقة اتصال بالقطعة التى نبحثها (١) . وكان أحد أغراض البحث تحديد الطبيعة المميزة لبعض صفات

السلوك التي أطلق عليها المؤلف مصطلح « العقلية الفلسفية » . وكان الغرض الثاني هو اكتشاف آثار وجود أو عدم وجود العقلية الفلسفية في الأعمال الإدارية لنظار المدارس على الروح المعنوية للمعلمين وأنماط الاتصال والتفاهم داخل المدرسة وما شابه ذلك .

ومن الصفات الخاصة التي عينا البحث كصفات لازمة للعقلية الفلسفية ما يأتي :
شمول التفكير ، ونفاذه ، ومرانته . وتناول الباحث كل صفة من هذه الصفات بتحليل أوسع . فتضمن شمول التفكير ، مثلاً ، بعض أنواع السلوك مثل « إدراك الصورة العامة » وربط المشكلات الحالية بالأهداف البعيدة المدى ، ومعالجة التفسيرات النظرية بروح من التسامح وهكذا . وتضمن نفاذ التفكير التشكك في كل ما هو متقبل عموماً كقضية مسلم بها ، أو كل ما هو بديهي مع استخدام الحساسية عند تبين مضامين هذا التساؤل ومطابقته للموقف وهكذا . وتضمنت المرونة النظر إلى المشكلات كمشكلات لها وجهات نظر مختلفة بدلاً من النظر إليها من وجهتين فقط ، والبعد عن المغالطات المتوارثة ، والاحتفاظ بالتسامح نحو النواحي التجريبية والأحكام المؤجلة وهكذا . ومن الأفضل أن نورد هنا النتيجة العامة لتلك الدراسة^(١) والتي تعتبر صدى لنداء « أوردواي تيد » لانتقاد قادة الكليات حق، يستطيعوا القيام بدورهم التربوي الصحيح .

عندما يظهر ناظر المدرسة شمولاً ونفاذاً ومرانة في تفكيره عند معالجته للمشكلات التي تواجهه ، فإن المعلمين يميلون غالباً إلى الشعور بأنه من السهل عليهم نسبياً التفاهم مع الناظر . ومن جهة أخرى ، إذا كانت صفات العقلية الفلسفية ضعيفة عند الناظر ، فقد يقرر الكثير من المعلمين أن التفاهم صعب معه . كما عبر عدد لا بأس به منهم عن مخاوفهم الشديدة لاحتمال الانتقام منهم بطريقة غير مهنية أو غير أخلاقية إذا أدلوا بتصريحات صادقة تعبر عن آرائهم ومشاعرهم ...

ویظهر أن هناك صلة مباشرة بین العقلية الفلسفية للناظر والروح المعنوية العامة لهیئة التدريس . وتمتد هذه الصلة إلى استجابات المعلمین لبعض الأمور المعينة كالطريقة التي ينظمون بها لدراسة المناهج ، أو السیل الذي تختار به المشكلات لدراستها . وعلاوة على هذا ، إن هذه الصلة تخترق نطاق أنواع التنظيمات المختلفة والطرق الجماعية ، وعلى هذا تشير إلى أن العقلية الفلسفية أكثر أهمية من أنواع وطرق التنظيمات .

دور القيادة التعليمية

والحقیقة هي أن دور القادة التربویین في جوهره ، دور تعليمی . إن كل ما قد يقال عن الوظيفة الصحيحة للمعلم قد ننسخ منها صورة طبق الأصل لوصف وظيفة القائد التربوی . ويواجه القادة — سواء أكانوا مديرين للتعليم في المدن ، أم نظارا للمدارس ، أم مفتشين للتربية الفنية — نفس المشكلات الهامة التي يواجهها المعلمون عند تشجيعهم لأولئك الذين يتصلون بهم للمساهمة بتفكيرهم التأملی في أوجه النشاط التي يشتركون فيها عموما . ويصدق هذا عندما يتعاملون مع هيئة التدريس مباشرة ، أو عندما يكونون علاقات مع الطلاب أو ممثليهم ، أو عندما يتشاورون مع أولياء الأمور أو أفراد الجمهور عامة . ويصدق هذا أيضاً عندما يتعاملون مع أعضاء المجلس التربوی أو مع بعض الموظفين العموميين الآخرين . ولسوء الحظ ، غالباً ما يظن في كثير من الأحيان أن القيادة تتضمن ذكاء لتشكيل جماعة من الأتباع أو لإدارة أوجه النشاط بحيث يتلقى الآخرون الأوامر دون أن يعرفوا أنهم يفعلون ذلك . ولكن هذا مدخل يجافي الديمقراطية في إدارة شئون الأفراد . إن هذا يخلق جوا قد يكون فيه كل من المعلمين والتلاميذ اتجاهها تهكياً نحو الديمقراطية^(١) .

(١) انظر : H. Gordon Hullfish, "A Theoretical Consideration of Educational Administration," Educational Theory (April, 1958)

ودلك للمناقشة الأكثر تفصلاً للإدارة الديمقراطية وخاصة في علاقتها بالاتصال والتفاهم .

وتقع على عاتق القادة التربويين مسئولية معينة تجاه المعلمين على وجه الخصوص . وتتلخص هذه المسئولية بكل بساطة في تمكينهم من أن يؤديوا عملهم — وهو التدريس — بأقصى ما يمكن من يسر وفاعلية . إننا نعرف أن تقبل تحمل هذه المسئولية يعنى القيام بأعباء الوظيفة طول الوقت ، وهو عمل لا نهاية له ، وغالباً ما يكون محيظاً . ولكن حيث إن الاختبار النهائى لما تقوم به المدرسة هو ما يحدث لتلاميذها في مواقف التدريس والتعلم ، فليس هناك من بديل حقيقة لما سبق أن قلناه أمام القادة التربويين الذين يأملون في الوصول إلى تحقيق شيء أكثر من اكتساب الشهرة بأنهم حراس مهرة على المدارس .

وكان الإدارى « ب » على حق حين عبر عن ثقته في أن لديه هو وأعضاء هيئة التدريس من الذكاء السكافي إذا ما نهيات لهم السبل التى يسهمون فيها بهذا الذكاء بحرية لكي يجعل مدرسته الحالية أكثر تقدماً . وبالطبع إن طريقة المشاركة في الذكاء تتضمن المشاركة الوثيقة الصلة بالمشكلات التى يجب أن تحل ، إذا أرادت المدرسة أن تبعد عن كونها مركزاً لا حياة فيه للعادات التى تتكون من المخاوف وسوء الفهم المتخلفة عن الأجيال الماضية . وبعض هذه المشكلات ماهى إلا مشكلات ناتجة عن إداريين معينين ، رغم أنها ليست مقصورة عليهم فقط . ويجب عليهم معالجة هذه المشكلات في الحال ، على أن يتذكروا رغم هذا دائماً أن الطريقة التى يعالجونها بها يجب أن تيسر العمل على المعلمين ، لا أن تعوقه .

مواجهة القيادة لمشكلات معقدة

إن ميزانية المدرسة (أو ميزانية أى نظام) هى بالطبع من أولى مسئوليات القادة التربويين . ومع هذا فالميزانية في تحليها النهائى ما هى إلا تعبير لبرنامج المدرسة في صورة مالية . وليست مسئولية برنامج المدرسة مقصورة على رجل الإدارة . إن كمية الأموال التى تخصص لشراء الكتب والمعدات ، والاهتمام النسبى الذى تعكسه الميزانية فيما يختص بأوجه النشاط الدراسى وغير الدراسى ، ومشروعات برامج إقامة المباني فيما يتعلق بكل من مكان الأبنية الجديدة وطبيعة شكلها وتجديد

المبانی القديمة ، وجداول المرتبات ، ونسبة عدد التلاميذ للمعلمين ، ومراثة الجداول ؛ واستخدام المذياع والتليفزيون والوسائل الأخرى المعينة على التدريس ، وتوفير الوسائل اللازمة للتوجيه ، ووضع برامج خاصة وعامة لتدعيم العلاقات العامة — إن كل هذه المشكلات وما يشبهها من مشكلات مدرسية ، بالإضافة الى الطريقة التي تعالج بها ، هي التي تضيف على الميزانية شكلها ونوعها النهائيين .

فإذا أعطيت مثل هذه المشكلات للمعلمين لإيجاد الحلول لها ، فمن الواضح أن اهتمامهم بالتدريس سيكون أمراً ثانوياً . ولا نتوقع إجرائياً أن يقوم المعلمون سواء بصفة جماعية كأعضاء للجان أو فرادى نتيجة لانتخابهم لفترة محددة من الوقت بالأعمال الإدارية للقسم المحلي الذي تتبعه المدرسة ، إلا في نظم الولايات أو نظام الدولة العام حيث تسلم قرارات الميزانية من مكاتب البيروقراطيين . ويقوم رجال الإدارة رغم أننا نصب عليهم اللعنة أحياناً — بوظيفة هامة في نظام التعليم العام في النظام الديموقراطي الذي يشبه ديموقراطيتنا . وهذا هو السبب في أننا ننظر إلى القادة التربويين ، وكذلك إلى المعلمين كأفراد تؤثر أعمالهم مباشرة في وجود أو عدم وجود الاهتمام بتنمية التفكير ودفعه في حجرة الدراسة؛ إذ أن الآمال التي تحاول الديموقراطية تحقيقها تكون بمساهمة جميع المواطنين بروح تأملية في شئون الثقافة التي يشتركون فيها.

ولكن لتدبر ما هو متضمن هنا بتحديد أدق ؛ فإذا كان القائد على قدر من عدم الحكمة لدرجة أنه يعتبر أن اختيار الكتب المقررة أو الكتب الأخرى من امتيازاته هو ؛ وألا يشرك معه فيها — إذا حدث هذا إطلاقاً — إلا أعضاء المجلس التربوي ، فإن النتيجة الحتمية لهذا ستكون نخطيماً للروح المعنوية لأعضاء هيئة التدريس فيما عدا أولئك المعلمين الذين راضوا أنفسهم من زمن طويل على تقبل ما هو محتوم ، أو أولئك الذين لا يشعرون بالطمأنينة إلا إذا اتخذ الآخرون القرارات لهم . إن الرضا في عملية التدريس حصيلة جزئية لاستخدام أدوات التدريس التي يعتقد أنها أفضل ما في متناول اليد لأداء هذا العمل بناء على الحكم الشخصي للمدرس نفسه . ويجب ألا يقوم أي شخص لا يشترك اشتراكاً مباشراً في عملية التدريس باختيار مثل هذه الأدوات إطلاقاً .

ولا تشير هذه النتيجة إلى أنه يجب إهمال القادة التربويين عندما تقتضى الضرورة

اختيار أدوات التدريس . إننا نتوقع أن تكون لهم بعض الآراء ، كما نتوقع أن يسمح لهم بالتعبير عنها . ولن تنجح الديمقراطية في تحقيق أغراضها إلا ظاهريا فحسب ، كما لن تمارس القيادة إلا ظاهريا فحسب إذا تخلى القادة عن المسؤولية الملقاة على عاتقهم . إن تفويض أعضاء هيئة التدريس في القيام بمسؤوليات أكبر وأكبر لا يؤدي آليا إلى انتشار المساهمة الدالة على الذكاء من جانب أولئك الأعضاء . وفي بعض الأحيان ، يجب على أولئك الذين سيقومون بتنفيذ بعض الإجراءات أن يطلعوا على الصورة الكلية للموضوع ، كما أن صفة الإجراءات تأخذ شكلها النهائي عندما ينبثق نوع الصورة الكلية . وربما تستدعي الأموال الموجودة في متناول اليد في سنة من السنوات أن يضطر المعلمون إلى اختيار شراء مواد جديدة أو رفع المرتبات بنسبة بسيطة ولكنها لازمة . أو ربما تعارض اقتراح هيئة التدريس لتوسيع إمكانيات التوجيه في حدود الميزانية مع مشروعات التأمين ضد أخطار الحريق في المباني القديمة . وفي الحقيقة ربما يتعارض مشروع إبدال المبنى الذي لم يعد استخدامه أمرا مأمونا مع الرغبة في شراء مواد جديدة ، ومع زيادة المرتبات التي يأمل الجميع في تحقيقها ، ومع اقتراحات توسيع إمكانيات برنامج التوجيه .

إننا نستطيع أن نتأكد من أمر واحد إن اتخذ القادة التربويين لهذه القرارات في المشكلات السابقة وما شابهها دون أن يشركوا معهم أحدا ، مهما كانت درجة وضوح رؤيتهم لجميع الحقائق الخاصة بها ، سيخلق جوا من التوتر بين أعضاء هيئة التدريس . وسيؤدي هذا بالتالي إلى تعكير جو التعلم في داخل حجرات الدراسة . إن أنواع الإحباط وعدم الرضا التي تبعث الأسى في نفوس أعضاء هيئة التدريس تتحول في نهاية الأمر إلى أمور تبعث الأسى في نفوس التلاميذ أيضا . وقد لا تؤدي المؤتمرات والتشاور مع أعضاء هيئة التدريس المناسبين ، أو عقد اجتماع لأعضاء هيئة التدريس بكامل هيئتها لتقديم الأسباب وراء القيام بالأعمال المقترحة إلى تغيير في القرارات التي اتخذت . ولكنها ، مع ذلك ، قد تؤدي إلى خلق جو من التفاهم والثقة لدرجة كبيرة . وقد يكشف القائد التربوي في مثل هذه المواقف عن صفاتي شمول ونفاذ تفكيره ، كما قد يظهر مرانة في التفكير في حالة ما إذا كانت معارضة هيئة التدريس لبعض الحقائق أو النتائج التي يقدمها معارضة شديدة . فعندما يفعل هذا فهو لن يرقى بعقليته الفلسفية فحسب ، ولكنه سيشارك أعضاء هيئة التدريس في إنماء هذه الخاصية نفسها .

و يجب أن نقرر اعتبارين آخرين لهذه النقطة ؛ إنه من السهل على رجل الإدارة — الذى غالباً ما لا يتوافق له الوقت الكافى إطلاقاً لينجز أثناء النهار جميع الأعمال التى يجب أن يؤديها — أن يسىء فهم جو مدرسته أو نظامه التعليمى . وعادة لا يعبر المعلمون صراحة عن مخبطهم ؛ ومع هذا ، فكثيراً ما تشور التيارات الخفية فى حجرات الاستراحة ، أو فى المطعم ، أو فى الطرقات ، أو فى الاتصالات الاجتماعية العابرة . وعلاوة على هذا فقد يعتقد القادة فى التشكيلات الأدنى والذين هم فى موقف يسمح لهم بملاحظة قوة التيارات الخفية ، أن من واجبهم إزالة أسباب السخط وأن يحتفظوا باكتشافهم لأنفسهم ، رغبة منهم فى عدم إقلاق القادة فى المناصب العليا بالتوافه من المشكلات .

إننا نعرف جيداً أنه من الصعب — حتى على الرجل الحكيم — أن يستمر هكذا عندما يتبوأ مناصب رياضية . ومع هذا ، فلا تعتبر أى مشكلة أمراً تافهاً إذا كانت تؤثر تأثيراً مضاداً فى الجو التربوى ، وعلى ذلك يجب أن يتأكد القادة فى المناصب العليا من بقاء جميع وسائل الاتصال مع أعضاء هيئة التدريس مفتوحة فى جميع الأوقات . وليس هذا بالأمر الذى نعالجه بالطريقة العاطفية المائعة التى يتبعها من يشعر بالعظمة حينما ينظر إليه الأفراد « كشخص طيب ، من السهل مقابلته ، وعلى استعداد دائماً للتحدث مع أى شخص » . إن المشكلة أعمق من هذا . إن ما يهم فى الأمر هو النظرة الشاملة الثاقبة لجميع المشكلات التى تضافى على الموقف الكلى صفته الخاصة به . ويجب ألا يفترض أى إدارى أن التيار المستمر لوسائل الاتصال عن طريق الكلمة المطبوعة التى يوجهها لهيئة التدريس ، مهما أعمل الفكر فى تدوينها ، ومهما أعدت بطريقة تبعث السرور إلى النفس ، ستكون بديلاً عن المؤتمرات والاجتماعات التى يدرك المعلمون فيها أن الإدارة تطلب منهم بحق التعبير عن وجهات نظرهم ، وأنها ستوضع موضع الاعتبار بصورة جدية . ولا يوجد أى قائد تربوى — مهما كان قليل الخبرة أو عديم التأثير — خالياً تماماً من الصفات الإنسانية كما قد تبدو صورته فى المنشور المطبوع .

تداخل أوجه النشاط

إن نوع التدريس داخل المدرسة وبناء وتنظيم منهجها هى من المجالات الأخرى التى تعتبر القيادة التربوية الحكيمة فيها عاملاً حاسماً . إن أولى أساسيات الحكمة هنا هى تحرير

المعلمين من القيود الإدارية التي تجعلهم مجرد آلات لتنفيذ السياسة التي لم يشتركوا في وضعها .

والخطوة الثانية هي مساعدة المعلمين على استخدام حريتهم بسبل تدفع لتحقيق الأغراض التي يؤمن بها الجميع . ويجب ألا يؤدي رفع القيود لتحرير المعلمين إلى ربط برنامج المدرسة بعقدة من القيود الفردية التي يضعها المعلمون الذين يقومون بأداء ما يحلو لهم عندما يحلو لهم ذلك . بل إن الهدف من هذا هو خلق الفرصة لنمو برنامج المدرسة بالطرق التي تسمح بالإبقاء على أطرافه النامية حساسة وناطقة بالحياة على الدوام .

ولا شك أنه من المستحيل أن نفصل مشكلة التدريس عن مشكلة المنهج . إن كلا منهما مرتبطة أشد الارتباط بالأخرى . ومع هذا فلقد أوضح المؤلفان ، في ناحية أخرى ، أنه إذا كان ثمت اختيار ، فإنهما يضعان الاهتمام على التدريس لمعرفة أن تحسينه ستكون له نتائج عاجلة تؤدي إلى تحسين المنهج . وكان ديوى على حق في نظريته الشاملة الثابتة فيما يتعلق بالعملية التربوية والتي انتهى فيها إلى أن « الطريقة تعنى تنظيم المادة الدراسية بحيث تجعلها أكثر فاعلية عند استخدامها . ولا يمكن أن تكون الطريقة شيئاً منفصلاً عن المادة » . وقد أكد ثانية أن « الطريقة ليست أمراً ناقضاً للمادة الدراسية ، إنها التوجيه الفعال للمادة الدراسية لتحقيق النتائج المرغوب فيها ^(١) . فإذا تذكرنا ما كررناه في هذا الكتاب من أن « التفكير سبيل الخبرة المربية » فسندستطيع أن نرى بوضوح ارتباط الطريقة والمنهج والهدف بهما ببعض .

ومع هذا ، إنه من الأنسب ، بل ومن المفيد أحياناً ، أن نناقش الجوانب المختلفة للعملية التربوية ، كل جانب على حدة . . وهناك مجال دائماً للتحليل الدقيق للعملية المعقدة على شريطة أنه يقود كذلك إلى مستوى جديد من التركيب . إن ما يقلق فيما يختص بالعمل المدرسي هو : إما اقتراح طريقة للتدريس قد يفترض أنها ستفرض على كل فرقة على السواء ، وإما إحلال محتوى منهج ما بمحتوى آخر مع الاعتقاد الساذج أن محتوى المنهج سيعمل بطريقة مسخرة على تغيير نوع عملية التعلم .

(١) John Dewey Democracy and Education (New York: The Macmillan Company 1916) p. 194 .

إن الميل إلى معالجة أجزاء المشكلة ، مع نسيان أن معنى الجزء يجب أن يختبر بطبيعة الحال عندما يوجه إلى إعادة بناء الكل ، من الأمور التي يجب على القادة التربويين أن يلاحظوها باستمرار . ففي المكان الأول ، قد يسمع القائد - لكونه إنساناً - لتحمسه لتبصر جديد بمشكلة المنهج ؛ مثلاً أن يقوده إلى افتراض أن تحمس معلمه لن يقل عن تحمسه هو ، وثانياً ، لا يقل احتمال تخلى المعلمين عن وجهات نظرهم تحت تأثير أنواع الحماسة الجديدة . إن هذا الميل هو ، مصدر جميع حركات التقاليع التي اجتاحت المدارس .

تشجيع التجريب

إن الحماسة ، بلا شك ، صفة نحتاج إليها في المجال التربوي . ويحمد الكثير منا سلوكه في الهدير أو الضجيج الذي يعمل به ، أو إذا اتجهنا إلى صورة أخرى ، فسنجد أن الكثير منا يملأ السرور نفوسهم عند سماعهم للنفحات التوقعية النابعة من المعدن الذي قدت منه قيودنا . ولحسن الحظ لا يستسلم الأكثر مخاطرة بهذه السهولة ، إذ تلمع غيوتهم وترتفع زوحم المعنوية عندما تتحدى الأفكار الجديدة معتقداتهم ، وعندما ينجحون في إثارة التلاميذ لمحاولة الوصول إلى مستويات أعلى من التحصيل ، وعندما يعلمون عن التخطيط التي قام بها بعض الأفراد الآخرين لتحسين طرق التدريس في الفصل . ويجب على القائد الحكيم أن يراعى هؤلاء الأفراد الذين ثابروا على حب المخاطرة من جانبهم الخاص رغم العقبات التي تعترضهم . حقا إن مثل هؤلاء الأفراد ذوو شخصيات تثير الغيظ أحيانا ؛ ومع ذلك يجب على القادة التربويين أن يتحدوهم دائما للاحتفاظ دائما بجرائهم ونشاطهم ؛ ويجب على القادة أيضا أن يتحدوهم للارتفاع بأنفسهم إلى مستوى العقلية الفلسفية ليتجنبوا الجري المثير وراء المخاطرة لجرد المخاطرة .

ومن الطرق التي نستفيد بها من روح المعلمين النشطين ؛ ونأسر بها خيالهم وخيال الآخرين ، أن نشجعهم على تجربة بعض الآراء لتحسين عملهم . ويمكن القيام بهذا داخل المدرسة ، كما يمكن القيام به في ظل النظام المدرسي . وعلاوة على هذا يجب القيام بهذا حتى ولو لم يوافق على انتهاز فرصة التجريب إلا معلم واحد فقط . إن النقطة هي المبادأة بالقيام بحركة تساعد على خلق جو مدرسي حيث يكون

فيه الأمر طبيعياً للمعلمين أن يشتركوا في الحماسة فيما يتعلق بالمخاطرات في التدريس كما هو طبيعي لهم أن يشتركوا في الحماسة لتشجيع فرق كرة القدم أو المزايدات . ولقد أشار « شارلز . ه . جد » من عدة سنوات خلت إلى أنه يمكن عمل التقويم المبدئي للمدرسة عن طريق الحصول على إجابة لسؤال واحد هو : « ما هي التجارب التي قامت بها المدرسة هذا العام ؟ » وأشار إلى أن الإجابة السلبية تعتبر تقويماً كاملاً لدرجة لا داعي معها للقيام بأية دراسة أخرى لتلك المدرسة .

إن الرغبة في إجراء التجارب ، والشجاعة لتحمل الفشل الذي لا بد أن يحدث ، واستخدام الخيال في استغلال النجاح الذي يتم من وقت لآخر ، كل هذه صفات أساسية للجو التربوي الذي تتاح فيه الفرصة القصوى للأطفال الصغار ليصبحوا أعضاء يتسمون بالمعرفة والتفكير في العالم الذي يعيشون فيه . وعلى هذا ، يجب عمل الترتيبات اللازمة لتشجيع روح المخاطرة والتجريب بين أعضاء هيئة التدريس . ويمكن عقد الاجتماعات حيث يناقش الأعضاء فيها جهودهم التجريبية مع زملائهم ، عارضين مآلديهم من أدلة مؤيدة لما يقومون به ، ومتوقعين التحليل الناقد لعملهم من زملائهم ، الذين سيقومون بدورهم بعرض جهودهم الخاصة لتقومها الجماعة . ويجب ألا تسمح قيادة المدرسة بأن يقع الجو المدرسي — كما هي الحال غالباً — تحت سيطرة أعضاء هيئة التدريس المنهكي التفكير الذين يجدون الراحة والحماية لأنفسهم باتهام زملائهم المخاطرين بأهم « يحاولون المستحيل » . وسيجد الإداري الحكيم في روح المخاطرة فرصة لإذكاء الحياة في المدرسة كلها .

ويعرف المؤلفان جيداً أن مثل هذا الاقتراح يتعارض مع أساليب الإدارة العادية . ويشعر الكثير من الإداريين أن في هذا دعوة لإحلال النكبة بالمدرسة . وسيخشون أن يفلت زمام الأمور من أيديهم ، مع عدم إدراكهم بأنه إذا كان شعورهم هكذا فإن زمام الضبط الفعال قد أفلت قبلاً . وقد ينظر بعض الإداريين الآخرين ، الذين يدعون بصدق لإجراء التجارب ، إلى ما اقترحنه على أنه لا يزيد شيئاً عن كونه مدخلاً عرضياً لمشكلة ينوون معالجتها بطريقة منظمة . وسيتم تخطيط تجربتهم بعناية ، وربما تحت إشراف مستشار مختص . ولن يكون هناك احتمال لوقوع الفشل ، ومن جهة أخرى إنه لن يتم أي تجريب بالمعنى الحقيقي . طبعاً من الممكن لأية فكرة قبلها المستشار من قبل ، وفهمها فهماً جيداً ، أن تقدم لكي تحدث

تحوّلا في أوضاع المدرسة - في التدريس ، وفي المنهج ، وفي التقويم ، وفي التوجيه أو في كل هذه المجالات في الحال . وسيتصرّ واجب المستشار على مساعدة المعلمين على أن يصبحوا فنيين . لائمين بحيث تكون مهارتهم ضمانا لنجاح هذه البدعة .

إن الكلمات السابقة كلمات قاطعة ، ومع ذلك فقد اختيرت بدقة . إن الأفكار الجديدة التي تقدم من الخارج تؤدي فعلا إلى دفع التغييرات في المدارس ، وغالبا ما تعود بنتائج طيبة . ولكن قلما يشعر المعلمون بالحرية لتجريب الأفكار التي تولدت عندهم هم شخصا ، وقلما يكون هناك أي تجريب على الإطلاق . إن الأمر الأكثر اعتيادا هو أن الأفكار التي يعتقد أنها أفكار حسنة تتقبل على أنها حسنة ، مع تغيير في الأداء طبقا لهذا . وبعدئذ ، إذا لم تتوخ الدقة ، فإن إيماننا جديدا سيخيم على المدرسة . ومهما قيل عن تجربة السنوات الثماني التي قامت بها رابطة التربية التقدمية منذ عشرين سنة مضت ، والتي أعطيت فيها الحرية لتلاميذ مدرسة ثانوية مختارة للتجربة في أعماط المناهج (منحت هذه الحرية منذ أكثر من ٣٠٠ كلية جامعية أبدت موافقتها على قبول خريجي تلك المدارس الثلاثين لمدة ثماني سنوات دون التقيد بامتحانات القبول المعتادة) فالحقيقة هي أن كل مدرسة قد اختطت لنفسها نمطا خاصا بها (١) .

ومن سوء الحظ أن التعليم العام ، كما يظهر ، قد فقد روح التجريب . إن الحاجة إليه ماسة في الوقت الحاضر . وإثنا لنأمل ، مع رجوعنا ثانية إلى الملاحظة التي أبدتها « أوردواي تيد » أن ترتفع القيادة التربوية إلى مستوى « دورها التربوي الصحيح » ، وأن تبعث الحياة في هذا الدور من جديد . إن الخطوة الأولى الضرورية التي يجب اتخاذها هي أن نقوم بدعوة المعلمين لتحويل فصولهم إلى معامل حيث يكون التدريس الذي يقومون به موضع إنعام للنظر الفكري الدائم .

الفكرة المألوفة تغري

إنه لمن المألوف للمدارس التي تقنع بالبقاء في ضجيجها المعتاد أن تستسلم إلى

(١) انظر: Wilfred M. Aikin, The Story of the Eight - Year Study: With Conclusions & Recommendations (New York: Harper & Brothers, 1942) ; and Charles D. Chamberlin, Did They Succeed in College (New York: Harper & Brothers 1942)

إغراء الأفكار الشائعة الجارية . وربما كان هذا هو الثمن الذى ندفعه نتيجة لنسخامة المدرسة . على الرغم من أنه ليس بالثمن الذى يجب أن ندفعه بكل تأكيد . ومع هذا ، فإن ما يحدث هو أن بعض المدارس المعينة ، أو بعض النظم التعليمية برمتها ، تقرر — مع عدم وضوح السبيل الذى اتخذت به القرارات غالباً — أن تستخدم تمثيل الأدوار كطريقة لتحسين التدريس أو تبني المنهج المحورى فى المدرسة الإعدادية ، أو تضيق من المواد المطلوب دراستها فى العلوم ، أو تضع الجدول بحيث تأتى حصص اللغة الإنجليزية والمواد الاجتماعية فى حصص متتابعة حتى يسهل على معلمى هذه المواد أن يتعاونوا فى مساعدة التلاميذ على ربط ما يتعلمونه ، أو تنشئ فصولاً خاصة للموهوبين ، أو تستخدم التليفزيون الذى يرسل من المدرسة ، أو تستخدم وسائل للتدريس لاأمت إلى هذه المهنة ، أو ترجع إلى استخدام منهج الدرامات العقلية الراسخ ، أو ما شابه ذلك . وعلى ذلك تقدم المعتقدات الصحيحة الجديدة لتحل محل تلك المعتقدات التى يوجه إليها النقد . وعلى ذلك أيضاً لا يتم التغيير تماماً ؛ لأن عادات التدريس لا تقل عن جميع العادات الأخرى فى كونها عادات راسخة . ولكن غالباً ما يمر هذا دون أن يلاحظه أحد حيث إنه لا يبذل أى مجهود للحصول على أدلة تدعم أفضلية البرنامج الجديد . وكل ما فى الأمر أن المدارس بكل بساطة ، تشترك فى الموكب الجديد .

والآن ، إن كل فكرة من الأفكار التى ذكرناها آتفاً جديدة بالاعتبار . ويجب ألا نستبعد أى فكرة بطريقة تعسفية إطلاقاً . ومع هذا فإن كل موقف تعليمي يختلف عن المواقف التعليمية الأخرى تماماً كاختلاف المعلمين بعضهم عن بعض . وعلاوة على هذا ، فليس المعلم بالعامل الوحيد الذى يسبب هذا الاختلاف . إن كل فصل بالمدرسة متميز عن غيره بحكم الفروق التى يكشفها التلاميذ بين أفرادهم ، كما أن لكل بيئة خصائصها الفريدة ، إن ما تشترك فيه المدارس وحجرات الدراسة فى ظل النظام الديمقراطي هو إتاحة الفرصة للعبادة بخلق جو تأملى يمكن أن يتم فيه التدريس والتعلم ، وأن تنمى هذا الجو باطراد يجعل جميع جوانب العمل بالمدرسة وحجرة الدراسة تسهم فى نمو هذا الجو .

وعلى هذا فكما أنه يجب أن يستثار التلاميذ للاهتمام بمعالجة المشكلات التى تتحدى قدرتهم العقلية ، كذلك أيضاً يجب أن يستثار المعلمون . ويجب على القيادة التربوية

أن تقوم بوظيفة تعليمية تجاه أولئك المعلمين — أى إثارة الرغبة ، والمساعدة فى صياغة المشكلات وتقديم الفروض ، واستخدام معرفتها الأوسع بالموقف لمساعدة المعلمين فى اختبار الفروض التى يجدون أنها جديرة بالتطبيق .

والقائد التربوى بطبيعة الحال يمثل صورة لأشخاص كثيرين وليس شخصا واحداً وهو يظهر على مستويات مختلفة من المسئولية كلما تطلب الأمر ذلك . ومع هذا فالقيادة الفعالة ستحاول جاهدة أن تنشر خاصية هذا التساؤل والبحث بين أعضاء الهيئة الإدارية عندما يقومون بوظائفهم المختلفة ، وعلى ذلك ، ستتاح الفرصة للمعلمين الذين يظهرون سرورهم للمزايا التربوية للمنهج المحورى ، أو لمنهج المواد الدراسية الراسخ ، لى يبينوا أن سرورهم أمر مشروع . وعندما يشترك المعلمون الآخرون فى هذه الاهتمامات فى أى مدرسة أو نظام تعليمى فستوضع الترتيبات لإشراكهم فى عمليات التجريب . ولا شك أنه ستتاح الفرص أثناء هذا لاشترك أعضاء هيئة التدريس ككل فى مناقشة تقدم ونتائج التجارب المختلفة ، مع توقعنا عند هذه النهاية بأن عدوى التجريب ممكنة الانتقال .

لا ينبغي صب اللعنة على الجمهور

ربما كان من الحق أن المدارس التى قد توجد بها الجذوة الفكرية باستمرار قد تكلف مقدارا أكبر لمحوها عن المدارس التى تسير وفق الروتين العادى . إن هذه حقيقة يجب على القيادة التربوية أن تتقبلها . إنها جزء لا يتجزأ من المسئولية الإدارية . إنها الدليل الذى لا ينقضم عن جلد الحيوان — إن صح هذا التعبير — لتيسر الأمر على المعلمين ليصبحوا فاعلين كمعلمين . وهناك أمر لا يخلو من فائدة فى صالح القادة عندما يتقدمون لأفراد الشعب بطلب زيادة الأموال وهو انعكاس الاهتمامات العقلية النامية للمعلمين على التلاميذ أنفسهم . إن دليل تحسين النتائج سيكون على مرأى من المجتمع المحلى يوميا .

وسوف لا تخلو بعض المجتمعات المحلية من وجود بعض المواطنين الذين يتشككون فى قيمة التعليم العام لجميع الأطفال فى مراحل التعليم فوق المرحلة الابتدائية . وتضم معظم المجتمعات المحلية مواطنين يؤيدون التعليم إلا أنهم يريدون توفيره دون حواش وبأقل تكاليف ممكنة . وتضم جميع المجتمعات المحلية مواطنين يؤيدون التعليم العام

من كل قلوبهم ، كما أنهم على استعداد لدفع التكاليف اللازمة لتوفير المدارس الصالحة ، لأنهم يعتقدون أنه يجب إتاحة فرص أفضل للأطفال الصغار من الفرص التي كانت متاحة لهم . وتضم جميع المجتمعات المحلية مواطنين يرغبون في استخدام المدارس لترويج مصالحهم وقيهم الخاصة (وقد يكون هؤلاء الأفراد مندوبين محليين للهيئات القومية التي تزعم المجتمعات المحلية في الوطن كله) .

وباختصار ، ليس الحصول على الأموال لتوفير المدارس الصالحة ، وهي المدارس التي يصمم القادة على جعلها أكثر تقدما ، بالأمر الهين الذي يتبلور في تقرير اقتراح فرض ضريبة جديدة . إن هذا يحتاج إلى عمل كثير ، ولكن يصبح هذا الأمر أكثر سهولة عندما تظهر المدرسة تكاملها المهني ، وعندما يتضح أن الجهود الجاد المستمر لتحسين الجو التربوي لجميع التلاميذ هو لب اهتمام أعضاء هيئة الإدارة والتدريس .

ويجب أن يوضع هدف المدرسة هذا ، والسبل التي تحاول بها هيئة التدريس تحقيقه ، نصب أعين الجمهور على الدوام . ويجب أن يطلب من المواطنين أن يفكروا في مدارسهم أثناء فترات السلام النسبي ، وليس في فترات الأزمات فحسب . فإذا كانت هناك حاجة للقيام بدعاية واسعة للحصول على تأييد الجمهور للبرنامج المقترح للمباني المدرسية أو لرفع المرتبات ، فإن هذا يعد دليلا على فشل سابق في تكوين علاقة تربوية مستمرة مع المواطنين . حقا ، قد تسبب المصالح المتعارضة في المجتمع المحلي بعض المتاعب عندما تناقش مشكلات المدرسة مناقشة عامة . ويرى بعض القادة التربويين أن الجانب الأفضل للحكمة يقتضي البعد عن المناقشات التي قد تثير الجدل . وقد يفضلون أن يجاروا أو يظهروا اعتمادهم على أولئك المواطنين في المجتمع المحلي الذين لهم نفوذ كبير على ما يظهر . ومن السهل أن نفهم سبب اتخاذ مثل هذه القرارات . ومع هذا ، فإن أولئك القادة مخطئون في سلوكهم السابق . إنهم ينزلون بالمدارس إلى مستوى رهون الحياة التي تنقل وفق رغبة القوى المستقبلية ، كما كان حال المواطنين في باسادينا ، بكاليفورنيا ، الذين كانوا على استعداد لتعريض المقترحات التربوية السديدة من بضع سنين مضت ، ولكنهم اكتشفوا أخيرا جدا حقيقة الموضوع الذي يدور حوله الجدل .

إن نمو مجالس المجتمع المدرسي أو المجالس الشعبية ، والاستخدام المستمر للمجالس

الآباء والمدرسين كميادين تناقش فيها المشكلات التربوية الهامة ونخطط فيها السبل التي يستطيع بها أولياء الأمور أن يدفعوا بالاهتمامات التربوية قدماً — لا للمدرسة فحسب ولكن أيضاً للمجتمع المحلي — وتكوين لجان من المواطنين الذين تتنوع اهتماماتهم ومكانتهم تنوعاً كبيراً لدراسة بعض المشكلات الخاصة وتقديم المقترحات لحلها ، وإدماج أعضاء مجلس التربية والمعلمين في المشروعات العامة . إن هذه بعض السبل التي قد يشرك فيها القادة التربويون المواطنون في نشاط تأملی لتحقيق التحسين الثابت لمدارسهم . ويجب أن يدعم الجوّ الذي يحاول القادة خلقه في داخل المدرسة أو النظام التعليمي بتكوين جو مماثل له في المجتمع المحلي .

الحاجة إلى جهد بطولي

ربما يقال إنه في استطاعة القادة التربويين الاعتماد على شعور المواطنين الطيب نحو تأييد المدارس إذا ما انبثقت القوى التي تعمل على إلحاق الضرر بها أو تعويقها عن أداء وظيفتها . إننا نميل إلى تأييد هذا الاحتمال السابق ؛ إذ يكشف تاريخنا عن اهتمام مواطنينا بدرجة لا يداينهم فيها أحد ، باطراد توسيع مجال الفرص التعليمية التي تتيحها لأعداد أكبر وأكبر من الأطفال الصغار . ولكن يكشف التاريخ أيضاً أن طريق النمو لم يكن دائماً طريقاً ممهداً ، كما أن المستقبل لن يختلف عن الماضي ، بل إنه إذا كان يدل على شيء ، فإنما يدل على أن الصعوبات التي ستواجه المدارس ستزايد .

إن صورة العالم المتغير قد بعثت القلق والاضطراب في نفوس الكثير من المواطنين . فأحياناً ، عندما يملكهم الشعور بفقدان الطمأنينة ، يطالب البعض منهم بأن تقوم المدرسة فجأة بحل المشكلات الاجتماعية التي فشلوا هم كمواطنين في حلها . ولا يستطيع أي قائد تربوي بمفرده — كما لا يستطيع أي معلم بكل تأكيد — أن يواجه بمفرده الضغط غير المعقول . إن تاريخنا مليء بالأسانيد التي تدعم هذه النتيجة . وفي الحقيقة أنه يخطو خطوة أبعد من هذا فيقدم الأسانيد التي تدعم عدم قدرة مهنة التعليم عموماً على الوقوف بمفردها لمجابهة تيار الفائق عندما يصبح تياراً عاماً شاملاً .

ومهما كانت صعوبة أداء هذا العمل ، فستظل الحقيقة القاسية ماثلة ؛ وهي

أن القيادة التربوية تقصر في أداء مهمتها إذا فشلت في محاولة تكوين فهم عام شامل للغرض الصحيح للتعليم العام في النظام الديمقراطي . وقد لا تنجح دائماً في هذا ، ولكن يجب ألا يعوقها احتمال الفشل عن تحقيق ذلك الهدف . فأولاً : إذا كانت لدى القيادة التربوية نظرة ثابتة فيما يتعلق بالمسؤوليات الملقاة على عاتقها ، فلن تجد بديلاً عن تكوين ذلك الفهم العام الشامل . ثانياً : إن من حق القيادة التربوية أن تؤمن بأن الجمهور الذي التزم بتأييد التعليم العام لن يسمح بالمصالح الخاصة أو الأفراد الذين ملك الخوف قلوبهم أن ينكروا على المعلمين حقهم في التدريس تحت ظروف تسمح لهم بالتمتع بالحرية ، أو أن يحرموا الأطفال الصغار من حق تعلم ما يودون معرفته حتى يستطيعوا البقاء في هذا العالم الذي ورثوه . إن الجمهور لن يسمح بهذا إذا كان على علم بها . إن حماية هذه الظروف هي المحك الدائم الذي يجب على القيادة التربوية أن تقوم به أعمالها . وسوف نحتاج في تحقيق هذا الشيء إلى ما لا يقل عن بذل الجهد البطولي حتى تكون له قيمة مهيبة .

الفصل الخامس عشر

الالتزام بهذه الفلسفة من قبل من - ولماذا؟

قد ألفنا هذا الكتاب لاعتقادنا الجازم بأن التاريخ قد كشف عن أن الأفراد قد وصلوا إلى تحقيق أعظم أعمالهم الإنسانية عندما ساعدتهم الظروف الثقافية على دفع وتنمية القدرة على التفكير التأملى . ويدرك المؤلفان أنه كلما غلب الأفراد على الظروف المعوقة ، فإنه يبدو لهم غالباً أن وجود القيود أمر ضرورى لإنماء التفكير. وهما يدركان أكثر من هذا ، أنه مع توفير أحسن الظروف المواتية فى الماضى ، لم تتح الفرصة إلا لنسبة قليلة من الأفراد لكى ينموا نموا كاملاً وفق توجيه القدرة على التفكير التأملى . ويجب أن يضيف المؤلفان أيضاً إدراكهم أن الكثير من الأفراد قد تواروا كلوا عندما أتاحت لهم فرص تحقيق ذواتهم ، وذلك لأسباب تتجاوز الكسل المحض إلى الخوف المتأصل فى نفوسهم .

ولا تقدم لنا صفحات التاريخ قصة بسيطة عن تقدم الإنسان من قفار الجهل إلى المستوى العالى من التمدن والتأنق . لقد كان الطريق أمامه طويلاً ، محفوفاً بالصعاب التى تضمنت بعض النكوص إلى الخلف ، والكثير من التجوال على الهضاب ، كما تضمن إزالة الأحراش من وقت لآخر عن الجبال التى لم تطأها قدم أحد . ومع هذا فالصعاب تتزايد . حقاً ، إنه عندما أصبح أحسن ما يمكن فى العالم فى متناول يديه فى خلال القرن العشرين انقلب ضده بعض من أعظم أعماله الفكرية ، وذلك لانبثاق القوى الديكتاتورية فى صور جديدة أكثر تقييداً . وتعمل القوى الديكتاتورية فى جزء من أجزاء العالم على توليد قوى المدافعة فى أجزاء أخرى ، وكلما استمر هذا النضال استخدم الذكاء أكثر وأكثر للوصول بالآلات ذات الإمكانيات الهدامة المربعة إلى درجة الكمال . من سوء الحظ أن رغبة أغلبية الأفراد فى تنمية السبل الاجتماعية كما وكيفا — وهى السبل التى يعرفون أنها ضرورية للبقاء — لن تؤدى إلى التخفيف من حدة هذا الموقف .

وقد يؤدي تجميد القوى إلى تجنب قوى التدمير لفترة تتكفل بأن يواجه الإنسان استخدام طاقاته التي اكتشفها حديثاً إلى الأعمال السلبية . وما هذا سوى مجرد وعد يعدنا به المستقبل المزعزع . ومع هذا فالحقيقة هي أن السبيل الوحيد لبقاء الإنسان سبيل مقلقل . وأيضاً لن تؤدي القوى المجمدة إلى تكوين حالة من الركود، إذ ستكون القوة في هذا المستوى قوة دينامية لها نتائج ذات صبغة سياسية واقتصادية واجتماعية ، كما ستكون لها نتائج ذات صبغة حرية . وبالطبع سيكون استمرار النضال للحصول على ميزات علمية وتكنولوجية واضحاً أشد الوضوح في المجال الأخير . وفي هذه الأثناء ، قد يفتت نفس المجهود ... الذي يبذله الأفراد الأحرار لاكتساب القوة اللازمة للبقاء — المعنى الأساسي للحرية تفتيتاً بطيئاً . ولقد شاهدنا كيف أن القلق والخوف قد دفعا بالأفراد إلى تدمير نفس الشيء الذي يدعون أنهم يقوون على حمايته . إن توفير الطمأنينة من الأمور الصعبة لدرجة أنه قد يؤدي غالباً إلى بلادة الحس .

المعلمون بشر

يجب أن نسأل أنفسنا : ماهي الحلول البديلة ؟ إن تهرش قوة بقوة أخرى في الحرب المفتوحة ليس بالقرار الذي سيتخذهُ الأفراد العقلاء عن اختيار مقصود . إن مدى الدمار الذي حل بهيروشيا ونجازاكي قد جعل أكثر الأفراد تهورا من مواطنينا يحس بما ينتظرنا في المستقبل عند استخدام اقوى المعروفة للأسلحة « الأفضل » التي قد اخترعتها الدول منذ إجراء التجارب الذرية الأولى . ومع هذا ، فإننا لانستطيع أن نحدد بوضوح أولى درجات السلامة العقلية ، ولا يستطيع أى فرد أن ينظر إلى المستقبل نظرة ثقة بأنه لن يحدث أى عمل من أعمال التدمير الكامل ، عليه عدم الاحتكام إلى العقل .

ولا نتوقع أيضاً أن الأفراد الذين تمتعوا بالحرية بأية درجة من الدرجات سيقبلون الضغط نتيجة لما أصابهم من إنهاك بسبب النضال ، أو يسمحون للتوى الديكتاتورية أن تسود العالم .

إن معنى هذا الموقف بالنسبة لتربية الأفراد الأحرار واضح وضحاً كافياً . ونظراً لأن المربين يعلمون أن العملية التربوية تأخذ بعض الوقت حتى تؤتى ثمارها الثقافية ، فليس أمامهم سوى الأمل بأن تكون القوى المجمدة مصحوبة بالوثبات الابتكارية من أولئك الأفراد الذين صمموا على إنقاذ العالم من النيران المهلكة المنبعثة من السعير

النوى . ولا يعنى هذا أن يجلس رجال التربية على هامش الحياة راضين عن أنفسهم ولسان حالهم يقول : « لندع زيدا يقوم بهذه » إن المربين بشر . وهم ليسوا بممثلين لجنس ثالث غريب غير فعال كما يشير رد فعل الجمهور نحوهم في بعض المناسبات . نعم إنهم بشر ومواطنون أيضا . وإنا لتتوقع أن تكون لكل فرد منهم التزاماته الخاصة ، كما أنه سيعمد إلى كل طريقة قد يستخدمها غيره لتحقيق تلك الالتزامات . فضلا عن أن التزامات المواطنة المفروضة على أولئك المسؤولين عن التربية ستكشف عن جميع الفروق التي تجدها بين المواطنين عموما .

إن الأمر الذى يحتاج إلى اهتمام منا هو مسئوليات المعلمين المهنية بعد تأكدنا من أنه لا يمكن تحويل المعلمين إلى أقلية ، وذلك بحرماتهم من حقوق المواطنة الأولية . أترى المدرسة معهدا قد يسهم بطريقة مباشرة في إعادة بناء وتشكيل هذا العالم ؟ ! إنه لا يمكن مقارنة المدرسة بحزب سياسى أو بجمعية للمواطنين الذين اتحدوا معاً للقيام بعمل سياسى للقضاء على آفة اجتماعية معينة . ومن جهة أخرى ، إن للمدرسة عملا إيجابيا تقوم به فيما يتعلق بالحياة كما هي ، وأيضا فيما يتعلق بتلك الصور للحياة المتحسنة التي تتطلب عناية ناقدة مستمرة .

إن آثار التربية عميقة . ومع ذلك ، فلا تنبثق هذه الآثار إلا في المستقبل . إن عليها أن تنتظر الإسهام المتأخر للأطفال الصغار في شئون ثقافتهم . إن ما يكلف المعلمون الأطفال الصغار القيام به في عملهم اليومي بحجرة الدراسة سيكون له أثره فيما بعد عندما يصبح الأطفال الصغار مواطنين عاملين . وهذا هو السبب في أنه يجب على المدرسة ألا تبعد عن الحياة إطلاقا ، أو بعبارة أخرى لا تختلف عن سابقتها ، يجب ألا تظل أسيرة في شباك العادات التي لا تمجد سوى أعمال الأجيال السابقة .

المسئولية المهنية والمواطنة

ليس من السهل دائما أن نتتبع الحد الذى يفصل بين مسئولية المربي كمرب وحقوقه كمواطن . وتؤدي هذه الصعوبة بدورها الى العجز — في بعض الحالات المعينة — عن التفرقة بين الاتجاه المهني الصحيح للمربين المنضمين إلى نقابة معينة وحق المربي — كمواطن حر — في أن يعتنق ما يشاء من الآراء التي يعتقد هو أنها صائبة ؛ بما في ذلك بعض الآراء التي يرفضها معظم زملائه .

إنه إن السهولة بمكان أن نقسم المعرفة إلى أقسام منعزلة ، وفي الحقيقة إنه لمن السهل تفتيت الحياة بغير ذكاء كبير ، كما اكتشف أكثر من رجل من رجال الأعمال عندما اضطرت له الاهتمامات الدينية — التي كان يأخذها قضية مسلمة — إلى أن يعكس تلك الاهتمامات على عمله اليومي طوال الأسبوع ، ولكن المربي يقوم بعمله أيضا ، وهو مساعدة الأفراد على ربط حياتهم بعضها ببعض عن طريق إعادة البناء التأملية المستمر لمعارفهم ، وبصيرتهم وقيمهم . وإن المربي على ثقة بأنه سينتهى إلى إدراك هذه النتيجة عندما يفكر في عمله الأساسي تفكيراً جدياً . وعلى ذلك ، فهو لا يرغب في تفتيت حياته الخاصة . ويجب عليه ألا يفعل ذلك . ويجب أيضا ألا يرغبه الاقتراح بأن يفرق بين نشاطه المهني ونشاطه السياسي على أن يفعل هذا . ويجب أن يقودنا المفهوم الصحيح لوظيفة المدرسة في المجتمع الحر إلى تكوين المبادئ المعينة الموجهة ، على الرغم من أنه لا يمكن إطلاقاً أن تحل الأشياء المجردة في النهاية محل اشتراك المعلم الشخصي فكراً في تقرير وضع الحد الفاصل ، حسبما يقتضى كل موقف على حدة .

وربما كان من المفيد أن نرجع إلى وجهة النظر التي اتخذناها حيال حجرة الدراسة في الفصول السابقة ، وأن نتذكر أنه يجب أن تكون طبيعة حجرة الدراسة انعكاساً للمدرسة بأسرها . ولقد نادينا بخلق الجو الذي يستطيع فيه الاعتبار التأملية الناقد للمعرفة أن يدفع عجلة الإعادة المستمرة لبناء الخبرة إن أقل شيء نقوم به لكي نجعل خلق هذا الجو أمراً ممكناً هو إدراكنا أن تنميته تفكير التلاميذ هو الحيط الذي يربط عمل المعلمين في جميع ميادين التدريس وفي جميع مراحل التعليم . ولم نضع هذا التأكيد لأسباب عاطفية أو خفية ، ولكن نتيجة لإدراكنا للحقيقة التي نكررها ثانية لأنها كانت موجهة لنا في كتابة هذا الكتاب ، وهي أن التفكير صيل الخبرة المربية . إن اهتمامنا منصب على تحسين عملية التعلم (وعلى تحسين التدريس بالطبع لأنه سيجعل تحسين التعلم هذا ممكناً) ، ومن حسن الحظ أن هدف تحسين التعلم هذا ، وفقاً لما التزمنا به بعد ذلك ، يتطابق مع تحسين الظروف الإنسانية التي تشير إليها الآمال الديمقراطية . ومع ذلك فما هو متضمن هنا أكثر من مجرد التطابق . إن فهمنا للتعلم وفهمنا للديموقراطية قد تقدموا معاً ، وبعبارة أدق ، لقد تطورا لدرجة أنه تركت الحرية للأفراد لا اتخاذ كل منهما موضوعاً للدراسة . وإذا ذهبنا إلى أبعد من هذا قلنا إن النمو سيعتمد على المحافظة على هذه الحرية . وعلى هذا ،

فالمسئولية المهنية المستمرة هي حماية جو حجرة الدراسة من كثير من العناصر التي قد تفسده . فربما نتوقع في الثقافة الجمعية دائماً أن ينظر الأفراد والجماعات إلى المدارس على أنها وسائل لتنمية أغراضهم الخاصة ، أو إذا أخفقوا في هذا ، فإنهم يشكون في أنها آلات في أيدي بعض الأفراد الآخرين . إننا نأمل أن تقل الضغوط التي تحصر التربية في نطاق الحدود الضيقة لمصالح الأفراد والجماعات الخاصة كلما ازداد وعى أفراد الشعب . ولكن يجب ألا نعتد على هذا إلا فيما يتعلق بالأهداف البعيدة . إننا في حاجة إلى بعض الوقت لكي نكون لدى الأطفال الصغار الاتجاهات التي ستقودهم إلى الحفاظ على احترام الحرية خلال سنى حياتهم الرشيدة .

إن الالتزام المهني بإيجاد الظروف التي تيسر للمعلمين الحرية في أن يقوموا بالتدريس ، وتيسر للتلاميذ الحرية في أن يتعلموا ، والمحافظة عليها (وبالطبع لا انقسام بين هاتين الحريةين) هو الأساس الوطيد الذي قد تنقسمه المنظمات المهنية . ويتساوى في الأهمية أن نعتبر هذا الالتزام المهني مقياساً نحكم به على أوجه نشاط هذه الجمعيات وغيرها من الجمعيات المهنية الأخرى لرجال التربية .

ومع هذا فأهم مما سبق هو تنمية الوعي المهني للمنظمات التربوية المحلية وفي الولايات للقيام بمسئولياتها نحو خلق هذه الظروف التي تيسر حرية التفكير في كل حجرة دراسية والمحافظة على هذه الظروف . إن المدارس ، أو بعض حجرات الدراسة ، تشعر بالشدة المتناهية للضغوط التي تقيد نشاطها على المستويات الأكثر تقارباً بعضها من بعض في العلاقات بين المدرسة والمجتمع المحلي . ويجب على الوعي المهني الذي يعتنقه الجميع أن يرغم المجتمع المحلي في هذه الحالة على التفكير في السبب الذي من أجله يقيم الأفراد الأحرار المدرسة . يجب ألا يتخلى الزملاء عن المعلم أو الإداري عندما تقوم في وجهه الصعاب ، لأنه حاول أن يدفع قدماً بما يجب أن تؤمن به جميعاً كالالتزام مهني تنقسمه جميعاً .

المكانة المهنية

إن الظروف التي يعمل فيها المربون ظروف معقدة ومقلقة . ولكن لا ينبغي معنى هذا الالتزام المهني إلا في ظل خصائص هذا الموقف . فقد يطلب مثلاً من أى نظام

تعليمي ، أو مدرسة معينة ؛ أو مدرس بالذات ، أن يستبعد كتابا (وليكن مثلاً كتاباً من تأليف ماجرودر ، أو مزي ، أو رج) أو قد يطلب منهم أن يمتنعوا عن معالجة موضوع معين (وليكن مثلاً موضوع العقد الجديد ، أو نظرية التطور ، أو نقابات العمال ، أو الكنيسة الكاثوليكية ، أو مشروع وادي التنيسي) ولقد تنوعت الاستجابة المهنية في مثل هذه المواقف في الماضي وتدرجت من الدفاع عن المؤلف في حالة طلب استبعاد الكتب أو المناداة بموقف معين — تجاه إحدى القضايا — يدعو إلى الرضا وقلة الاكتراث .

ومن وجهة النظر المهنية ، يجب ألا يكون تعيين الموقف الصحيح أمراً صعباً . ويجب رفض جميع مثل هذه المطالب بأدب ولكن بحزم . أما إذا أصرروا كما سيفعلون بكل تأكيد ؛ فيجب أن تطرح هذه الموضوعات أمام ممثلين لجماعات المواطنين للمناقشة . فقد تكون الجماعة الضاغطة قوية جداً في مثل هذه الظروف بحيث لا يستطيع المربون صدّها ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فيجب أن تكون مسئولية تغيير البرنامج التربوي بطرق تخالف الالتزام المهني لرجال المدرسة في العالم الحر من وضع أفراد الشعب عامة . وإذا خشي البعض من فقدان وظائفهم في ظل مثل هذه الظروف ، فإنهم على حق غالباً في خوفهم هذا . ومع ذلك فإنه من الصعب فصل جميع رجال المهنة بأكملهم من وظائفهم . وعلى أية حال فإنه لأمر يستحق الاهتمام أن نستغل فرصة اكتساب أصدقاء مؤيدين للتربية في الموقف الصريح الذي تدور فيه المناقشة التي يشترك فيها ممثلون لرجال التربية يؤيدون هدفاً هنيئاً واضحاً للعيان . وإنها مخاطرة أفضل من وجهة نظر الصحة التربوية وسلامة المجتمع — من أن نسترضي ممثلي التحيز والتعامل . ففي الحالة الأخيرة ، سيفقد الأصدقاء الذين كان من الممكن اكتسابهم . أضف إلى ذلك أن مثل هذا الموقف يعتبر دعوة للجماعات الأخرى إلى استخدام الضغط على المدارس .

إن ما يجب أن نتجنبه في مثل هذه المواقف هو إصدار التصريحات المهنية التي تؤيد كاتباً معيناً بحيث تنكشف عن أنه « شعلة الحق الصادقة » أو تعضد « موقفاً » معيناً إزاء إحدى القضايا بغية إثبات أن جميع أولئك الذين يخالفون ذلك الموقف جهلة أو أسوأ توجيههم . إن بعض أفراد الهيئات المهنية لوائقون بأنهم سيعارضون إذا ما اتخذنا ذلك الاتجاه . ولقد عانى الكثير من الهيئات من الحزازات الداخلية للإصرار بعض أفرادها على اتخاذ ذلك الموقف . وليس بعض المؤلفين المعينين موضع

جدال ، بل إن حق استخدام الكتب هو موضع الجدل وليس تأييد جانب معين. من إحدى القضايا موضع جدال كذلك ، بل إن حق مناقشة الموضوعات — أية موضوعات تتعلق بالمادة الدراسية للفصل — هو موضع الجدل وليس لحق استعراض أنواع التحيز والتعامل أمام التلاميذ أى سند من التأييد المهني . إن حق فحص التحيز والتعامل له هذا التأييد المهني . ويجب على رجال المهنة ألا يقوموا بأي عمل إطلاقاً عن طريق هيئاتها الرسمية (وهناك الكثير من هذه الهيئات بقدر ماتوجد هناك مصالح مهنية مشتركة) إلا إذا كانوا على ثقة بأنهم يقومون بهذا العمل على أساس لا يمكن مناقشته ، ألا وهو أن مصلحتهم الرئيسية هي خلق جو ذي فاعلية في عملية التعلم .

وليست جميع الحوادث أو الظروف التي تؤثر في جو المدرسة أو حجرة الدراسة — كما يبدو لأول وهلة — من الأمور التي تهتمنا تربوياً . ومع ذلك فالكثير منها يهتمنا تربوياً . إن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي تحرم بعض التلاميذ من أن تتاح لهم فرصة عادلة للاشتراك في أوجه النشاط العادية للشباب مع الأفراد الآخرين ، أو الظروف التي تؤدي الى نشر الخوف وصب الأطفال في قوالب متماثلة ، وزيادة ظاهرة مخالفة القانون بين أفراد المجتمع عامة أو جزء منه ، واهتمام البالغين المستمر بالكسب المادي اهتماماً بالغاً لدرجة توحى بأن الدوافع الأخرى ليست جذيرة بنفس الاحترام ، وتنكر المجتمع المحلي للاهتمام الأصيل بالتربية ، وذلك بإعطاء المعونات السخية للبرامج الرياضية للمدرسة فقط — إن كل هذه المواقف وما مماثلها تثير المشكلات التي يجب على رجال المهنة أن يفكروا فيها من الناحية المهنية . ولقد أشار «اروين ادمان» ذات مرة إلى أن «روح النقد الواعي أمر ضروري ، للثقافة الحرة فحسب ولكن للمجتمع الحر أيضاً .» وأضاف إلى هذا القول أنه «لا يمكن تنمية هذه الروح إلا عند أولئك الذين يتوافر لهم الكساء والسكن والطعام بدرجة كافية حتى يستطيعوا أن يفكروا برصانة وتيقظ ، وأن يشعروا بالمساهمة في صيدل الصالح العام . (١)»

ولا يستطيع رجال المهنة أن يظلوا عديمي الإحساس بحركة الثقافة التي تحيط.

(١) اروين ادمان في كتابه . Fountainheads of Freedom ص ١٨٩

هم واتجاههم . ولقد أظهر رجال المهنة هذا الاتجاه مرات متعددة ، فعندما وجدوا أن الأطفال لم يشتمل طعامهم على اللبن ، عملوا على توفيره لهم (وذلك باللجوء إلى التبرعات من المربيات الهزيلة قبل تطبيق برامج الوجبة الغذائية بالمدرسة) . كما وفروا الملابس أو حصلوا عليها للتلاميذ الذين دفعهم العرى إلى البقاء بالمنزل ، كما سمحوا لأولئك الأطفال الذين ترهقهم ساعات البقاء بالمنزل بأن يستريحوا في المدرسة . ولقد كان اهتمام رجال المهنة في كل حالة أمراً بالغاً ، هذا إلى جانب العطف الطبيعي من جانب البالغين ذوي الحساسية بهذه المشكلات . والأطفال الذين تنقصهم هذه الضروريات ليسوا بأحرار في أن يتعلموا ، مهما كان جو حجرة الدراسة مشجعاً . ومع ذلك ، فليس من السهل أن نبقى اهتمام رجال المهنة في مثل هذه المواقف في المقدمة . إن اتباع الطريق السياسي قد يبدو أقصر الطرق لتحقيق هذه الغاية التي يمكن أن تلتى . ويسهل هذا النسيان حين تنخفض الروح المعنوية ، وعنى هذا أن التغيير في الوسائل قد يؤدي إلى تغيير مماثل في الغايات .

الصراع بين الآراء أمر طبيعي

إن أعضاء الجماعات المهنية لم يقدوا من نسيج واحد ، فمثلاً قد يؤمن البعض بصدق أن اشتراكية الاقتصاد المفتوحة — اشتراكية الحكومة في الحقيقة — هي السبيل الوحيدة لمعالجة الظروف الاقتصادية المضطربة معالجة سليمة . ويؤكد الآخرون إصرارهم على أن الرجوع إلى نظام الاقتصاد الحر حرية تامة سبيل أفضل لحل تلك المشكلات . ولا يقل الآخرون — وهم كثيرون — تأكيداً أن الهدف الذي نضعه نصب أعيننا هو التقدم المطرد نحو خلق الظروف الثقافية والتربوية التي تتيح أقصى فرصة ممكنة للجميع ليكونوا أحراراً في تفكيرهم وأن يسمحوا لماجريات الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية أن تسير كما يحلو لها .

وتصر الجماعة الأخيرة على إتاحة الفرصة للجميع كمواطنين بأن تنتشر آراؤهم . ومع ذلك ، فيصرون أيضاً ، بدرجة متساوية ، على ألا يستخدم أى شخص المدرسة كأداة لإشعال نار الحرب السياسية . ومن ناحية أخرى ، مستخدم هذه الجماعة نفوذ المهنة ، في إطار مهني ، لتحريف الجمهور بالحاجة إلى تذكر أن الظروف غير المربية في الإطار الثقافي ستعمل على إلغاء الجهود التربوية التي تقوم بها المدارس . فالوظيفة

المهنية على هذا المستوى هي شغل تفكير الجماهير في التأمل الجاد في المشكلة التي خلقها التناقض الظاهر من طلبنا للمدارس أن تنفذ برامج تقوضها الظروف الثقافية . وليس هناك من مثل أوضح لهذا التناقض الظاهري في أى مجال من طلب الجمهور أن تزيد المدارس من اهتمامها بالتعاليم الخلقية والروحية (أو حتى الدينية) في حين تنافي أفعال الجمهور نفسه المثل العليا التي تتضمنها تلك التعاليم .

إن الصعوبة التي نحن بصدد حلها هي إحدى الصعوبات التي حيرت الهيئات التربوية المهنية باستمرار . ولا يزال أعضاء تلك الهيئات من ذوى العقليات الصلبة التي تميل إلى المخاطرة في صراع مستمر — في مرحلة وضع سياسة تلك الهيئات — مع الأعضاء ذوى الحركة الأكثر لنا والأقل ميلا إلى المخاطرة . وكل منهم يريد أن يعيش في مجتمع سليم ، وأن يقيم مدارس صالحة بطبيعة الحال . ولكن الفريق الأول قلق لأنه يريد استخدام الطرق الحديثة الرصف رغم أنها محدودة ، على حين يظهر أن الفريق الثاني مصر على أن يتهدى عبر الطرق المستهلكة التي لا يتم إصلاحها إلا عندما يصبح السفر بواسطتها مستقبلا أمرا مستحيلا . وعندما تصبح هذه الفروق ملحوظة لدرجة كبيرة ، فربما تكون الهدنة السافرة هي الحل الوحيد لذلك الموقف ، مع ظهور هيئات جديدة . وفي هذه الحالة ، لا يختلف المعلمون عن إخوانهم المواطنين لسبب وجيه جدا ، وهو أنهم يشاركون المواطنين الآخرين في جميع مستويات القيم المفتوحة للثقافة الجمعية . ومع هذا يجب عليهم كجماعة مهنية أن يشاركوا في هذا الالتزام ، وهو أن مدارس العالم الحر يجب ألا تستغل كوكالات للدعاية سواء للمجتمع جديد أو لمجتمع قديم .

وعندما تكون القيم الفردية والاجتماعية قima جمعية ، فليس في استطاعة المدارس أن تقوم بوظيفتها كممثلة لوجهة نظر واحدة ، بل يجب عليها أن تمثل الحالة التي تجعل تحقيق الجماعة أمرا ممكنا ، ألا وهي حماية حرية التفكير ضد تأكيدات وجهات النظر الدعاية التي تبدو واضحة أشد الوضوح لمعتنقيها لدرجة أنها تعمى أبصارهم عن مطالب وجهات النظر الأخرى . ولا شك أنه يجب على المدارس أن تفحص جميع وجهات النظر ، على أن تقوم بهذا تحت ظروف تأملية مربية . وبهذه الطريقة فقط ربما نأمل أن نزيل الغمامات عن عيون المصلح الجاهل المتحير ، أو المصلح الغيور الذي كرس نفسه للقيام بعمل ما .

وليس هذا بالموقف الضعيف كما يعتقد الفرد ذو العقلية الصلبة ، أو بالموقف الخطر كما يخشاه الشخص ذو العقلية اللينة . إن الإصرار على أنه لا توجد وجهة نظر خاصة بالرفاهية الاجتماعية لا تخضع للفحص أمر يحتاج إلى الكثير من الشجاعة وبخاصة إذا اقتنع الفرد شخصيا بأن الحياة الطيبة تعتمد في الحقيقة على وجهة نظر واحدة وليس على وجهات نظر أخرى . ومع هذا يجب على رجال المهنة أن يستجمعوا هذه الشجاعة إذا كانوا يأملون في الهرب من ضيق أفق أولئك الذين يتجه تفكيرهم كلية إلى مشكلات وضع الخطط التي تناصر القيم التي تم تقبلها من قبل كقيم نهائية .

إن التمسك بالحق في خلق الظروف التربوية - داخل المدرسة والمحيط الثقافي - التي يعتمد عليها النمو المستمر للأفراد الأحرار هو أن نتخذ موقفا إيجابيا ، أي أن نتخذ موقفا مهنيا لاسياسيا . إنه لا يمثل ضعفا أو تراجعاً ، إنه يمثل تقبل أداء الواجب الفريد الصعب الذي أوكله الأفراد الأحرار للمدرسة - حيث يجب ألا تقوم به إلا مؤسسة طليقة من الالتزامات السياسية المعينة - وهو : (١) نقل المعرفة والقيم حتى لا تضع مكاسب الماضي و (٢) إعادة بناء المعرفة والقيم حتى تصبح مكاسب الماضي والحاضر خطوات أولى لمستقبل أفضل ، ولا تصبح أبواباً موصدة في وجه هذا المستقبل

العاطفة نحو الحرية

ربما يتساءل القارئ بحق لماذا لا يقرر المؤلفان ، اللذان يظهر ولاؤهما للديموقراطية بوضوح خلال هذا الكتاب ، أن على رجال المهنة مسئولية إقامة تربية تعد الأفراد الأطفال الصغار فكرا و عاطفيا للدخول في حياة المواطنة الديمقراطية وينتهيان إلى ذلك : لماذا يقتلان هذه المشكلة بحثا وتمحيصا ؟ إن مثل هذا الاتجاه اتجاه مغر . ومع ذلك ، فليس هذا بالاتجاه الذي يدعو إلى الكثير من الرجاء . فما لا شك فيه أن مطالبتنا المدارس بأن تعمل على اطراد نداء الديمقراطية يتمشى مع العاطفة السائدة في الثقافة ، وهو بهذا المعنى مطالب لا غبار عليه . ولكن التوجيه لا يتأتى من التعبيرات العاطفية الغامضة . إن الديمقراطية تعني أشياء كثيرة وتأخذ أشكالا متعددة .

ومع هذا ، فعلى الرغم من أن الديمقراطية تعنى الكثير على وجه التحديد بالنسبة للكثير من الأفراد ، فإنها تعنى ، على مستوى آخر ، جميع الأشياء لجميع الأفراد ، وهذا هو الغموض فى صورة مجملة . ومع هذا ، فقد يكون بعض الغموض مفيداً فى هذه المرحلة . فليس لأى إنسان الحق فى أن يقرر المعنى للأفراد الآخرين . ويميل بعض الأفراد إلى الاعتذار عندما يستخدمون هذا المصطلح (الديمقراطية) كنتيجة لهذا الغموض غالباً ، ويشير هذا الاعتذار إلى وجود عاطفة سائدة لا يمكن تجاهها ، وهى عاطفة تعضد عدم وجود معنى ثابت للديموقراطية . وبالطبع ، يحمل المصطلح بالنسبة للبعض دائماً فكرة سيطرة الشعب على الحياة السياسية ، وبالتالى على الحياة الاجتماعية وقد استبدلوا الديمقراطية بالمصطلح الأثير لديهم وهو «الجمهورية» كما أمكنهم ذلك ولكن لم يمنع هذا المصطلح من انتشار العاطفة الديمقراطية أبعد من حدودها السياسية التى بدأت بها ، كما لم يحل هذا دون إجراء تغيير فى المجال السياسى نفسه ، وذلك تحت تأثير امتداد الناحية العاطفية لتضم مجال علاقة الإنسان بالإنسان بأكمله .

ويعتبر هذا أمراً يرئى له بالنسبة لأولئك الذين تدفعهم طباعهم إلى تحديد المعنى بصورة نهائية . وغالباً ما قد تبدو الحياة أقل اضطراباً لو نجح أولئك الأفراد فى ذلك . ومع هذا ، يبدو أن الحقيقة هى أن المعيشة المفتوحة أكثر قابلية للحياة من المعيشة المغلقة مادمننا على وعى بما نقصده . وكما يقول « ت . ف . سميث »^(١) الذى كتب من واقع خبرته كفيلسوف متبحر وكسياسى له نشاطه : « إنها دلالة بسيطة للطبيعة الجمعية من الناحية السياسية . إننا فى أمريكا منذ البداية نسمى وطننا جمهورية فى أيام الإثنين ، والأربعاء ، والجمعة . ونسميه ديموقراطية فى أيام الثلاثاء ، والخميس ، والسبت » .

« سبيل الحياة » خداع

إن المشكلة التي تواجه الأفراد المؤمنين بالديموقراطية ضد أولئك الديكتاتوريين المتعصبين هي مدى قدرتهم على الاستمرار على السير في طرق غامضة ومبهمة . ويعتبر البعض أن هذا هو الطريق الذي سيؤدي إلى هلاك محتوم ؛ فهم يرون أن سبيل الحياة في بعض المعسكرات السياسية الأخرى يحمل تهديدا مروعاً للسبيل الديموقراطي للحياة لأنه يشرك المواطنين ، وخاصة الشباب الصغار ، في التأييد العاطفي لبعض الأهداف المعينة التي توجه حياتهم نحو تحقيقها ، وإذا تحققت هذه الأهداف (ولا يسمح باحتمال فشل تحقيق هذه الأهداف إذا أرغمنا مجرى التاريخ أن يسير وفقاً لعقيدة تعسفية) فسيأتي العصر الألفي السعيد للجميع . وهم يرون أنه يجب على الديموقراطية ألا تفعل أقل مما تفعله فلسفات الحكم في المعسكرات الأخرى وإلا فإنها ستترك الشبان الصغار عاجزين بلا هدف يسعون لتحقيقه . إن حقيقة طرح هذه القضية بعينها عندما كانت ألمانيا النازية واليابان ، قبل هزيمتهما ، تشكلان خطراً على الدول الحرة ، لا تعتبر رداً على تلك المجادلة ، رغم أنها قد تبدو كذلك لأول وهلة .

والكن تبقى لدينا نقطة هامة يجب علينا أن نبحثها . فماذا نعني « بسبيل الحياة » سواء أكان سبيلاً ديموقراطياً أم غير ديموقراطي ؟ وكما عبر أخدموؤلفي^(١) هذا الكتاب في إحدى المناسبات :

« هل نعني بذلك أن لكل طريق جوهرًا داخليًا يستطيع جميع من يعيشون على صلة به أن يدركوه ويتفهموه ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، فلا يملك أي سبيل منهما الصفات التي تؤهله ليكون سبيلاً للحياة . فهل الديموقراطية اليوم غير الديموقراطية بالأمس قبل أن تمنح النساء حق الانتخاب ؟ وماذا نقول عن سبيلنا للحياة عندما كان القانون يسمح بإقامة مدارس للبيض وأخرى للملونين ؟ وهل كان سبيلنا للحياة

11. Gordon Hullfish, "Educating for Democracy" and (١) address presented at the Cooper Union, New York City Jan. 1955, American Association of University Professors Bulletin Vol, 41, No. 2. (Summer 1955) pp 261-262.

أكثر وضوحاً على الحدود عندما كان الفرد ينفذ القانون بنفسه ؟ ومتى نستطيع أن نقف ونقول : « هذا هو السبيل ، ولنسرع باتباعه ؟ » ثم ألم يكن للديموقراطية وجود عندما لم تكن تسمع عن الاتحادات ؟ ومن منا نعتبره حجتنا في هذا الأمر ؟ أهو المؤرخ ، أم السياسي ، أم رجل الأعمال ، أم رجل الدين ، أم المربي ، أم الفلاح ، أم عامل المنجم ، أم العامل في المصنع ؟ وما هو الشيء الذي يتصارع إذن ، عندما نتحدث عن السبيل المتناقضة والمتصارعة للحياة ؟ وهل نختار مظهراً واحداً (وليكن نظام الحزبية) أو اتجاهها وسطاً (وليكن الإيمان بوجود سلطة إلهية) أو حقيقة تاريخية (وليكن الاعتماد عموماً على المبادأة الفردية في الأمور الاقتصادية) لتكون نقطة التباين ؟ .

فإذا كانت الحياة في أمريكا تختلف عن مثيلتها في إنجلترا ، أو فرنسا ، أو السويد أو الدانمارك ، أو النرويج - وهي فعلاً تختلف - فهل نشاركهم في سبيل ديموقراطي واحد للحياة ؟ هذا السؤال يثير الشك في أن تعبير « سبيل الحياة » له فائدته التي تبدو من استخدامه . ولقد تحول هذا التعبير ليصبح غطاءً يحجب الكثير من الاختلافات التي يخفيها ، ويقود الأفراد إلى افتراض وحدة العقيدة والسلوك عندما ينعدم وجود شيء مثل هذا ، أو إذا أدركوا هذه الحقيقة فإنهم يصرون على إمكانية تحقيق هذه الوحدة .

إن ارتيابنا في مدى فائدة الإشارة إلى الديموقراطية كسبيل للحياة لا يعني ارتيابنا في تميز العاطفة الديموقراطية . فلقد أشرنا سابقاً إلى وجود عاطفة سائدة بين أولئك الذين يختلفون مع هذا في الطرق التي لها مغزاها في تفسيراتهم للعينة للديموقراطية ، وفيما يقدمون من مقترحات لإطرادها . ومما لا شك فيه أن سبيل الحياة . متضمنة في مفهوم الديموقراطية ، ولا تتضمن الديموقراطية سبيلاً معيناً للحياة . وليست العاطفة الديموقراطية مجرد إلهاب للعواطف . إن ما هو متضمن هنا هو الاستعداد السائد أو نوع العلاقات الإنسانية الذي يقود الأفراد إلى تقاسم الإيمان بأنه توجد سبيل أفضل لتسوية الاختلافات العادية التي تنشأ بينهم من الالتجاء إلى أساليب العنف سواء استخدمت هذه الأساليب بطرق احتيالية أم تهورية .

وأدى هذا الإيمان إلى ابتكار أساليب للمناقشة والتشاور ، وإلى تقدير وظيفة اتخاذ حل وسط لتسوية المنازعات ، وإلى الاعتماد على القانون كدعامة راسخة

مستمرة وسط هذه الاختلافات . وقد نما من هذا الأساس الإدراك بأن الحكومة قد تمارس القيادة بجدارة في أى مظهر من مظاهر الحياة الوطنية حيث توحى العادة أو السلطة المكتسبة فجأة إلى البعض بأن لهم الامتيازات التى تخول لهم حرمان الآخرين من الفرص التى تتيحها الديمقراطية لهم . وليس هذا بمحض المصادفة ، إننا نتجه إلى المحاكم لإعلان أن الاتجاهات التى تحرم الأفراد من الفرص الديمقراطية اتجاهات غير قانونية - سواء أ كانت فى التعليم ، أم فى العلاقات بين العمال وأصحاب العمل ، أم فى اتحادات العمال ، أم فى المعاملات التجارية أم فى التفرقة بأى صورة من الصور عند الأقليات . ورغم كل هذا ، فنحن غير ثابتين بصورة قاضية سواء فى تعبيراتنا عن إيماننا أو فى تسميتنا لأساليبنا الإجرائية . كما أننا قلما نكون واضحين تمام الوضوح .

الالتزام الأساسى

إنه لمن الواضح أننا يجب أن نبني على ماحققناه فى الماضى ، مهما كانت أخطاء هذا الماضى . وعلاوة على هذا ، إن بناء سبيل للحياة (إذا كان هذا يعنى أكثر مما قد أسميناه « بالعاطفة السائدة ») سيهدد النتائج المشبعة للمشاركة ، وهى النتائج التى نسجتها اختلافات وجهات النظر وحولتها إلى اتفاقات حصلنا عليها باطراد . إن العمل على توقف هذه العملية فى الوقت الحاضر لصالح الوصول إلى اتفاق نهائى لن يكون بالصفة الراجحة . إن بناء مثل هذا السبيل للحياة يحمل نوعاً من التحدى المثير لبعض الأفراد ، وهو تحدى يقبله الأفراد ذوو النوايا الحسنة ، سواء أ كانوا من أهل اليمين أو اليسار . كما أنهم على استعداد لإنتاج عدد كبير من التصميمات لإعداد بناء المجتمع ويستتبع هذا أنهم على استعداد لتنظيم - وربما لتشكيل - البقية الباقية من الأفراد . وبالطبع ، ليس من الخطأ فى شئ أن نخطط للتخلص من الآفات الاجتماعية . إنه لمن حسن حظنا أن أسلافنا كانوا أحراراً فى وضع التخطيط اللازم ، وفى التحليق بخيالهم للاختيار من بين بدائل الحياة . وسيكون هذا من حسن حظ الأجيال القادمة إذا حافظنا على مثل هذه الحرية .

وهكذا يصبح التزامنا الأساسى هو أننا لا ينبغي لنا أن نرفض أية خطة أو أى تصميم رفضاً تعسفياً ، بحجة أنه غير جدير بالدراسة أو الفحص ، ويجب أن يكون (١٩) التفكير التأملى

لواضعی التخطيط الحق فی الإدلاء بآرائهم . ويلتزم هذا الحق الفرد أن يكون حكيما إلى أقصى درجة ممكنة فی الاختيار من بين هذه الخطط . ولا يلتزم مقدما باتباع أية خطة معينة . كما أنه يحتفظ لنفسه بحق استخدام أكبر قسط ممكن من الذكاء لتقرير التزامه ، كما استخدمه فی وضع الخطة . ونحن نعتبر هذا لب العاطفة الديموقراطية ويتضمن سبيلا متميزا لمواجهة الحياة . ويعتمد هذا السبيل على إتاحة الفرص المستمرة لجميع المواطنين للمساهمة فی وضع القرارات التي تعتبر أساساً للحياة العامة ، وفي الوقت ذاته يعتمد هذا السبيل على مشاركة المواطنين فی احترام وحماية اختلافات وجهات النظر فيما بينهم . وأولئك الذين يواجهون الحياة بهذه الروح يعرفون أنهم لن يحصلوا على أى مكسب من المكاسب اذا ما حلت النهائية والقوة محل المرونة والذكاء .

ولانزال هناك نقطة أخرى ، خاصة بالتلاميذ ، يجب علينا أن نبهها . فإذا كان المعلمون (كعلمين) ملتزمين بعملية التفكير بدلا من بعض القيم الاجتماعية المحددة التي يجب أن يدفع بها التفكير الى الأمام ، فما هو نوع التلميذ الذي يعتبر نتاج هذا الاتجاه ؟ فإذا كان يطلب من التلاميذ في خبراتهم المدرسية أن يفحصوا ويعيدوا فحص الأفكار والمقترحات ، أفلا يعتقدون في النهاية أن التفكير ليس بكاف دائما للوصول الى إصدار القرارات ؟ أو لا يمكن أن تكون النتيجة أن التلاميذ سينظرون الى التفكير على أنه مجرد تمرين مدرسي مطلوب ، وأنه لا معنى له في الحياة العامة مثل الكثير من التمرينات الأخرى ؟

إن هذه الأسئلة ليست بأسئلة تافهة . فالواقع أن برنامج المدرسة الذي يترك التلاميذ دون أية أسس موجهة لهم برنامج يدعو إلى الأسف . ولكن ما هي هذه الأسس الموجهة التي تنبثق من الثقافة الجمعية ؟ أمن هذه الأسس التي في متناول أيدينا أن المدرسة تختار هذه الأسس ثم تعمل على أن ينمي التلاميذ الالتزام بها ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، فهل يبلل الفرد إصبعه ويرفعها إلى أعلى ، كما هو الحال عند لاعب الجولف ، لكي يرى في أى اتجاه يسير تيار الاهتمام الاجتماعي في وقت معين ؟ إن هذه الأسئلة ليست أيضاً بالأسئلة التي تتسم بالتفاهة .

والحقيقة هي أن التربية الصالحة للمجتمع الديموقراطي ليست سهلة الصياغة . ولكن ربما كانت هناك نقطة واضحة في هذا الأمر . إن خبرة القيام بتقويم تأملی

تعتبر خبرة موانية على الأقل كأساس لنشيد عليه صروح الرجال الأحرار ، وبالطبع ، يؤمن المؤلفان أن خبرة القيام بتقويم تأملية خبرة موانية بدرجة أكبر ، لأنهما يعتقدان أنه لا توجد الثقافة التي تستطيع أن تقول الكلمة الأخيرة إطلاقاً . وهما يشتركان في الإيمان مع جون ديوى بأن « دعوى أن الذكاء سبيل أفضل من بديلاته كالسلطة ، والتقليد ، والانحراف ، والجهل ، والتعيز ، والشهوة ، ليس بالدعوى المغالى فيها إطلاقاً »^(١) وهما لا يعتقدان ، كما لا يعتقد ديوى ، أن « الذكاء سيسيطر في يوم ما على ماجريات الحوادث » أو أنه يحمل في صلبه ضمناً مدينقذ الإنسان من « التخريب والدمار » . ولكن ، كما أشار ديوى : « إن المشكلة مشكلة اختيار ، والاختيار ، دائماً اختيار من بين أمور بديلة »^(٢) .

فإذا فكرنا قليلاً في التلميذ ، بدلاً من التفكير في القيم التي يود بعض البالغين أن يخلدوها ، فإن الموقف قد يتضح بصورة مخالفة . فالتلاميذ — أولاً وقبل كل شيء — ليسوا خلوا من القيم في أى مرحلة من مراحل خبراتهم المدرسية ؛ إذ أنهم يولدون في أسر تشعر بقيمتهم وتشعر بقيمة بعض الخبرات لهم وللأسرة بأكملها . والأسر جزء من المجتمعات المحلية ، والمجتمعات المحلية جزء من الولايات ، والولايات جزء من الوطن ، والوطن جزء من العالم . فهم تهاجمهم — إن صح هذا التعبير — موجات من قيم كثيرة أثناء مراحل نضجهم . وهم لا ينمون محايدين كحياد الخضراوات أو الآلات . وتتكشف هذه الحقيقة في أية حجرة دراسية تتيح الفرصة للتلاميذ للتعبير عن معتقداتهم .

وتتكشف حقيقة أخرى في مثل هذه المواقف ، ونحن نرى أنها حقيقة هامة ، ألا وهي : أن الشبان الصغار في ثقافتنا الجمعية ينمون المعتقدات (والاعتقاد في هذا المستوى عبارة عن استعداد للعمل) ، كما أنهم ينمون الالتزامات (والالتزام في هذا المستوى عبارة عن التصميم الصريح للقيام بالعمل ، حتى ولو كان الفرد نفسه هو الذى يستمع وحده إلى التعبير عن هذا التصميم) . وغالباً ما ننكر هذه المعتقدات

(١) John Dewey Experience and Nature Chicago , Open Court Publishing Company 345 p. 437.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣٧ .

والالتزامات بعضها بعضاً . وباختصار يعكس التلاميذ صورة لعدم اثبات أو عدم الانسجام مع العالم الذي يعيش فيه الكبار . وليس من قبيل المصادفة أن بعض الطلبة البيض يضايقون الطلبة الذين يحاولون الالتحاق « بمدارسهم » ، وكل هذا باسم الديمقراطية . إن سلوكهم انعكاس لالتزامات معظم البالغين في مجتمعهم - سواء في الشوارع أو الكنائس ، أو الاجتماعات الوطنية أو الملاعب . كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن سلوك التلاميذ الآخرين في نفس تلك المجتمعات يعكس الالتزامات الكريمة المتساعمة للبالغين الآخرين . ولا يشب الشبان الصغار في « فراغ قيمي » ، كما أنهم لا يتركون قيمهم خارج حجرات الدراسة قبل دخولها ، بل يجب عليهم ألا يفعلوا ذلك .

والموقف بهذه الصورة موقف محير . ولا غرو أن الأفراد المصلحين يودون أن يجدوا له حلاً . ولكن ما هو الحل الصحيح ؟ إن غرس الحقيقة في الأفراد في صالح الالتزامات الصحيحة أمر مرفوض في الحال . ولا يستطيع أي فرد ممن يهتمون اهتماماً جدياً بالعملية التربوية أن يعضد هذا الاتجاه . ومع ذلك ألا نستطيع أن نضيف لمسة عاطفية إلى البرنامج المنطقي التأملی حتى نكسب مؤيدين لتلك القيم الإنسانية التي يجب أن يتعمسك بها الأفراد ذوو الكرامة ؟ إنه سؤال ملائم ؛ لأن مستقبل هذم القيم الإنسانية مزعزع في الوقت الحاضر . ومع هذا ، فإن هذا يشير إلى تكوين التزامات غير معقولة . كما أنه يشير ، بالإضافة إلى ذلك ، إلى فصل التفكير عن العمل ، وهذا يتعارض مع موقف المؤلفين . ألا وهو أن التأمل هو في حد ذاته أسلوب من أساليب السلوك .

ولا يتأتى التأمل كما يتأتى عمل الآلة بارداً واضحاً منطقياً ، بل يتأتى كنتيجة لعجز الفرد عن إتمام السلوك (الصريح أو الضمني) الذي يهتم هو بإتمامه . إن العملية التأملية تتم أثناء استمرار خبرته (ويتضمن هذا الشاعر ، والحساسيات الجمالية ، والتوترات الجسمية ، والدوافع التي لا يعبر عنها ، وما شابه ذلك) .

وإنه لمن الخطأ أن نفترض ضرورة إضافة العوامل العاطفية والتوترية إلى نتائج التساؤل التأملی لكي نبحث المفكر على القيام بالسلوك (مع نظرتنا إلى المفكر كشخص يشاهد بتأمل السلوك المتحيز والمشحون عاطفياً) . إن هذه النظرية تبعد التفكير عن الدائرة الإنسانية التي يجب أن يكتسب صفته منها . ولكي نعبر عن هذا

الأمر بصورة فجأة إلى حد ما ، نقول إن وظيفة السلوك التأملى هى العمل على إبعاد العناصر العاطفية أو غير المنطقية من أن تهدم ذلك التفكير . إن تلك العناصر الأخيرة موجودة دائماً ، وهى ليست فى حاجة إلى أن تقدمها كجزء من أجزاء الخبرة .

إن الشيء الذى نحتاج إلى تقديمه للتلاميذ هو أن نلتزم التفكير ذاته ، وأن يكون التزامنا بمعتقداتنا المعقولة خلال عملية التفكير التزاماً متزاناً ولا يمكن أن يتم هذا إلا خلال الخبرة التى تتيح للتفكير عملاً يقوم بأدائه ، أى تتيح له عملاً يؤدي إلى خلاف تقدره فى السلوك فيما يتصل بالتفكير التأملى .

ولا ينبغي أن تشتمل هذه العملية على دفع مصطنع ، وإنما يجب أن تشتمل على فحص رزين مباشر - فى ظل ظروف تربوية - لتلك المعتقدات التى لدى التلاميذ والنتائج التى يترتب على التمسك بها فى حالة ظهور دليل يتحدى صدقها وصحتها ، والنتائج التى تترتب على إعادة تنظيمها بطريقة معقولة . ويحتاج هذا الموقف إلى إخلاص كل من المعلمين والتلاميذ للقيام بهذا الالتزام .

وباختصار

لكى نصل بالنتائج إلى مداها بالنسبة للمدارس والثقافة عامة ، تلك النتائج الخاصة بالسلوك فى ضوء الالتزامات التى عبرنا عنها فى هذا الفصل ، فلن يكون هذا إلا بتكرار ما سبق . وهذا بالتأكيـد غير ضرورى . ولقد خدمنا أهدافاً متعددة على أية حال بصياغتنا الواضحة للالتزامات .

أولاً

من الخطأ - وما يؤدي بنا إلى سوء الفهم - أن نقول إن المعلمين الذين يؤكدون التفكير ليس لهم أنفسهم وجهات نظر فيما يتصل بالمسائل الهامة التى تواجه الجمهور . إن المسئولية المهنية ببساطة تلزم المعلمين بمساعدة النشء ، لكي يحققوا الفهم لهذه المسائل وليتوصلوا إلى النتائج بأنفسهم . وبهذا الصدد ، يتتظر من المعلمين أن ينحازوا إلى جانب المبادأة والدفاع عن الظروف التربوية التى يعتمد عليها فى النهاية نمو التلاميذ نموًا ذا مغزى . وهذا هو الالتزام المهني الأساسى الذى ينبغي أن يوجه المعلمين حتى عندما

يجب عليهم أن يتوقفوا عن إظهار حزبيتهم بوضوح واهتمامهم كمواطنين ، وذلك لرغبتهم في تحرير تلاميذهم من التقييد الظاهر أو الخفي .

ثانياً

إن القول بأن المدارس قد تفيد كوسائل سياسية يؤدي إلى افتراض زائف بأنه يمكنها القيام ، في ظل الديمقراطية ، بأكثر مما في وسعها . وإن تقبل هذا الافتراض سوف يسلب الثقافة المؤسسة الوحيدة التي أنشأتها بحيث لا تلتزم مقدما بتعصيد مصالح خاصة كلما ظهرت المشكلات في المجتمع . إن المدارس تمثل المصلحة الاجتماعية بصورة عامة وحسب ، ونحن نسلم بأن هذا عمل صعب . إن مسئوليتها هي خدمة المجتمع عن طريق خريجيهما الذين تتزايد معرفتهم وحساسيتهم وذكاءهم الناقد .

ثالثاً

إن القول بأن المدارس قد تقوم بعملها السليم إما بالانسحاب من الموقف الاجتماعي ، وإما بالاتباع الدليل الخاضع لتغيراته وصراعاته ، سيحرم الديمقراطية من وسيلة تحقيق الاتزان بين مكوناتها المتعددة ، والديموقراطية في حاجة إلى هذه الوسيلة . وحين تعرقل الظروف الثقافية جهود المدارس في خلق الأحوال التأملية اللازمة لتنمية المواطنين في عالم حر فإنه يصبح من مسئولية رجال المهنة أن يجعلوا هذه الحقيقة معروفة معرفة شائعة وبطرق تخرج بأساليبها التربوية عن جدران حجرات الدراسة . إن لدى المربين عملاً إيجابياً يتحدى ذكاءهم ليقوموا به في الثقافة الديمقراطية ، ولقد حان الوقت ليجدوا أساساً مهنياً يتقاسمونه .

ويراعى افتراضنا بصدد هذا الأساس أن العاطفة الديمقراطية لا تجبر الناس على أن يتشكلوا بشكل واحد بل تحررهم لكي يقوموا بالتزاماتهم ولكي يحققوا مستقبلهم عن طريق تفاعل الاهتمامات المستتيرة . إن القيد الذي يبدو معوقاً لهذا هو أن كلامهم يلتزم بالمرعاة الكاملة لحق كل فرد في أن يقول قوله ، ولكل فكرة أن تفحص . فحسب عادلاً ، هذا القيد يعتبر قيداً بالنسبة لهؤلاء الأفراد الذين لا يهتمون بالحرية ، بل بالسيطرة على الآخرين . إن حق الأفراد والأفكار في أن تسمع في ضوء هذه الشروط يمثل مفهوماً اجتماعياً ، إنه ليس موقفاً فردياً يعارض بطبيعته كل أشكال

التخطيط الاجتماعى . إنه يعارض التقبل غير المعقول لأى خطة خاصة بالانسجام الاجتماعى .

إن الفرد لا يكتسب حرته بالخضوع لأفكار الآخرين الذين يدعون أنها صادقة . إنه يكتسبها حين يتم له ذلك بالعمل فى جهد عام لخلق الوسائل الاجتماعية التى تسهل تقاسم اتجاه تأملى تجاه المشكلات التى يواجهها الجميع . إن هذه الحقيقة هى التى توفر قاعدة لنمو المربين مهنيا . إن هذه الحقيقة هى التى تقضى على المربين بوجوب استخدام ما يعرفونه عن طبيعة التفكير والتعلم لى يحسنوا قدرات التلاميذ على التفكير وينموها لطرق مهنية سليمة ، لى يزدوا احترام التفكير فى ثقافتهم . إنها تخلق أمراً حتمياً لأنها تربط بين أفضل ما نعرفه عن التعلم وبين أفضل ما نعرفه عن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان .

كشاف تحليلي

(١)

Verification	الإثبات
— of factual belief	اثبات الاعتقاد عن الحقائق الواقعة ٨٨ ، ٨٤
— of formal belief	— الاعتقاد الشكلي ١٠١ ، ٩٧ ، ٩٥
— of instrumental values	— القيم الأداتية ١١٢
— of intrinsic values	— القيم بالجوهر ١١٧ ، ١١٦
	— انظر أيضاً : الفروض ، اختبارها

See also Hypotheses, testing of ٧٣ ، ٦٥

Probability	الاحتمال
— of factual knowledge	— المعرفة الحقيقية ٨٥
Daydreams	أحلام اليقظة ٧١ ، ٥٣ ، ٥٠
Examinations	الاختبارات (الامتحانات)
— as aid to reflection	— كمساعد للتأمل ٢٤٨
— objective	— الموضوعية ٢٥٢ ، ٢٢٥
Indeterminism	الاختبارات (غير المتعينة) ٢١٠ ، ١٩٩
Sentiency	الإدراك على (مستوى الحواس) ١٠٠ ، ٥٥ ، ٥٠
Edman, Irwin	إدمان ، اروين ٢٨٢ ، ٣٨

الارتباط العاطفي بالاعتقادات ١١٩ ، ٦٩

Emotional Attachment to beliefs

Aristotle	أرسطو ٢١٣ ، ١٢٩ ، ١٢٤
-----------	-----------------------

الأسباب في مقابل أسانيد الاعتقاد ٦٩

Causes versus grounds for belief

Conceptual Response	١٧٩	الاستجابة للمفهوم ، تعريفها
Inference	١٣٢	الاستدلال
—inductive	١٣٤	— الاستقرائي
—deductive	١٣٢	— الاستنتاجي
—abductive	١٣٧، ١٢٩	— اللماح
Reminiscence	٥٠	استرجاع (الذكرى) ، استعادة
Asch, Solomon E.	١٨٧	آش ، سولومون
Formalism		أصولية
Euclid	١٣٢	إقليدس
Ames, Adelbert	١٨٧	آمس ، أدلبرت
Solus ipse	١٠٠	الآنا وحدية
Nominalism	١٠٣	الانتماء إلى مذهب (أو طائفة)
English	١٦٨، ١٠٤	الإنجليزية (اللغة) تدريس الـ
Solipsism	١٨٧	الانعزال النفسي
Solipsist	١٨٧	المنعزل نفسيا
Oppenheimer, Robert	٣٩	أوبنهايمر ، روبرت
Otto, Max C.	١٥٧، ١٥٦	أوتو ، ماكس ، س
Aikin, Wilfred	٢٧٠	ايضاح انظر: توضيح ايكين ، ويلفريد

(ب)

Barzun, Jacques	٦٤	بارزن ، جاك
Pasteur, Louis	١٤٦	پاستير ، لويس
Bayles, Ernest E.	٢٤٢	بايلس ارنست
Research	١٤٦، ٦٦	البحث

Pragmatism	١٠٣	البرجاسية (مذهب الذرائع)
Broudy, Harry S.	١٦٥	براودي ، هاري . س
Protocol	١١٥، ٨٨	البرتوكول
Brunor, Jerome S.	٢٣١، ١٩٤، ١٧٧	برونر ، جيروم س .
Bestor, Arthur E.	٢٦	بستور ، آرثر ا .
Bugelski B. R.	١٩٥، ١٩٣	بوجلسكي ب . ر .
Bode, Boyd H.	٢٤٥، ٢٢٩، ١٦٠	بود ، بويد ، ه .
Peirce, Charles S.	١٢٩	بيرس ، شارلز
Bacon, Francis	١٢٦	بيكون ، فرانسيس

(ت)

		التبرير : انظر التفسير العقلي
Philosophic Analysis	٩٩، ٨٩	التحليل الفلسفي
Prejudice	١٥٢، ١٢٦، ١٠٩	التحيز (التعصب)
		انظر أيضاً تأثير الثقافة
Experience		التجربة ، الخبرة .
— learning by	٢٣٤، ٩٥، ٩١	التعلم عن طريق
— reconstruction of	٢٣١، ٧١	إعادة بناء
Abstraction		التجريد
		— في تكوين المدركات (المفاهيم)
— in conceptualization	١٨٢، ١٧٤، ١٧٣	
— in science	١٠٧، ٩١	— في العلوم
— fallacy of	١٥٠، ١٤٨	— مغالطة الـ
		التدريب في مقابل التربية
Training versus education	١٨٩، ١٧١، ٧١	

Education		التربية والتعليم
— definition of	٢٠٣، ٢٦	— تعريف
Liberal Education	٢٥، ٢٤	التربية الحرة (العامة)
Moral education	١٨٩	التربية الخلقية
Chase, Stuart	١٤٩	تشيز ، ستیوارت
Recognition	٩٠، ٥٢، ٥١	التعرف
Definition		التعريف
— nature and function of	١٦٥، ٩٦	— طبيعته ووظيفته
— conceptual response	١٨٢، ١٧٩	تعريف الاستجابة للمفهوم
— education	٢٠٤، ٢٦	— التربية والتعليم
— learning	٢٠٤	— التعليم
— thinking	٢٢٩	— التفكير
— reflective Thinking	٦١	— التفكير التأملی
— connotation	١٨١	— التوافق (التضمن)
— propaganda	١٤٨	— الدعاية
— symbol	١٦١	— الرمز
— poetry (Sandburg)	١٦٩	— الشعر
— comprehension	١٦١	— الفهم الشامل
— synthetic Function	٩١، ٨١	— الوظيفة التركيبية
Learning		التعلم
— definition of	٢٠٤	— تعريفه
Material conditional	١٤٧، ١٣٠	التعليق (الشرط)
Russian education	٣١، ٢٩	التعليم الروسی

Generalization	۱۸۲، ۱۱۳، ۹۱	التعمیم (إصدار الأحكام العامة)
— empirical	۱۳۶، ۹۴	— المبنى على الملاحظة
— formal	۹۵	— الشکلی
Rationalization	۷۹، ۷۳	التفسير العقلي (التبریر)
Thinking	۲۲۹	التفكير
— definition of	۲۲۹	— تعريفه
Reflective Thinking	۶۱	التفكير التأملی
— definition of	۶۱	— تعريفه
Sense Thinking	۵۸، ۵۵	التفكير الحسی
Complementarity	۱۹۲	التکميل
— principle of	۲۰۰	— مبدأه
Summarization & outlining	۲۴۹، ۲۴۸	التلخیص وإبراز المعالم
Indoctrination	۲۹۲، ۱۲۹	التلقين (بالمذاهب)
Noncontradiction		عدم التناقض (مبدأ الـ)
Connotation	۱۸۱	التوافق (مبدأ الـ)
Guidance & Counseling	۷۷، ۲۹	التوجيه والإرشاد النفسی
Tolman, E.C.	۲۰۳	تولمان . ا . سی
Tead, Ordway	۲۱۹	تید ، أوردوای

(ت)

Culture		الثقافة
— effect of	١١٩	— اثر ال (تهيئة الظروف للتعلم)
Thorpe, L. P.	١٧٣	ثورب ، ل . ب .
Thorndike, Edward Lee	١٨٠	ثورنديك ، ادوارد لي

(ج)

Judd Charles H.	٢٦٩	جد ، تشارلز ه .
Argumentum		الجدل
— ad hominem	٢٥	— المتمركز حول الإنسان
— ad Misrecordiam	٢٤	— المستدر للعطف
James, William	١٦٣، ١٥٥	جيمس ، وليم

(ح)

Academic Freedom	٢٨١، ٢٧٥، ٢٨٠	الحرية الفكرية
		انظر أيضاً : الرقابة
Artistry		الحرفة
— in judgment	٨٣، ٧٥	— في إصدار الحكم
— in teaching	٢٠١، ١٩٣	— في التدريس
Wisdom	١١٨، ٦٦، ٥٣	الحكمة
Problem solving	١٢٥، ٥٢	حل المشكلات
— components	٦٠	— مقومات
— as teaching method	٢٤٧	— كطريقة للتدريس

(خ)

Experience

الخبرة

— reconstruction of ٢١٢ ، ٧١ — إعادة بنائها

استحالة اختزالها إلى تجارب

— not reducible to experiences ٢٤٠

أنظر أيضا : المعرفة الاستنتاجية

— see also A priori knowledge ١٣٤

Imagination

الخيال

— as aspect of ٦٨ ، ٥٩ ، ٥٠ كجانب من النشاط الفكري —
mental activity

— use of in education ١٧٠ ، ١٦٣ استعماله في التربية والتعليم

(د)

Propaganda

١٨٩ ، ١٤٨

الدعاية

Evidence

الاستدلال

— rules of ٨٣ — قواعد الاستدلال

— scientific ٨٧ — العلمي

— use of in teaching ٢٤٥ ، ١٠٤ استعماله في التعليم —

Motivation

١٩٣ ، ١٠٣

الدفع (عملية الـ)

Democracy

الديمقراطية

— as (a way of coming at life) ٢٩١ أسلوب للنظر إلى الحياة —

— and education ٢٩١ ، ١٧١ ، ٣١ ، ١٩ — والتربية

— as (a way of life) ٢٨٨ ، ٢٨٧ — وطريقة للحياة

— and leadership	٢٧٥ ، ٢٦٢	— والقيادة
- as a sentient toward freedom	٢٨٨ ، ٢٨٥	— عاطفة نحو الحرية
Group Dynamics	٢١٣	ديناميات الجماعة
Dewey, John	١٧٥ ، ١٤٠ ، ٥٣ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٠	ديوى ، جون

(ر)

Ryle, Gilbert	١٧٥	رايل ، جلبرت
Educationist	٢٨	رجل التربية
Russell, Bertrand	٦٤ ، ٤٤	رسل ، برتراند
Russell, David H.	١٧٧	رسل ، دافيد هـ .
Symbol	١٦١ ، ١٥٥ ، ١٠١	الرمز
Rogers Carl R.	٢٠٠ ، ١٩٨	روجرز كارل ر .
Mathematics		الرياضيات
Teaching of	٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ١٠٦	تدريسها
Richards, I. A.	٣٦	رتشاردز ا .
Rikover, H. G.	٢٦	ريكوفر ، هـ . ج

(ز)

Zeno	٢١١	زينو
------	-----	------

(س)

Sandburg, Carl	ساندبرج ، كارل	١٦٩
Stroud, G. B.	ستراود ، ج . ب	٢٥٦
Plagiarism	السرقا ت الأدبية	٢٥٤
Smith, B. Othanel	سميث ، ب . أو ثانيل	١٩٦
Smith, T. V.	سميث ت . ف	٢٨٦
Smith, Philip G.	سميث ، فيليب . ج	٢٦٠
Smith, Mortimer	سميث ، مور تيمر	٢٦

(ش)

Reverie	شرو د اللب (الانسراح)	٥٤،٥٣،٥٠
	أنظر : أحلام اليقظة	
Poetry	الشعر	١٦٩
	تعريفه (تساندبرج)	
Reasonable Doubt	الشك المعقول	١٤٦،٦٩
Denotation	الشمول	
— definition of	— تعريفه	١٦٢
Shaw, G. B.	شو ، ج . ب	٢١٤

(ص)

Mental Health	الصحة النفسية	٢٢٦،٧٦
---------------	---------------	--------

انظر أيضاً : التوجيه والإرشاد

(ض)

Logic necessity

الضرورة المنطقية

(ع)

Insecurity

٢٧٤،٧٢

عدم الأمن

Mind

العقل

— conceptions

١٧٥،١٧١

— مفهومه

Philosophic mindedness

٢٦٥،٢٦١

العقلية الفلسفية

School Community Relations

٢٧٥،٢٧٢

علاقات المدرسة والمجتمع المحلي

Faculty Psychology

علم نفس الملكات (أو القدرات) ٢٥

Science

العلوم

— development of

١١٤،١٠٨،٧٩،٩٦

— تقدمها

— effect of

١٠٥،١٠٤،٩٢

— أثرها

— nature of

١٩٧،١١٠،١٠٨،٧٩،٧٣

— طبيعتها

— teaching of

٢٢٣،١١٩

— تدريسها

Social Studies

العلوم الاجتماعية

— teaching of

٢٣٢،١٦٤

— تدريسها

(ف)

Null Hypothesis

١٤٦

الفرض المنفى

Hypotheses

١٤٦

الفروض

— testing of

١٤٧،١٤٦،٦٥

— اختبارها وخصها

— choosing among

١٤٣،١٤٠

— الاختيار من بينها

—examples of	١٧٥،١١٢،٦٠	— أمثلة منها
—in Problem solving	٦٠	— دورها في حل المشكلات
—nature of	١٤٠،٨١،٧٠	— طبيعتها
—individual differences		— الفروق الفردية
—among teachers	٢٨٤،٢٨٣،٢٨	— بين المدرسين
—in responses	١٦٦	— في الاستجابات
—in thinking	٦١،٥٨،٥٥	— في التفكير
-in classroom and community	٢٧١	— في غرفة الدراسة والمجتمع المحلي
—in student's values	٢٩١	— في القيم عند التلاميذ
—regard for in teaching	٢٥٦	— مراعاة الـ في التدريس
- and range of experience	١٦٥	— ومدى الخبرة
Compartmentalization	٧٧،٧٥،٧٢	فصل المعلومات وعزلها
Wendt, Herbert	١٥٧	فندت ، هيربرت
Comprehension	١٦١	الفهم الشامل

(ق)

Leadership		القيادة
- democratic	٢٧٥،٢٦٢	— الديمقراطية
-contrasting Conceptions	٢٦٦،٢٥٨	— المفاهيم المتناقضة

(ك)

Cantril, Hadley	١٨٧	كانتريل ، هادلي
Counts, George S.	٣٠	كاونتس ، جورج س .

Writing		الكتابة
—writing student	٢٥٢	— كتابة الطلبة
—role of in teaching	٢٥٦	— دورها في التدريس
Keats, John	٢٦	— كيتس ، جون
Kirk, Russel	٢٦	— كيرك ، رسل

(ل)

Lewis, Clarence Irving	١٦٠، ٩٢	لويس ، كلارنس ارفنج
Locke, John	١٧٣	لوك ، جون
Liverant, Shepard	١٩٤	ليفرانت ، شبرد
Lewin, Kurt	٢١٣	ليفين ، كورت
Lynd, Albert	٢٦	ليند ، البرت

(٢)

Martin, Everette Dean	١٦٤	مارتن ، ايفرت دين
Maslow, A.H.	٢٢٦	ماسلوا . هـ
Principles		المبادئ (القوانين)
— of learning	١٩٤، ١٩٣	— التعلم
— of scientific control	٥٨، ٨٢	— الضبط العلمی
— of identity and contradiction	٩٨	— مبدأ الهوية والتناقض
— function of	١١٣	— وظيفتها
Idealism	١١٣	المثالية
Sensa (sense data)	١٠٢، ٨٩	المحسوسات (المواد التي تصل للحواس)

Implication	١٣٢	المضمون
المعرفة الاستنتاجية (المرتكزة على التقدم من المقدمات إلى النتائج)		
A priori Knowledge	١٠١، ٩٧	
المعرفة على مستوى التعرف		
Knowledge at level of recognition		
		انظر : التعرف
Formal Fallacy	١٤٥، ١٣٢	المغالطة الأصولية
Logic	١٢٤، ٩٧	المنطق ، طبيعته
Common Sense	١٨١، ٦٧	المنطق البديهي السليم
Objectivity		الموضوعية
In science	١٢٦، ١١٨، ٧٣	— في العلوم
Metaphysics	١٥٢، ١٢٥، ١٠٢	الميتافيزيقا
Murphy, Gardner	٢٥	ميرفي ، جاردنر
Miller, Richard I.	٣٦	ميلر ، ريتشارد ا .

(ن)

Nagel Ernest	٦٥	نجل ، ارنست
Relativism	١٠٣	النسبية
Maturation	٢٠١	النضج
Epistemology		نظرية المعرفة
— theories of	٩٩، ٥١	— الاتجاهات في
— and educations	١٠٦، ١٠٣	— والتربية
— nature of	٨٩، ٥١	— طبيعة

Criticism		النقد
— of education	١٥٢ ، ٣٥ ، ٢١	— نقد التربية والتعليم
Growth		النمو
— as aim of education	٨٠ ، ٧٩	— كهدف للتربية
— of Knowledge	٤٠ ، ٣٨	— للمعرفة
— of meaning	١٦٠ ، ١٥٥	— المعنى
— of personality	٧٩ ، ٧٧	— الشخصية
— of the schools	٤٤ ، ٣٤	— المدارس

(هـ)

Hart, Joseph K.	٢٠٥	هارت ، جوزيف ك .
Hutchins, Robert M.	٢٥ ، ٢٤	هشتنر ، روبرت م
Aim of Education	٢١ ، ١٩	هدف التربية
		انظر الثقافة ، وتوجيه التربية والتعليم
Hullfish, H. Gordon	٢٨٧ ، ١٧٩ ، ٣٢	هلفش ، هـ . جوردن
Hallucination	٧٤ ، ٧٢	الهلوسة
Identity	١٠٠ ، ٩٨	الهوية (مبدأ ال —)

(و)

Realism	١٠٢	الواقعية
Watson, John B.	١٩٢ ، ٩٠	وطسن ، جون ب
Synthetic Function	٩١	الوظيفة التركيبية
Illusion	٧٤ ، ٧٢	الوهم ، خداع (الحواس)
Walter, William G.	٥٥	وولتر ، وليم ج .
Weiss, Albert P.	١٥٩	ويس ، ألبرت . ب

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكاين للطباعة والنشر

القاهرة - نيويورك

مارس سنة ١٩٦٣



